AL-ITHNAINYA
الاثنينية
منتدى أدبي ثقافي أسس بجدة عام ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م

الأعمال الكاملة

للأديب الأستاذ

عبد الله عبد الرحمن الجفري

الجزء الثاني

الروايات

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الاثنينية
(٣٢)

الأعمال الكاملة

للأديب الأستاذ
عبدالله عبدالرحمن الجفري

الجزء الثاني

الروايات

الناشر
عبدالمقصود محمد سعيد خوجه
جدة

ⓒ عبدالمقصود خوجه، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجفري، عبد الله عبد الرحمن

الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الله عبد الرحمن الجفري ./ عبد الله عبد الرحمن الجفري .- جدة ١٤٢٦هـ

(٦ مج ٤٢٢٠ ص) الجزء الثاني ٧٤٨ ص ؛ ١٧×٢٤سم (كتاب الاثنينية ٣٢)

ردمك ٠-٨٢٧-٤٧-٩٩٦٠ (مجموعة)

٧-٨٢٩-٤٧-٩٩٦٠ (ج٢)

١ - الأدب العربي - مجموعات ٢ - الجفري، عبد الله عبد الرحمن

٣- الأدباء السعوديون أ- العنوان

ديوي ٨١٠,٩٥٣١ ١٤٢٦/٢٣٨١

رقم الإيداع : ١٤٢٦/٢٣٨١

ردمك : ٠-٨٢٧-٤٧-٩٩٦٠ (مجموعة)

٧-٨٢٩-٤٧-٩٩٦٠ (ج٢)

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

صدرت هذه الأعمال بمناسبة "مكة المكرمة" عاصمة الثقافة الإسلامية

حقوق الطبع محفوظة

الناشر

عبد المقصود محمد سعيد خوجه

جدة

فهرس المحتويات

الروايات ....

جزء من حلم ....

الفصل الأول ....

الفصل الثاني ....

الفصل الثالث ....

الفصل الرابع ....

الفصل الخامس ....

الفصل السادس ....

زمن يليق بنا ....

المقدمة ....

الميلاد ....

الفارس الأول ....

بطن «أَلْبِسَّه»! ....

الطُّهار ....

حب. . عدم الانحياز! ....

بعد منتصف الليل ....

الشيطان. . يلوح! ....

التخيُّل ....
كوارث في ثلاجة ....
الشكل الأول! ....
العصفور المراهق! ....
دموع فارس! ....
عروس الولد! ....
«السندويتش» الثاني! ....
زوج شقي! ....
الطفل. . . الحارس! ....
الرحلة ....
خصام الحب! ....
فارس. . «يرطن»! ....
جيل إلكتروني! ....
شعرها الطويل ....
من أين جئت؟! ....
«فارس» في صاروخ!؟ ....
أمومة الأنابيب! ....
شنب الست! ....
الدخول إلى الملل! ....
الشرخ! ....
خوف الحب! ....
المفاجأة ....
شيء آخر! ....
بداية الغرابة! ....
الصغار. . . يسبقون الزمن! ....

إتفاق مثمر! ....
فارس. . اقتصادي! ....
أنا أحيا. . بك! ....
بعاد كنتم. . .!؟ ....
عريس الشهادة ....
الليل. . يصحو! ....
ما هي القضية؟! ....
إذا كبر إبنك. . .! ....
عريس «الغفلة»! ....
السؤال الصعب!! ....
كان جنوناً!! ....
العدل. . فقط!! ....
حصاد العام الأول ....
الصمت. . قبل العاصفة ....
العاصفة المجنونة ....
مطر السأم ....
الأبواب المقفلة ....
أسئلة الأمومة ....
الحب الأول ....
طلوع البشارة ....
رأسها في الجدار ....
المملك. . في السماء ....
مرحلة العمر الأخرى ....
نظرة أخرى. . للغد ....
رجولة فارس ....

الفرار من الجحيم ....
عنوان الزمن ....

فقـط / قراءة نفسية في أعماق امرأة متميزة ....

الإهداء ....
فقط . . كفُّها ....
فقط . . . كفُّها! ....
فقط . . . إحساسها! ....
فقط . . . جنونها! ....
فقط . . . وجودها! ....
فقط . . . نفسها! ....
فقط . . . عيناها ....
فقط . . . غيرتها! ....
فقط . . . حريتها! ....
فقط . . . قضيتها! ....
فقط . . . قسوتها ....
فقط . . . حبها! ....
فقط . . . تعوّدها! ....
فقط . . . ليلنا! ....
فقط . . . الموت! ....
فهرس المحتويات ....

الـــروايات

جزء من حلم

الفصل الأول

ـ ١ ـ

التقيت بك رؤية.. وتجدد اللقاء هنا في خيالي وتصوري.. كتبت لك، لأكتب عنك.

اليوم أنا أكتب لك.. لم أجرؤ على قول كل ما قلته في نفسي عنك، فأنت مكابر وقد تغضب مني وتثور.. وأنا لا أريد أن يمر يوم يعذبني فيه إحساسي أنك غاضب.

كان أجمل يوم عشته.. ساعات قضيتها معك، عوَّضتني سعادة تمنيتها، ومسحت أحزاناً استمرأت العيش معي.. ولكنك عدت كعادتك وأدخلتني إلى دائرة الحيرة والقلق من جديد..

ومرت أيام ثقيلة انتظرتك فيها تسأل عني، ولم تفعل.. وأفكر فيك وأعيش في دوامة من القلق عليك:

- ترى ماذا أفعل؟!

وأسألها عنك ـ نفسي ـ ولا أجد جواباً شافياً.

وتبادرني معاتباً حتى لا أعاتبك، وتحاصرني اتهاماتك.. وأجد نفسي

معتذرة، وأجدني أبرر لك غيابي وأنت من تعمّد الغياب!!

وأضحك في نفسي.. ولو كنت أمامي لقبّلت جبينك وأخذتك في صدري.. تصرفك هذا يصور لي أني أمام طفل شقي.. يحاول الاعتذار بالتهرب وإلقاء اللوم على الآخرين!

اشتقت إليك منذ اللحظة التي قلت لك فيها: وداعاً.

راقبتك من النافذة وأنت تمضي، ولولا الآخرون لناديتك وطلبت منك أن تأخذني معك.. أردت أن أبقى معك وقتاً أطول.. أن أسمعك وأقول لك الكثير الكثير.. وفي المساء عندما طلبت منك أن نخرج معاً توقعت أن ترحب بهذا، ولكنك لم تفعل.. كنت منشغلاً بأوراقك التي جلبتها معك من عملك!

* * *

كيف أصف لك يوم الجمعة؟!

هنا مشينا.. هنا وقفنا، وعلى هذه الطاولة شربت «شاهيك».

وعندما أحاول التشاغل عن التفكير فيك.. فجأة تقول أختي الصغرى: ليت «عادل» موجود!

خرجنا في مساء الجمعة.. أتدري من الذي دعانا؟ رجل اسمه «عادل».. صدفة غريبة أليس كذلك؟

هو كبير في السن، ولطيف.. تعشينا واستمتعنا بالموسيقى الهادئة أنا وأختي الصغرى وأخي.

أنت لا تبارح خيالي لحظة.. ماذا أحكي لك، وماذا أصف؟!

كأن رواية الأشواق لا تنتهي..

لقد تحقق جزء من حلم، وأسعدني ما تحقق، وتمنيت لو وقع كل ما تخيلت.. هي هذه النفس التي لا تقنع.

وأسأل نفسي: هل كل ما أقوله هنا يهمك؟!

هل يسعدك أن تكون ما أنت في نفسي... لأني أنا، أم لأنك أنت؟!

تحيّرني أنت.. وكثير من تصرفاتك يحتاج إلى تفسير.

دخلت حياتي بعنف، وقلتها: «أحبك» بسرعة..

كأنك غاف وأفقت فجأة.. صدقتك، لماذا؟

ألأني أحسست بالصدق فيها عندما قلتها.. أم لأنني أردت هذا الحب وتمنيته..

أم كنت وسيلتي للهروب من حالة عذاب عشتها سنوات طويلة؟!

ربما لأني في ماضي حياتي تصورت أنك الرجل الذي أحب، وسنلتقي ونعيش كل ماحلمته.

قد يكون لهذه الأسباب مجتمعة.

وأنت.. لماذا قلتها؟!

هل وقعت في نزوة الاستجابة لخيال في رأسك.. وليس لحقيقة ما أعنيه أنا في الواقع؟

ما استطعت أنا أن أوازي أحلامك.. لأن الحلم دائماً غير الحقيقة!

هل تحبني أنا.. هل عرفتني حقاً.. وهل استحق الحب.. أم أنك لم تسأل هذا السؤال أبداً؟!

– قلتها: «أحبك». . حين أحسست بهذا الحب، وامتنعت عن قولها هكذا أيضاً!

سلوكك دائماً غريب. . تختفي أحياناً لأيام أو أسابيع قد تكون مشغولاً، ودائماً هذه حجتك!

وتغمرني بعطف وميل واضح أياماً أخرى. أنت لا تدع لي فرصة لإقامة علاقة حميمة معك. . علاقة إيجابية بتكرار اللقاء، وازدياد التقارب. . تريد نفسك كما هي، وتريدني في موقعي هذا بين بين.

تقول لي أحياناً ـ وأصر على أحياناً هذه تحب أن تقول لي ما يسرني ويسعدني. . ربما لتسعدني فقط، وهكذا أشعر، وقد يكون ذلك عملية تعويض عن نقص في مشاعرك نحوي تحسه، ورغم هذا تريدني!

هذه نقطة قد لا أستطيع شرحها جيّداً. . إنه حدس لا أعرف كيف أفسره!

كثيراً ما أشعر أنك غير منسجم مع نفسك، وأحياناً أشعر بالعكس!

أجدك إنساناً متمحوراً حول نفسك. . لا تفكر إلا في كفاية حاجتك عندما تقاطعني، ولا تبدي اهتماماً ولا حماساً لفكرة أن يساعد كل منا الآخر.

لماذا كل هذا القلق في كلماتك؟!

ألمسه وأسألك ولا تجيب، ونبرات الحزن الذي يسكنك ويلوح دائماً. . أيضاً لا تفسير!

وذاك التذبذب في عواطفك؟!

أحبك قريباً. . حتى إني لم أعرف إنساناً كما أعرفك.

وتبتعد، وتتصرف بطريقة تحيرني، وأعود لأفكر من جديد، وأعيد حساباتي.. ولا أعرفها، ولا أعرفك!!

* * *

أنت المخلوق الرقيق الحساس المتدفق حيوية.. الممتلئ حباً وحناناً وتفهماً وإدراكاً.. تكون قاسياً وعنيداً وعصبياً إلى حد لا يطاق؟!

هناك شيء مهم: أنت تكذب!!

ربما مثل ذلك البطل في قصة إحسان عبد القدوس الذي يتجمل بالكذب ولا يقصد الخداع أو الإساءة لأحد!

ولكن.. كل ما فيك جميل، حتى غرابتك وغربتك، فبماذا تريد أن تتجمل؟! تطالبني أن نكون أصدقاء؟!

أنا أرجو هذا، وأريد أن ألجأ إليك في أوقات عصيبة، واحتاجك ولا أجدك وقتها.

ولا أدري أي حق لي في محاسبتك أو لومك؟!

ولا أدري.. هل أستطيع أن أبتعد عنك؟!

أريد أن لا أتلهف عليك هكذا.. أريد أن أعود نفسي على غيابك.. لا أريد أن أنتظرك.. لا أريد أن يظل قلبي يسيطر على عقلي وتصرفاتي ويلغي كل شيء.

أنا أحتاج إليك.. أنا لا أستغني عنك.. وقد تعوَّدت عليك، وأدمنت سماع صوتك، وأحب أن أظل في قلبك.

وهذا ما أتمناه وأخافه!

هل أصدق حدسي وإحساسي.. أم المنطق والظواهر والتصرفات؟!

أرجوك.. لا تأخذك الثورة على ما جاء في بوحي هذا، دون التعمق فيه والإجابة عن ما جاء في سطوري.

أريدك أن تسأل نفسك مثلما سألت نفسي رداً على كل شيء، وإن كان قد جاء فيها ما يغضبك، فلا تغضب مني.

أفكر فيك كثيراً، وأخافك أيضاً.

أخاف يوماً ترحل فيه.. أخاف من موتي عندك!

وإن كان حقاً ما كان: نزوة أو وهماً.. فلا تدعني، ولنكن أصدقاء!

(على فكرة.. أنا صديقة وفية جداً وصريحة جداً ومريحة جداً.. هكذا يقولون، وإن كنت لا أصدقهم في الأولى وهذا لا يحتاج إلى تفسير)!

* * *

الآن.. بعد أن استعدت هدوئي، و بعد أن عانق سمعي صوتك.. انتهى ما بي من شقاء، وبقيت أنت لي هناء ورضاء.

حالتي هذه البارحة واليوم.. أرجو أن تدوم.. حتى اعتذارك اليوم مرّ بسلام، ولم يثر في نفسي أي إزعاج أو غضب.

لا بد أن أقبل ما تريد.. وأن أقنع بما تعطي.. فأنت لست لي ولا لغيري..

لا أحاسبك على وقت لن تعطيه لي.. لأنه أساساً ليس لك، وإنما هو وقت لطموحك، ولجنونك، ولا حق لي أن أقتطع لي وقتاً خاصاً بي وحدي في حياتك.

محكوم أنت دائماً بالحياة التي تبنيها وتبنيك.. بالطموح.. بهذا العناد

فيك. . على أن تستمر واقفاً وأكثر صهيلاً. . حتى وأنت تموت!

رغم هذا كله أنت بيتي وشغلي الشاغل، وحياتي. . أنت محورها وأملها. . أريدك لي، وأطمع في الزمن الذي يوحدنا، وحديث بيننا يطول.

هذا لن يكون. . ولأنه لن يكون، فلن يتغير شيء.

ستبقى أنت هنا بين الضلوع.

خاطر لا يهدأ، وأحلام تتجدد، وأمان لا أعذب ولا أحلى. .

قد أموت. . وقد تباعد بيننا الأيام والظروف، وتظل ذكرى جميلة لأيام جميلة. . وعمر أكبر من الزمان، وحضور أقوى من أي مكان!

إن كنت أنا أو غيري من قبل أو بعد لم نكن ما تمنيت وحلمت وتصورت ـ تلك الأنثى التي لم توجد ـ أو أنها وجدت ولم تلتق بها بعد. . فأنت هذا الرجل الذي طالما حلمت به وأردته.

في أحلامي القديمة تخيلتك تسعدني وكذلك تشقيني.

تكونت في أعماقي قديماً فكرة: أن الرجل الفنان الطموح الذي دائماً في حالة عشق مستمر، قد يسعد الأنثى التي يحب سعادة مضاعفة آلاف المرات عن أي رجل عادي. . وقد يعذبها عدم استقرار عواطفه وتشتته وغرقه في عوالم لا توجد. عذاب مضاعف أيضاً آلاف المرات.

تصورت أني سأفهمك وسأحبك وسنبني حياة واحدة معاً!

أتمنى أن تظل في حياتي ظلاً، وسحابة تحمل الغيث لتروي حياتي ولن تنتهي أمانيّ فيك!

أتمنى أن لا تعود إلى قراءة هذه السطور. . فهي لا تقرأ إلا مرة

واحدة.. وأية أنثى لن تكتبها إلا مرة واحدة.. ولرجل واحد فقط!!

❊ ❊ ❊

ـ ٢ ـ

منذ متى وأنا أحاول أن أتحدث معك.. أن أستجمع أفكاري، وأصوغها كلمات على الورق؟!

دائماً أعجز عن التعبير.. المشكلة تكمن في هذا الصراع المستمر بين ما أحس به نحوك وبين ما يدور في عقلي من أفكار تقلقني.. تخيفني. مشاعر يرفضها عقلي ويستنكرها. حاولت أن أهرب، ولكن حاجتي إليك ملحّة.. إحساسي بك يفوق كل عذاب وحيرة. هل أنا أنانية.. أم تراني المعذبة؟!

هناك موانع كبيرة.. سدود تعلو كلما أمعنت في التفكير.

أنت. ماذا أريد منك؟!

أريدك صوتاً يسكن سمعي ليل نهار، ولكن.. أنت ماذا تريد؟!

أريد ألاّ يغيب وجهك عن عيني، فهل تستطيع؟!

أريدك حلماً متصلاً.. أملاً يتجدد، ومشاعر نشوى بيننا لا تفيق.

قد أسمعك كل يوم إذا أنا أردت، ولكن دون أن ألاحقك وأحاصرك. أود أن تحبني وتريدني.

أريدك أن تسأل عني متى شئت، وأن تجدني وقت تحتاجني، وأن أراك وقتما أشاء.

هذا محال!.. لك حياتك ومسؤولياتك، فهل إذا كان لي أن أراك مرة كل سنة.. لماذا لا أحدد أنا متى تكون تلك الرؤية؟!

أخشى أن يضيع كل شيء مني، حتى هذا القليل..

أخشى أن ينتهي إحساسك بي يوماً، وهذا لا بد سيكون!

أشتاق إليك.. وشوقي يصل بي إلى حافة الصبر والإرادة.. يجرف أمامه كل شيء.. كل شيء.

أسترجع صوتك في الذكرى.. في الأصداء العائدة إليَّ من الأمس.. من اللحظة التي تكمن في وجداني ونبضي، وقد أسرح.. ولكن في لا شيء.

أتدري كيف أكون.. بدونك؟!

كأنني تلك التي تركض مسافة طويلة.. طويلة، ويأتيني صوتك.. يقول لي:

هنا قفي.. هنا في نبرات صوتي اهدئي.. ارتاحي.

أرتاح، وأسعد، وأنسى ما كنت أريد أن أقول.

أتدري؟.. لقد اكتشفت أني لا أعرف كيف أبدأ حديثاً معك، أو أقيم حواراً.. لأنني قبل أن أحادثك.. أجد عقلي.. يسوط قلبي بجملة لا تتوقف: «لا حق لك بهذا»!

أرجوك صدقني، فأنا لا أبالغ.. أفكر فيما أفعله، يحدث هذا رغماً عني.. وبرغم كل ما لك عندي.

أسمع صوتك، وفي نفس اللحظة أسمع صوتها «هي».. نحن

صديقتان. وخصمان في حبنا لك.

قالت لي الكثير عنك، أسمعتني كل ما قلت لها من كلمات حب.. كلماتك تحدث القشعريرة والدفء.. كلماتك لا تُنسى!

لو قلت لي كلمة حلوة رقيقة.. رغماً عني، يشرد خاطري، وأنبش في ذاكرتي:

- هل قلت هذه الكلمة لواحدة غيري قبلي، أو ستقولها لواحدة تأتي بعدي؟!

هنا.. قد يضيع إحساسي بما تقول.

أريد أن أقول لك الكثير.. ملايين الكلمات أحبسها داخلي.. أخشى أن أتفوه بها.

لا أريد لنفسي أن أكون غير مرغوبة. لا أحب أن أفرض مشاعري ورغباتي على الآخرين.. خصوصاً أنت.

لا تقل إن هذا مستحيل.. فقد تكلمني مجاملة مرة، وهذا أحسه فوراً.

قد تكون مشتاقاً اليّ جداً، ولكن تمر عليك أيام أكون مجرد خاطر تبسم له شفتاك.

قد تحتاجني في لحظة.. حاجة ملحّة، وقد تسأل نفسك: ماذا أريد منها؟!

قد تضعني في مجال مقارنة مع أخريات، وهذا ما تفعله بينك وبين نفسك.. أكيد.

أحياناً أحس أنك تفرض على نفسك واجبات، أو لنقل تشعر أنك ملزم

بكل «أنثى» أحبتك.. تأسرك مشاعر الآخرين نحوك.

هل تحب أن تبدو دائماً في صورة الرجل «الجنتلمان». الرقيق، المجامل، المتفهم.. حتى على حساب نفسك، أم تريد أن يقال عنك «دون جوان»؟!

اسمح لي أن أكون صريحة معك، وقد أكون مخطئة في تصوراتي:

علاقتك ـ مثلاً ـ لا أعرف كيف أفسرها.. أنا مقتنعة، بل مؤمنة.. بأنك شخص غير مخادع على الإطلاق. ومن خلال ما سمعته «منها» وما عرفته عنك.. أتصور أنك تعاني من الشعور بالذنب «تجاهها».. وهذا شيء مختلف عن الحب.

أرجوك لا تغضب مني، وأنا فيما قلت لا أرمي إلى شيء.. غير أني أحاول شرح ما لم يتضح.

شيء آخر أيضاً: أنك لا تملك سراً. كل شيء ممكن أن يقال.. هناك حادثة معينة أتصورها:

- «أنت لا تفعل ذلك لتؤذي أحداً، وإنما تفيض بحسن النية».

أشعر أحياناً أنك مخلوق خيالي، أثيري، حالم.. وفجأة تقول أو تتصرف بما يوحي أن إحساسي خاطئ وأنك واقعي جداً!

فيك تناقض الفنان.. إنك الباحث دائماً عن المثل العليا في الحب، في الجمال، في الكون، وتريد تحقيق كل هذا حولك.. ومن أجل ذلك أنت لا تستقر أبداً.. كالرحالة لا يطيب لك المقام في زمن واحد، ومكان واحد!

رجل كامل الرجولة تحمل قلب طفل.. ضحكة طفل.. يهمك رأي

الآخرين فيك.. تحب أن تكون مثار اهتمام الذين حولك. أنت رجل طيب، وعظيم أيضاً، وعنيد!

أنا أريد أن أنام الآن، وسنلتقي في الغد.

* * *

شيء رائع حدث اليوم.. صحوت على صوتك يقول: صباح الفل.

إحساس جميل، وصباح أجمل.. هل أستطيع النوم مرة أخرى؟!

كنت نشطة جداً، تجولت في أنحاء الدار، أشعلت سيجارة، أحسست برعشة من نسمة باردة، أحكمت «الروب» حولي جيداً. أمي ما زالت نائمة.

عدت لغرفتي، أدرت «البيك آب» على أغنية أحبها، تخيل.. إنني أسمعك وأسمع هذه الموسيقى الرائعة.. موسيقى «قصة حب»!

غفوت.. سعيدة. سعيدة أنا جداً، وأشكرك على ما منحت.

في نومي أراك رقيقاً حنوناً، ولكن دائماً تأخذك خطواتك بعيداً عني، لماذا.. وفي كل يوم؟!

أتذكر لقاءنا الأول يوم أن أقبلت عليك. نعم أنا التي أقبلت!

أردت لحظتها أن أؤكد لنفسي أنه من غير الممكن أن ألامس رجلاً سواك!

لأني كنت أرضى حتى تخيل حدوث هذا.. إلا أنت، تخيلتك، وأردت أن أقارن بين إحساس شعرته بمجرد التخيل، وبين ما سأشعر به فعلاً.

أعذرني على هذه الصراحة!

وبصراحة أيضاً.. لم يكن كما توقعت ذلك الإقبال منك، كان ينقصه

الإحساس.. فكأنك لم تتوقع أن تكون كذلك.

كنت نادمة لأني تصرفت بحماقة.. ليس لأنه لا يحق لي هذا من أول لقاء، ولكن لأنني كنت أفكر، وكنت أرتقب!

* * *

ـ ٣ ـ

عندما كنت في الثالثة عشرة.. أحببت رجلاً لم أعرفه جيداً. وكنت أرى فيه ملامح من «أب» ما عرفته من الداخل أبداً، ولكن معرفتي له كانت لا تتعدى قسمات وجهه، وما اهتم بي أيضاً.. رغم أنه كان يحرص أن «يدلعني» كلما التقاني!

تقربت من ذلك الرجل.. كان أقصى أحلامي أن يحبني.. أن يهتم بي.. أن يضمني ويقبّلني.

وتزوجته.. كنت أشعر معه أني ضعيفة.. أني طفلة، وعندما تأكدت من حبه لي.. وشعرت ذلك من لمسة يده، من عينيه، من كل ما يفعل ويقول.. ذهب كل ما كان له عندي. أصبحت أعامله بطريقة غريبة.. أنكرت نفسي، فقد أصبحت متسلطة ومتمردة عليه.

أنا لا أكرهه، وكذلك لا أحبه!

وانتهى ذلك الحب بالنسبة لي.. حققت أقصى أحلامي، ورميت ذلك الرجل في أتعس أحلامه!

بقي إلى وقت طويل.. معذباً بحبي، ومشدوداً إلى ذكرياته معي!

ومر بحياتي رجل آخر ـ نقيضه في كل شيء ـ كان مرحاً، لطيفاً، وطموحاً، ومن خلاله أحببت الحياة.

كنا نقرأ معاً، نسمع الأغاني معاً، نتحدث في الهاتف ساعات، نخرج لنزهة.

كانت له محاولات فنية في ذلك الوقت.. يعزف على العود، ويغني، وأسمعه وانتقده.

قضينا أوقاتاً جميلة معاً.

ولكن انتهى كل ما بيننا.. عندما حاول أن يأخذ فقط، دون أن يعطي حتى الخُلُق!!

أصر على أن يسمع ردي، وفوراً.

ولكني طلبت أن لا نلتقي بضعة أيام.. أعرف فيها ما أشعر به نحوه، وأين منزلته في نفسي؟!

تصور.. إن مجرد «التفكير» هو الدليل على أني لا أحبه!!

ذهب.. ولم أره منذ سنوات طويلة..

وكان «نزار»، هو عذابي.. لا أدري كيف وصلت علاقتي به إلى هذا الحد!.. أحببته وتألمت كثيراً... خلت أنني لا أقدر على الفكاك منه، أو الخلاص من أسر حبه!

الآن شعرت بأني حرة طليقة.. وارتحت.

وأنت؟!

ماذا تفعل بي، وماذا سأفعل أنا؟!

أنا سعيدة بك وقانعة. . ولكن لا أدري هل ستستمر قناعتي هذه؟!

لقد عشت طويلاً هكذا. . عشت عمري وأعمار آخرين، وأتمنى أن أعود طفلة لألعب كما أرى الأطفال الآن يفعلون!

أريد أن تحوطني ذراعا أمي، كما تفعل أي «جدّة» مع أحفادها. .

أريد للسنين أن تتراجع، لأعيش مع أبي. . أحادثه، أضمه، أقبله، وتجمعنا مائدة طعام واحدة كما يفعل الآباء والأبناء دوماً!

كم كنت أتمنى أن تتعدى شفتاي جبين أبي ويده إلى وجنته. . فأسكن لثوان فوق صدره!

كنت أخاف الناس ولا أخالطهم. . حتى أهلي، وأمي كنت أخافها وأكرهها. . فقد كانت قاسية جداً علي، واعتبرتني دائماً همها الكبير، وحملها الثقيل، والقيد الذي ربطها بهذا البلد وتلك الحياة الأليمة التي عاشتها.

في تلك الأيام البعيدة أحببتك من خلال ما عرفته عنك. . . هكذا يخيل لي الآن!

هل يكون الزمن كريماً معي إلى هذا الحد، ولا أخاف؟!

لقد كان يومي عادياً. . حتى سمعت صوتك في المساء:

- «وحشتيني»!!

عندها. . صار كل شيء جميلاً.

في داخلي أشرقت ألف شمس. . وأضاء ألف قمر!

لماذا يكون الفرح حاداً كشفرة سكين. . لماذا يحمل أحياناً ملامح من حزن دفين؟!

كنت سعيدة إلى حد أني كدت أبكي.

قرأت اليوم «لأمل دنقل»:

- كيف ضعفت في نهاية المطاف! وارتحت في عينيك من عبئي؟

وكل شيء حولنا يملي علينا أن نخاف»؟!

هل حكيت لك عن «الحمام» الذي يسكن معنا بيتنا؟!

في المطبخ نافذة.. بنى الحمام عشاً له على حافتها، وبين فترة وأخرى أحببت حمامة ترقد بوداعة على بيضة.. أراقبها طويلاً وانتظر معها «الفرخ» وأفرح بطفولية عندما تفقس البيضة وتكون هذه المخلوقات الرقيقة شاغلي.

أنا أحب الطيور.. أعشقها، لو تألفني ولا تخشاني. أكره فكرة حبسها داخل قفص.. أحب أن أراها طليقة، محلقة في السماء، أتمنى لو تأتمنني على حريتها فتأوي إليّ كلما شعرت بحاجة إلى الراحة، أو كلما جاءت لتأكل «الحَبَّ» من على راحة يدي، أو لتجد على نافذتي كوباً صغيراً به ماء تحتسيه.

أريد أن تأنس وتطمئن وتدعني ألمس جسمها الضعيف، وأتحسس ريشها الملون الجميل.

حلمت بك ذات مساء.. رأيت فيما يرى النائم: أنني أقف في شرفة أراقب تلك الحديقة الشهيرة «الهايد بارك» كانت بدون زائرين، موحشة. نظرت حولي.. كان كل شيء ساكناً، وكنت تشعر بالوحدة..

الوقت شتاء، والأشجار عارية، وقد علت أغصانها ندف من الثلج.

خيل لي أنني أرى أذرعاً تمتد إلى السماء في ابتهال حار. . أو أنها أيدي غرقى يصارعون الموت ويطلبون الحياة. . فجأة بكت السماء.

دخلت من الشرفة إلى غرفتي خوفاً من البلل. . كان المكان دافئاً. تناولت كوب شاي. وأحسست بحرارته تبعث في كفي الدفء. جلست على المقعد. حملقت في السقف. . ولما هاجمتني خواطري تشاغلت عنها بتصفح جريدة. ترددت في الغرفة أصداء صوت أحبه وأعرفه: صوتك، ضحكتك، وغفوت.

- «هل حدث وأن حلمت أنك تنام»؟!

صحوت على يدك تعبث بشعري، وفرحت بك، وكأنك كنت مسافراً، أو كأن بيننا قطيعة. لست أدري بالتحديد. أحطتني بذراعك، ولامست شفتاك جبيني، وجلسنا على الأرض معاً!

كنت تكلمني وأنا أتوسد ذراعك. قلت:

ـ «اشتقت إليك. . لن أتركك مرة أخرى أبداً».

بيدك اللطيفة كنت تمسح على رأسي وظهري، وأنا أزداد التصاقاً بك. وصحوت. . يا لتعاستي!

كنت أتمنى لو لم يزعجني شيء. . لو لم يوقظني صوت، ولكن لا سبيل إلى النوم مرة أخرى، وإن نمت كيف سأضمن عودة هذا الحلم الجميل مرة أخرى؟!

هل تذكرتني في هذه الليلة. . هل نادت روحك روحي فعلاً، أم أني أتوهم؟!

هل تسمعني الآن: «أحبك».. هل وصلتك، وأحست بها؟!

لا أدري.. ربما أخذك البحر إلى مكان آخر، ربما نادت روحك مخلوقاً آخر غيري.

هذه الليلة.. أنا أحسد السماء التي ظللتك، والقمر الذي رآك، والبحر الذي كان على مسافة ليست بعيدة عنك وتهادت فوق مياهه نظراتك!

أريد أن أراك، فقد اشتقت إليك.. أحلم بيوم كامل أقضيه معك.. بكل ثوانيه، وأحبك وأحب هذا الحب، وأدعو أن يدوم ولا ينتهي أبداً.

ولكن..!!

* * *

كل وقت يمر.. تجدني أفكر فيك.

وابتسم.. عندما أتخيل أنك تفكر فيّ. ترى.. هل تفكر فيّ حقاً، مثلما تقول لي أحياناً، فأشعر أنك ترضي اندفاعاتي إليك، مثل طفل تلهيه بقطعة حلوى؟!

لا أحد يفكر فيمن يحب.. مثلي.. لا.. أنا لا أحبك، بل أنا أحياك.. منك يتشكل دمي ونبضي.

فهل تفكر فيّ بهذا «العنف»؟!

لنفترض.. فماذا تقول لنفسك عني حينما تفكر؟!

المرأة المندفعة نحو الرجل ترضي غروره.. لكنها تفقد اشتياقه إليها وحرارة لقائه بها.

الرجل يحب تلك الأنثى التي تحاول كسر سيطرة الرجل على وجدانها. أعرف أنها لا تستطيع بمجرد أن يستقر رجل ما في داخل قلبها.. لكنها تستطيع أن تكابر بعض الوقت.. أن تناور بكل ما تملكه من أسلحة أنوثتها، ثم.. ترفع الراية البيضاء أمام الرجل الذي تحب، وتنضوي في صدره، وتمتزج بكل حبة عرق تتفصد من هذا الصدر!

أفرح.. عندما أجد من يعرفك ليتحدث عنك.. استدرجهم للحديث عنك، كأنني أردد معنى تلك الصورة الرائعة لأحمد رامي في أغنيته التي كتبها لأم كلثوم:

- «ولما أشوف حد يحبك..

يحلا لي أجيب سيرتك وياه»!

إن فرحت لشيء.. أتمنى لو أنك شاركتني تلك الفرحة..

وإن تألمت من شيء أو من أحد، وإن مرضت.. لا أرجو وجود أحد بجانبي سواك!

إن عجزت عن التعبير.. أكتب اسمك فقط على الصفحة البيضاء، فتشع وتضيء!

منذ ليال لم نلتق.. كنت مع الآخرين. أنانية أنا.. كل الناس غيري معك، هم «الآخرون».

أريد أن أكون دنياك، وما عداي هوامش.

انتظرتك اليوم بلهفة.. آنحيل دخولك فجأة. أسمع صوتي يسألك عن أحوالك.

كلما مرّت الدقائق.. ازداد وجيب قلبي.

كنت هنا البارحة.. جئت إلينا، لكنك لا تدري أني كنت مريضة.. لم يغمض لي جفن حتى الرابعة صباحاً. لم تسأل. الرجل أقسى.. بلا شك!

قد أسافر.. أنا لا أريد هذا السفر، ولكنه أمر لا مفر منه.

مجرد الإحساس بأني سأكون بعيدة.. بيني وبينك بحر ومسافات.. ذلك عذاب.

يرهقني أن أظل انتظر اليوم الذي سأعي فيه، واللحظة التي يأتيني صوتك فيها وهو يقول: «أهلاً»!

- أسألك: قل لي.. هل تحبني»؟!

أحياناً.. أكون واثقة جداً إلى حد الغرور بك.

لا قيمة لشيء أبداً دونك.. ولا للوقت، ولا للزمن. أنت اللحظة الأجمل.. التي تساوي عمري كله.

فهل سأراك في السفر.. كيف؟!

ـ ٤ ـ

في هذا المساء.. سبقني الحزن، واحتل فراشي.. وأبى القلق أن يفارقني.. لماذا حمل الليل لي معه هذا الزائر البغيض؟!

كنت أمنّي النفس في وحدتها بلقاء معك.. طويل.

- أين أنت الآن.. أين روحك، تفك من حولي حصار الأحزان؟!

كنا عندما نلتقي.. أتمنى أن تطول غفوة الشمس أياماً، ليكون طيفك

أنيسي ورفيقي كل الساعات.

أنا في هذه الليلة لا أجدك..

أغمض عيني مرات، ولا تأتي.. كأنك «جودو» الذي يأتي ولا يأتي!!

أفكر في الموت.. ليس تفكير الخائف منه، ولا تفكير من يستعجله، بل لأنني سأموت عندما أفقدك.. أحس أنني لن أمتلك ساعاتك وزمنك.. ولكني أحاول أن أسرق ذلك كله.. فلا بد أن أموت!

أفكر فيما مضى.. وكيف عشت تلك السنين؟!

أخطائي كثيرة، فهل يُغفر لي؟!

أتمنى لو عادت الحياة إلى الأموات مؤقتاً.. أسألهم لأعرف: بماذا شعروا، ماذا رأوا.. إلى أين سارت أرواحهم، وهل حقاً أنها تهيم حولنا، وتشعر بنا ولا نراها؟!

أريد أن تمر عشر سنوات في لحظة.. وأراقب أحداثها، وما سيجري فيها.

أريد أن أفقد ذاكرتي أياماً.. فهل في هذه الأمنية راحة بالفعل، أم أن الإنسان بلا ذاكرة.. بلا ذكريات، هو لا شيء؟!

أتمنى أن أكون زهرة تمنح الشذى والفرح..

أتمنى أن أكون صخرة ليوم.. لأعرف صلابة الإحساس وعدميته.

أريد أن أبكي عندما أحزن، أو أصدم فيمن حولي.. فتخونني العبرات وتتجمد ولا تخنقني!

أتساءل حينما أكون وحدي أنتظر شيئاً منك يصلني: هاتفك..

صوتك.. قامتك الفارعة.. وميض عينيك النافذ إلى قلبي.. أتساءل:

هل تستاء الزهور وتتألم حين نقطفها.. هل تشعر بنا الحصاة حين نطأها؟!

لا أدري.. هل كنت زهرة، وأنت الذي استطعت أن تقطفني، فأشعرتني بالضياع.. أم أنا الزهرة التي ما زالت كل صباح تتفتح على وجهك وأنت تعبر، ولا تتوقف لتلمسني.. أو تشمني، أو حتى تقطفني وتدهسني.. لا يهمني ذلك، وإنما المهم أن كون لك وحدك.. زهرتك المفضلة.. رائحة يومك الجديد.. عبق أيامك وعطرها المفضل.

لكنك تتجول على ألوان عديدة من الزهور.. تعبر من أمامها، تمسح بأصابعك على بعضها، وتقطف بعضها الآخر، وتتجاهل البعض، كأنك شعاع شمس تطوف كملك على رعيتك الأزهار.. تمنح الحياة، وتكون السبب في ذبولها!

يكون الزمن ملكي وحدي.. حين أكون معك. الدنيا بأسرها، بكل ما فيها لي، وتضمني السعادة إليها وتغمرني.

إحساس غريب: أريد أن أبقى، وأريد أن أهرب.

بقدر احتياجي لوجودك.. بنفس القدر انتظر ابتعادك عني. حتى السحرة لا يقدرون على هذا الأخذ الذي لا يعيد!

أنا بين نارين: نار الرجاء، ونار اليأس. قد تدرك ما أعني بروحك وإحساسك..

أين هم من هذا الإحساس، وكيف لأرواحهم أن تدرك؟!

إنهم ينظرون إليّ، ويقيمون بعقولهم.

وما زلت أتدفق.. أريد أن لا أتوقف عن الكتابة إليك.

كل سطر أكتبه لك هو خفقتي، ونبضي.. أصدق ما أحتفظ به لأغلى الناس، ولو خيرت بين أن أطوف العالم بدعوة مترفة مرفهة ـ والرحلات أجمل ما أهوى وأحب كما تعلم ـ وبين أن أجلس لأكتب لك.. فلا بد أن أختار الكتابة لك.. لأنني لحظتها أشعر بك في مسامي وعقلي ووجداني. الكتابة لك علاقة حميمة بين نفسي وصدقها وحبها ورغدها.

* * *

أعرف أن الكثير مما أكتبه لك لن يصلك.. ولكنك ستحس به وتتوخاه..

ولكني تعبت الآن. بلغت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل.

الآن.. أنا أحبك أكثر. أريد أن أقبّل عينيك، وباطن كفك.. وأنام!

كما حلمت بك من قديم، وأنا أتمثلك الرجل الذي أريد.. أحلم بك الآن: الرجل الذي يريد هو!

فهل تلتقي الإرادتان، ونكون روحين.. تشعر كل منهما بالأخرى وتلتحم؟!

أريد أن أمتلك، بل وأصادر كل شيء عنك لي وحدي: طفولتك.. حياتك.. كل ما يسعدك، وأن أعرف ما تحب وتكره.. ما يزعجك ويؤلمك.. ما تتمنى.

وأحس بك الآن طائر النورس.. تحط على كتفي، تربت عليه.. تمسح شعري، وتتحول إلى رجل هو أنت.. ترفعني عن الأرض إلى عالم أثيري.. تلمسني وتملؤني نشوة. ثم يلفني غيم رمادي يحجب عني هذه

الرؤى... يذكّرني أنك هناك دوماً، وأنني هنا قسراً.. يشدني إلى الشوق والحنين فأمتثل لهما.. يفعلان بي ما لا أطيق، فأرتاح فيه.. لأنه منك وإليك!

خذني إليك أتوسد ذراعك.. أتمنى لو يتضاءل حجمي وأصغر، أصغر.. حتى أدخل في وريدك وأسكن كدمك.. أكون معك أينما ذهبت.. أبقى فيك حيثما كنت!

***

غدا سأرحل إلى باريس.

سأحمل معي زهرة القرنفل التي احتفظت بها من باقة الزهر.. تلك التي حملتها لي إلى المستشفى يوم حادث السيارة اللعين.. وصوتك، وطيفك، وشوقي وأحلامي.. كلها تملأ نفسي.

فلا تنساني في لحظة سعادتك.

أعرف أنه ليس لك لحظة سعادة.. كأن الفرح أقنعة في لحظاتك وأيامك. لكن سعادتك الحقيقية لحظة أن تكتشف، وتتحد مع الإنسان - الفكرة.

رغم ذلك.. لا تنساني، أشكو لي عندما يضايقك الملل، أو تحاصرك المشاكل المادية.

وفي كل صباح من صباحاتك التي تبدأ عندك بعد الواحدة في منتصف الليل، وقبل أن تنام.. إبعث لي بتحيتك، ستصلني.. إنني واثقة أنك تحمل لي في نفسك الكثير.

أعرف أن الزمن لن يعطيني منك سوى هذه الخطوات فقط.. فقط!

فهل ستنتظرني في قمة «إيفل».. مع رسالتي القادمة؟!

أعرف أنك لا تنتظر شيئاً.. كما قلت لي مرة.. أتذكر؟!

- يومها قلت لي: «لقد أصبحت طريقاً مسدوداً، لا يوصل إلى شيء، ولا يصل بالآخرين إلى دروب.. إنني لم أعد أنتظر شيئاً مما كنت أحلم به في حياتي ليغيرها، ويحقق لي فيها أحلامي»!

ولكني أنا أنتظرك كل مساء.. أجدك في كل خفقة تهب الحياة لي. هذا هو الفارق بيننا.

لقد كنت أنا جزءاً من حلمك..

أما أنت.. فما زلت وطن أحلامي وحدودها.. والإنسان لا يبدل الوطن.. يبقى له وطن واحد!!

* * *

الفصل الثاني

ـ ١ ـ

هدأت على صدري «زهرة القرنفل» تلك التي حملتها معي إلى باريس.. إنها تذكارك، وعبقك، وآخر ما منحته لي في زمن ابتسامتك الصافية التي خصصتني بها وحدي في بداية ذلك المساء.. حينما كنت أرقد فوق السرير الأبيض بالمستشفى!

كنت قد وصلت باريس مع بداية هذا المساء، واختار لي الفندق هذه الغرفة المطلة على أعظم شارع باريسي: «الشانزلزيه».

أزحت الستارة، ورأيت من هذا العلو الشاهق كل الأشياء الهابطة، والقزمة، والراكضة، والمزدحمة، عالم عجيب أراه تحت ناظري، ولا أستمتع به بمثل استمتاع الكثير من أمثالي الوافدين إلى باريس للفسحة، أو للضياع، أو للاختيار.

لست أدري.. لِمَ هذه الدمعة الباردة التي طفرت من عيني وانزلقت على خدي؟!

ترى.. هل تعبر الدموع أحياناً عن الأمنيات، أم أنها في مثل وقفتي هذه تعبر عن أقسى وحدة أعايشها وأنت بعيد عني؟!

شيء غريب.. فلقد فررت منك، فاكتشفت أنك تجذّرت في أعماقي.. أحس بك وشماً وعمقاً يحفر ضلوعي ولا أقدر أن أنوح.. ولمن؟!

هذا هو الغريب.. إني أنوح من أجلك إليك.. لا أبوح لأحد عنك، ولكني أهرع إلى ورقي وأبادر فأكتب إليك نوحي وبوحي وتناقضاتي معك!

لا تندهش.. لقد طبعت وشمك في أعصابي وأفكاري وخفقي.. فتصور!

وعندما أقفيت، وجعلت مطار «شارل ديجول» خلفي.. تأخذني العربة إلى داخل مدينة السحر والنور كما يسمونها.. كانت الخواطر تنثال. كنت شاردة، لم أشاهد منظراً واحداً على امتداد الطريق من المطار إلى الفندق، عفواً.. بل كان منظر واحد فقط.. كان وجهك وقامتك التي تحتوي ظلي دائماً كلما وقفت أمامك. وتساءلت: هل أنا أفر منك.. أم أركض بهذا السفر المتواصل إلى لقائك الغامر؟!

تغرّبت كثيراً.. وأكثر غربتي عندما لا أراك، ولا أسمع صوتك. وكنت أعتقد في بعض الوقت أن بقائي في البلد معك، أو هروبي إلى الخارج بعيداً عنك.. هو في واقع الأمر سيان.. ففي كلتا الحالتين لا أراك، فأنا ـ إذن ـ في غربة!

لذلك.. أحببت الترحال.. أصبح السفر هاجسي وعذابي، وأتمنى أن يخلصني منك، فإذا هو يزيدني التصاقاً بك، وحميمية لك!

يا عذابي أنت: ألا تساعدني أن أمحو هذا الوشم مني؟!

إنني أمد يدي نحو «زهرة القرنفل» وأتحسس أطرافها بأناملي برفق. رغم أنها ذبلت، وتكاد أن تجف. أحملها من فوق صدري. وأضعها على شفتي، وأغمض عيني ثانية، ودوماً كلما قربتها من شفتي.. أحس أنني أقبِّلك.

شعرت بها على صدري، وكأنها رأسك.. فابتسمت!

يا لهذا الرأس ـ رأسك ـ الذي بقيت أحلم به، فهو: طفلي الذي أوسده وأهدهده، وأحلم به سكني ووطني الذي أختبئ داخله وأجوس في أفكاره التي تعذبني وتتحول إلى عذوبة في عمري!

فهل تسمح لي الآن أن أغمض عيني لأرتاح منك قليلاً.. أبعدك عني، وحتى أبعد «زهرة القرنفل» هذه عن صدري، وأضعها فوق «الكوميدينو» وأغفو؟!

إنني متعبة من سفر الرحلة، ومن رحلة سفر الوجدان معك طوال هذا الزمن الذي اكتشفتك فيه.. بينما أبقى في حياتك: التعارف، أو العلاقة، أو الراحة المؤقتة؟!

ولكن «زهرة القرنفل»، لا تدعني أغفو.. إنها سفيرتك عندي، تلاحقني بعبقها المستمد من عطرك ومن عرقك.. أشم رائحة عرقك في «زهرة القرنفل». حتى وهي جافة!

إنك تبتسم الآن.

أعرف وجهك في هذه اللحظة.. لكني ما زلت أصر أنك لا تطيق العبث، ولا تميل إلى المخادعة. حبك عنيف وصراحتك عنيفة، ولقد أحببت فيك هذا العنف الذي لا يدمي ولا يجرح، ولكنه يرهق كثيراً.

أتذكر الآن ميلاد هذه الزهرة.. كأن يدك التي حملتها إليّ ذات يوم

كانت أرضها، وتربة جذورها، ومطرها. كانت متفتحة، تفوح شذى.

* * *

ذلك المساء استعيده.. إلى درجة أنني أحس به ـ مازال يسري في عروقي كالخلجة.. يهزني، يقشعرني.

كنت أرقد على السرير الأبيض في المستشفى الخاص. مضت أيام ثلاثة على استضافة سرير المستشفى لجسدي. يدي في داخل لفافة بيضاء متراكمة عليها. وساقي اليسرى معلقة عند مؤخرة السرير.

هذا هو اليوم الثالث ـ إذن ـ على مرور الحادث الذي وقع لسيارتي.

في مساء اليوم ذاك.. ركبت عربتي، وقلت للسائق الهندي: اتجه إلى البحر!

كنت قد طلبتك بالهاتف عدة مرات ولم أجدك.. عشرة أيام مرت دون أن أراك، أو حتى دون أن أسمع صوتك، ورغم أنني أعرف مزاجيتك، وتغليفها بأعذار مشاغلك، لكني لم أيأس من العثور عليك.. حتى ألقيت القبض على صوتك. كنت فرحة بهذا العثور، كأنني عطشى في فلاة، وظهرأمامي نبع صاف. ولم تدم فرحتي أكثر من ثوان.. صدمني صوتك بعدها بنبرة جافة.. يقول لي:

ـ عفواً.. إنني مشغول. عندي اجتماع. سأتصل بك فيما بعد!

أعرف الـ «فيما بعد» هذه!.. أحياناً تستمر شهراً، أو لا تنتهي حتى أنهيها أنا بالاتصال!

تعرف كلبي الصغير الرمادي.. أهرع إليه دائماً كلما رميتني بإهمالك!

عفوك.. ليس في ذهني ما يمكن ربطه بمقولة الشعراء عن وفاء الكلاب، وجحود الإنسان.

لا أقصد أن أفضله عليك، ولكني أحب هذا الكلب بعدك أنت مباشرة. لو فقدتك أصبح مثل هذا الكلب: مدللة، نظيفة، وفية.. ولكني أموت قهراً. ولو فقدت هذا الكلب أشعر أنني فقدت الصديق والحارس والأنيس والخليل!

أذكر ما قلته لي مرة: «الكلاب الوفية تموت بسرعة.. لأنها لا تحتمل قسوة عاطفة الإنسان»!

ذلك المساء.. ناديت كلبي، بعد أن أحسست بالاختناق إثر مكالمتك. شكوتك إليه. وضعته في حجري وبكيت. كان يلعق يدي ويهمهم، ويسكن، وذيله يواصل الحركة.

قد تصف هذه الصورة، فتقول عنها: إنها ترف القصور.. لكنها في الحقيقة تبدو، وكأنها تلف السأم!

ارتديت ملابسي، وناديت السائق الهندي، وركبت عربتي في اتجاه البحر.

أرتاح أمام البحر.. أسكن أمام ارتداد الموج، ونقائه.. هناك بقيت ساعة أو أكثر. حادثتك.. استعدت بعض كلماتك عندما تكون «رايقاً».. بل تناهت إلى سمعي بعض ضحكاتك النزقة. أنت أحياناً تضحك بجنون، وأجدني في هذه الضحكات مندهشة وحائرة. كنت تقول لي:

ـ إنني أطرد أحزاني وهميمي بهذا الصخب.. لا تظني أنني سعيد.

الضحك لا يدل على السعادة. بل هو في الغالب يعني القفز فوق الآلام، والهروب من الهموم.

ـ كل ما تقوله أصدقه، وأناقشه مع نفسي، وأتعاطف معك فيه.. حتى لو خالفتك الرأي.

هذا لا يعني انقيادي التام لك، وانضوائي تحت إمرتك.. بل هو محاولة الدخول إلى أعماقك، والامتزاج بك.

وخيم الليل على الكون.. أصبح بياض الموج مثل فوانيس مضيئة في عرض البحر. وشعرت بفيض من الراحة. إني الطريق وأنا داخل العربة فكرت في صديقتي «سعاد».. ليتني أمر ببيتها وأجلس معها بعض الوقت. ولكني ما لبثت أن تخليت عن هذه الفكرة.. تذكرت أولادها ومسؤوليتها في بيتها.. لم تعد «سعاد» تلك الفتاة المرحة «العفريتة» التي تتقافز وتروي النكات.. منذ أن تزوجت، خيل إليّ أنها ترمدت، أو «همدت».

ـ سألتها ذات يوم: هل صحيح أن الزواج يقتل الحب؟!

نظرت إليّ بسخرية، وأجابت بنبرة الفيلسوف قائلة: يقتل حباً، ويلد حباً أكبر.. هو حب الضنا.. حب ما تمنحه حشاشتك!

ثم استدركت، كأنها أحست بارتكابها خطأ، فقالت:

ـ لم أقصد يا «ليلى».. أنت لم تنجبي من زوجك.. أوه، أقصد من الذي هجرتِه، يا شيخة، حتى بيقولوا أن الضنا عناء. كده إنت أحسن، مرتاحة و«مروقة»، وسيدة نفسك!

لم أتأثر بما قالته صديقتي «سعاد» يومها.. فقد كنت أحمد الله أن

جعلني عاقراً لئلا أنجب من «حسين» خلفة تربطني به، وتعطل هذه الحرية التي استعدتها مع وقف التنفيذ!

صدقني أنني لا أكذب.. بل إنني صادقة، فأنا لم أحب «حسين»، وإن كنت قد حاولت في بداية ارتباطنا أن أحبه.. حاولت مراراً وبإصرار، وفشلت، بل وعجزت.

وتلك حكاية سأرويها.

الآن.. غيرت رأيي، وليس عندي حماس لزيارة «سعاد».. فلا بد أن أرجع إلى البيت.

هناك في غرفتي عالمي الذي أضنّ بإباحته على كثير، ولكني تمنيت لو منحته لك كل العمر.

وفي طريق العودة.. كانت المفاجأة!

لقد خرجت سيارة ضخمة من نوع «التريلا» حاملة البضائع.. جاء خروجها من شارع فرعي، ولا بد أن السائق الهندي كان «سارحاً» يفكر في أهله وغربته، ولم يستطع أن يتلافى هذه الصخرة التي ارتطمت بالعربة.

لا أدري كيف لم أمت بعد أن شاهدت حطام السيارة. مات السائق الهندي، وكل ما أتذكره في تلك اللحظة البشعة أنني صرخت، ولم أفق إلا في اليوم التالي فوق السرير الأبيض، ويدي ملفوفة، وساقي معلقة مثبتة إلى أعلى.

ولكن آلامي، وكل الرعب الذي ملأني قد تلاشى عندما رأيتك.

كنت ـ بعد أن أفقت ـ أفتش عنك.. أسأل كل من جاءني بنظرات صامتة.

أسأل الطبيب، والممرضات عنك، وتطفر الدموع من عيني.. ويسألونني: مم تتألمين؟!

وكنت أهمس في داخلي: أتألم منك أنت!

لا أتمنى أن تكون ألمي.. وكيف تكون ألمي وأنت الذي تزرع في صدري المزيد من الحب والتفاؤل؟!

حتى قرع الباب في الليلة الثالثة، وأطل وجهك.. وبين أصابعك هذه الزهرة: «زهرة القرنفل» وبأسلوبك قلت مبتسماً:

ـ فكرت أن أحمل لك باقة كبيرة من الورود والأزهار. لم أجد باقة أملأ بها هذه الغرفة، وأراك في داخلها زهرة الزهرات. فجئت إليك بهذه الزهرة وحدها، لأنك تحبين «زهرة القرنفل».. تقولين عنها: إنها نداء الحب!

فرحت بهذه الزهرة تلك الليلة. لم أنم. تلاشت أوجاعي.. جفت دموعي، وأينعت ابتسامات ملونة كجناح فراشة على شفتي، ومن عيني، وفي صدري!

يا إلهي.. هكذا أنت تفعل بي كل هذا التحول؟!

وبقيت الزهرة بين أصابعي ترعاها. لم أسمح لأحد أن يلمسها. لم أتركها وحدها، بل صرت آخذها إلى كل مكان، ولو جفت، فإنها ستبقى حديقة عمري.

* * *

هكذا أنت يا سيدي، ألمي..

ليست لك أشياء.. بل شيء واحد تتفرع منه كل مباهج الحياة وابتساماتها.

لحظة.. التليفون يرن!

....

هل تعرف؟!

إنهم يستعجلونني لأرتدي ملابسي، ونذهب إلى أعماق الليل.. نجوب «الشانزلزيه»، ونتسكع أمام وداخل المحلات التي تعرض الملابس والموضات.

فجأة.. لمع في ذهني خاطر. قلت لصديقاتي وأختي:

ـ أريد أن نذهب إلى «الحي اللاتيني»!

ـ قالوا بصوت واحد: الآن.. مؤكد أنه لن يكون هناك!

كن يغمزن عليك. لكني لم أغضب. فرحت أنهن جئن بسيرتك.

تمسكت برأيي، وذهبنا جميعاً إلى هناك.

ورغم طول المسافة.. فإنني لم أشعر بها، لقد كنت بجانبي. أنظر إليك، وأحادثك. وأسألك عن قصة الدكتور «سهيل إدريس» الحي اللاتيني، التي حدثتني مرة عن إعجابك بها، وأنها شدتك لتذهب إلى هناك. وأسألك عن «عصفور من الشرق» وصورة «توفيق الحكيم» القديمة الرائعة. ورأيك في «توفيق الحكيم» بعد كتابه: عودة الوعي وفقدانه!!

أحس أنك تملؤني.. ترويني، تأخذ رأسي وتفلحه وتشذّ به كأرض بور،

ثم تحوله إلى عشرات الفدادين التي تطرح القطن طويل التيلة!

أحس أن كل كلمة تقولها لي: وعي، وكل فكرة تناقشها معي: قضية، وكل عبارة ترددها في مسمعي: ملحمة.

ووصلنا إلى الحي اللاتيني.. وكانت ليلة!

* * *

ـ ٢ ـ

أنت يا سيدي وحلمي..

تواصل غزواتك بين أضلعي.. تبني داخلها حصونك وقلاعك، وتأمرني من داخلي هذا، فأطيعك!

كم أنت ديكتاتور ومتسلط.. برغم أنني أراك بوضوح وبشمول كلما التقينا وجهاً لوجه.. لحظتها أراك ضعيفاً، مستسلماً.. ترضي غروري، فتشعرني أنني أحتلّك، وأنك مستعمرتي.. وتشعرني أنني قد نجحت في طرد سكان نفسك، وإجلاء العابرين.. وأنني أترنم في كل مساحة صدرك: قوة، وتأثيراً وامتلاكاً!

نعم.. كثيراً ما فكرت في الاستحواذ عليك، في امتلاكك حتى النخاع، وعندي ثقة بنفسي!

لكني ما ألبث أن أتراجع عن هذه الطبيعة التي تسكن كل أنثى.. تحب رجلاً وتهيم به.

أتراجع خوفاً منك، وخوفاً عليك!

أستعيد كلماتك عندما كنت أحاورك عن الامتلاك والحب، والشعرة النحيلة التي تبدو هي الفارق بينهما.. فكنت تقول لي:

ـ أنت كيان.. وما حولك، وما وراءك لا أكثر من ظل!

ـ أرد عليك، قائلة: ولكنك لست حولي ولا ورائي.. بل أنت تُسدد إلى قلبي كرمح لامع.. استقر في الغور، فإن نزعته من صدري نزفت حتى الموت، وإن أبقيته لازمتني آلامه التي لا تنتهي!

ـ وكنت تقول لي: من أجل ذلك تفكرين أن تضاعفي آلامك مدى العمر.. بمزيد من إيغال الرمح في صدرك!

تلك كانت أياماً جميلة.. وإن تناثر في جنباتها لون من الحور العاطفي «الضاري» بيني وبينك.. ولكني كنت أجدك كثيراً، وترد عليّ، ويطول بنا الوقت ونحن نتكلم حتى نكاد ننسى الوقت نفسه، وننسى كل من في عالمنا.

الآن.. أستعيد أصداء صوتك عندما كنت مع أختي وصديقاتي ندخل إلى مزاريب وأزقة «الحي اللاتيني» في باريس. المقاهي منتشرة، والسحنات مألوفة.. لتردد العرب على هذا الحي، والزحام يغمرنا حتى نكاد أن نضيع فيه ونتباعد.

وجاءت فكرة طرحتها إحدى صديقاتي: ما رأيكن في الجلوس أمام طاولة في ذلك المقهى؟!

ـ قالت أختي: هل جننت.. كيف نجلس في مقهى؟!

وقهقهت أصوات صديقاتي لهذا السؤال المتعجب، وقالت واحدة منهن:

ـ لماذا.. هل نسيت نفسك أين نحن.. أم ما زلت تعتقدين أننا في شارع عربي، أو في حي شعبي هناك؟!.. نحن في باريس!

ـ قلت بلا تركيز: ولكننا لم نتعود.. صحيح، لو رآنا أحد من بلدنا على الأقل؟!

ـ قالت واحدة منهن: هكذا نحن كالنعامة.. هناك رجال، وهنا رجال.

ـ قلت: ولكنه الالتزام بآداب رُبينا عليها!

ـ قالت: يا شيخة.. يا عقد!.. تعالوا بس نجلس ونتفرج.. والعالم صندوق يا عالم!

ولمحتك فجأة.. هناك، تجلس أمام طاولة لا تبعد عن طاولتنا، وأمامك فتاة شقراء جميلة!

تدافع الدم إلى رأسي.. شعرت بالغليان والغيظ. أعرف قدرتك على المرح والعبث والجنون.

لكزت أختي في خاصرتها، وأشرت نحوك بطرف عيني، حدقت، وارتسم الذهول على وجهها، ثم ما لبثت أن قهقهت بصوت مرتفع.. جعل صديقاتي يلتفتن نحوها باستغراب. قالت وما زالت تضحك:

ـ عندنا مثل شعبي يقول «اللي في بال أم الخير.. تحلم به طول الليل»!

ـ قلت مغتاظة: إيه أم الخير دي؟.. بلاش سخرية!

ـ قالت أختي: تصوروا.. هذه الإنسانة الجميلة الرزينة الهادئة، اللي اسمها أختي «ليلى».. لما تشوف وجه راجل، على طول تشوف وجه الحبيب الغائب!

ـ قلت أزجرها: وبعدين في قلة الأدب دي؟!

تطلع البنات إلى الجالس مع الشقراء.. كلهن يعرفنك من صورك.. قلن

لي: معك حق.. الخالق الناطق.. إنما ليس هو، لعله ابن عمه.. ما رأيك، نتسلى؟!

لم أعرف أية فكرة طرأت في رؤوسهن السهرانة. تهامسن، وقامت واحدة منهن بثبات، وتخطرت في مشيتها، حتى وقفت أمام الرجل والفتاة التي معه. تحدثت إليه، وعادت بعد دقيقتين!

المجنونة، المغامرة.. قالت لنا:

ـ قلت له حين وقفت أمامه: أنت عربي بلا شك.. ها؟ فأجاب مندهشاً لجرأتي: نعم.. هل أستطيع خدمتك؟ فقلت له: بل خدمة هذا القطيع، وأشرت إليكن، وأردفت أقول له: إننا نزور باريس للمرة الأولى، كذبت عليه، وحبذا لو جلست معنا بعض الوقت لنأخذ فكرة عنها منك!

ـ وماذا قال لك؟!

ـ أبداً.. ابتسم بخبث، وقال: بأمرك.. ولكن ليس الآن، ففي الغد نلتقي تحت برج إيفل في الساعة الثانية عشرة ظهراً.

قلت لصديقتي: ولكن هذا الأسلوب منحرف!

وجم صديقاتي، وقمت أمشي، فتبعنني. قالت المجنونة المغامرة: إننا نمزح ونتسلى!

ـ قلت: بل أنت تصرفت عبثاً.

ـ قالت: وقدومنا إلى باريس وحدنا.. أليس عبثاً؟!

ـ قلت: لقد جئت وأختي يصحبنا ابن أخي لعلاجه.

ـ قالت: وكل واحدة يا حبيبتي معها «مَحْرم».. بس المحرم مشغول في الشانزلزيه، و..

ـ وأردفت بحدة: إيه يا شيخة؟!

ـ قلت لها: هناك فرق بين تفسيرك ومعنى حدود التصرف وعقلانيته!

واستلقيت على سريري في الفندق.. أحدق في السقف، وأطرد وراء العديد من الصور.

ـ قالت لي أختي: لقد قسوت على صديقتنا.. إنها مرحة لا أكثر.

ـ قلت: بل إنها لعوب، وستورطنا معها، وبصراحة.. أفكارها لا تعجبني.. إنها تفلسف حرية المرأة بأنها المساواة الكاملة مع الرجل، وهذه التجربة فشلت حتى في الغرب، وتنازل عنها فلاسفتها، أو منظروها!

جلست أختي في نهاية سريري، وهي تحدق في وجهي وتبتسم، ثم قالت:

ـ ما شاء الله.. من فين كل الثقافة دي والعبارات؟! إيه يا ختي.. «منظّرين».. يعني إيه، ومين اللي..؟!

ـ قاطعتها قائلة: من فضلك.. لست جاهلة، إنني لم أكمل تعليمي، صحيح.. ولكني قرأت كثيراً، وثقفت نفسي، وأعتقد أن هذا عيبكم يا بنات هذا الجيل، القراءة عندكن هي مجلات الموضة والسينما!

ـ قالت أختي: غلط.. البنات يقرأن بجدية وبإصرار، بما يجعلهن يتفوقن على الشباب حتى في المعلومات العامة.. الشباب الأولاد اتجهوا إلى الكرة.. تقولي هِيَّا المستقبل؟!

ـ نظرت إليها بطرف عيني وابتسمت أقول: والبنات أصبحن اليوم يعرفن اسم حارس هذا الفريق، والباك، و. .

ـ قاطعتني: حتى أنت تعرفين، عيني عليك باردة. زعلانة ليه. . ما هو ما عندنا غير الكرة، أو الفيديو. . عندك (حقل) تاني نزرع فيه عقولنا؟!

لم أجبها، فقد بدأت بطريقتها تسخر، وقلت لها:

ـ ماني فايقة لك. . روحي اقرئي، ولاّ نامي، ولاّ شوفي لكم «قناة» في تلفزيون باريس يمكن تلقطي لك كلمة فرنساوي تتعلميها!

قامت تزفر، وتطوح بذراعيها، وتهمهم: يا ربي. . ملل في كل مكان. . ليه المرأة بس؟!

ابتسمت. . فقد كنت مثلها، ولكني فيما يبدو قد سرقني العمر بعض الشيء. . بلغت إلى المرحلة التي يسمونها الرزانة. أحياناً أسأم أيضاً من هذه الرزانة، وأضيق بالفراغ من حولي. ليتني أقدر أن أعمل، ولكن. . كيف؟!

كيف أعمل وأسرتي غنية، وتخاف على قيمتها الاجتماعية، ومركزها!!

لقد أعطانا القيمة هذه كلها والدي يرحمه الله. . فهو الذي جمع هذه الثروة، وأنجب كل هؤلاء الأولاد والبنات. . الذكور خمسة رجال، وإخوتي الإناث ثلاث بنات.

لو قلت لواحد من إخوتي الرجال الآن: أريد أن أعمل، فلا بد أن يندهش، وسيعارض هذه الفكرة التي يصفها بالجنون! وسيقولون لي:

ـ كيف تعملين، وأنت ابنة «سالم عبد الغفار الحامد». . الذي كان ملء السمع والبصر، ومن أوائل من كانت لهم ثروة بمعنى الغنى والجاه والنفوذ؟!

لو قلت لأختي التي تكبرني: أريد أن أكون موظفة!. . فلا بد أن تقشع

شفتيها الغليظتين عن سنها المكسور، وتقول لي ساخرة:

ـ موظفة!!.. ليه؟ علشان يقولوا: بيت «عبد الغفار الحامد» الكبير، اللي كان يرش الفلوس على الناس سقط في الفقر والحاجة.. إيه اللي ناقصك؟!

يومها بكيت، وأنا أتصور لو نقلت رغبتي هذه إلى أسرتي. ولعلهم لا يقسون عليّ بالكلام. ولكنهم بلا شك سيمزجون نظراتهم إلي بالشفقة والحزن، ويربطون ذلك بظروفي النفسية بعد أن هجرت زوجي وطلبت الطلاق، ورفض للإمعان في إذلالي.

كانت المرأة في عصر جدتي وحتى أمي.. لا تعرف ماذا تعني كلمة «الفراغ». فهي تقوم بأعمال البيت وحدها.. تكنس وتطبخ وتغسل حتى سلالم البيت الكبير المكون من عدة طوابق، وتعتبر أن هذه هي حياتها الحقيقية، ولعلها لا تخرج من بلدها حتى تموت فلا تعرف مدينة أخرى في بلدها.

الآن.. نحن في باريس!.. هيه، وبيوتنا تضم أكثر من خادمة وربما مربية وسائق، وكل وسائل الحضارة والترفيه.. ومع ذلك، فالملل يتكثف.. فهو ـ إذن ـ بسبب نفساني!

قلت ذلك مرة لأختي المحتجة دائماً، ولكنها أجابتني ساخرة:

ـ يمكن.. لأن المرأة أصبحت متعلمة، والتعليم يزيد الطموح!

واختالت أمامي صورة والدي يرحمه الله، بل كأنني أراه بقامته الفارعة، وشخصيته القوية، وصوته الأجش في غير ما قسوة.

طفرت دمعة من عيني.. واختلطت ملامح وجهك بوجه أبي. صرخت فجأة:

ـ لا.. لا، لا أريدك أبي، أرجوك!

ركضت أختي إليّ، وقد خلعها صوتي من فوق سرير غرفتها المجاورة. وقفت بجانب سريري فزعة، ترتعش:

ـ ماذا بك. . هل نمت ورأيت حلماً مفزعاً؟!

تطلعت إلى وجهها المرتاع من أجلي. أمسكت بيدها. هدأت، قلت لها:

ـ بل المفزع في حياتنا اليوم هي أحلام اليقظة يا حبيبتي!

ـ قالت: لم أفهم؟!

ـ قلت: رأيت أبي أمامي بقامته المديدة، وأنا أحملق في جدار الغرفة!

ـ قالت: أبي أيضاً؟. . لقد كان يحبك أكثرنا جميعاً.

ـ قلت: وأنا كنت أحبه أكثركم جميعاً، ولكني أحياناً أفتقد حنانه. . أراه يوم كان بيننا، وكنت أتشوق أن أرمي رأسي على صدره، وهو بوجهه الجاد. . أكاد أحصي المرات التي قبّلت فيها وجنة أبي!

ـ قالت: اهدئي. . تلك حكايات قديمة، لقد أفزعتني، ظننت أن «نابليون» تقمص شخصاً آخر ودخل غرفتك!

ابتسمت، ومسحت بأصابعي على خدها، وقلت لها:

ـ تعرفي. . كان من الممكن أن يكون أبي في حياته «نابليون»!

ـ قالت ضاحكة: كان يكفيه أن يكون «أوناسيس» زمانه، إنما يا عيني على بابا كان حظه مع النساء مفلساً بعكس جيبه المتخم!

ـ قلت أنهرها: بنت؟!

ـ قالت: خلاص.. إنما نابليون قال «فتش عن المرأة»!

ـ قلت: لو كان نابليون امرأة لقال «فتش عن الرجل»!

ـ قالت: غلط.. معاه حق.. ترى إحنا نعمل العمايل!

وامتلأت الغرفة بضحكاتنا، وكان لا بد أن ننام مبكرين، فموعدنا في فجر الغد مع الطائرة التي ستعيدنا إلى بلدنا!

* * *

ـ ٣ ـ

هل تسمح لي ـ يا سيدي وحلمي ـ أن أصدق أذني هذا المساء؟!

أتاني صوتك عبر الهاتف مع بداية المساء الثاني لعودتي إلى البلد. هل تراه صوتك بالفعل؟!

ألم أقل أنك رجل صاحب سلوك غريب في معاملة المرأة؟! تختفي لأيام وأسابيع، وربما لأكثر من شهرين.. لتظهر بعد ذلك صاخباً، لامعاً، متوهجاً كفلاش التصوير.. مباغتاً وساطعاً ومحترقاً بعد ذلك!؟

كان سؤالك المعتاد الذي لم يفاجئني، فأنت تطرحه دوماً كلما اختفيت أنت، أو غبت أنا عنك:

ـ أين أنت طوال هذه الفترة.. إن هاتفك لا يجيب؟ خفت أن تكوني قد متِّ واستمتع بجمالك!

أبتسم فوق سماعة الهاتف، كأنك تراني.. إنها كلماتك دوماً، تلك التي

لا تتغير، ولا أنت أيضاً تتغير، ولست أدري.. متى تلتزم بمواعيدك.. عذرك الجاهز أنك مشغول، ولكنك تستطيع أن تجد الوقت إن أردت، على الأقل لتسأل عني لمدة نصف دقيقة. أريد مرة أن أسخر منك فأفشل!

وضبطت غيظي منك، وأنت تتساءل وتتكلم. كان لا بد أن أصغي إلى صوتك طويلاً، لأنني اشتقت إليك.

شعرت بأنك مرتاح نفسياً، ولديك الاستعداد للكلام.. ألست أنت الذي طلبتني.. أقصد تعطفت، وتلطفت، وجئت على نفسك ومشاغلك، وضغطت على أرقام تليفوني؟!

عندما تكون في مثل هذه الراحة النفسية فإنني أسعد بالحديث معك، أو لعل كل من يتكلم معك، يلحظ تدفقك في الكلام الممتع، ولا أدري السبب الخفي لراحتك النفسية.. كيف أوفرها لك، أومن أين تستمدها؟ هل تراك ترتاح نفسياً عندما تنجز عملاً مهماً من أعمالك، أو عندما تكتب مقطوعة شعر، والشعر من هواياتك المتعددة المربحة لنفسيتك، أوعندما تعزف على الكمان فتفرغ شحنة الحزن من نفسك عبر أوتار هذه الآلة الشجية؟!

أبتسم فهق سماعة الهاتف، كأنك تراني.. فأنا أعرف أنك الآن في مكتبك..

ولا مجال للشعر أو للعزف. تراها أنثى جديدة دخلت حياتك، وحققت لك هذا الشعور بالفرح المتقافز من صوتك؟!

أعرفك يا «عادل».. أنت قد تبدو خشناً، وغليظ الحوار مع امرأة تحادثك في البدء. وليس هذا الطبع والتعامل فيك هو لعبة «الذكورية».. كطريقة لجذب المرأة إليك.. أعرف أنك صادق وصريح، ولكنك عاطفي،

وفاقد، ورحّال.. تجوب دروب الحياة بحثاً عن أشياء صغيرة، ولكنها تغذي النفس بالفرح، وبالتأمل. أنت «فنان» مجنون، وأكثر ما استغرب له: كيف لم تقاوم طبيعة الفنان فيك هذا الثبات على العمل الإداري في مكتبك؟

ويأتيني صوتك معربداً صخاباً، يتساءل:

ـ أين اختفى صوتك القوس قزح.. لماذا أصابك وقار الفلاسفة فجأة، أم.. أن الفرح بصوتي حبس صوتك؟ هيا واصلي ما تريدين.. سواء أردت أن تكوني عصفورة تزقزق أم..!

ـ عادل؟.. لا داعي للعض!

ـ عض؟!.. لا أعرف أن في الغزل موقفاً، أو فصلاً نحتاج فيه إلى العض.. أم أنك غاضبة مني إلى درجة عدم احتمال أي كلمة؟!

ـ بالعكس.. أنا مشتاقة إليك جداً، وحشتني يا «عادل».. ولعلني تسرعت بالعودة لأراك!

ـ كالعادة.. رحلت إلى باريس. هيّا اعترفي!

ـ كنت في رحلة استجمام.. كانت أعصابي تفوق احتمالي لها، فقررت أن أذهب إلى هناك، ومعي أختي وابن أخي الذي نعالجه.. وجدتها فرصة لمرافقة المريض، ولمحاولة الإبلال من أحزاني النفسية التي تضغط بثقلها على رئتي!

ـ أحزان نفسية؟.. ماذا حدث، هل أمك بخير؟!

ـ بخير، فلا تفزع.

عاد إلى مزاحه، ولامبالاته، وصوته الصخاب يقول:

ـ ها.. عرفت، ذهبت في رحلة استجمام مني.. أعرف أنني أملأك في بعض الأحيان بحزن لا أقصد أن أرميك به، ولكنك حساسة جداً.

ـ ما زلت تعبث، وتسخر، المزاح ليس دائماً.

ـ لا تكلميني بهذه الطريقة الدرامية، ولكن.. تستجمين مني أنا؟!

ـ بل من رياحك وثلوجك معاً.. من طقسك المتناقض، الذي لا يعترف بتعاقب الفصول!

ـ أنت امرأة من نار.. رغم أنني أجد يدك باردة كلما حاولت يدي احتواءها، ولكن سرعان ما تدفأ يدك داخل يدي، وتسخن، وتتقد، و..

ـ عادل أرجوك.. هل تحادثني الآن لتسخر، أم تراك تتلذذ بتعذيبي؟!

ـ لا هذا ولا ذاك.. فقط، قلقت عليك، أعرف أن لك صرعات، وتتهمينني بصفات الزئبق، بينما أنت تختفين فجأة.. تسافرين للخارج، أو تنتقلين إلى مدينة أخرى عند أختك الكبرى. يمر عليك وقت أشعر فيه وكأنك تبردين.. تتثلجين كقطة آيس كريم متجمدة. وأحياناً ألقي القبض على صوتك.. فأكتشف أنك لا ترغبين في محادثتي ولا رؤيتي ولا سماع صوتي.. فهل هذا هو الملل الذي يصيبك أحياناً، أم تراه المزيد من الشوق الذي يختبئ بين أضلعك، وتفرين به مني ومن أسئلتك؟!

ـ ما أعظم برودك ولا مبالاتك.. من أي عجينة أنت؟!

ـ ها.. عدنا مرة أخرى لأعواد الكبريت. لاحظي أن كلماتك هذه مثل أعواد الكبريت.. قد تحرق الحب، وقد تزيد اشتعاله!

ـ تقول الحب؟. . هل تسمي ما بيننا حباً، وأنا أراك مرة في العام، وقد لا أجدك عندما أطلبك بالهاتف إلا بعد شهر، وتقول لي: الحب؟!

ـ الحب ليس أن نتقابل بالضرورة، بل أن لا نسأم!

ـ هل أنت مجنون. . هل تعاني من انفصام في الشخصية؟!

ـ بل أحس بتعب نفساني، تعرفين أنك تطلعين الملاذ لي في قمة شعوري بالتعب، وفي لحظة هروبي من مرهقات الحياة وسخافاتها. . فأنا لا أرتاح إلا في إصغائك، عند ضفافك التي تغسلني مياهها النقية الصافية. كلما تكثفت متاعبي هرعت إليك. وسكبت شكواي ونجواي في أذنك.

ـ محطة استراحة أنا؟ ولكني لن أرضى بهذا النصيب لي منك!

ـ ما هذه النغمة الجديدة؟. . كأنك فيما أحدس تطمحين إلى. . الامتلاك، أليس كذلك!

ـ ليتك تصدقني مرة واحدة. كل ما أريده منك هو صدقك فقط، بل أكثر من هذا. . فليس شرطاً أن تصدق معي، ولكن. . ليتك تصدق مع نفسك مرة واحدة!

ـ هل تعتبرينني كاذباً؟ بمعنى أنني أضحك عليك، أو أتسلى بك، أو لعلي هذا الممثل البارع الذي يجيد تلوين نبرات صوته حزناً وفرحاً، ولم أكتشف هذه الموهبة عندي!

ـ لم أتهمك يوماً بالكذب، ولكني أريد منك أن تحدد لنفسك الرؤية، والنظرة والاتجاه. أنت حتى الآن لم تجب عن السؤال المطروح في أعماقك: ماذا تريد بالضبط؟ أعرف أنه ليس من طباعك العبث، ولكنك في بعض الأحيان تعبث مسافة طويلة إلى درجة خوفي عليك من أن تخطئ،

ويتأذى ضميرك بعد ذلك. ولا تستطيع حينذاك أن تغفر لنفسك زلتها أو لا مبالاتها، أو لعبة العبث.

ـ تقصدين أنني أعبث بك كالأخريات؟!

ـ لا.. أنا لست مراهقة، ولم أحبك بعواطفي فقط يا «عادل».. بل أحببتك بخفقي وبعقلي.. وأنت لم تذهب إلى النساء الصغيرات لتغويهن، أو لتطاردهن.. بل تجدهن أمامك يحذفن شبّاكك بالحصى تارة، وبالورد تارة أخرى.

ـ ولكني.. لست «دون جوان».. أنت فقط تغارين!

ـ ربما في قلقك وأسئلتك الكثيرة عن الحياة والمواقف وقضية الإنسان ما يأخذك بعض الأحيان لتستريح، أو لتختبئ من أفكارك وقلقك، فينبعث داخلك «دون جوان» مؤقت، ولكن أفكارك الكبيرة ما تلبث أن تعيد هذا الـ «دون جان» إلى قمقمه في أعماقك، وتفيق من جديد على المواقف والقضية والأسئلة.

ـ تعرفي؟.. لأول مرة أكاد أرى جزءاً من نفسي في المرآة!

ـ ربما أكون مرآتك بالفعل، حتى ولو لم تعترف لي بهذا الحق، ولكني أصبحت هذه المرآة في لحظات صدقك أنت.. تلك اللحظات التي قلت لي عنها أنها نزف تعبك النفساني، فتستلقي عند ضفافي، وترتاح في إصغائي، وتبوح وتشكو وتنسكب كغيمة محمّلة بالمطر!

ـ فلماذا، إذن، تضيقين بي عندما أختفي، ولا تعطينني هذا الحق عندما يطرأ جنونك، فيحرضك على مقاطعتي فترة طويلة؟!

ـ لست أدري.. أتصور أنني عندما أقاطعك، كأنني أتناول دواء مراً..

أتجرعه، وأحتمل غصته من أجل أن أشفى منك، أخرجك من قلبي، وأدعك تتبخر من أعماقي وأحظى حياة جديدة ليس فيها أنت.

ـ وهل تعتقدين أن هذه سعادتك؟.. إذا كان ذلك صحيحاً، فلن أتردد عن الانسحاب من حياتك.

ـ حياتي؟! كأنها أنقاض ودمار. قبل أن أسافر إلى باريس بأسبوع فقط، كنت أتصور أن حياتي ستتحول إلى أكبر حديقة في العالم.. ستغرد فيها الطيور، وتتفتح الزهور والورود، وتنساب جداول المياه، وتطوف بها النسمة الرقيقة، لو أنني استطعت أن أحصل على حريتي من زوجي «المزمن» أو من ذلك الزواج الصوري، كأنه رسم على ورق، فقد بقيت مرتبطة بذلك الرجل الزوج عشرين عاماً.. كنا في خلالها زوجين لمدة سنة واحدة، وبعدها كنا نلتقي كالضيوف، كالأصدقاء، البكم، كالجيشين المتواجهين المتحفّزين لبدء لحظة المعركة الفاصلة، واستمر ذلك طوال تسعة عشر عاماً.. قضيتها في الوحدة والقلق، والضياع، والسفر، والإحباط المستمر، وحروب الاستنزاف!

ـ تقصدين يا «ليلى» أنك قبل سفرك إلى باريس بأسبوع، قد..

ـ نعم يا «عادل».. أخيراً، وبعد عشرين عاماً، صرخت أطلب الطلاق ليمنحني حريتي الشخصية.

تصور!.. أتخيل نفسي مثل ذلك السجين العالمي (أدولف هيس) الذي ما زال في سجنه الوحيد.. داخل ذلك القصر المنيف.. يحرسه جنود من روسيا وأمريكا وألمانيا.. يأكل جيداً، ويمارس الرياضة، ويتفرج على التلفزيون، ولكنه لا يرى الشارع، ولا الناس.. ولا الجديد الكثير في العالم، منذ أن أدخلوه السجن بعد الحرب العالمية وحتى الآن. لو مات يوم

دخوله السجن لكان أكثر سعادة، ولكنه الآن لو أخرجوه من السجن، فهو لا أكثر من مجرد حطام وأنقاض، وماض طويل.. طويل!

ـ ولكن.. احكي لي، كيف تمت هذه المعجزة، ألم تقولي دائماً، إنه يرفض الطلاق، ويرفض الكلام في هذا الأمر؟!

ـ صحيح.. ولكن القصة أكثر مرارة من هذه اللحظة. لقد فرحت كثيراً بشجاعتي أخيراً، ولكنها الفرحة المهدمة. سأراك غداً يا «عادل».. إنني أحتاج إليك... ولو لمدة ساعة فقط.. أضع فيها رأسي على صدرك، وأقص عليك فيها أغرب وأفزع قصة زواج في القرن العشرين!!

* * *

ـ ٤ ـ

ضحكت هذا اليوم من قلبي.. كأنني لم أضحك بمثل هذا الفرح طوال عمري!

كانت قدماك تدوس على البنزين بجنون في اتجاه البحر. شقاوتك لا حدود لها، وكأنك طفل غر، تتراقص أمام مقود العربة، وتغني، وتشدني إليك.

كان هو الحلم الذي أحياه يقظة.. بل لعلني على كثرة ما أراك في نومي، لم أحلم بك بهذا الانطلاق، والشباب، والفرح. وقلت لك ضاحكة، ونحن نقترب من «كابينة» صديقك التي استعرتها منه اليوم:

ـ ترى.. لِمَ أنت سعيد اليوم إلى هذه الدرجة.. هل تحتفل بعودتي من السفر، أم تحتفل بلقائنا هذا بعد أن اشتقت إلى لقائك ما يقارب العام؟!

أدرت وجهك، وحدقت في عيني، ولم تجب إلا بكلمة واحدة: لقد وصلنا! البحر هادئ، فالناس لا يتزاحمون عنده إلا يومي الخميس والجمعة.. حتى الشمس تفرش وجه البحر، دافئة، بدون حرارتها القائظة.. تنعكس أشعتها فوق صفحة الماء كنثارة فضة.. تختال في أعماق البحر كزورق من زئبق. وانطلقت معك إلى المياه نتسابق.. نتضاحك، ولكنني أفر من بين يديك وأتعب بسرعة لتحتويني، أوكأنني أفعل ذلك طائعة لئلا أبتعد عنك وقتاً أطول.

أنت لا تحب البحر في صخب وزحام الناس.. وإنما تأتي إليه في منتصف الأسبوع وحدك في الغالب.. «تغطس» فيه، وتناجيه، وتقذف بحصوات صغيرة من شاطئه إلى أبعاده وترقب أمواجه وكل ما حوله من صمت. تفرغ شحنة نفسك، وتتنفس هواء جديداً نقياً، وتقفل راجعاً إلى الناس ببطء!

سألتك عند الغروب، ورأسي على كتفك، ونظراتك تطرد وراء الموج:

ـ قل لي يا «عادل».. هل هناك أنثى حقيقية عشقتها بالفعل؟!

ـ أثارك سؤالي، فقلت: ماذا تقصدين.. هل تعتقدين أنني أحب الأساطير والقصص الخيالية؟!

ـ قلت لك: ليس بهذا المعنى بالضبط، ولكن.. هل عشقت امرأة بلحمها ودمها وتجسيدها، إلى درجة أنك تسهدت وجافاك النوم، وبكيت، واشتقت وتعذبت؟!

ـ أجبتني سارحاً في البعيد: عشقت، وبكيت، وعصاني الكرى ـ كما يقول الشعراء ولكن.. لم السؤال؟!

ـ أبداً. . فقط يخيل إليّ أحياناً أنك حتى الآن لم تحب امرأة بمعنى الحب الحقيقي. . بل ما زلت تفتش عنها في عشرات النساء، وعشرات التجارب والحكايات والوجوه. . حبك الحقيقي أسطوري، رومانسي.

ـ وأنت؟!

ـ أنت لا تحبني أنا. . لعلك ترتاح لي، تطمئن، تأنس بي. . تجد في فهمي ووعيي وحواري تلك الرؤية التي تدخلك إلى أعماقك، وتفتح نوافذها لفترة. ولكني أعرف تماماً أنني لست حبك الحقيقي!

ـ لن أجادلك الآن. . دعينا سعداء بذلك الفرح الذي بدأنا به يومنا، وبهذا البحر، والغروب، وهمس الكون الرائع المريح للنفس.

ـ أما أنا. . فسعادتي بجانبك الآن اعتبرها جزءاً من الحلم، لأنني بعد ساعة أو أكثر سأفتقدك، ستعيدني إلى مكاني، وتذهب إلى حياتك وعالمك. أرأيت أن اتهامك لي بالرغبة في الاستحواذ، هو اتهام ظالم وباطل؟!

ـ ولكن الوقت لازال لنا. . فلماذا لا تروين لي حكايتك كلها، إذا كان ذلك لا يضايقك بالطبع؟

ـ ولكني سعيدة بملاذي إليك الآن. . فلا تحاول أن تعكر لحظة الصفاء والهناء هذه.

ـ أريد أن أعرف كل شيء عنك. ألم تلاحظي أنك ما تزالين لغزاً، أو فصلاً قصيراً من رواية طويلة؟!

ـ صدقني. . لم تعد لي سوى حكاية واحدة. . حكاية العمر كله: «أنت» ولكنك تتعبني دوماً، وتسحق أعصابي بهروبك واختفائك، وإهمالك المتعمّد لي.

ـ هل تشعرين في هذا السحق الذي تصفين بأنني شارفت حدود الكراهية فيك؟!

ـ ليتني أستطيع، حتى أستريح منك وأشفى. ولكنه شيء يشبه شعور الأم المعذبة بشقاوة طفلها، وركضه، وتحطيم الكثير.

ـ أنا حطمت شيئاً فيك عليك اللعنة؟!

لقد اختلطت أوراق عمري.. تماماً كأوراق الكوتشينة القديمة التي تكاد أن تبلى من كثرة الأيدي التي لعبت بها، ولعبت هي أيضاً ـ كرمز للحظ ـ بمن كانوا يعتقدون أنهم من أمهر اللاعبين، وأذكاهم.

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث

ـ ١ ـ

هل أبدأ حكايتي من بوابة بيتنا الكبير، عندما كنت طفلة.. أم أبدأها من بوابة جناحي المحدود في بيت أهل زوجي، عندما كنت في ثمالة طفولتي؟!

كلتا البوابتين.. كانت ذات تأثير في حياتي، ربما حتى الآن.

لكن بوابة بيتنا الكبير.. كانت تعني «جدي» يرحمه الله.

جدي.. كان اسمه «الحاج عبد الغفار الحامد».. طويل، عريض مهاب.. شيخ وقور يحفظ القرآن الكريم، ويلجأ إليه الكثير لحل مشاكلهم والتوفيق بين المتخاصمين، ولديه متجر كبير.. قبل أن يعرف الناس اسم «البقالة»، وفي صندوقه الخشبي دفتر صغير يضم أسماء العديد من أهل الحارة الذين يشترون منه السكر والشاي والأرز بالدين، والتسديد المريح، ويقرض من يحتاج إلى فلوس.. يفك بها عوزته.

جدي.. لم يتزوج إلا بامرأة واحدة، والكثير من أصدقائه وأقرانه تزوجوا عدة مرات وكانت جدتي تحترمه، وتهابه. وأنجب منها أبي ـ ابنه البكر ـ وولدين آخرين، وبنتاً واحدة، وكلهم كانوا يعرفون موعد عودته إلى البيت من طريقة مشيته، وخبطة عصاه.. فيتخذ كل واحد منهم مكانه!

وعندما شب «أبي» عن الطوق، ودرج إلى مراحل الشباب.. لم يطق أن يبقى مع أبي في دكانه الذي اتسع كثيراً. كان عمي الذي يلي أبي في السن هو ساعد جدي في الدكان، والبيع والشراء.. بينما «أبي» كان مكبًّا على الدراسة والتحصيل بتفوق. كان أساتذته يسمونه: «الذكي».. ولا يخالجه الاستحياء من هذه الصفة، بل كان يفخر بها ويشمخ.. وجدي يحذره بين وقت وآخر قائلاً: «أخاف عليك من الغرور.. ابتعد عن الغرور، وتشبث بالثقة».

لم أكن أعرف «جدي».. وفي ذلك العهد لم تكن هناك استديوهات للتصوير، حتى ملامحه لا أعرفها وإنما أتخيلها من وصف أبي، وعمتي لأبيهما، ولكني كنت أشعر بالاعتزاز بجدي.. أحببت شخصيته، ومهابته، وحب الناس له.

كانت عمتي تقول لي:

ـ إذا أردت أن تعرفي صفات جدك، فعليك أن تتأملي والدك.. إنه صورة طبق الأصل من أبيه.. حتى في محبته للناس.. لكن أباك زاد على جدك، بأنه ينزع دائماً إلى تجميع الناس حوله.. كان يحب أن يكون له أصدقاء كثر. ويعرف أن له أعداء.. خصوصاً بعد أن كوَّن ثروة طائلة، وتقلد مراكز كبيرة مرموقة.. فكانت براعته تتمثل في قدرته أن يستميل إليه حتى أعداءه، ويجعلهم يتحلقون حوله.. فلا تدري في هذا الجمع من بطانته من هو صديقه، ومن هو مناوئه الذي يجامله؟!

ألم يقولوا: إن المال يورث العداوة؟!

والجاه والمناصب أيضاً تورثان الحسد والغيرة.. ولهذه الأسباب، كان لا بد أن يكون لأبي أعداء.

وعندما مات جدي. . كان أبي في بداية تدرجه في الأعمال الحكومية، بينما عمي يعمل على توسعة التجارة، وعمي الآخر منشغل بالحياة.

وماتت جدتي إثر زوجها بشهور. . كانت تحبه كثيراً، حتى لتخال أنهما شخص واحد. . انشطر إلى نصفين. . واستقل «أبي» بزعامة العائلة بعد جدي. . كان هو الأكبر، والمهيمن. . صاحب الشخصية الطاغية على إخوته. واختفى صوت عصا جدي. . ولكن «أمي»، تقول لنا:

ـ أبوكم. . حل مكان والده. كان أنيقاً ، ومهاباً، ويلبس حذاء له صوت، يسمونه «الزقزق». . فكنا نعرف أنه عاد إلى البيت، منذ أن يضع خطوته الأولى ويجتاز بوابة البيت الكبير.

كان «أبي» يشبه جدي: طويلاً، ونحيلاً، وجاد القسمات، ونافذ النظرة، ولكنه لم يكن مخيفاً. . فالجميع في البيت يحبه، ويقلق لو تأخر عن موعد أوبته دقيقة واحدة. . فقد كان أيضاً دقيقاً في وقته ومواعيده.

ولكنه لم يكن مثل جدي في حياته الخاصة. . وأول اختلاف عن أبيه: أنه كان مولعاً بالثروة وبالجاه، و«بالعزوة» من حوله. وجدي كان يكتفي بمعنى الصداقة فقط.

وقد تزوج «أبي» بأمي قبل أن يتوفى جدي بعام واحد فقط. . ضغط عليه «جدي» وألح، حتى حاصره. . وأصر أبي أن يختار زوجته من بلد عربي آخر، لأنه يريد زوجة شقراء يتلاءم لون بشرتها مع سمرة بشرته!!

وأنجب من «أمي» أخي الأكبر «عبد الرؤوف». . ثم جئت الثانية بعد ميلاد أخي بعشر سنوات، وجئت بيضاء بلون أمي، وبعد عامين جاءت لنا أخت، هي الثالثة.

انشغل «أبي» بمستقبله، و بطموحاته، و بهوايته للمال والجاه والثروة.. فكان يتدرج في المناصب، ويتلألأ في هالة الذيوع والشهرة.. ساعدته على ذلك شخصيته القوية، وقراءاته المتواصلة، فقد كان عاشقاً للثقافة، وللكتاب.

مرة سألت «أمي» بعد وفاة أبي بسنوات طويلة:

ـ هل كنت تحبينه.. هل كان يحبك؟!

ـ قالت أمي: الحب في زماننا كان هو احترام الرجل الذي تتزوجه المرأة، واستمرار الحياة معه للأبد. وكان الخيط الرفيع الذي يؤكد الحب أو ينفيه هو في محافظة المرأة على بيتها، فإن لم تستطع ووقع الطلاق.. ثبت حينئذٍ أن الحب مفقود!

ـ قلت لها: هل كانت هذه هي قاعدة الحب في عصركم؟!

ـ قالت أمي: نعم.. فالحب هو العقل.

ـ قلت لها: حتى لو كان الزوج قاسياً، ومتسلطاً.. يهضم حقوق زوجته؟!

ـ قالت أمي: حقوق الزوجة.. كانت تتمثل في بيتها المفتوح، وتوفير ما تحتاجه، وقدرتها على أن تبقى علاقتها بزوجها سرية بينها وبينه، فالرجل يا ابنتي يحترم المرأة التي تفتح بيته، وتصون شرفه، وتربي أولاده تربية سليمة.

ـ قلت لها: والمرأة.. وما تريده من الرجل؟!

ـ قالت: يوه.. إنتو جيل تاني.. تعليم وفلسفة وكماليات، وملل.. أنا كنت ما أفتح الشباك بالشهر، ما كنت فاضية. شغل البيت كثير، وما عندي هذا الدلع اللي جاء مع الوسائل الجديدة.. كان كل شغلنا بأيدينا.. ومع ذلك.. كنا نلبس ونتنظف ونسرح شعرنا، ونجلس ننتظر سيد البيت حتى يعود.

ـ قلت لها: وعندما يعود.. قد لا يلتفت لزينتك؟!

ـ قالت: المهم إنه طيب وسالم، ويحب بيته!

ـ قلت لها ضاحكة: أنتم من أهل الجنة؟!

ـ قالت: بل حياتنا الماضية كانت هي الجنة.. الآن جهنم.. وجنون وجري و.. ربنا يستر! الله يعينكم يا بنتي على وقتكم!

ولكن... هل كان أبي مثل جدي في حياته الخاصة.. وكيف كانت حياته بعد ذلك؟!

* * *

ـ ٢ ـ

لم يكن أبي مثل «جدي» في حياته الخاصة، ولا حتى في حياته العامة.. ولكن الصفات التي تجمعهما كانت أيضاً متوافرة، بالإضافة إلى الشكل والطول والقسمات.

لقد ورث أبي عن «جدي» قوة الشخصية، والمهابة له. وورث عنه أيضاً: قدرته على سيادة رأيه عندما يسأل في حل مشكلة، أو يطلب منه التدخل للتوفيق بين شخصين مختلفين، وكان رأيه الذي يقوله أخاذاً.. كأنه يسحر المصغين إليه ببراعة منطقه وحجته، وورث عنه: تصميمه على تنفيذ ما يريد.. لا يمكن أن يتنازل بسهولة عن حقه، ومن الصعب أن يفرض عليه رأي أو تصرف لا يتفق مع ما يريده.

وعندما استرجع وصف أمي لرب الأسرة الكبير «جدي»، وقد كان هو

بوابة بيتنا الكبير.. ووصفها لطباع وتصرفات وشريط حياة أبي، فلا بد أن أتوقف عند فوارق عديدة بين الأب والابن.

وعندما أفكر في تلك الفوارق.. فإنني أربطها أحياناً بضرورة الفوارق بين الأجيال، وطموحات كل جيل، وحظ «جدي» من العلم والمعرفة، ودأب أبي على التعليم وتثقيف نفسه، ومطالب كل جيل في اهتماماته المادية.. فقد كان جدي «الحاج الحامد الكبير» قانعاً وسعيداً بتلك «البقالة» التي كانت تعتبر من الدكاكين الكبيرة، ولكني من خلال ما سمعته عنه.. أعتقد أن قناعته الأكثر كانت باستقرار أسرته، و«بالستر» في الرزق، وبالتوفيق الذي منحه الله لجدي، واستطاع به أن ينشئ أولاده بسيرة حسنة، وأن يربي ابنته ويزوجها و«يسترها».

وتلك هي ملامح الرضا التي كانت تأتي تعريفاً لمفهوم السعادة عند ذلك الجيل الذي عاشه «جدي» ولحق «أبي» بجزء منه.. وهو الجزء الذي اصطبغ به جانب من سلوك وتربية ونفسية أبي.. لذلك، فإن «أمي» ما تفتأ تردد في خلولها وحكاياتها لنا عن الماضي فتقول:

ـ الله يرحم أيام زمان.. كانت أيام القناعة والستر والمودة والصفاء والطيبة. الله يعينكم على زمانكم!

وينطلق «أبي» من هذا القالب الذي ولد فيه وترعرع.. ليدخل إلى جيله أو عصره، وينال من التعليم حسب نظام ذلك العهد ما يبلغ به إلى مستوى السنة الرابعة، ولم تكن هناك مدارس بالمعنى المتكامل، ولا أنظمة للتعليم، ولا جامعات بالطبع.

ولكن «أبي» بطموحاته الكثيرة.. استطاع أن يفلت من هذا القمقم!!

لقد كان «جدي» يعدّ المرات التي سافر فيها إلى خارج مدينته على

أصابع يده الواحدة، رغم أنه تاجر.

ـ تقول لي أمي: لقد جاء بعض أصدقاء «جدك» يعرضون عليه أن يسافر معهم إلى الهند لجلب بضاعة جديدة، ولكنه رفض.. كان لا يأمن البحر. وكان أيضاً ـ كما يقول ـ لا يطيق أن يبتعد عن زوجته وأولاده مدة طويلة، كان يحب «العِشرة» والالتصاق بالمكان الذي نشأ فيه.

لكن «أبي» يختلف.. ربما، لأن وسائل السفر في عصره بدأت تتطور، فاستطاع أن يقوم بأول رحلة له إلى «الشام» قبل وفاة «جدي» ليتزوج، فهو طوال عمره مع أبيه لم يستطع أن يتجرأ ويعلن عن رغبته في السفر.

مرة واحدة حاول فيها أن يقنع والدته ـ جدتي ـ لتكلم: «سيد البيت الكبير» بأن يوافق على سفره إلى القاهرة ليتعلم في المدارس المتطورة، ولم تستطع جدتي أن تعيد كلماتها على «جدي» بمجرد أن ارتفع صوته الأجش وهو يرد عليها قائلاً:

ـ بتقولي إيه.. أنت مجنونة؟!

ـ ولم تسمح «جدتي» لنفسها أن تجنّ مرة أخرى، ووئدت الأمنية في مهدها!

* * *

كانت المرة الأولى التي تفارق أمي فيها أبي.. بعد وفاة جدي.

ولكنها لم تستطع أن تعترض، أو حتى تطلب إليه أن يصطحبها معه. لقد قال لها. ليلة سفره:

ـ أنا بكره مسافر يا «زينب».

ـ مسافر.. رايح للمدينة المنورة؟

ـ لا. . رايح مصر. . عندي شغل هناك.

ـ ليه. . هُوَّ الشغل انتهى في بلدنا؟!

ونظر إليها بعينيه الصارمتين، دون أن يجيب. . واضطربت أمي، فآثرت الصمت والإذعان. . حتى إنها خافت أن تغضبه لو سألته عن مدة غيابه.

ـ قال لها وهو يودعها: تركت لكم المصروف عند أخي «سعيد» وهو يتردد عليكم حتى أرجع.

كان عمي «سعيد» هو الشقيق الثاني الذي يلي أبي، واتخذ مكان «جدي» في الدكان، وطوره وأحاله إلى عدة دكاكين بعد وفاة جدي، الآن. . عنده مجموعة من الـ «سوبرماركت» في عدة مدن من بلادنا. . نجح كتاجر، ولكنه لم يرزق إلا بولد واحد. . أصبح فيما بعد هو جزءاً من حكايتي. . أو هو بوابة جناحي المحدود في بيت الزوجية المؤقت!

ولم أكن أعرف شيئاً عن هذه الفترة. . ولكن «أمي» التي بقيت وفية لذكرى أبي حتى اليوم. . لا تتردد بين وقت وآخر عن سرد جانب من حياة الأسرة الكبيرة في تلك الفترة التي لم أولد فيها بعد. . حتى كأنني أراها أمامي، وأعايشها، وأعرف ملامح أفرادها الأوائل بدقة. . من كثرة ما أصغيت إلى حكايات أمي، وذكرياتها التي ترويها لي بشجن، وربما بدمعة تنفلت رغماً عنها!

* * *

وغاب «أبي» عن بيته في تلك الرحلة ما يقارب الشهر. . كانت أمي في أثنائها تحضن أخي «عبد الرؤوف» الطفل الصغير، وتكنس البيت ـ جناحها الخاص بها ـ وتغسل وتهبط في كل يوم إلى الدور الأرضي. . تنظف

«الديوان» الذي يستقبل «أبي» زواره وضيوفه فيه.. فهي لا تعرف متى يؤوب من رحلته.. لم يقل لها، ولم يكن من حق الزوجة آنذاك أن تسأل في مثل هذه الأمور التي لا ينبغي أن تتدخل فيها، ولكنها تتوقع في كل يوم أن يعود.. يطرق بوابة البيت الكبير. وتسمع وقع خطواته في الردهة الداخلية، وصوت حذائه «الزقزق» وتراه بقامته المديدة أمامها.. لتقر عينها وتهدأ، وتطمئن.

عفواً.. لم أصف لك البيت الكبير، وكيف أثر فيه حدث وفاة «جدي» فجعله أجنحة وأقساماً.

لقد كان تقسيم البيت الكبير من الداخل فقط.. أما الخارج، والمظهر.. فلم يحدث شيء يغير الصورة التي تعودها الناس وعرفوها عن بيت «الحاج الحامد».. ما زال هو البيت الكبير الشاهق بأدواره الستة، وبوابته الضخمة المشرعة، وما زال هناك «الرأس» أو الآمر المطاع الذي حل مكان «جدي» وهو أبي.. بحكم أنه أكبر الأولاد، وبما فرضه من قوة في شخصيته تضاهي قوة شخصية جدي، ففرض الاحترام له من الجميع.. حتى زوجتي أخويه أصبحتا تقولان له عندما تزوجتا من أخويه: «سيدي سالم».. تماماً كما ينادي زوجاهما على أخيهما، وكان أبي أيضاً هو صاحب الرأي الأول والأخير لإدارة هذا البيت الكبير، وحتى التجارة ـ بعد موت جدي ـ كان عمي الذي يصغره، لا بد أن يستشيره ويحصل على موافقته، برغم أن «عمي» لا يصغر أبي كثيراً، أما عمي الثاني.. فلم يكن يحدث «أبي» في شيء.. ولكنه كلما أراد مطلباً، يدفع بأخيه الذي يكبره إلى أبي ليأخذ موافقته.

لم يكن عمي الأصغر «سفيان» يكن كرهاً لأبي، فهو شقيقه، ولكنه لا يرتاح إليه كثيراً، يصفه بأنه يتسلط أحياناً ويفرض رأيه مثل «جدي»، وكان

عمي الأوسط «سعيد» وعمي الأصغر «سفيان» شخصين على قلب واحد.. لهما أسرارهما الموحدة، وتفاهمهما الكامل.. كأنهما معاً الشقيقان وكأن أبي من أم أخرى.. يشعران به متفوقاً عليهما، وأحياناً يفرض سلطانه بالكلمة الجازمة التي لا يقبل فيها النقاش.

وعندما انتقل «جدي» إلى مثواه الأخير.. جلس عمي «سعيد» وعمي «سفيان» مع والدتهما التي لم تحتمل كثيراً ففارقت الحياة.. وجاءا إلى أبي ذات ليلة على استحياء وعمي «سفيان» عابس لكنه لا يستطيع أن يرفع الصوت في حضرة أبي، وتكلم عمي «سعيد» قائلاً لأبي:

ـ سيدي سالم.

ـ نعم يا سعيد.. خير!.

ـ عفواً.. يعني لو سمحت لنا بكلمتين.. نستشيرك يعني يا سيدي.

ـ تكلّم.. خيراً إن شاء الله.

ـ يعني.. نقصد أنا وأخويا سفيان، أن.. يعني!

ـ عجباً.. أنت مضطرب!

ـ لا يا سيدي.. يعني أقول أنه.. بعد وفاة الوالدة الله يرحمها، و.. البيت أصبح فاضي، عفواً، يعني زوجتك أم «عبد الرؤوف» كبر البيت عليها، والحمل صار ثقيلاً.

ـ ما هو فيه خدامين. ولا إيش تقصد؟!

ـ أقصد.. إني بدي أتجوز.

ـ ها.. لكن «سفيان» ما زال صغيراً، لم يكمل الدراسة.

ـ وما دخل سفيان بزواجي؟!

ـ يعني، قلت يمكن متفقين كمان على كده.. أصلو اتفاقاتكم واحدة!

ـ لا ياسيدي.. سفيان يكمل الدراسة، وأنا أتجوز علشان استقر، وأهو.. أنا باتعب في الدكان وأحتاج إلى زوجة.

ـ خلاص.. نشوف أختنا «سعاد» تبحث لك عن بنت الحلال.

ـ طبعاً.. الزواج، و..

ـ المصاريف قصدك؟.. ولا يهمك، نحن واحد.

ـ أقصد البيت يا سيدي سالم.. لو توافق أنا آخد الدور اللي بعدك و«سفيان» أخونا يأخذ الدور اللي بعدي. وأنت في الدور الأعلى.

ـ ها.. فهمت. ولكن كيف يعيش «سفيان» في الدور اللي بعدك لوحده؟!

ـ لا، ما يسكن.. بس نسميه له، ونحن زي ما احنا عايشين.. ناكل سوا، ونجلس سوا.. النوم بس.. النوم يا سيدي سالم.

ـ هادا الكلام وراه كلام.

ـ أبداً والله يا سيدي سالم.

ـ على أي حال.. أنا ما أسمح أن البيت الكبير هذا يتفكك، أو يتبعثر.. اعملوا مثل ما بدكم، لكن البيت الكبير يبقى أمام الناس واقف.. شامخ، كأنه في عهد «الحاج الحامد».. مفهوم؟!

ـ مفهوم يا سيدي سالم.. إنت سيدنا وأخونا الكبير وبركتنا.

ـ بكره على الغداء نفتح موضوع زواجك «يا سعيد». . روح لأختنا «سعاد» وخليها تجي تتغدى معانا بكره هنا مع زوجها، ونفوضها في الموضوع!

وهكذا. . بدأ الشرخ الأول في بناء البيت الكبير!!

* * *

ـ ٣ ـ

بدأت أكبر. . عندما بدأ أبي يكبر هو الآخر.

كان الفارق في السن بيني وبين أخي «عبد الرؤوف» عشر سنوات. . ولكن الفارق بيني وبينه عند أبي كان مختلفاً أيضاً.

إن أبي يحب البنات، واستمر هذا الحب فيه حتى رحل عنا.

كنت عنده ـ كما تصفني أمي ـ «عين ليلى»، ولا بد أن هذا الوصف يشير إلى أن أجمل العيون هي عين «ليلى» أنا ـ ولا غيري، ولكني سألت أمي مرة عن سبب التسمية، أو المعنى من هذا الوصف، فقالت مبتسمة:

ـ أنا أيش دراني. . سمعت أمي تقول كده، فقلت!

ـ لكن ما سألتيها عن المعنى؟!

ـ أسألها ليه. . لازم معنى حلو!

كانوا طيبين جداً، وبسطاء. . بدون تعقيد، وبدون إلحاح في الأسئلة. ولو أنني كنت أقول لنفسي أحياناً: هذه ليست طيبة. . إنها تبلغ بهم حدود البلاهة. . واعتذر لجذورنا من هذه التهمة الوقحة. . فلعلهم كانوا يبتعدون

عن التعقيد. . وكما نرى الآن، كل سؤال ينتصب في أذهاننا يتحول إلى ما يشبه الدوامة التي تتلف العقل وتفسد الروح.

تمنيت في مرات كثيرة لو عشت ذلك العهد ببساطته ونقائه ومودته!

ولكني أعود، و«أتساءل»: هل أخضع لذلك اللون من المعاملة التي كانت تلقاها أمي، أو أية زوجة أخرى من الرجل. . الذي يبدو متسلطاً، وسيداً مطاعاً دون اعتراض؟!

تقول لي أمي عندما استفزها وأصارحها بأفكاري هذه:

ـ برغم اللي بتقوليه، ورفضك أن يكون الرجل هو السيد، وهو كل شيء. . فقد كان الزواج معمِّراً. . المرأة تدخل بيت زوجها، ولا تخرج منه إلا إلى القبر!

ـ أرد عليها: يا ساتر. . إيش التصوير هذا؟!

ـ تبتسم وترد: عاجبك إن البنت ما تجلس مع زوجها إلا بعض الشهور فقط في أيامنا دي. . هادا من ايش، ما هو من «التطور» اللي بتقولي عليه؟!

ـ أقول لها: يا ماما. . التطور، أو التعليم ما لهم دخل في المشكلة دي.

ـ تقول ساخرة: أجل. . ايه هيا المشكلة يا حبة عيني؟!

ـ أقول لها: المشكلة في الناس. . في الحياة والماديات اللي طغت!

ـ ترد قائلة: يعني التطور!

وصمتت برهة من الوقت. ورأيت دمعة في عينيها. قلقت عليها، فسألتها:

ـ ما دخل التطور بالدموع الآن؟!

ـ تقول وهي تمسح دمعتها: لو كان أبوك موجود.. كان ما خلاكي كده.. لا إنت مطلقة. ولا إنت متزوجة!

ـ أقول لها: دي مشكلتي.. وأنا أحلها.

ـ بس. هُوَّ دا اللي نستفيده من التطور!

وأخذتني كلمة «أمي» القهقرى.. عدت إلى الماضي، عندما كان عمري ستة أعوام فقط!

كان «أبي» يدللني كثيراً.. في الأوقات التي تسمح له مشاغله بالجلوس إلينا، أو في الأوقات التي كنت فيها أقتحم عالم أبي، وأفرض نفسي عليه، ولكنه تدليل في حدود!

ـ كان يقول لي: انت جريئة وعنيدة.. تنفذين ما تريدين!

كنت مثله في هذه الصفة، وأيضاً.. مثله في قوة الشخصية، في عشقي للقراءة، وللثقافة، وللموسيقى.

أذكر ما قالته لي أمي عن أول رحلة قام بها أبي إلى مصر، قد عاد بعد السفر الطويل وهو يصطحب معه صندوقاً خشبياً كبيراً مليئاً بالكتب التي اشتراها من مصر. وحاول هناك أن يتعرف على مجموعة أدباء وفنانين، وفرض شخصيته، أعجبنا بنقاشه وحضوره الثقافي.

في كل رحلة يذهب فيها إلى أي مكان.. كان لا بد أن يعود بحصيلة من الكتب. وقد أخذت منه هذه الخصلة الجميلة.. لا بد لي أول ما أهبط إلى السوق في أي بلد أذهب إليه.. أن أدخل المكتبات وأختار الكتب.. والإضافة التي جدّت عندي بعد أبي، أنني أشتري مع الكتب: الأسطوانات

وأشرطة الفيديو الآن، وأشرطة الكاسيت لأحدث الأغاني.. حتى لو لم أفهم كلماتها.. الموسيقى تسحرني، تأخذني إلى دنيا ملونة كقوس قزح.. أحلق فيها، وأحلم، وأحيا الحلم في أعماقي!

وأتذكر أمامي عندما كنت في السادسة.. أتقافز في البيت الكبير كما فراشة جذلى.

كل ما أطلبه.. كان أبي يأمر بإحضاره، ورغم شغفه واعتزازه بأخي «عبد الرؤوف».. إلا أن «عين ليلى» كما تقول أمي، كنت أنا.. أما أخي «عبد الرؤوف» فكان يعده كرجل لمواقف الصلابة، وللعلم، وليكون هو الواجهة المشرقة في الجيل القادم لهذا البيت الكبير. وتأتي أختي الصغرى بعد ذلك لتتقافز كفراشة.

عندما كنت في السادسة، كان أخي قد بلغ السادسة عشرة، وهو متفوق في دراسته ومن الأوائل.

وفكر «أبي» في شيء تمناه وهو في سن ابنه الآن، ورفض «جدي» أن يحققه له.. وفجأة.. فجَّر أبي أمنيته خبراً في البيت.. رقص لها أخي «عبد الرؤوف» وبكت أمي أمام المفاجأة، ولكنها لم تكن تستطيع فعل أي شيء!

ـ لقد قال والدي: سأبعث «عبد الرؤوف» إلى مصر ليواصل دراسته، ويدخل الجامعة.

ـ قالت أمي: كيف يروح للغربة.. مين يرعاه هناك، مين يحن عليه؟!

ـ قال أبي: رتبت له كل شيء.. وهو رجل، من المفروض أن يبدأ في مواجهة الحياة ويتعلم من تجاربها.

ولم تفلح اعتراضات أمي. وسافر «رؤوف» كما كنت أناديه.

وهكذا.. تربعت في قلب أبي بالطول وبالعرض.. أنا وأختي «البنت» أحلام.

كان أبي لا يصعد إلى الدور الأعلى إلا عندما يشارف الليل على منتصفه، لينام.. فكنت أعرف موعد بدء جلوس أبي في «الديوان» بالدور الأرضي، بعد صلاة المغرب، فأهبط إلى هناك.. حيث أرى أبي يتصدر المجلس، ويبدأ زواره وأصدقاؤه في التوافد.. خاصة بعد أن لمع اسم أبي في المجتمع، وأصبح من ذوي المراكز. وشاع غناه.. فكان يقصده أيضاً أصحاب الحاجة، ومن يحاولون التقرب إليه زلفى.

أصبح ديوان أبي معروفاً.. فأدخل أنا هذه الفراشة الملونة المتقافزة رأساً إلى صدر المجلس.. لا أكترث بتحذيرات أمي من النزول عند الرجال، لعلني من صغري، وفي هذه السن كنت أشعر بالميل أكثر إلى الرجال فيما يبدو.. كأن أنوثتي متعجلة!

وأركض إلى أبي وأرتمي في حضنه، ثم أجلس بجانبه.. أتفحص وجوه القادمين. وكان «أبي» يدمن شرب «الشيشة».. ويتعاطى «الجراك» الذي وفد إلينا من الهند، وغرف وشاع.. ويتطلب وجود شيشة طويلة كبيرة، يمتد منها «لَيْ» طويل يبلغ إلى صدر المجلس حيث يتربع أبي، ويتحدث في التجارة، وفي الأدب، وفي الشعر، وفي العادات والتقاليد، في الفنون، والموسيقى، أما أختي «أحلام» فكانت منذ صغرها أثقل مني مع الرجال!

كانت «الشيشة» هي موضة المجالس الحديثة والمرفهة، ومن يشرب «الشيشة» يعتبر من الأسر الأرستقراطية.. وأعمد إلى معابثة أبي وهو يضع «اللَّيْ» في فمه، فأسحبه منه، وكان يبدو سعيداً بشقاوتي هذه.

ولكن هذا المجلس ـ بعد ازدياد مسؤوليات أبي ـ لم يعد يلتئم كعادته كل ليلة، في وقته المحدد والمعروف. . فقد زادت رحلات أبي. . وكثرت سفراته إلى الخارج. . وتضاعفت مسؤولياته والتزاماته.

وبدأ تمتعي بأبوته يتقلص. . لم نعد نراه كثيراً، فكان يعود بالليل متأخراً، وكنت أذهب إلى المدرسة قبل أن يستيقظ فلا أراه، ولم تكن مدرسة بالمعنى العصري!

اشتقت إلى أبي كثيراً. . وأخذ هذا الاشتياق يتطور ويتفاعل في نفسي كفتاة. . بدأت تنسلخ تدريجياً من مراحل الطفولة، وتدرج إلى الشباب!

***

أتذكر الآن ذلك الحنان الذي كان يدفقه علي، وتقول له أمي:

ـ لا تدلع البنتين كثير، (بعدين يخسروا لما يكبروا)!

ـ يرد عليها: البنات همَّ اللي يتدلعوا والأولاد يتربوا.

ـ تقول له: بس البنت إن ما اتربت تخسر!

وينظر إليها أبي بنظرته الصارمة المعتادة معها، فتسكت.

كنت أحب أن أجري نحوه وهو يدخل إلى الصالة الكبيرة، وأتعلق برقبته، وأقبّله في وجنته. واستمرت معي هذه العادة حتى بلغت مرحلة المراهقة، ثم النضوج. . وحتى قبل أن يودعنا للأبد، وهو في سنه الوقور، وأنا في الخامسة والعشرين، كنت أتعلق به، وأحضنه مثل الطفلة الصغيرة التي كانت في السادسة، وأقبّله، ويأخذني إلى صدره، فأرتاح وأهدأ.

لكنني رغم هذا الحنان الذي أعثر عليه، كلما التقيت بأبي. . فأنا لم أهنأ بأبوته لي. كانت مشاغله تبعده كثيراً عن البيت، وكانت أمي ضعيفة أمامه. .

لا يمكنها أن تحتج. أو تطالبه بنصيبها من حياته ووقته.. وهذا الضعف في أمي أمامه.. دفعها لأن تتحول إلى قسوة علي في بعض الأحيان في غيابه.. جعلها الضعف تبحث عن التعويض داخل البيت.. فكانت مع زوجتي عمي «سعيد وسفيان» صارمة، ومديرة بيت صعبة.. تسخرهما ليقوما بمسؤوليات فوق طاقتهما.

وما لبث عمي «سعيد» أن ترك البيت الكبير، مستقلاً بأسرته وبيت خاص، ثم لحقه عمي «سفيان» بعد أن ترك الدراسة واتجه هو الآخر للعمل التجاري، وتزوج.. فاستأجر بيتاً بعيداً عن البيت الكبير، الذي أصبح خالياً بعدهما إلاّ من أمي، وأنا، والخدم والسائق.

كانت أمي تقسو عليّ كلما كبرت عاماً في عمري.. فكلماتها لي قذائف، ولكني أحبها فهي أمي، وصديقتي.. وشعرت وأنا أكبر، وأخي «رؤوف» ما زال في الغربة يدرس بعيداً عنها: أنها وحيدة.. تزداد آلامها النفسية يوماً بعد يوم.. وهي تكتشف أن أبي يبعد عنها روحاً بل وجسداً، فأصبحت لا تراه إلا كما يرى الجرسون في الفندق النزيل، أو كأن هذا البيت الكبير الذي كان يموج بالحركة، وبالناس.. قد غطّاه الصمت، وعنكب الصدأ على حيويته.. ذلك أن «سيد البيت» أصبح يخرج من الصباح، ولا يعود إلا ليأكل، أو لينام، أو ليستقبل زائريه في «الديوان» الكبير بالدور الأرضي!

لا بد أن أجد العذر لأمي في حالتها النفسية هذه، وأقف بجانبها.. رغم أنني ملتصقة بأبي، أحبه، وأشتاق إلى ذراعيه وحضنه.

ولكن ما حدث بعد ذلك.. كان هو الكارثة!!

* * *

ـ ٤ ـ

غاب أبي عنا، من البيت شهراً كاملاً.

كنت قد درجت إلى مرحلة المراهقة، وخطوت إلى السادسة عشرة.. وأخذت أسئلتي تكثر، وأمي تضيق بتلك الأسئلة، لا تريد أن تجيبني عنها بصراحة، لئلا تحدث صدمة نفسية لي.

وهي لم تكن متأكدة من الأجوبة التي كانت تعتقد أنها الرد على أسئلتي.. بل كانت تحدس، تدلها التلباثية أو الحاسة السادسة، وتطعن قلبها.. ولكنها تكتم ذلك كله حتى تتيقن!

تتيقن؟!

وحتى لو انجلى الموقف عن اليقين التام عندها، فماذا كانت ستفعل.. هي الضعيفة أمام أبي؟!

إنها تعيش هذه الفترة في دوامة تعصف بها، وليس في يدها أي دليل على توقعها، وبعض الظن إثم.. ولكنها بقلب المحب تحاور نفسها، ولا تجد عندها إلا اليقين فيما تظنه، أو حدست به.

وعدت مساء ذلك اليوم من بيت عمتي.. فقد ذهبت إليها منذ الصباح، وتغديت معها.. كنت أحبها كثيراً، أستنشق منها رائحة أبي التي تعيد حيويتي، بعد أن تفاقم شوقي له وحنيني إليه في رحلته التي طالت.. حتى خلت أنه مفقود.

لم أكن أصدق أن رجلاً يطيق البعاد عن زوجته وأولاده شهراً كاملاً دون أن يحن إليهم، أو حتى يسأل عنهم، أو على الأقل يعرف أنهم سيقلقون عليه.

كنت ألح في سؤال عمي «سعيد» كلما جاء إلى بيتنا، ليعرف مطالبنا وحاجتنا كالعادة كلما غاب أبي، وأوصاه بذلك، ولكنه هذه المرة.. رأيت في ملامحه الهروب من أسئلتي، بل الإحراج الشديد..، يحاول أن يختصر الكلام معنا بكلمات معتادة:

ـ إنه بخير.. لا تقلقوا عليه، هذه عادته.

ولكن ذلك المساء الذي عدت فيه من زيارة عمتي.. كان غير عادي..

رأيت أمي متجهمة، صامتة.. ولمحت في عينيها دمعة تجول حائرة، تحاول أن تمنعها أو تداريها.

فزعت.. أسرعت إليها بعباءتي قبل أن ألقيها بعيداً. أمسكت بيدها قلقة، أمرر أصابع يدي على وجهها، وأسألها:

ـ ما بك.. ماذا حدث، لماذا تبكين، هل حدث لأبي مكروه؟!

ـ لا تفزعي هكذا.. أبوك بخير. اهدئي.

ـ أهدأ وهذه حالتك.. أريحيني واخبريني ما هي الحكاية؟!

ـ لا شيء.. ادخلي غرفتك، وبدلي ملابسك.

إنها تتهرب هي الأخرى.. بنفس الطريقة التي يعاملني بها عمي «سعيد» في المدة الأخيرة.

وانتابتني الحيرة.. فأنا أحب «أمي» أكثر من عمري، برغم قسوتها عليّ أحياناً بالكلام، وكيف لا أحبها وأنا معها كصديقتين؟.. تصارحني، وتمازحني، وكانت تطلب مني أحياناً في الليالي التي يسافر فيها أبي، أو يتغيب أن أشركها معي فيما أقرأ، فقد كانت قراءتها ضعيفة. وأضحك لطلبها

هذا.، ولكني أحس بوطأة الملل على حياتها، وفراغها من أهم ما يشغلها، وبدلاً من أن تجلس الأم وتروي لطفلتها حكاية جميلة، أو تقرأ لها من كتاب حتى تنام.. إلا أنني كنت أتبادل معها هذا الدور، فتجلس بجانبي تصغي وأنا أقرأ وأشرح لها بعض ما يستغلق عليها فهمه.. وكثيراً ما اكتشف أنها نامت بجانبي وأنا أقرأ على مسامعها، كالأطفال!

كنت أسميها «الفيلسوفة».. فرغم أن تعليمها متواضع، لكنها كانت لماحة وذكية، وتستطيع أن تستنبط معاني جديدة، وتتوصل إلى رموز في القصة التي أقرأها عليها، وتناقشني فيها، ويمتد نقاشنا في الحياة والناس، وفلسفة الصبر ومعاني الحب.

اكتشفت مفاهيم عديدة في عقلية «أمي» بعد زمن طويل.. عندما نضجت وكبرت وحفر العمر على وجهها وجسدها أخاديده، وبتنا هي وأنا يضمنا بيت واحد، لا يشاركنا أحد فيه.

وكنت أسألها أحياناً:

ـ من أين لك كل هذه الفلسفة والفهم يا ماما؟.. أنت ولا أحسن كاتب أو فيلسوف؟!

ـ تبتسم وهي تجيبني: الفضل لك.. هل نسيت وأنت تقرئين لي من كتبك؟ ثم لا تنسي التجربة يا بنتي، والعمر الطويل.. هادا الشَّعْر لم يتحول إلى بياض فضي، وهذه التجاعيد كلها لم تأت من فراغ، أو فجأة.. ولكن الحياة هي أكبر معلم.

ولكن ذلك المساء الذي عدت فيه من بيت عمتي، كان مختلفاً، أو لعله كان بداية تجاعيد الروح والجسد في «أمي».

وعدت إليها بعد أن استبدلت ملابسي، وصنعت لها كوباً من الشاي الأخضر الذي تحبه.. سكبته لها في كأس كبيرة كما تعودت. وجلست بجانبها، أتلمس شعر رأسها وأقبّل يدها.. أنتظر أن تطلق إسار ما تحبسه بين ضلوعها.

وأثمر ضغطي عليها بعد كأس الشاي الأخضر. فانهمرت دموعها بلا نشيج، بل بصمت جليل مهيب. وغرقت حدقتاي بالدموع وأنا أسألها. وتكلمت:

ـ اسمعي يا ليلى.. سأقول لك خبراً، ولكني أثق أنك كبرت.. لم تعودي طفلة.

ـ ماذا حدث يا حبيبتي.. أرجوك بدون مقدمات؟!

ـ لقد جاءني اليوم عمك «سفيان»...

ـ قاطعتها: عمي «سفيان» رجل المشاكل، إنه لا يحب أبي.. هل تذكرين؟!

ـ لا يا «ليلى».. سفيان عمك، والظفر لا يطلع من اللحم، والعشرة يا بنتي ما تهون إلا على ابن الحرام، وقد كنا معاً في بيت واحد.. كنت مثل أخته الكبرى. وقد جاءني يبكي كالنساء.

ـ لماذا.. هل حدث شيء لزوجته؟!

ـ بل.. يبكي من أجلي وأجلك. أخبرني أن علماً أكيداً بلغه.. بأن والدك.. تزوج!!!

انخرطت أمي في عويل هذه المرة، بصوت مرتفع ونشيج. بكيت معها.. فلم أزل طفلة في السادسة عشرة. ولم أدر ماذا أفعل، وماذا أقول.

ولكني حاولت لحظتها أن أتمالك نفسي، فقلت لها:

ـ ما هو معقول.. تلاقي عمي «سفيان» يبغى يشوّه سمعة أبويا.

ـ ليه يا بنتي.. دا أخوه برضه، وأبوك هُوَّا اللي ربّى سفيان وعلمه، وكمّل واجب جدك. وعمك سفيان ما يكره أبوك.. لكن الحقيقة ما تخفى مهما حاول الناس أنهم يخفوها.

ـ إيه هوّا دليله؟!

ـ أبوك يا ليلى.. رجع البارح من السفر، وحتى الآن ما جانا، ولا اشتاق لنا.

ـ وأبويا جالس فين.. ما هو ده بيته، حايروح فندق يعني؟

ـ لا.. يروح البيت الجديد.. بأقول لك اتزوج وجاب معاه زوجة جديدة صغيرة شابة من مصر.. من يوم ما سافر اتزوجها، كان مرتب من الأول، وجلس معاها الشهر.

ـ شهر العسل يعني؟!

ـ أهل بره يسموه كده.. وخلاّنا نحن هنا في شهر بصل!

ـ بس أبويا ما هو كداب ولا يخاف، لما بيعمل حاجة بيقول عليها.. ليه عمل كده؟!

* * *

لم أنم تلك الليلة.

كنت أفكر في أمي الحزينة الدامعة. وكنت أسترجع ملامح أبي وشخصيته، وكأنني أخاطبه، وأحاكمه. والدموع تملأ عيني:

ـ ليه كده يا بابا. . ليه؟!

استعدت بمداركي المحدودة في تلك السن صوراً كثيرة من حياة أبي داخل البيت. . تغيبه الدائم، ومشاغله، والهوة التي تزداد اتساعاً مع الأيام بينه وبين أمي. . كأنها لم تكن زوجته وشريكة عمره. . بل أخته، أو حتى مجرد مديرة منزل. . تطهو له الطعام، وتغسل ملابسه، وتربي له أطفاله.

ـ وتساءلت: هل أخطأت أمي؟!

لا أدري. . ما زلت صغيرة على معرفة واجبات العلاقة الوثيقة بين الزوج والزوجة، ولكن. . لا بد أن تكون هناك أسباب!

ترى. . هل هو الاختلاف الظاهر بينهما في المدارك. . فأبي متعلم، وطموح، وقارئ جيد وأمي تفك الحرف، ولا تعرف من جديد الدنيا شيئاً، فكيف كانا يتفاهمان، وما هي الأمور التي كانا يتحاوران فيها؟!

ولكن. . ليس ذنب أمي، فعندما زوجوها لأبي لم يأخذوا رأيها!

كان المقياس لذلك الجيل: أن تكون الزوجة مطيعة، ربة منزل. . تجيد فنون الطبخ وتحافظ على بيتها، وصالحة لإنجاب الأطفال مثل معامل تفريخ الدجاج!. . أما التعليم، فلم يكن شرطاً، ولا قيمة له كمطلب في المرأة، وأما الجمال. . فقد كان من ضروب الحظ، وكما يسمونه: «شختك، بختك»!

وملأ وجه أمي سواد عيني. . إنها ذات وجه مليح، طويلة، شقراء، رشيقة الجسم حتى الآن، فهي لم تنجب سوى «رؤوف» وأنا، وأحلام. . وتوقفت عن الإنجاب!

صحيح. . لماذا لم تنجب أمي سوانا؟!

حكمة ربنا.. أم تراها حكمة أبي الذي هجر أمي، أو تجنب الإنجاب منها؟!

على أيامهم لم تكن هناك حبوب لمنع الحمل، كان الرجل هو الذي يتحكم، لكني لم أشك يوماً أن أبي كان يكره أمي.. فرغم أنه جاد في كلامه معها ـ أمامنا على الأقل ـ لكنه كثيراً ما كان يلاطفها ويمازحها ونحن نأكل، أو نجلس لشرب الشاي.. فما بالك عندما يكونان معاً؟!

قالت لي أمي ليلتها ما اعتبرته هي حكمة بليغة، تقال في مثل هذه المواقف:

ـ اسمعي يا بنتي.. الراجل لما ياخذ زوجة أقل منه في العلم والمستوى يقنع بها إذا كانت حياته محدودة ومتوسطة الحال.. لكن لما يزيد ماله، ويلمع جاهه.. يبطر، ويفتش عن واحدة تفهمه.. أبوك معذور، وأنا ماني ناقمة عليه.

ـ قلت لها يومها: طيب.. والبنت لما تاخذ راجل أقل منها في العلم والمستوى؟!

ـ ابتسمت وقالت: يمكن هادا يصير في زمانك يا بنتي، لكن لو حصل ده.. راح تتعذب البنت ويضيع الراجل، لأن البنت سريعة الغرور، ولا بد أنها تفكر في واحد بمستواها في العلم والجاه أو القيمة الاجتماعية.

ـ قلت لها: دي ما هي قاعدة.

ـ قالت: أصابعك ما هي سوا، والناس ما هم سوا، إنما المعادلة هنا صعبة!

ولم أعثر على هذه المعادلة.. عندما كبرت وتزوجت، وطلقت،

وأحببت، وتعلمت. لقد عثرت على الفهم الذي يؤكد لنا أننا نخضع للسالب والموجب باستمرار!

* * *

ـ ٥ ـ

لم تجف الدموع من عيني بعد، فقد كانت حالة «أمي» قاسية جداً، إنها لا تبكي كثيراً. . بل هي تكبت أوجاعها بين ضلوعها، وهذا هو العذاب الأعظم، لو كانت «أمي» تبكي، وتترك لدموعها العنان، لارتاحت، ولنفثت آلامها ومعاناتها العظيمة. . لكنها تطوي محنتها في صدرها، وترفض حتى الشكوى والبوح.

خفت على «أمي» من الانهيار. . فهي عاطفية، وعفوية، ورقيقة. . تبدو كغصن شجرة طري اقتلعته الريح، ورمت به إلى منحدر شلال منهمر. . فكان لا بد لي أن احتضنها، وأقف بجانبها، وأخفف عنها مصابها. . برغم يفاعة سني وتجربتي.

وكان حبها الكبير لأبي يمنع عنها غارات الحقد عليه. . بالإضافة إلى ما تعوَّده جيلها، وما عرفته عن جيل أمها وأبيها عن زواج الرجل بأكثر من واحدة، وأن ذلك يحدث طبيعياً، ومن حقوق الرجل القادر على تعدد الزوجات ـ من قدرته المالية ـ تعتبر ما حدث هو لا أكثر من صورة تتكرر في مجتمعها، في جيلها، وقبل ذلك في جيل أمها التي رضيت بالحياة مع والدها بمشاركة زوجتين أخريين في زوجها!

وعرفت بعد سنوات ـ نضجت خلالها وكبرت ـ أن «أمي» كانت تحرص

على إبعادي عن النقطة التي قد أبلغها، فأكره فيها «أبي» بسبب ما فعله بأمي، وقد نجحت في ذلك بكلامها الذي لا ينتهي عن عاطفة أبي، وقوة شخصيته، وتعليمه، وحنانه برغم مسؤولياته.. فكنت في أكثر الليالي، وحينما أضع رأسي على الوسادة أتخيل أبي.. أسترجع صوته، ومواقفه، ورجولته، وهيبته في العائلة كلها، وأستعيد مشاعره الخاصة التي كان يمحّضني إياها وحدي، وكانت «أمي» تقول مبتسمة:

ـ اعتزازي بأبوكم ما أقدر أوصفه!

ولف رأسي سؤال مفاجئ ذات ليلة، وأنا أتذكر «أبي» وأشعر نحوه بشوق يتدفق بلا حدود:

ـ ترى.. ألا يشعر بالشوق لي بعد غيابه عنا أكثر من شهر؟!

ولا أستطيع أن أكرهه.. وأحاول أن أجيب عن سؤالي بنفسي نيابة عن «أبي».

ثم ما يلبث أن يثور في داخلي سؤال أكثر عنفاً، واختباراً لمشاعري نحو أبي، فأهمس لنفسي:

ـ قد ينساني لفترة لا تطول، وهو منشغل بالفرح مع العروس الجديدة. إنه لن ينكرني في أعماقه، ولكن.. كيف سيكون حجمي في عواطفه بعد أن تأتي له الزوجة الجديدة بطفلة تشغله.. هل تأخذ تلك البنت محبته لي إليها وتحتل مكاني؟!

لقد عذبني هذا السؤال ليالي عديدة.. حتى جاءت تلك الليلة التي سمعنا فيها خطوة «أبي» في ردهة البيت وصوت حذائه الذي «يزقزق» حسب

تعبير أمي، قفزت من مكاني راكضة.. يشحذني أكبر فرح شعرت به في عمري الغض آنذاك، ورميت نفسي في أحضانه، وحفرت رأسي في صدره العريض.. ولأول مرة تذوقت طعم دمعة الفرح.. لم أكن أدري أنها بذلك المذاق العجيب.

ولاحظت أن «أبي» لم يتطلع إلى وجهي إلا مرة واحدة، وأشاح نظراته عني. تراه هل كان خجلاً مني، أو معتذراً لي؟!

أما «أمي».. فقد هرعت إليه، وتلقفت «مشلحه»، وسارعت فأحضرت وسادتين وضعتهما على يمينه، وهي ترسم ابتسامة عجيبة على شفتيها.. كأنها تنحتها فوق وجهها.

والتفت «أبي» نحوي، وقال بهدوئه وهيبته:

ـ هاتي الشنطة الخضراء يا ليلى.

وأخرج منها الكثير.. أقمشة فساتين، وحلي من الذهب وزعها على أمي، وعليّ، وعلى أحلام. ثم أدخل يده في جيبه وأظهر «علبة» من القطيفة الحمراء.. فتحها وناولها لأمي، وندّت مني شهقة إعجاب.. فقد رأيت داخل العلبة خاتماً من الذهب المرصع بالألماس.. أعطاه لأمي وهو يقول.. كأنه يسترضيها:

ـ هذا ليس قيمتك، فأنت زوجتي الأولى، والأصل، وأم ولدي الكبير وابنتي الأحلى ليلى، وأحلام.

ـ قلت له متخابثة: هل أنا وأحلام الأحلى فعلاً.. أم ستكون هناك..؟!

ـ قاطعتني أمي قائلة بزجر: بنت.. عيب، أبوك يحبك.. أنت «لؤلؤة» عقله! والتفتت نحو أبي بنفس تلك الابتسامة تقول له:

ـ ربنا يخليك لنا يا أبو عبدالرؤوف.. إنت خيمتنا وتاج راسنا!

أشفقت على «أمي» في تلك الليلة، فقد كانت تكابر، وتحمِّل نفسها فوق طاقتها.

لكنها قالت لي بعد سنوات في ليلة شتائية باردة، وأنا أدلك قدميها اللتين تشكوان من آلام الروماتيزم:

ـ كان ذلك الموقف صعباً عليّ يا ابنتي، ولكن الأصعب هو أن أفقد والدك، كانت المرأة في زماننا تحرص على أن تكون كل حياتها لرجل واحد.. والمؤلم والقاسي أن تصبح المرأة بين فترة وأخرى في حضن رجل آخر!

ـ قلت لها: حتى لو لم يتفقا، وكانت حياتهما جحيماً؟!

ـ قالت: كل شيء له حد، ولكن لا تنسي أن الرجل كان رجلاً بمعنى الكلمة..

في مواقفه، وكلمته، ومعاملته!

* * *

وطرأت على خاطري فكرة جريئة، صممت أن أنفذها..

وانتظرت موعد قدوم «أبي» إلى بيتنا، فقد اتفق مع «أمي» على أن يَعْدِل.. فيأتي إليها ليلة، ويذهب إلى الأخرى في الليلة التالية!

وفاجأت «أبي» بفكرتي، أو برغبتي قبل خروجه من عندنا في الصباح.. طلبت منه أن يأذن لي بالذهاب إلى بيته الثاني، لأتعرف على زوجته الثانية، فقد أصبحت «خالتي»!

أذهلته المفاجأة.. لأول مرة أرى «أبي» المهاب، وهو يضطرب. لقد أحرجته.. ولكنه بعد صمت لم يطل، ابتسم في وجهي، كأنما لمعت في ذهنه هو الآخر فكرة.. فقال لي:

ـ لا مانع.. استبدلي ملابسك، «سآخذك» إلى هناك، ويعيدك السائق بعد ذلك!

وصحبته إلى بيت «ضرة» أمي.. وأنا أتخيل ملامحها، قوامها، طريقة مشيتها. كنت أود أن أعرف ما هي الميزة التي وجدها أبي فيها، ولم يجدها في «أمي»؟!

ورأيتها تقف أمامي وجهاً لوجه.. أخذتها المفاجأة في الوهلة الأولى، لكنها تماسكت واندفعت نحوي تحتضنني وتقبلني، قائلة:

ـ أنت «ليلى» ها؟.. لقد حدثني والدك كثيراً عنك. لا.. بل سيرتك لم تسقط من فمه.. إنه يحبك كثيراً.

رأيتها جميلة.. فتاة شابة تصغر أبي بحوالي عشرين عاماً. ليست بدينة ولا نحيلة.. بل لها ذلك الجسم الملفوف مع رشاقة ملحوظة. أقصر من أبي، شقراء ذات شعر أصفر، ولكنها ليست «خواجاية» اختطفها «أبي» من مدينة المنصورة في مصر، متعلمة، وفي عينيها سحر جاذب.

وتركني «أبي» معها.. كانت تنهال عليّ بالأسئلة. أشعرتني أنها تريد رؤية «أمي».. إنها تريد أن تسعد «أبي» وهي تعرف مدى تعلقه بي. وقالت لي أيضاً: إن «أبي» حدثها عن احترامه لأمي، لأنها سيدة عظيمة، و«بنت حلال»!

أخذت منها ولم أعطها..

وعندما رويت لأمي ما رأيت وسمعت. . لم تجبني، بل كانت صامتة، وشاردة الذهن. قلت لها:

ـ بتفكري في إيه؟!

لم تجبني يومها. . ولكني استطعت أن ألاحظ بعد ذلك، ومع تعاقب الأيام تصرفات «أمي» مع أبي، وطريقتها الجديدة في التعامل معه. . فقد زاد اهتمامها به، كما حدث تطور في عنايتها بنفسها وهندامها، وفي إنتاج مطبخها في اليوم الذي يجيء إلينا فيه أبي.

ثم كانت مفاجأة «أمي» التي ألقتها على مسمع أبي، عندما قالت له:

ـ بدلاً من أن تدفع إيجار بيت آخر، ولديك هذا البيت الكبير. . لماذا لا تأتي بزوجتك إلى هنا، وتضعها في طابق كامل. . فلا تكون بعيداً عنا، ولا نكون بعيداً عنك. أريد أن أطمئن عليك.

ونفذ أبي فكرة «أمي». .

واستطاعت هذه المرأة «أمي» بتمسكها بأبي، وبحبها له أن تدعه يقترب منها، بعد أن ابتعد وكادت تفقده. وتوددت إلى الزوجة الثانية. قالت لها: اعتبريني أختك الكبرى. . ونحن معاً نخدم رجلاً واحداً. . نحبه، ونسهر على راحته.

كنت في حالة ذهول. . كان رأسي يدور من هذه الضربات المتلاحقة التي فعلتها أمي، كأنها كانت في حلبة مصارعة. . تصافح خصمها في البداية، ثم تندفع إليه وتلوي ذراعه!

ـ وقلت لها وهي تسترجع معي تلك الحكايا: من أين لك تلك الأعصاب؟!

ـ قالت مبتسمة: الدُّهن في العتاقي. اسمعي يا ابنتي.. كل إنسان له قضية، لا بد أن يدافع عنها، ويحققها، ويتمسك بها.

ـ قلت: لو كنت اتعلمتي ودخلتي مدارس.. كنت رئيسة وزراء، كده يعني زي «أنديرا غاندي» دا انت خطيرة يا ماما!!

* * *

ولم تنجب الزوجة الثانية.. رغم مرور عامين.

ولم تحتمل قدرة احتمال «أمي».. وود «أبي» الملحوظ للبيت الكبير.

كانت «عروسة لعبة»، أو كما اسمتها أمي «عروسة باغه»! من البلاستيك.. أعجب بها «أبي» في لحظة اندهاش، وكأي طفل..أهمل اللعبة بعد فترة، فالرجل في لحظاته العاطفية والإنسانية: طفل كبير.. عفوي، «وشقي» ومشاغب، ومندهش!

ثم ما لبث أبي أن انشغل بطموحاته، ومسؤولياته التي أخذت تتعاظم وتتسع، وأخذ اسمه يذوي في المجتمع، وتنوعت تلك الطموحات في المراكز، والثروة، والجاه، وكثرت رحلاته إلى الخارج. وتحولت الزوجة الثانية إلى قطعة أثاث من تلك القطع الثمينة التي أخذت غرف بيتنا تزدحم بها ولكنها جماد، ويبقى كثير من الغرف مقفلاً لا يدخله أحد إلا في المناسبات.

وشعرت الزوجة الثانية بالسأم، وبالإحباط.. وزاد من مللها وضيقها أنها لم تنجب طفلاً من «أبي».. يقربها منه أكثر، وبهدوء.. أيضاً.. أجابها «أبي» على طلبها، وأعادها إلى بلدها بعد أن دفع لها تعويضاً مجزياً.. قد ابتاع لها شقة في القاهرة، وملّكها لها.. ورجعت تبكي، وكانت دموعها مثار تعاطف مني لها.. فقد احتضنتها، وهمست لها بوعد: أن أزورها في

المنصورة وأبقى معها عدة أيام، كلما قدمت إلى القاهرة. . هذا إذا وافق أبي. . فنحن لم نخرج من البلد إلا مرة واحدة. . هي الوحيدة التي سمح لنا فيها «أبي» بالسفر إلى القاهرة. . هذا إذا وافق أبي. .

يومها، قالت أمي، والدمعة تخنقها:

ـ لقد أصبح البيت فارغاً من جديد. المرة الأولى عندما مات جدك، والمرة الثانية عندما انتقل عمك «سعيد» وعمك «سفيان» إلى بيتيهما المستقلين. لقد كانت تملأ علينا البيت!

ـ قلت لأمي: ولكنك كنت تختلفين معها أحياناً، وكثيراً ما رفعت صوتها عليك وتعدت، واستفزتك.

ـ قالت أمي بطيبتها: يا بنتي. . المصارين في البطن بتتخانق!

لقد استؤصل الآن «مصران» من تلك المصارين، أو كأنها كانت «المصران الأعور»!

ولكن «أبي» لم يحس بغياب من طلقها. كان مأخوذاً إلى هالة شديدة الضوء من المكانة الاجتماعية، والثروة التي تتزايد، ورحلاته التي تلاحقت!

حتى كان ذلك المساء. .

ناداني «أبي» وهو يبتسم بتودد، وأجلسني بجانبه، واحتضنني، ومسح بيده على رأسي.

ـ قلت له أمازحه كعادتي: إيه الحكاية يا زعيم؟!

كان يقبل كلماتي المدببة، ويدللني كثيراً. ولم يكن أحد في البيت أو خارجه يجرؤ على الانزلاق أمامه بكلمة مقشرة من التهذيب. ولكنه كان يقبل

مني أن أصفه بكلمة «زعيم» ويضحك لها، وهو يقرصني في خدي قائلاً: آه يا شقية!

ونظر «أبي» إلى أمي كأنه يستنجدها أن تعينه، هو هذا الرجل المهاب، الوقور، الصارم في المواقف. والتفت نحوي يعيد الابتسامة إلى وجهه، وقال:

ـ الحكاية يا «لؤلؤة عقلي» أنك كبرتي وصرت عروسة، و.. جالك عريس.

ـ قلت بجرأة: آه.. باين أنا «المصران» الثاني اللي بدكم تطلّعو من البيت؟!

ـ قال: انت حشاشة فؤادي، ولكن.. دي سُنة الحياة، والعريس ما هو غريب.. دا.. ابن عمك سعيد، أنت بتحبي عمك سعيد كثير، خلاص.. ده يا ستي ولده الكبير.

و.. «بلمت» كأنني دخلت في لج بحر عميق!!

* * *

الفصل الرابع

ـ ١ ـ

ما زلت أنت معي..

أظل أردد اسمك، وأحادث خيالك، وأعاشر وجودك في أعماقي.. أتحدث عنك مع قلبي، ويرقبنا عقلي باستعلاء وتهكم، ويسخر منا ويهزأ!

قلبي يحتمي بي.. وأنا ألجأ إليه كلما ألحّ العقل، وثار، وعنف، ومارس ضغوطه، وهدد بمصير من عذاب وندم ينتظرنا إذا أمعنا ولم نسلم القياد له!

ترى.. هل نحن واهمان كما يقول؟!

هل قررت القطيعة حقاً.. ونسيت ما كان من ود وألفة وتآلف روح وفكرة؟!

هل أتى اليوم الذي أسقطتني فيه من مشاعرك وذاكرتك.. مثلما فعلت قبل ذلك مع الأخريات؟!

ولكن.. لا. قلبي يقول: إنك عائد، لا بد.. وأنا أطلب منه المزيد من الصبر، وعقلي يراوغ بمكر:

لن يعود.. ولو عاد إليك، فبعد وقت يكون الصبر فيه قد ذاب، والعمر فيه قد ذوى!

أعرف أنك تختفي فترة طويلة، لتعود اليّ مثخناً بالشجن.. فلا تجد سواي صدى مريحاً، ونقاهة وجدان.

دائماً، وفي كل مرة تعيد بعد أن تختفي.. أجدك هذا الطفل الشقي الذي أتعبه الجري والحركة واللعب.. فكأنني صدر أمك الذي تهدأ عند نبضه وتغفو.. حتى إذا استرجعت أنفاسك انطلقت كطائر تجوب الآفاق مجدداً وتختفي، وأجلس أترقب السماء، ولحظة إيابك من المدى!

عد إليّ.. اسمعني صوتك ولا تتركني وحدي.. فهذه المرة لا تشبه ما سبقها في العمر الذي يطوى..

هذه المرة لا أحتمل فراقك وعبثك وغيابك.. أريدك بجانبي لتحميني.. فقط:

عد، ولا تقل شيئاً، وافعل أي شيء تريد!

أعدك.. لن يكون عتاب ولا لوم على تأخير عودتك!

أريدك أن تعود على مسامعي كلماتك.. لا، بل كلمتك العميقة: «وحشتيني»!

مرة واحدة فقط.. مرة أخيرة.. والآن قلها.. وأتنازل عن كل شيء.. حتى عن ما تبقى من العمر!

أرجوك.. لا تدعني في هذه الغابة وحدي، فأنا غريبة بدونك.. وحيدة وعاجزة في غيابك!

فهل يبلغك صوتي الصارخ؟!

أناديك: عد.. قبل أن يقتل حاجتي إليك كبريائي!

عد.. قبل أن تنزف الأشواق، ويقضي اليأس على حنيني!

عد.. قبل أن يسيطر العقل على القلب!

عد... حتى ولو جاءت عودتك إلى الشاطئ الآخر.. فإن مجرد وجودك على مرمى النظر، يحيي الأمل!

أنا متيقنة من عودتك.. ولكن اليقين يحتاج إلى تأكيد. وحبي ليس حالة، ولم يعد حلماً، ولا هو صدفة.. بل هو الشيء الوحيد الذي أملكه، وأصر عليه، وأختاره بإرادتي.

آه من الذكرى معك!

قلت لي مرة:

ـ لا تستطيعين أن تحبي أحداً غيري.. حبي لك كلعنة الفراعنة!

لا أظنك كنت تداعبني.. فأنا بالفعل لا أقدر أن أحب أحداً سواك، ولكن أنت.. هل أحببتني فعلاً.. وهل أستحق الحب في شعورك؟!

سألت نفسي هذا السؤال كثيراً، ولم تجبني.. ولعلني لم أجرؤ أن أسألك، لأني كنت أخشى الإجابة!

أحياناً.. أكون واثقة من حبك لي، وكثيراً ما أشك في هذه الثقة!

وإن كنت استحق هذا الحب.. فلماذا!!

لماذا انتهت حياتي إلى هذا الفشل: تجربة حب فاشلة.. زواج فاشل.. حتى.. حتى إنني عجزت أن أكون أماً!

ما كنت أدري أنني سأتألم من هذا.. أن لا كون أماً.

لم يكن يعنيني، ولا يشد اهتمامي، خاصة الآن، ربما لأنني بدأت أتقدم في السن!

لا تضحك.. أعرف رأيك وهذرك.. كنت تقول لي في لحظات صفائك:

ـ الأنثى في العشرين قارورة عطر مقفولة، وهي في الثلاثين زجاجة عطر فواحة.. أما حين تبلغ الأربعين فتتحول إلى شجرة لا أحد سواها يمنح الفيء!

ـ يومها قلت لك بغرور: إنني معتقة فواحة!

لكني لم أبلغ بعد مرحلة التحول إلى شجرة، وإن كنت أحس أحياناً بذلك، بل وأتمنى أن أتعجل العمر، لأراك تأتي إلى فيئي، وتستريح في ظله وتغفو!

الآن.. لم أعد أفكر في الأمومة.. ربما لأنني أصب أمومتي وأمنحها لابنة أخي.. ربما لأنني ما عدت ألعب بالعرائس، وأرى ابنة أخي تلاعبها وتأخذها مني، وأمي ترمقني بنظرة مضطجعة، وتأمرني أن أدع «غالية» ـ ابنة أخي ـ تلعب!

ولكني أحياناً اكتشف أمومتي الغافية الهاجعة تحت رماد السنين.. وأتمنى أن يكون لي طفلة، أربيها وأعلمها، وأضمها وأحبها وتحبني.. ذلك حب مؤكد لا يحتاج إلى دليل.. أن أعطيها كل ما حرمت منه، وكل ما تمنيته!

وعندما أعود لا أفكر فيك.. أتساءل عن هذا الذي لم أفهمه بعد..

فالذي لا أفهمه هو أن تنتهي علاقاتي بالفشل.. حتى علاقتي بابنة أخي الصغيرة، بت أخاف عليها من هذا الفشل!

لا بد أنني كنت مسؤولة عن هذا الفشل!

اكتشفت أنني كنت أنانية في بعض الأحيان، وأنني كنت «مهووسة» بشيء اسمه الكرامة والكبرياء.. حتى عشت يوماً، ضحيت فيه بكل شيء، وتنازلت عن أنانيتي، وعن كرامتي وكبريائي.. في سبيل من لا يستحق!

* * *

لقد رويت لك بداية المرحلة التي فصلتني عن بيت أبي، وعن أمي لفترة.. في ذلك اليوم أمام البحر..

يومها قال لي أبي: إنني كبرت وصرت «عروسة» وجاء عريس لخطبتي!

وفوجئت أن من سيكون رفيق رحلة العمر هو ابن عمي سعيد.. اسمه «حسين» رضيت به، لأن والدي قد اختاره، وكنت في مرحلة من العمر لا تؤهلني لأحسن الاختيار، أو أكتشف شخصية من سيشاركني العمر كله، ولا حتى أرفضه لو فكرت في ذلك!

فرحت.. لأني سأستقل، وسيكون لي بيت هو مملكتي الخاصة، وسيكون لي أطفال، ولكني لن أكون ضعيفة مثل أمي.. من البداية سأدع «حسين» يتعود على أسلوبي وطريقتي في الحياة!

كنت ما زلت طفلة مدللة رغم ابتعاد أبي وانشغاله بأعماله وبمركزه.. ورغم قسوة أمي أحياناً عليّ لتعوض عن أفعال أبي بشخصيتها، ولكني كنت أحبها وملتصقة بها جداً!

كنت أحلم في هذا السن من المراهقة بالرجل الفارس الذي يبلور شخصيتي ويمنحني عالماً مستقلاً، ويضمني إليه ويحنو عليّ!

ونعمت بفرح لا يوصف.. أقام أبي الزينات، وكانت سعادته تلون وجهه

وتطغى على صرامته المعتادة، فلم أشاهد أبي يضحك مثلما كان يضحك ليلة زفافي.

ورأيت عشي.. أنا العصفورة الرقيقة الزاهية.. ورأيت وجه «حسين» لأول مرة بشكل مختلف عن أن يكون ابن عمي.. فقط كنت أريد أن ألوذ إليه ليحميني، ويسكب الحب في جوانحي.

وسافرنا في رحلة شهر العسل.. ولكني اكتشفت أنني غريبة مع غريب.. فهو يعيش في عالم آخر يختلف عن أحلامي وتصوراتي، وطبائعه تختلف عن طبائعي.. وعاطفته رهن العرض والطلب.. يضعها في ثلاجة متى أراد، ويخرجها متى احتاج إلى استخدامها.

ولكن حياتنا معاً استمرت بطيئة مملة.. حتى انتهى عام كامل على هذا الرباط.. كنت في خلاله اقنع نفسي وأصبِّرها، وأعدها بالمستقبل.. ذلك أن صناعة التفاهم تأخذ وقتاً.

ثم لم أعد احتمل.. فحاولت أن «أتعود» عليه، فلا بأس إذا وصلت به في نفسي إلى قناعة التعود.. لحظتها سأكون منشغلة بأمومتي للطفل أو الطفلة.

وحتى هذه الأمنية لم أنلها.. دفعته كثيراً أن يذهب إلى الطبيب ليعالج نفسه، وكان يكذب عليّ عندما يدعي ذهابه، وينكر الطبيب ذلك.

ومر عام آخر.. دون أن أحظى بنعمة التعود.. صرت لا أطيقه أبداً لسبب هام، وهو أنه كان يبتعد عني بروحه، وحتى بجسده.. كنت أشعر أنني وحيدة، وأن عالمه تحت الأرض.. لا يرى السماء ولا النجوم ولا القمر ولا الهواء.. كان يختنق باهتماماته الخاصة!

كم حاولت الاستنجاد به.. كم سألته، بل ورجوته أن يكون قريباً أكثر!

سألته أن يحميني من نفسي.. فلم أكن أطالب بأكثر من حقي.. حقي من الرعاية والاهتمام!

ـ هل تحبني يا «حسين»؟!

كنت أسأله صادقة وضائعة، فكان يجيبني بابتسامة باردة:

ـ إنني أحبك.. ألست زوجتي؟!

ـ وأرد عليه: أريدك أن تحبني أكثر.. ليس لأنني زوجتك فقط، بل لأنني الأنثى التي ترتاح بجانبها وتعطيك وترويك وتملأ حياتك!

ـ و يسخر من كلماتي قائلاً: لا أفهم.. أنت إنسانة شاعرية!

وتحملت كل شيء.. حتى عجزه تحملته أيضاً، وتصور حياة امرأة مع رجل عاجز!

تحملت ثوراته بعد كل مرة يفشل فيها أن يكون رجلاً.. تحملت ما كنت أشعر به كأنثى من قرف ومهانة.

لم أكن أريد غير أن يحبني لأحبه..

ما كنت أريد غير حبه لي واهتمامه وحنانه.. تمنيت أن يغار علي.. أن يسمعني كلمة حلوة، دون أن يكون هناك ما يريده بعدها!

تمنيت لو مرة قبَّلني أو ضمني إليه.. لو مرة خرج معي أو رقص أو قضى السهرة معي في البيت.. فنتعشى معاً، ونتحدث، ونشاهد التلفزيون!

كان يهرب من البيت، ولا يطيق البقاء فيه.

حاولت أن أوجد له جواً يحبه.. تقربت من أصدقائه، ودعوت عوائلهم

إلى منزلي.. ووجدت أنني لم أفعل شيئاً يحركه أو يغيره!

احتملت أن أعيش وحدي أكثر من عام.. آكل وحدي، وأخرج وحدي، وأشتري لوازم البيت وحدي، وأذهب للطبيب وحدي، وكنت مريضة وحدي.. حتى عندما يمارس فشله معي أظل وحدي.. أتفرج على نفسي، وأشاهد ما يحدث، وأمثل الرضا ما استطعت!

حتى السفر.. كنت فيه وحدي، وتمنيت لو اعترض، وكثيراً ما نبهته إلى أن ذلك قد يثير أسئلة الآخرين، ويفسح أبواب الأمل لضعاف النفس!

ولكنه لم يحرك ساكناً.. كأنه تمثال من الشمع، حتى كانت تلك الليلة!

* * *

ـ ٢ ـ

ذلك المساء.. كان هو الليلة الثالثة من وصولنا باريس..

أخذني معه في هذه الرحلة، لأنني حاصرته وأثقلت عليه بالإلحاح.. قلت له:

ـ إن صديقك وشريكك في العمل: «صالح» سيأخذ معه زوجته، فدعني أذهب معك، وسأكون أنا وهي معاً، وحتى لا تشغله عن إنجاز أعمالكما، فقد كان يحبها ويراعي مشاعرها، ويخاف أن يتركها وحدها!

بعد إلحاح.. وافق أن أرافقه في هذه الرحلة..

وفي تلك الليلة دعانا صديقه «صالح» إلى العشاء في مطعم فاخر في باريس..

كنا مجموعة كبيرة تتكون من أربعة رجال وزوجاتهم.. وامتدت السهرة في ذلك المطعم الذي يقدم برنامجاً منوعاً وحافلاً!

واكتشفت أن «حسين» معي بجسده، ولكنه منشغل بالكلام مع صديقه «صالح» والرجلان الآخران.. كانا يتابعان البرنامج حيناً، ويتحدثان معنا حيناً آخر.. ولكني لاحظت اهتمام واحد منهما بالكلام معي.. ضقت وشعرت بالاختناق. حدثت صديقتي زوجة «صالح» فقالت: ليلة.. وتعدي، احتملي!

وفوجئت أن «حسين» يستأذن مع صديقه «صالح» ليغيبا فترة من الوقت.. قلت له:

ـ إلى أين؟!

ـ قال: لن نخرج من هنا.. فقط هناك في أقصى المكان رجل مهم، سنتحدث معه لأنه سيفيدنا في صفقة كبيرة!

ـ قلت: صفقة في ليل باريس؟!

ـ قال:. بلا نكد.. اتفرجي على البرنامج.. ألا تعلمين أن أهم الصفقات التجارية تعقد في الليل؟!

وكانت مضايقات الرجل الثالث قد تطورت، وتلميحاته اتضحت.. حتى بلغ بي القهر ونفاد الصبر درجة ضقت فيها بملاحقة هذا الرجل عندما ألغى وجود زوجته، وكانت ضعيفة الشخصية أمامه، وقرب كرسيه بجانبي. وابتدأ الخطوة العملية!

وبادرته بصفعة على وجهه.. تلفت لصداها الكثير.. ونهضت متوترة،

وقامت معي صديقتي زوجة «صالح»!

فما الذي تعتقد حدوثه بعد أن عدت إلى البيت.. وأنا أبكي من الغيظ والقهر؟!

* * *

جاء حسين يهدر ويتهدد: لماذا أترك السهرة، ولماذا أتصرف بهذا الجنون؟!

شكوت أمر صديقه إليه.. فماذا تظنه فعل؟!

ـ قال لي: فلسفتك وأفكارك اللي تطلعي بها، وقراءاتك.. كلها انعكس تأثيرها على عقلك.. الراجل ده صديقي وأعرفه جيداً، ومن غير الممكن أن يكون تصرفه بسوء نية، ولكنه الوهم في نفسك!

ـ قلت له من خلال دموعي: أنت نذل.. ولا تغار عليّ!

ـ قال: ما أغار عليكي.. لأني واثق من أخلاقك!

ـ قلت: أما بارد بشكل!

ولم أرد سماع المزيد الذي لا أحتمله.. فتركت له المكان، وقد قررت السفر، والعودة إلى البلد.

وفوجئت بموافقته.. فهو لا يمانع، ورحب بفكرتي، لأني أحتاج إلى هدوء مع نفسي لترتاح أعصابي!

* * *

وعندما عدت إلى البلد.. جمعت ملابسي وحقائبي، وذهبت إلى بيت أمي!

كانت أمي تعيش وحدها في هذا البيت الكبير، بعد أن توفي «أبي».. إنها امرأة صابرة، وهي تعيش على الذكرى، واستغرقت في التعبد وامتلكت شفافية الروح.. فطرحت كل أشياء الحياة وراءها، واتجهت إلى هذا الصمت.. فكأن العالم خارجها قوقعة.. هي في داخلها تكون عالماً وحدها يخصها!

ولم تتعجب أمي، أو تغضب..

وجدتها هادئة في استقبالها لي. وقالت لي: اختاري لنفسك غرفة تليق بك، وأثثيها كما تريدين.. فقد ترك لنا والدك الستر والاستغناء عن احتياج اللئام!

ـ قلت لأمي: لكنك لم تطلبي مني أن أتعقل، وأن أعود إلى بيت زوجي؟!

ـ قالت: لأني أعرفك عاقلة، وأعرف أنك احتملت الكثير، وفاض بك الآن.

وأنا أعرف «حسين» بكل عيوبه وجنونه، ولكني يومها لم أقدر أن اعترض في وجه أبيك، فهو ابن أخيه!

ـ قلت: وهل تعرفين كل شيء عانيته معه، برغم أنني لم أقص عليك إلا التوافه؟!

ـ قالت: عرفت ذلك من توترك، ومن عصبيتك، ومن حزنك الذي يفيض من عينيك!

ـ قلت: أنت عظيمة يا أمي.. اكتشفت فيك عالمة نفسية!

ـ قالت مبتسمة: أيوه.. اضحكي وعودي إلى طبيعتك. أعرف أن التجربة قاسية، ولكن العبث بمشاعر الناس أقسى!

ومرت عدة شهور.. لم يكن بيننا اتصال سوى مرة واحدة.. عندما عاد من باريس بعد عشرة أيام من عودتي بدونه.. ذهب إلى البيت فلم يجدني، واكتشف أنني جمعت ملابسي، فاتصل بالهاتف يطرح سؤالاً بارداً لا مبالياً:

ـ هل قررت البقاء بجانب أمك!

ـ قلت: هذا أفضل!

ولم أنم في تلك الليلة التي عاد فيها وحادثني بالهاتف.. شعرت أنني هنت عليه، وأنه لا يحمل في قلبه ذرة حب.

تذكرت رحلة باريس الأخيرة وكيف كنا معاً كغريبين غير متجانسين في غرفة واحدة بالفندق.

كان يصحو في الواحدة ظهراً، ويشرب الشاي ويخرج ليتركني وحدي حتى بعد الساعة السابعة مساء، ثم يصحبني للعشاء في مطعم خارجي، أو في مطعم الفندق ويمتد العشاء إلى حوالي الساعة الحادية عشرة.. فيعيدني إلى الغرفة ويستأذن في الذهاب لأصدقائه لإتمام مناقشة أعماله التي جاء من أجلها!

وكنت أعرف تلك الأعمال وأتغاضى لئلا تحدث المصادمة كل ليلة.

في الظهيرة عندما يصحو من النوم.. يحكي لي على فنجان الشاي عن جانب من أعمال كثيرة لا أصدق أكثرها، ولكنه يحب الكلام عن نفسه وعن ذكائه، وكيف ضحك على الآخرين!

كنت أصغي له لأرضي غروره.. ولأن من مهامي أن أجعله يحس بالراحة، حتى ولو عذبني!

ولكني لم أعد أحتمل نزواته، وبرودة مشاعره المهينة لدفء نفسي وأحلامي..

فهل عانيت من برودة المشاعر أمام إنسان من المفروض أن يكون نصفك الآخر؟!

إن أقسى حياة لا يطيقها بشر.. هي في هذه اللحظة التي يكتشف فيها الإنسان برودة المشاعر!

* * *

واعتدت على حياتي الجديدة بجانب أمي..

و «حسين».. لعله ارتاح في الوضع الجديد الذي اخترته له، بابتعادي عن حياته.. أو أنه لم يعد يدري ما الذي يريد.. فهو يسافر دائماً ويجد اللحظة التي يسهر فيها ويغير جلده، وهو منشغل بأعماله وصفقاته.

وأردت أن أحدد معالم حياتي أكثر.. لأمتلك حريتي على الأقل، فلا أشعر أن «حسين» باق كالسيف المسلط على مقدراتي وعمري.. فاستشرت أمي، ووافقت. بعثت إلى «حسين» برسالة مع أخي.. أطلب فيها الطلاق!

وكانت إجابته غريبة.. لقد طوى رسالتي ووضعها في جيبه، والتفت إلى أخي يقول له:

ـ الآن.. أنا مشغول، وحينما أجد فراغاً، أعطيها الجواب!!

وبقيت انتظر طوال أربعة أعوام!!

ـ قالت أمي: لعله يريدك!

ـ قلت: بل ليذلني أكثر.

ولم تفلح كل الوسائط التي استخدمتها.. لعله كان يريدني أن أصاب باليأس، فأعود إلى حياته مرغمة، راضية بكل عيوبها.

ولم أذعن.. وتماديت أفكر أن أحيا حياتي كما أريد!

وفي ليلة العيد من العام الماضي.. كنت وحدي في عربتي. فكرت فيك، وتصورت أنني قد أخرج من حالة الحزن والكآبة التي أعيشها بسبب غيابك ومأساة عمري!

لا أدري.. لماذا قررت لحظتها أن كل شيء هو عبث، وأنني وكل البشر نعيش أكذوبة كبيرة، وخدعة مطلية اسمها: الحياة.. الحب!

وذهبت إلى بيت أخي.. كان البيت يعج بالأصدقاء. ورأيت هناك «صالح» صديق زوجي..

سألني عن الصحة وحياتي الحاضرة.. سألته عن أخباره وزوجته التي كان يحبها ولا يرفض لها طلباً!

قص عليّ باختصار أنهما اختلفا بعد ذلك الوفاق، ويفكر جدياً في الطلاق!

طلبت منه أن لا يتسرع، وأن يفكر جيداً!

ـ ما هي أخبار «حسين» وأين هو؟!

سألني فجأة.. فنظرت إليه بعينين باردتين وقلت:

ـ لا أدري عن أخباره شيئاً.

ـ قال: ألم ينته الخلاف بينكما إلى قرار؟!

ـ قلت: لم يعد هناك خلاف.. بالنسبة لي انتهى كل شيء.. حتى التفكير فيه!

لقد سألني «صالح» سؤال مجاملة، ولعله يعرف خلفيات عن صديقه لا أعرفها. وأخذتني لحظة تأمل بعيد، فجاءني صوت «صالح» يسأل:

ـ ماذا يشغلك؟!

ـ قلت: خواطر حالمة.. على فكرة، ما هو رأيك بي؟!

فاجأه سؤالي، وحاول أن يتمالك نفسه، وقال:

ـ أنت.. أنت سيدة تفرض احترامها على الآخرين!

ـ قلت: لأنني جميلة؟!

ـ قال: الجمال ليس كل شيء، وليس هو مفتاح تقييم الإنسان!

ـ قلت: ربما.. ولكن الرجل يبحث في المرأة عن الجمال كنظرة أولى!!

ـ قال: وما نفع الجمال.. إذا كان الداخل قبيحاً؟!

ـ قلت: إن زوجتك جميلة، فهل كان اختيارك لها من أجل جمالها؟!

ـ قال: لا أظن أن التفكير في الحياة الزوجية يتوقف فقط على الشكل.. بل المضمون مهم!

ـ قاطعته: أنت تغالط نفسك، فقد لا يكون جمالها مهماً بعد أن تعاشرها وتجد فيها ما ترضاه من خلق وعقل وحنان وتفهم.. لكن الشكل ـ في أول الأمر ـ مهم!

ـ قال: ربما ما تقولينه صحيح!

وقمت من مكاني.. لأنضم إلى مجموعة من سيدات البيت، واستمع إلى اهتماماتهم من خلال حوارهم.. فاكتشفت أن تلك الاهتمامات كانت تنحصر في زياراتهن لأوروبا، وآخر خطوط الموضة والعطر الجديد، حتى بلغ بهن الحديث إلى رواية آخر نكتة!!

* * *

ـ ٣ ـ

في هذه السهرة «الحريمية»! حاولت أن أحول دفة الحديث من خطوط الموضة والعطر الجديد، وآخر نكتة.. إلى حوار، أردت به أن أريح عقلي قليلاً من الهواجس، وأريح عواطفي به من الضغوط النفسية التي أطبقت على عمري كله، منذ عرفت «حسين» وتزوجته، وشقيت بالحياة معه!

والتفت إلى صديقة لي من أفراد هذه «الشلة».. وقد عرفت عنها حبها للشعر، فهي لا تترك ديوان شعر تراه أمامها في مكتبة، أو حتى في بيت تزوره إلا وتأخذه، وكانت تقول لنا ضاحكة:

ـ أنا حرامية شعر.. أي ديوان شعر أراه أمامي، إن لم أستطع أن أشتريه فلا بد أن أسرقه، وهذه هي السرقة الوحيدة التي أجيدها وأتلذذ بها!

وهي بجانب «ميزة» سرقة دواوين الشعر.. تحاول أيضاً أن تكتب الشعر. وقد أسمعتني نماذج من شعرها جذبت اهتمامي، وأعجبني بعض ما تكتبه، وحاولت أن أدفعها لتنشره، فكانت ترفض وتقول:

ـ إنني لا أكتب إلا لنفسي!

ـ قلت لها: لنفسك فقط.. أم هناك طرف آخر يقرؤه؟!

ـ قالت: من الصعب أن نعرض هذا البوح لأي إنسان.. فإذا كان هناك من يستحقه، فلا مانع أن يقرأه!

وأردت أن استفزها في هذه السهرة.. ونجحت فعلاً، وأنا أقول لها:

ـ هل تعتقدين أن ما تكتبينه مما تسمينه شعراً، يستحق فعلاً أن تزحمي به حقيبة يدك، وتزحمي به رؤوسنا أيضاً؟!

ـ قالت: ماذا تقصدين؟!

ـ قلت: أبداً.. أقصد، أنه لا شيء يستحق فعلاً أن يقال!

وقاطعتني صديقة أخرى، كانت تتابع حوارنا، والتفت إلى صديقتي الشاعرة قائلة:

ـ لا عليك.. إنها تحب التهريج. يعني.. هل أفلحت هي في العزف على البيانو؟!

ـ قالت الشاعرة: دعيها تقول رأيها.. إنني لا أضيق بالنقد.. على الأقل نعطيها فرصة لـ «تفضفض» عن نفسها!

ضحكت «سعيدة».. فقد نجحت في استفزازها، واستطردت أقول:

ـ لعلك تريدين رأيي وليس مشاعري.. لأنني لو أفصحت عن ما في داخلي.. فقد تغضبين مني!

ـ قالت متوترة: وعلى إيه.. إنني لا أحاول أن أسرق قصائد الآخرين!

ـ قلت: ماذا تقصدين هذه المرة؟!

ـ قالت: لا شيء.. مجرد نكتة!

كنت أتمنى لو لم يتطور هذا الحوار.. فيتحول من المزاح إلى الغمز واللمز!

كنت أود أن أفهمها.. أنني لست التي تحاول سرقة أزواج الأخريات، كما ادعت مرة وحكت للصديقات عن خوفها على زوجها مني! زوجها الذي لا يرى الدنيا إلا من خلال عينيها، ولا يسمع إلا بأذنيها، ولا يتكلم إلا ليؤكد كل ما تقوله، وتعليقه على كلماتها يكون دائماً بعبارة واحدة هي: فعلاً!

رجل كهذا.. لا يغريني، حتى أحاول أن أستميله وأخطفه منها.. ولقد أنقذها من ردي صوت أخي وهو يدعونا إلى العشاء!

ووجدت «صالح» بجواري على المائدة، كأنه ينتظرني، أو قصد أن يجلس على هذا المقعد بجانبي.. ويبدو أن الرجل قد أصابه مس في داخله، أو أن مزاحي بالكلام معه في بداية السهرة عن جمالي وعن إعجابي به، قد صعّد المشاعر عنده وأججها، ولعله صدّق لحظة الصدمة التي أردتها لعواطفه نحو زوجته.. فأخذ يتحدث عن نفسه، وعن نجاح أعماله، وكأنه رشاش يطلق عشرات الطلقات في لحظة.. بينما تشاغلت عن كلامه بالأكل، وبالتلفت يمنة ويسرة.. وأحسست بالغثيان من حديثه.. لقد تبدل الرجل أمامي من إنسان رزين وعاقل.. إلى طفل مجنون شقي، وأردت أن أوقفه عند حده، فالتفت نحوه بسخرية أقول:

ـ أرجوك.. إنني أحس بالصدمة من كلامك، كأنك أسطوانة مشروخة.. كل وأنت ساكت!

ـ قال: إيه.. مالك، أنت أعصابك تعبانة؟!

ـ قلت: أحسن حاجة.. أقوم وأرتاح منك!

* * *

خرجت إلى الشرفة، أحس بالاختناق وأشعلت سيجارة. وشرد فكري بعيداً! ترى.. أين أنت الآن، ولماذا لم تكن أنت الذي بجانبي على المائدة، بدلاً من هذا الثرثار اللجوج؟!

تخيلتك في بيتك.. تجلس أمام التليفزيون وتدخن «البايب»!

تخيلتك بجانبي.. تنطلق في الكلام عندما كنت مبسوطاً، وأحب أنا كلامك.. كأنك مصور بارع تنقل عشرات المواقف وتطلعني عليها، وتشرحها وتفلسفها!

وشعرت باقتراب أخي مني.. وقف بجانبي في الشرفة، وقال:

ـ بتفكر في مين يا قمر؟!

تنبهت له، ابتسمت.. أجبت:

ـ يعني في مين.. أهي الدنيا زحمة!

ـ قال: لا تنسي موعدنا في بداية الأسبوع!

ـ قلت: أي موعد.. فاكرني صديقتك؟!

ـ قال: بلاش مراوغة.. موعدنا مع «حسين» هنا في البيت.. والاّ نسيتي.. اللي واخد عقلك..

ـ قلت: لا.. لم أنس، ولكني لا أشعر بأي استعداد لهذا اللقاء، وأعتقد أنه لا داعي له.. هي كلمة واحدة: يطلقني وبس!

ـ قال: لا يمكن أن نحل مشاكلنا بالعافية.. العنف لا يؤدي إلى نتيجة، وهذا واحد صلب وعنيد.

ـ قلت: لا يعنيني.. أنا أرفض أن عيني تلتقي بعينه.. يطلّق، ما يطلّق، لم يعد يهمني.. طز!

وتركت أخي في مكانه، وخرجت من الشرفة إلى الداخل.. أحسست باختناق مضاعف!

ولحق بي أخي.. وهو يقول:

ـ على فين ماشية؟!

ـ قلت: إلى البيت.. عند أمي.

* * *

ـ ٤ ـ

رن جرس الهاتف في غرفتي.. وعندما رفعت السماعة، كانت المفاجأة!؟

بعد كل هذه الشهور الطويلة.. لا، بل بعد عامين.. عاد ليسأل عني!

إنه «نزار» ذلك الشاب الذي حدثتك عنه في البداية حديثاً عابراً.. فقد عرفته في فترة عصيبة، كنت فيها أعاني من عذاب الإنفصال الروحي والجسدي عن «حسين» الذي تزوجني وحولني إلى قطعة أثاث في بيته.. يتركها متى شاء، ويعود إليها بعد أن يغطيها التراب والنسيان.

ظهر «نزار» في حياتي.. ووجدت فيه الطموح، والتهذيب، والشخصية، والمرح..

كنا نقرأ معاً.. نسمع الأغنيات معاً.. نتحدث في الهاتف ساعات.. نخرج للبحر، وكانت له محاولات فنية، فهو يعزف على العود، ويدندن

وأسمعه وانتقده. تستطيع أن تقول إنني ارتحت إليه، ثم تطور الارتياح إلى شعور آخر.. تصاعد في نفسي، خلت أنني أحببته، فلما اكتشف ذلك.. أراد أن يستغل هذا التأجج في داخلي من فراغ العاطفة الذي كنت أعيشه وأعاني منه.

وامتدت العلاقة عاماً كاملاً.. كان في خلاله يضرب وتداً لخيمته حولي، من أجل أن يحتويني كأنثى يجد عندها التسلية، والحب المؤقت.. اكتشفت أنه كان يريد شيئاً يأخذه ويمضي!

وفي لحظات التأجج العاطفي عندي.. كنت أتذكر عبارة تشرشل أثناء الحرب، عندما قالوا له: لقد سقطت سنغافورة، فأجاب: فلتسقط غيرها!

والفرق بيني وبين تشرشل ـ لا تضحك! ـ إنه برؤيته وثقته في نفسه، لم يكن يحفل بسقوط سنغافورة، لأنه سيعالج انكساره في الحرب، ويقف على قدميه من جديد ويستعيد كل شيء!

بينما حياتي سقطت بالحرب التي أعلنها علي زوجي «حسين» فكأن حياتي قد أصابها التدمير.. فما قيمة لأي شيء بعد ذلك؟!

هكذا كان تصوري، وما أوردني إليه يأسي وألمي.. فوجدت عند «نزار» ما يعوض عن الهزيمة.. أعطيته بحب، ولكني وجدت أنه بدأ يتغير!

ذات ليلة.. أيقظته بعد منتصف الليل.. كنت أصرخ من الوحدة والأحزان والفراغ والقلق..

ذهبت إليه.. سقطت على صدره حتى طلع الفجر.. كأنني كنت أبحث عن مخدر فيه.. كأنه كان بالنسبة لي حقنة مورفين.. آخذها وأسترخي وأهدأ!

حتى طلعت أنت كفجر جديد.. يختلف عن كل النهارات والشروق!

أحببتك بوجداني قبل أن أحبك بأنوثتي.. وجدت عندك ما يروي عقلي، ويفتح شرانق نفسي.

أنت أيضاً كل عذابي.. لأنك زئبقي.. أجدك ولا أجدك، كلما أردت أن أعطيك أراك تهرب بعيداً.. وأنا أريد أن أعطيك لتعطيني.. كم أنت غامر وعميق!

كان فجرك الذي طلع في عمري.. هو حريتي وانفكاكي من سجن وأسر «نزار».. أصبح شخصاً عادياً بعد أن تكشفت لي نواياه، وتضخمت أنانيته.

ولكن.. لماذا يعود هذا المساء ويتصل بهاتفي؟!

لحظتها.. لم أشعر بشيء.. لا الضيق، ولا الفرحة.. لا الحقد ولا التشفي.. كل ما أحسسته كان هو الدهشة!

ـ قال: مساء الخير.

ـ أجبت: مساء النور.. أهلاً!

ـ قال: كيف حالك.. أين أنت طوال هذا العمر؟!

ـ أجبت: لم أكن أحسن حالاً في أي يوم مضى.. مثلي الآن. أما سؤالك الآخر، فأنا موجودة في مكان ما على هذه الأرض، وأنت لا تجهله!

ـ قال: ماذا تفعلين الآن.. هل كنت نائمة؟!

ـ أجبت: لم أنم بعد.. إنني أجهز للعشاء.

ـ قال ساخراً: عشاء أم فطار.. أتدرين كم الساعة الآن؟!

ـ أجبت: لا تهمني الساعة، ولا يعنيني الوقت.. المهم أنني جائعة

الآن، وعندما يجوع الإنسان يأكل.. والاّ إيه؟!

ـ قال: وعندما لا يجد الإنسان الأكل الذي يحبه؟!

ـ أجبت: يفعل مثلي.. ينام!

ـ قال: أريد أن أراك.. اشتقت إليك!

....

ـ قال: ألم تشتاقي إليَّ.. ولماذا ما عدت تسألين عني؟!

ـ أجبت: كيف الجو عندكم؟!

ـ قال: حقيقة.. أين أنت، هل ما زلت تعيشين؟!

ـ أجبت: غريبة.. هل بعد كل ما فعلته، وما ظهر من حقيقتك، تتوقع أن أعاود الاتصال بك؟

ـ قال: ما يفعله أي رجل!

ـ أجبت: أنت مغرور.. وإن كنت تعتقد أن ما قلته وما فعلته كان طبيعياً.. فلماذا تداريت واختفيت؟!

ـ قال: سألت واتصلت، ولكني أيضاً مشغول لشوشتي.. أنا تعبان!

ـ أجبت: ليعينك الله على تعبك ومشاغلك!

ـ قال: أريد أن أهرب.. أن أسافر إلى أي مكان.. أن لا أعود فأحس بالزمن أو بالمكان.. ولكن كيف، هل أجد عندك حلاً؟

ـ أجبت: حلي لا يعجبك.

ـ قال: قولي ما عندكِ، وسأتقبله.

ـ أجبت: كان زمان.. لم يعد عندي شيء الآن لك، فدعني لعشائي.

ـ قال: ترغبين في إنهاء المحادثة.. وأنت التي تعلقت بي يوماً ما؟!

ـ أجبت: ألم أقل إنك مغرور.. لعلك ما زلت نائماً وتحلم؟

ـ قال: فعلاً.. كنت نائماً.

ـ أجبت: فهل هو الكابوس الذي أيقظك؟!

ـ قال: لعله ذلك.

ـ أجبت: إذن.. فقد استجيبت دعوتي عليك.

ـ قال: أرجوك.. يكفي ما أعانيه من الأرق والكوابيس والقلق.

ـ أجبت: هل أثرتك إلى هذا الحد؟ لا تغضب، فما عدت أدعو لك ولا عليك!

ـ قال: أتمنى أن تغني لي الآن.. كطفل يريد أن ينام بين ذراعي أمه!

ـ أجبت: تبحث عن النغم.. أو عن الكلام؟!

ـ قال: الموسيقى تريح، وصوتك موسيقى!

ـ أجبت: فكرة جيدة.. أن أخرج على الناس مطربة، وأهي شغلانة، والمغنية الأيام دي بتاخد في الفرح أكثر من ثلاثين ألف في الليلة.

ـ قال: شغله مربحة!

ـ أجبت: كل شيء يحتمل الربح والخسارة.. واعتقد أنني لو غنيت لك فلا بد أن أخسر.

ـ قال: متى سأراك؟!

ـ أجبت: اسأل أهل الفلك!

واستمر يثرثر.. وأنا أصغي تارة، وتارة أخرى ألمزه، حتى تخيلت أنه تحول إلى اسفنجة دبابيس!

❊ ❊ ❊

وانتهت المحادثة.. وشرد فكري طويلاً!

أيام بعيدة، وذكريات مؤلمة.. أعماني فيها الوهم، وسرقني الحب من العقل والرؤية!

كنت أنظر إليه.. كأنه الرجل الوحيد على الأرض.. رجلي وحبيبي!

لم أسأل نفسي يومها، ولم أسأله عن مكاني لديه.. تعاميت عن الحقيقة بإرادتي، وارتضيت أن أحيا بالوهم.

ترى.. ما الذي كان.. ما الذي ربطني به؟!

لعله الفراغ العاطفي في تلك الفترة.. والآلام التي رماني «حسين» في دوامتها.. وركضي اللاهث بحثاً عن إنسان ينقذني من الضياع، ومن الفراغ، ومن الحزن!

وأطل عليّ فجر اليوم الثاني.. قمت مبكرة على غير عادتي، وانتظرت موعد حضورك إلى مكتبك. كان عندي إحساس أنك ستمحو آثار الليلة الماضية.. أحس أنك تتمتع بقدر كبير من التلباثية التي تدفعك للإحساس بأنني في خطر، أو في ضيق!

وبالفعل.. جاءني صوتك، فانتهى القلق والعذاب.

وعاد الرفيق الدائم لحياتي: الانتظار.. انتظارك!!

❊ ❊ ❊

الفصل الخامس

ـ ١ ـ

طال انتظاري لك.. حتى لصوتك الذي غاب عني!

وطوال شهر رمضان فتشت عنك.. لم تقل لي إنك ستختفي حتى من سمعي فهل تراك قصدت هذا الهروب؟!

وعندما هلّ عيد الفطر.. شعرت بتوق إليك يجرف كل اصطباري وصمودي في قسوة غيابك!

وكعادتك.. أعرف أنك لن تخبرني عن أسباب هذا الانقطاع، ولكني ـ في العيد ـ تخيلت ورأيت ابتسامتك، واحتضنت كفاي وجهك!

كنت أحب أن أقول لك مع مدافع العيد: كل عام وأنت بخير.. كل عام وأنت حبيبي.. كل عام وأنت كل حلمي، وإن بقيت في مشاعرك هذا الجزء الصغير من أحلامك!

كنت أريد أن أسألك: هل تسعد بهذا العيد بمشاعر خاصة بك مثلي.. ابتكر بها عالماً خاصاً، وأحيا لحظة سعادة مسروقة من الأحلام، وامتزج بأنفاس حبيبي؟!

لم تحتفل بعيد الفطر، مثلما كان آباؤنا وأجدادنا يفعلون.. فيصلون الأرحام، وينهون الخصومات بين الأصدقاء، ويلتئم شمل الأسر في مهرجان محبة يجعل دموع الفرح تطفر من العيون والقلوب؟!

رعاها الله تلك الأيام.. كان بيتنا يمتلئ بالأهل والأقرباء، وحتى الأصدقاء.. حتى الذين اضطرهم السفر، تجدهم يعيدون مع بداية رمضان، يجمعهم هذا العيد.. يعمق المحبة، ويجلو صدأ هموم العام كله!

ستقول لي الآن: لقد اختلفت الصورة.. بل لقد اختلفت نفوس الناس، ففي هذه المناسبة الحميمة تجدهم يهربون من لقاء المودة.. يتبعثرون في أزقة ومرتفعات وفنادق العالم.. كأنهم يهربون من المحبة!

لم يعد ذلك الرابط يحزمهم ليكونوا صورة لإطار كبير.. كل واحد منا أصبح يحب أن تأخذ له صورة لوحده!

إنها الغربة يا حبيبي!

ولعلي بدأت أشعر بهذه الغربة يوم فقدت أبي.. ثم تكثفت أكثر بعد تجربتي القاسية لأن أكون زوجة، وأماً.. ولا أدري مبلغ هذه القسوة في شعور المحب؟!

لكني بعد أن أحببتك.. أحسست أن اليوم الذي جئت فيه إلى الدنيا، كان هو اليوم الذي وجدتك فيه، لتجعل لحياتي ولوجودي معنى.. ولتقشع عن نفسي لزُوجة ونزيف الغربة!

أحببتك.. وأخذني هذا الحب، وطار بي إلى جزر الدهشة والأحلام.

أخذني هذا الحب من يدي، كطفلة.. لف بي العالم الرحب، المشع بوجهك، والمضيء بابتسامتك، والباهر بضحكتك المميزة.. وفرحت بهذا

الحب، وزهوت بما رأيت وعشت وأحسست!

تمردت على كل ما مضى.. على كل القيود والإحباطات والحزن، وانتشيت، وسموت.. ما عدت أكتفي بهذا الجزء من الحلم، بل رحت أطلب المزيد.. أن نسمو فوق الزمن.. لنبتكر زمناً يحتفظ ويرسخ معنى الحب الواحد.. الحب الأخضر دوماً!

فهل تراني كنت أحلم بالفعل؟!

عشت في شرنقة من الأوهام والأماني الكاذبة.. نسجتها بنفسي من تخيلي، ومن عاطفتي.

ضمني الألم والندم بين ذراعين قاسيتين، وخنق أنفاسي، واستعبدني!

وعندما وجدتك.. خرجت إلى الضوء الباهر منك: فراشة بأجنحة ملونة شفافة.. فطرت إلى سماء رحبة صافية من الغيم.. تحررت من العناق الخانق، ومن الذراعين القاسيتين، ومن الوهم المميت!

كنت هذه الفراشة التي تحوم حول الضوء.. تدنو منه.. تحاول الالتصاق به، ولو كان في هذا كله هلاكها.. أن ألمس الضوء.. أن يسري دفئه في ضلوعي.. أن أدخل فيه لحظة، وبعدها الموت.. لحظة عظيمة، أبدية، هي لحظة بالعمر كله، وقد يكون العمر لحظة تساوي الميلاد، والعمر الطويل الرائع!

تطلعت إليك هذا الضوء والنور الذي يحنو عليّ، ويترفق بي.. يكون معطاء ويمسح على جناحي الفراشة، ويضمها إليه دون أن يحرقها.. فهل كان ذلك ممكناً؟!

كنت أعرف أنك باعث الضوء، ومن يقترب منك سيحترق لا محالة،

ولـم يكـن يـهمني أن أحترق فيك أو بك. . بـل كـان يـهمني أن ألتصق بك فأحترق أنا. . لتتوهج أنت أكثر!

عشت على هذا الحب، ومن أجله سأعيش ما تبقى لي في العمر.

أريد أن أحيا كل العمر، أحترق فيك. . أسمعك، وأراك، وألمسك، وألجأ إليك. . وتحتاج إلى وجودي معك لتتوهج أكثر!

آه لو تعرف كم يهمني هذا، ويسعدني دائماً أن أكون بقربك حتى لو لم نتكلم معاً.

كنت أحس بهذا الشعور، وتعهدت إليه: أن أحبك. . وأن أتعود على غرائبك وعلى جنونك، وعلى زئبقيتك. . أن أدمن وجودك بجواري!

كنت حين عرفتك أشتاق إليك. . واليوم صرت أشتاق إليك وأبحث عنك. . لا أعرف كيف أجدك. . وأين!

أحب وجودك في حياتي. . تحبني، إذن أنا موجودة!

ومضيت علواً وتصاعداً. . وبقيت أنت مكانك، ولعل نفسك قد تاقت إلى التغيير!

تعذبت في غيابك، ويشقيني انشغالك عني وإهمال سؤالي. . فضاقت بي الدنيا، وضقت بها!

حاولت أن أبقي على ما تبقى. . خفت من عتابك، وأخفيت عنك آلامي، وداريت هواجسي وظنوني، وما يدور في خواطري.

حاستي أنذرتني. . هددت أماني واطمئناني، وإحساسي الجميل بالغيرة، وبالخوف، وبالقلق، وبالحيرة!

ياه.. كيف ستعرف كم عانيت من عذاب.. حتى العذابات الصغيرة التي تتولد من غيرتي عليك. فهل تذكر؟!

لا أظنك نسيت صديقتي «عليه».. كانت تطمع في رؤيتك، بل إن خيالاتها تبدو منطلقة وهي تتحدث عنك، وذات يوم أخبرتني أنها عثرت عليك، وأعطيتها من وقتك الذي لا أجده وقتاً طويلاً، تحدثتما فيه بما أثار غيرتي.. فهل تعرف أنني كدت أفقد صديقتي من أجلك أو بسببك؟!

كان يعذبني أن الآخرين يجدونك، وأنا لا أجدك.. وأظن بك الظنون كأنك تتهرب مني، حتى تذوب الظنون بمجرد سماع صوتك أو رؤيتك. وكنت تقول لي ساخراً:

ـ أنا رجل عام.. يملكني الناس جميعاً والمهم.. من أملكه أنا!

إنك تقلب الصورة الطبيعية.. فالأصح أن تقول: المهم.. من تملكني!

لكن اعتزازك بنفسك يبلغ بك أحياناً حد الغرور، برغم رقتك ونقاء نفسك!

ولقد روضت نفسي.. أرغمتها على أن تقبل غيابك.. ويبدو أنني نجحت، لأنك صرت تقول لي: لقد تغيرت!

ليتني أتغير.. فلا أعود أتمناك، ولا أرجوك!

أتمنى لو يفارقني الإحساس بأني أطلب ما ليس لي، وأني أثقل عليك.. والذي أوصلني إلى هذا التمني هو شعوري بأنك أنت من تغير.. وتبقى فراشتك هائمة حائرة، خائفة تتخبط بعد أن عم الظلام!

أفتقدك كثيراً.. أفتقد فرحتي بسماع صوتك، وسعادتي بسؤالك عني.

أفتقد اهتمامك.. عينيك، وجهك، أصابع يدك المجنونة، صوتك..

أفتقد حتى غضبتك عليّ، واعتذاري لترضى.. وأفتقد كلماتك التي كنت تثير بها غيرتي، فتؤلمني وأغضب ويفلت مني اللسان، فأقول ما يغضبك.. وأعود لأصالحك، خوفاً من أن تطول غيبتك، وأنسى أنك أثرتني!

أفتقد صوتك عندما يسمح للكلمات العفوية أن تتردد من خلاله، وأنت تقول لي:

ـ أبحث عنك بالحاسة السادسة.. بالنداء الداخلي، بالروح.. وأتوقع وجودك بجانبي في لحظة احتياجي إلى أصداء من نفسي!

فهل تعني ذلك حقاً؟!

أرجوك.. أتوسل إليك.. أريد أن أراك، وأن يصل نبض يدي إلى يديك!

إنني ريشة في مهب الريح.. بلا هوية، بلا وطن لنفسي التائهة!

إنني هذه الأنثى... يحرمها المجتمع من كل الفرص، ومن الأحلام.. بمجرد أن تتزوج لأول مرة، وعندما تفشل هذه الشركة، لا تجد من يرحمها.. بل تتكالب عليها موجات من الإزدراء، ومن الإهمال.. دون أن ينظر المجتمع إلى أسباب تحطيم ذلك العش.. الذي ينقلب إلى سجن وإلى جحيم!

إنني هذه الأنثى التي تصبح التجربة الأولى في حياتها حكماً بالإعدام على المستقبل!

* * *

ـ ٢ ـ

أريد أن أنام، ولا أستطيع..

أشعر بهذا الوقت الأفعواني في أي مكان أذهب إليه.. هاربة من بيتي ومن نفسي.

أريد أن أحتمي بالآخرين الذين ألجأ إليهم، كلما كان الصبح غير ممكن ومتعذراً!

أريد أن أرتاح، وأهدأ.. أن أغلق عيني وأحلم.. أحلم!

قلق فظيع.. حيرة مرة.. وحشة قاسية.. وحنين لا أقدر على احتماله، ولا على وصفه!

أنت يا أنا.. أين تكون يا حلمي الأخضر.. يا واحتي وملاذي.. أين أنت؟!

ما عادت الأماني تعطي أو تلوح.. ما عاد الخيال يجدي أو يزرع الصبر، والذكريات تزيد النار اشتعالاً!

إنني أتمزق في هذه الوحدة.. حتى صديقاتي مللتهن، لم أعد أرفع سماعة الهاتف على واحدة منهن.. لم أعد أرغب في زيارتهن، أريد أن أبقى منفردة بنفسي في غرفتي هذه.. أتوخى صوتك، واسترجع شريط عمري.. كل ما مرّ من رؤية ومن عمى.. من فرح ومن ترح.. من أمل ومن إحباط.

أيامي.. هل ما زال يهمك أن تعرف عنها؟!

في غيبتك.. كل شيء لا يحتمل. أسأل نفسي: هل هذا حب.. أم عشق.. أم وله؟!

لا . . إنه جنون، فقد أصبحت أنت معنى كل شيء في حياتي، وملامح كل شيء، ونبض عروقي، وخفق قلبي. . سعادتي وتعاستي. . حنيني ومكنوني.

«إيزيس» أنا. . تبحث عنك، تجوب الأمصار، وتحاول أن تلملم ما كان لها فيك ومعك. . ضاع، وتبعثر. . كأنك تحولت إلى أسطورة، أو حكاية شعبية؟!

نحن معاً في مدينة واحدة. . وكأن هناك مسافات لا نهائية تحول بيننا. .

منذ أن علمت بعودتك من رحلة العمل التي قمت بها إلى باريس، وأنا مسمار مدقوق في حائط الانتظار. . أحاول أن لا أبتعد عن الهاتف. . رنينه يسعدني، ويزلزل كياني هذا الترقب!

أسري عن نفسي وأصبرها. . أقول لها: لا بد أنك تشتاق إليّ، وستسأل عني. . سأزورك في أحلامك، وأذكرك أني باقية هنا أحتاجك!

من قبل أن تسافر. . من زمن أخذ يتباعد بنا، وأنا أحاول جاهدة أن أجدك. . لكنك تمضي بعيداً إلى جزر واق الواق. . أنت رجل أسطوري. . رجل حكايات تدغدغ أحلام الصبايا.

كنت أشعر أن هناك شيئاً آخر. . غير متاعبك في العمل ومشاكله. حاولت أن أدفعك للحديث عنك، لكنك تجيد الهرب دائماً، ولم تقل لي إلا ما تحب لي أن أعرف.

حاولت أيضاً أن أكون قريبة منك. . أن كون نفسك التي تحاورها، وتسألها، وتشكو لها.

مهما كان. . مما تريد أن تقوله، سأسمعك جيداً. فقط تكلم، قل لو

أردت: إنك تحب إنسانة أخرى غيري. . تصور، إلى هذه الدرجة أرضى، المهم أن ترتاح، وتهدأ، وأجدك!

صعب أن تتحول الأنثى التي تحب إلى صديقة لمن أحبته. . لكنني أرضى بذلك، لأكون الصدر الحنون الذي ترتمي عليه، وتغتسل، وتنام!

هنا أنا على هذا الشاطئ. . وأنت في الجهة المقابلة، قد تدعوني أحياناً. . تناديني، ويصور لي إحساسي ـ رغم بعد الشقة ـ أنني لا بد أصل إليك. . أجاهد الموج والعواصف، حتى تخور قواي، وأقاوم الغرق بما تبقى لي من جهد، وأفتح عيني، لأجد الموج قد حملني وعاد بي إلى حيث كنت في الوحدة، والوحشة، والحنين لك!

عندها. . أتمنى لو أنني غرقت وابتلعتني الأمواج، حتى أكفي هذه النفس محاولة أخرى فاشلة!

ترى. . لماذا لا تحاول أنت. . هل لأني لا أستحق المحاولة منك، أم لأنك مشدود هناك رغماً عنك إلى إنسانة أخرى. . إلى عالم استحوذ عليك منذ زمن طويل؟!

لا أمل يتحقق في حياتي. . ولا يأس يريح، فهل ترى كيف أحيا؟!

حتى الجزء الذي تحقق من أحلامي. . تريد أن تسرقه مني. . تبخل به، فماذا أفعل؟!

قل لي بربك: ماذا أفعل. . لو كنت أنسى الماضي كله. . لو أفقد ذاكرتي وأنسى كل شيء، وألقاك من جديد؟!

لكني لا أريد أن أنسى ما قلته لي يوماً، أو في لحظة صدق وأسعدني!

لا أريد أن أنسى ما جعلتني به أحسد نفسي، وأشعر أنك النسمة الحانية

والعطوف، وأنك تمثل واقعي وعمري وشجوني وهمومي وسعادتي!

أنت أيها البعيد في قربك.. أنت يا من لست لي:

بك استعدت ما ضاع مني، ووجدت ما افتقدت، وأعدت لي الوفاق بيني وبين نفسي.. فإذا تخليت عني ماذا سيحدث لي؟!

حاولت أن أتراجع.. فما استطعت.. ما استطعت.. إنني أصرخ حانقة عاجزة لأنني ما استطعت!

لا تدفع بي إلى الندم.. لا تثر غيرتي أكثر مما أثرت.. لا تغب عني، فأنا أحبك.. أريدك!

هل هنالك ما يمكن أن يقال أكثر من ذلك.. فيعبر لك عن كل ما في نفسي؟!

إن ما في نفسي نحوك هو الأجمل والأعظم والأعمق!

لا أملك قدرة إخفاء غيرتي عليك، وأنا أشعر من خلال كلماتك وتصرفاتك ما يوحي بأن هناك أخريات.. أنت قلتها صريحة، ولم تخفها برغم أني ما سألت. كنت خائفة من الظن والشك، فكيف باليقين؟!

ماذا أفعل.. أغار وأخاف عليك!

قد تبعدك تصرفاتي الأنانية.. ولكني أحب أن أبقي عليك، أو أبقي على نفسي داخلك فأخفي غيرتي.. وأقف هنا وحيدة أطوع النفس على أن ترضى.. أحاول أن أعوّد هذا الخافق على غيابك، وعلى نزواتك، وعلى زئبقيتك!

قد تكون الغيرة ضعفاً، وعدم ثقة كما يقولون.. لكني أعتقد أن ما يوجد الغيرة هي تلك التصرفات التي تزيد من شقوق فقدان الثقة!

الدموع ضعف يا حبيبي.. وهي حيلة من لا حيلة له، وأنا أغالبها وتقهرني، فأشعر بضعفي وقلة حيلتي، وأكره هذا.. واسترجع صدى كلمتك: أنت الأنثى المطمئنة الواثقة من عودتي إليها!

ليتني واثقة فقط مثلما تقول.. ولا أكون مطمئنة ولا راضية.. ويقتلني الخوف كلما ابتعدت.. يهدني القلق كلما غاب صوتك، وكلما رددت أن روحك عطشى لمن يفهمها.. لتوأمها، وكلما قلت لي: إن عاطفتك وحيدة تبحث عن صداها وشطرها الآخر!

ماذا تظنني يا سيدي وحبيبي؟!

حتى الحيوان الأليف.. قد يصبح شرساً وكاسراً.. إذا واجه خطراً.

لا أريدك أن تؤذيني في مشاعري.. لأنني لا أدري ما هو رد الفعل عندي، ولا أحب أن تغيب من حياتي.. مثلما أنني لا أريد أن أحاسبك على ما تفعل وتقول.. فالناس لا تحاسب على مشاعرها.. وغيابك إحساس، ووجودك إحساس.. أليس كذلك.؟!

لا أريد أن يكبلك إحساسي، ولا أن يحدد تصرفك بكلمة قلتها لي.. وإنما المهم الآن واليوم: ماذا تشعر.. وماذا تريد؟!

وإن كنت أقول لك ذلك، وأكرره.. فلا تسأم مني، إنني في حالة لا أحاسب عليها!

لست مجنونة.. وإن كنت أتمنى ذلك الآن.

ومنذ التقينا، وحتى اليوم.. أسألك: هل اقتربنا أكثر.. هل جدّ ما يمكن أن يغير ما أقول، فيأتي بصورة لا تملها عيناك؟!

في كل مرة تغيب فيها.. تأخذ معك أحلامي وآمالي وثقتي في نفسي،

وتأخذ أيضاً ثقتي بعاطفتك وبكلماتك.. فهل أقوى على الصبر، وأملك الغفران لك؟!

وإن استطعت ذلك.. فهل أجزم بأن عذابي معك لم ينل من عاطفتي شيئاً؟!

مرة قال لي الرجل الأول في بيتي ـ زوجي مع وقف التنفيذ ـ هذه العبارة:

ـ إن المريض الذي يشكو مرضاً عضالاً.. عندما تعتريه نوبة ألم حاد، فإنه يتألم، ويتألم حتى يصل إلى مرحلة الغياب عن الوعي، وهذه نعمة ومنة من الله عليه!

ـ لقد حدث لي ذلك من كثرة ما تألمت مع زوجي ومنه حتى وصلت في حياتي معه إلى مرحلة فقدان الوعي والتخدير!

ويبدو أن حالتي معك.. ستتحول من جديد إلى مثل ذلك الألم حتى حالة الغياب عن الوعي!

* * *

ـ ٣ ـ

عندما سألتني بعد عودتك من غياب طويل: هل اشتقت إليّ؟!

يومها.. في تلك اللحظة أردت أن أعرف رد الفعل عندك.. فأجبتك: لا.. لم أشعر بالاشتياق لك!!

ما عرفت كيف أفسر، وكيف أشرح لك.. كأنني رهينة لحالة غيبوبة

أخذتني، ولكني أردت أن أنال من غرورك، أو من «ثقتك» بنفسك كما تصف.. أردت أن أشهد انعكاس ووقع الكلمة عليك: أن تقول لك أنثى بثقة وبـ «الفم المليان»: لم أشتق لك!

طبعاً.. لقد شاهدت الغيظ، ووجهك يكاد يتميز منه، ولكنك قوي تكبت مشاعرك عندما تريد. ورسمت ابتسامة على شفتي وأنا أتطلع إليك بنصف نظرة، وأنت تبدو مندهشاً حين وقع الكلمة، ثم شردت بك خواطرك.. ربما إلى أول يوم التقينا فيه، أو أول نظرة سقطت بها صريع هوى أنثى!

فعلت ذلك معك لأستفزك.. فقد كنت أخشى أن تأخذك أنثى أخرى.. بداية أخرى، فتأخذ مني حتى عدم اهتمامك، أو حنانك وحنينك، ولا يبقى لي إلا إهمالك ولا مبالاتك، وصوت بارد من أعماقك، وكلمات المجاملة التي بلا روح!

تذكر أنه عندما تشدك أخرى بأي شكل، أو بأية طريقة من براعات النساء، في كسب اهتمام رجل.. فأنت حينئذٍ لم يعد يهمك أن تسأل عني أو أسأل عنك.

استرجع كلماتك الموحية إلى حد السخرية عندما نتحاور في إقبالك وحنينك لي.. كنت تقول بخيلاء لا أكرهها فيك:

ـ هذا يرجع لك.. فلو استطعت أن تحافظي عليّ، وتحافظي عليك في داخلي، فلن تستطيع أية أنثى أن تسرقني منك!

كنت تعرف أنك وحدك من يملك عواطفي وروحي.. بك أحلم، وأنت أتمنى؟ وحبك وحده ما يسعدني ويبني عالم أحلامي في إحساسي!

ماذا تريدني أن أصف لك بعد، وماذا أقول؟!

انتظرك، وانتظرك.. وبرغم الألم فالانتظار أرحم من اليأس منك، وأرفق من حرمان يدوم، فلا ألقاك، أو أراك!

ترى.. لماذا لا أهرب.. لا أرحل عنك وأتخلص من كل هذا العذاب؟!

وأعود.. لأفكر بقلبي: قد تحتاجني وتعود فلا تجدني.. قد تعود متألماً، قد تعود مجهداً، قد تعود ملولاً كعادتك، وتبحث عن أذن تصغي لبوحك، وعن صدر يريح متاعب رأسك.

لا بد أن انتظرك مهما طال بعادك.. انتظر طفلي الحبيب.. أضمه إلى صدري، وأمسح عنه عذابه وآلامه وحزنه، وأهدهده!

ما أحلى أن يعود الرجل إلى أنثى تحبه.. لا بد أنها وحدها هي عالمه الحقيقي.. يضحكان معاً، ويبكيان معاً، السعادة والألم.. الفرح والحزن معاً!

وتظل حبيبي أبداً وحياتي..

وتظل العمر، الضحكة والاستقرار..

وتظل الرجل الحاني في عاصفة الأحزان.

تظل حبيبي أبداً.. فإذا غبت، تكون حياتي لا أكثر من أنفاس على جدران صماء!

ترى.. ماذا يحدث لي إن ذهبت ولم تعد.. إن اخترت البقاء خارج عالمي، وخارج جنوني بك؟!

* * *

وأفقت من شرودي الطويل عندما جلست أتأمل وجهك بعد عودتك. كنت أنظر في عينيك الواسعتين، وأصابع يدي تتخلل شعرك الكثيف.. ووجدتك على غير عادتك: هادئاً، ومستقراً بل مسترخياً تحت ذراعي، وابتسمت أسألك:

ـ ما هذا الهدوء العجيب.. النهر ساكن، فأين عواصفك وأمواجك البيضاء المندفعة؟!

ـ أجبتني بصوت خفيض، مستلقياً: أريد أن أستريح.. لقد تعبت من الجري.

ـ سألتك: الجري خلف من.. أو خلف أي شيء؟!

ـ أجبتني وأنت تغمض عينيك: الجري خلف السراب.

ـ لم أجدك يائساً أو محبطاً بهذا الشكل.. ماذا جرى؟!

ـ لا شيء.. فقط أنا تعبت!

ـ قلت لك ضاحكة مازحة: تعبت من النساء.. فكم أصبح عدد رعاياك؟!

ـ أجبتني: نساء إيه.. ورعايا إيه.. أنت فايقة!

ـ قلت لك: لأ.. أنا ليلى.. ولكن تكلم، ماذا يزعجك اليوم؟!

ـ أجبتني: لست منزعجاً، صدقيني.. ولكني أشعر بحزن عميق ينتشر في أعماقي.

ـ ولم الحزن.. ما أسبابه؟!

ـ صدقيني لا أعلم.. ربما شعور خفي.. أشعر أنني سأموت!

ـ قلت مقهقهة: يا سيدي، تخفف.. وإذا مت فلا بد أنك سترتاح، فيه حد طايل الموت؟!

ـ أجبتني: بالعكس.. فالموت في عالمنا اليوم هو الأكثر، هو المتفوق على الحياة.. حتى في الحب، يقول الحبيب لحبيبه: أموت فيك.. فالموت هو السيد!

ـ ولكن.. ما أسباب هذا الشعور؟!

ـ لعلها الحاسة السادسة، والاّ مكشوف عني الحجاب!

ضربتك على خدك بلين، وأنهضتك من استرخاءتك.. وتكلمت كمن يهمس في أذنك:

ـ حبيبي.. لا بد أنك متعب جداً، والذي لاقيته في عملك كان مرهقاً لمشاعرك.. أعرفك، أنت حساس، ولكن العالم مادي، وشرس أيضاً، فلا بد أن تواجه الماديات والشراسة بصلابة، وبذلك العناد الذي أعرفه فيك، والاّ تعاندني أنا لوحدي وبس؟!

ـ أحس أنني زهدت في كل شيء.. الأشياء الثمينة في الحياة انعدمت.. بيعت بأثمان بخسة. اللحظات الحميمة بين الناس أهدرت في الخلافات والمصالح.

ـ قاطعتك: حيلك. حيلك، أنت راح تخطب والاّ إيه؟!

ـ لا.. وحتى أريحك، أقول لك باختصار: لقد استغنت المؤسسة عن خدماتي!

ـ فصلوك.. أنت يفصلوك، طيب ليه، وكيف؟!

ـ وأنا مين يعني.. لو كنت بيكاسو، والاّ أرسطو.. صدقيني بالتعامل المادي الذي وصلنا إليه، وبالمشاعر الأسمنتية التي غزت حياتنا.. كانوا فصلوا بيكاسو، وطردوا أرسطو، وبالوا على أرق شاعر!

ـ أرسطو يا حبيبي أرغموه أن يشرب السم!

ـ تعددت الأسباب.. والسم واحد!

لكن العصر.. ما هو واحد، العصر مختلف، لا تستسلم.

ـ لو حدث هذا قبل عشر سنوات.. أما الآن فأشعر أنني تقدمت عشرين عاماً نحو الشيخوخة!

ـ لكني.. ما عهدتك بهذه الروح!

ـ تقصدين الانخذال؟!.. لا عليك. سأصب خلاصة تجربة العمر في إيداع إنساني

ـ أعرف قدراتك يا حبيبي.. ولكن لا تبتئس. أضربها على عينها!

ـ بلغنا حدود الصمت من جديد، وما لبث هذا الصمت أن تحول إلى شرود سرق مني انتباهي «عادل» وأخذه بعيداً، ولكني حمدت للشرود فائدة واحدة، وهي أنني بقيت جالسة أتأمل وجه «عادل» وأعب من ملامحه كعطشان يريد أن يرتوي.

ـ وللمرة الأولى في عمر هذه العاطفة بيننا.. رأيت دمعة تنزلق من عيني عادل في شروده.. ما أصعب أن تطفر الدمعة من عيني رجل، ولكني شعرت أنها ستريحه، وتجعله يهدأ، وإذا هدأ.. فسوف يحسن التفكير!

ـ تمنيت لو شربت دمعته تلك.. فأجفف وجنتيه، وأعيد الابتسامة إلى وجهه!

ـ وجهه أجمل حينما يكون مبتسماً. . أليست ابتسامته هي فجر عمري الدائم؟!

ـ وتنبه «عادل» على أصابعي. . تمسح دمعته. أمسك بأصابعي تلك وقرَّبها من شفتيه وقبَّلها، وحدَّق في وجهي. . وشع وجهي بالفرح، وأضاء وجهه بابتسامته الأليفة!

ـ وركضت إليه في هذه المسافة القصيرة جداً بيننا وركضت، ولهثت، فإذا بي أرمي رأسي على كتفه، وأضمه هامسة:

ـ أرجوك لا تحزن. . أرجوك لا تتركني. . أرجوك لا تفقد ابتسامتك!

* * *

الفصل السادس

ـ ١ ـ

«جيوفاني فرساشي» إنه اسم لعطر نسائي، قبل أن تحاول التخمين.. وأنا أعرفك لا تحفظ أسماء العطور، وتقول لي: هذا من أهم عيوبي.. أن لا أحفظ أسماء العطور، ولا أسماء ممثلات وممثلي السينما العالمية!

وكنت أجيبك بسخرية: وعلى إيه.. أنت نجم، أشهر من أولئك الممثلين، وأنت أكثر عبقاً من أشهر عطر!

وتتطلع إليّ بجانب عينك، ثم تقول: بس أنا ما أتغر.. الغواني فقط يغرهن الثناء!

وأستفزك، فأقول لك: يعني صدقت أنك أشهر من الممثلين، وأذكى شذاً من أشهر عطر؟!

ـ تقول: إذا كنت فعلاً تحبينني.. أكون كذلك!

ذلك العطر: «جيوفاني فرساشي» اكتشفناه في الصيف الماضي عندما ذهبنا إلى باريس. بعد الظهر.. نزلت مع ابنة أختي إلى السوق.. نبحث عن

الجديد في باريس. . الموضة، العطر، حتى الوجوه. . لقد أصبحت الطفرة المالية عاملاً لتغيير الوجوه باستمرار!

ودخلنا محلاً لبيع العطور. . نسأل عن أحدث عطر. . فقدمت لنا الفتاة هذا «الجيوفاني».

استنشقت رائحته. . كانت رائعة، وساحرة، وبخلت على نفسي به وأنا وحدي بعيدة عنك.

فلمن أضع العطر؟! لرجل يعبر بجانبي في الشارع؟!. . لا. . لا بد أن أحتفظ بهذه الرائحة الجديدة لك حتى ألقاك فأضع منها. . وتصبح رائحتي الأثيرة الجديدة التي تجعلك تحس بقدومي من مسافة بعيدة. . ألست امرأة مثل باقي النساء أمام الرجل الذي تحب؟!

ولم نطل جلوسنا في باريس. . لأول مرة أشعر بالملل، لا أدري. . ربما كنت أنت السبب. هل تذكر ما قلته لي مرة؟

ـ قلت: أذهب إلى باريس لأسهر ولأضيع. . لذلك لا أميل إليها كثيراً. . إنها تشبه الأنثى الغانية التي تجعلني أدفع فلوساً كثيرة في مقابل ليلة واحدة!

ـ سألتك: وماذا تحب من مدن العالم؟!

ـ قلت لي يومها: أحب أي قرية في العالم مكسوة بالأشجار والعشب ومسقوفة بالمطر!

ـ قلت لك: ولكن هذا شعر، خيال، رومانسية. . شيء بعيد عن الواقع!

ـ قلت لي: بل هذه راحة. . حوار مع النفس. . صفاء ونقاء. شيء يعيننا على الصبر، وعلى أن نحتمل الواقع ولا نكفر به!

ولعلني كرهت باريس الصخب والأضواء والموسيقى المجنونة. . لقد

أصبتني بالعدوى سامحك الله، وهكذا أصبحت أميل إلى الهدوء، وإلى الطبيعة، وإلى الحقول.. تصور، حتى اللوحات التي دفعت مبالغ كبيرة، ثمناً لها، بدّلتها.. فهي لوحات من الفن الحديث.. وبحثت عن لوحات كلاسيكية ورائعة بالفعل، وعلقتها على جدار بيتي.. فأنت مستعمر أحبه، ولا أطيق رحيله!

وحزمت أمتعتي، وركبت الطائرة متجهة إلى لندن.. والجميع يسألني:

ـ لماذا لندن بالذات.. نحن لا نحبها؟!

ـ قلت لابن أخي ولابنة أختي: ثلاثة أيام فقط، ونذهب إلى حيث تريدون!

ـ قالوا: ولكن.. أخبرينا عن السبب؟!

ولم يكن هناك سبب.. بل هناك حدس بأنني سألتقيك في لندن.. لئيم أنت.. لم تخبرني، ولما عاتبتك بعد ذلك، قلت لي:

ـ لم أكن أعلم.. لقد جاءت رحلة عمل مفاجئة. تصوري سأبقى لمدة ثلاثة أيام فقط.

ـ شيء مرهق جداً!

كنت أحلم بحاستي، وأتخيل أنني وجدتك هناك، وأمسكت بيدك، وتحدثنا، وشربنا الشاي معاً، وأحطت كتفك بذراعي!

ـ لقد تحقق الحلم بالفعل..

كنت أعرف اسم الفندق الذي تعودت أن تسكن فيه كلما جئت إلى لندن. وسألت عنك بمجرد دخولي إلى الشقة التي نسكنها، وأجابتني موظفة الاستعلامات أنك تسكن بالفعل، ولكنك غير موجود الآن، وسألتني: إن

كنت أرغب في ترك رسالة لك. شكرتها وفضلت أن أكون مفاجأتك في ذلك اليوم. . وهكذا في لحظة واحدة أصبحت الدنيا لا تسعني!

سأجدك بلا شك بعد الساعة الخامسة. . ستستريح، ثم تنطلق إلى السهر. . أعرفك، ولك برنامج غير مشوق بالنسبة لي لو كنت وحدي، ولكنه برنامج حافل لو كنا معاً.

إذن. . لقد تحقق حلم آخر: أن أراك في لندن. ومنتهى الجشع لو طلبت أكثر من هذا!!

وحرصت أن أتواجد في بهو الفندق في تمام الخامسة عصراً، لأراك تدخل منهكاً. ولتراني جالسة انتظرك في أكمل زينتي، كشهرزاد!

يوم أن رأيتك هناك. . كان اليوم الذي لا ينسى. دخلت إلى بهو الفندق وأنا أراك دون أن تلحظني، واتجهت لتأخذ مفتاح غرفتك. كان التعب بادياً عليك وتحتاج لحمام دافىء.

أذكر أنني في ذلك اليوم وضعت هذا العطر الجديد الذي قدمت به من باريس. . وحتى اليوم، كلما رأيت الزجاجة، أو تعطرت بعطرها، لا بد أن تكون معي في أي مكان، وفي أي وقت، وكيفما كانت حالتي. . تكون قريباً، وأكاد أشعر بيدك في يدي، وأسمع صوتك!

أقسم لك أن ما أكتبه لك الآن وأقوله، هو الحقيقة، لا الخيال!

حلمت بك البارحة، وليس هذا بجديد، ولكن الحلم جعلني أتصور أنني كنت أحيا، وأن يقظتي هي الحلم. وفي الحلم جئت إلي تقول:

ـ ليلى. . إنني متعب ومرهق، أريد أن أنام، فهل أستطيع؟

ـ قلت لك: تعال معي. . ستراح على سريري.

أخذتك من يدك، وسرنا معاً، لم تكن ردهة عادية، بل كانت طويلة. ولم يكن هناك ضوء.. تحسسنا طريقنا في الظلام، وعندما وصلنا بعد وقت ليس قصيراً.. اكتشفت أن سريري أكبر من حجمه الطبيعي، ولونه أبيض أبيض، بياضاً غير عادي، ووسادة واحدة في منتصفه!

استلقيت أنت، ووضعت رأسك على الوسادة، وجلست أنا بجوارك.. ودون أن تتكلم، مددت يدك وسحبتني إلى جوارك.

ـ قلت لك: كيف ننام.. ولا توجد غير هذه الوسادة وهي لك؟!

ـ قلت لي: تكفينا معاً.

وأغمضت عينيك أنت.. بينما بقيت أنا أحدق في السقف.

لم يكن هناك سقف.. بل سماء زرقاء، زرقاء.. ونجوم منتشرة بكثرة.

ـ سألتك: أين السقف؟!

فلم تجبني.

ـ أين القمر.. هل سرق، هل سقط من السماء.. ولماذا؟!

فتحت عينيك، ونظرت إلى السماء.. ولكن دون أن تندهش مثلما حدث لي.

ـ أجبتني: القمر هناك!

ـ قلت لك: لا.. إنني لا أراه!

ـ سألتني: هل أنت خائفة؟!

ـ قلت لك: لا.. ولكني مندهشة. هذه الغرفة تشبه غرفتي، ولكن لا أشعر أنها هي.. والسقف، أين هو.. والنور، من أين يأتي هذا النور؟!

وضعت يدك على خصري، وقلت لي:

ـ التفتي إليّ، كلميني!

ـ قلت: لا أستطيع، فإن التفت، وأدرت لك وجهي فسيكون من الصعب علي التلفت!!

ـ قلت لي: حاولي.. جربي.

وعندما استدرت.. رأيت أشياء كثيرة.. كثيرة!!

* * *

ـ ٢ ـ

عندما استدرت ـ وما زال حلماً ـ انزلقت يدك عن خصري، وانتقلت فوق ظهري.. ورأيت وجهك في هذه اللحظة من الحلم.. كان يبدو كبيراً جداً، لا أستطيع أن أحتضنه بكفيّ.. ورأيت عينيك فيهما عمق واسع جداً، خفت أن أتطلع إلى اتساعهما وعمقهما، ورفعت يدي ألمس بها أرنبة أنفك.. واكتشفت أن أنفك قد تضخم!

وأغمضت عيني.. حاولت أن أقول لك شيئاً، واصطدمت شفتاي بشفتيك!

نمت أو لم أنم.. لم أدر ما الذي حدث بعد ذلك. استيقظت، وكان ما رأيت أكبر من حلم، وقد يدل على تفسيرات عديدة. وفي صحوي تلفت حولي فرأيت سقف حجرتي!

حلمت بك كثيراً.. ولكني دائماً أحلم بك بعيداً.. لم تكن قريباً مني

إلى هذا الحد. قد أكون تخيلتك بهذا القرب، ولكني لم أحلم بك من قبل إلا وأنا أحاول التحدث إليك، أو أحاول اللحاق بك، أو لا أراك مع الآخرين وفيهم!

مهما حدث، ومهما كان وسيكون في الغيب.. أرجوك أن تكون قريباً مني، لا تتركني وحدي.

أنت لا تعرف من تكون بالنسبة لي مهما صورتك.. فهل تعرف أنني ألوم الدنيا والظروف لأنهما أخرا اقترابي منك، ولقائي بك كل هذا الزمن؟!

ما زلت أتمنى لو كنت أنا هذه الأنثى القوية أمامك، التي تستطيع أن تستحوذ عليك قلباً وعقلاً ووقتاً، فأستحق الحب بالفعل، وأنال من رضاك وعطفك ما يغسلني ويطهرني وينتشلني من كل الأحداث التي عانيت منها!

لم أكن امرأة ضعيفة قط طوال حياتي، وبالذات مع الرجل.. كنت قوية، أفرض ما أريد وأرغب وأقرر، وكانت القرارات ملكي وحدي.. لكنني معك تبدلت، أصبحت إنسانة أخرى، حتى القرارات لم تعد ملكي، وأشعر اليوم أن الجميع يريد أن يأكلني لأنه يستضعفني!

لا ألومك أنت. ولكني أتساءل: هل الحب يضعف، أم من المفروض أن يمنح الإنسانة قدرات أعظم ليكون قوياً وفعّالاً؟!

هل تعرف أنني كلما نظرت إلى المرآة بعد أن عرفتك.. تمنيت لو كنت أجمل.. لو كنت أصغر؟!

ذلك يحدث كثيراً.. حتى الفساتين التي اشتريتها، أحب لو ارتديها لك أول مرة.. أحب لو أعرف: هل تعجبك؟!

أحب لو أملك أمر قلبك، كنت وضعت فيه نصف، بل ربع ما يملأ قلبي فلا بد أنه سيكفيني حباً لي، وأتمنى أن يطول عمرك، وتكون سعيداً، وأتمنى أن أموت قبلك.. فأنا لا أتصور، أو أتخيل أن أحيا في الدنيا، وكيف تكون دنيا وأنت غائب عنها، وكيف أحيا وأنت دنياي.. دنياي؟!

لذلك كله.. كثيراً ما تمنيت أن يكون هناك ما يشغلني.. ما يأخذني ويشدني من دائرتك، فيأخذ حيزاً ولو صغيراً من اهتماماتي.. لعلني أرتاح قليلاً، وأدعو ربي أن لا يكون هناك مزيد من الحب.. فالذي لك منه عندي يكفي العالم كله!

* * *

لكن هذه الأمنيات أيضاً لم تعد خالصة في حياتي.. فهناك ما ينغص حتى أحلام اليقظة!

وهل هناك أقسى من «حسين» هذا الذي ربط حياتي بإهماله ولا مبالاته حتى يخيل إليّ أنه سيدفن هذه الحياة ببطء حتى آخر رمق لي؟

لقد رفضت أن أراه في أي مكان، رغم كثرة إلحاحات أخي أن نجلس معاً: أنا وأخي، وننظر في مطالبه، فإن وافقت قدرتنا على تنفيذها رضينا بها واتفقنا، وتعود المياه إلى مجاريها، وإن استبد الخلاف كان علينا أن نحل هذه المعضلة المزمنة بالحسنى، وكل واحد يذهب إلى حاله ودنياه ويصبح حراً!

وكنت أتطلع أن يصدر من «حسين» أي موقف خاطئ، وأي عناد، وأي إصرار على حماقة يرتكبها، فأردت أن أتحاشاه، فاجتنب ما قد يسببه لي من

إهانة، أو سخرية. ويضاف هذا كله إلى تقززي من الجلوس معه أو التحدث إليه!

صدقني.. لقد بت أكرهه.. وأخاف أن تُعدي هذه الكراهية مشاعري نحو كل رجل، فيصيبني بعقدة يصعب الشفاء منها!

ولكنني كلما حاورت نفسي.. أفصل «حسين» من رجال المجتمع السوي، فهو رجل غير طبيعي. مليء بالعقد، وبالغرور، ويوصله عناده أيضاً إلى الحماقة. عرفته كثيراً وعانيت من هذه المعرفة!

وتركت أخي يذهب إليه في بيته.. بعد أن اتصل به وأخبره أن أمي مريضة، وأنني لا أستطيع الحضور إلى الموعد للتفاهم.

ـ قال لأخي بذلك الغرور والتعالي: لا بأس.. تأتي أو لا تأتي.. أريد أن أتفاهم مع رجال لأبت الموضوع الذي طال وأصاب عفونة!

كانت تعبيراته قذرة دائماً كرائحة نفسه وأفكاره.

ـ أجابه أخي: لا نريد أن نغلط في الكلام «يا حسين»، فنحن نجتمع في وشيجة دم، والخلاف لا يعني القتل. سآتي إليك مساء الغد في بيتك ومعي صديق الطرفين «صالح»!

ـ قال حسين: تريده شاهداً.. أنا لا أرجع في كلامي، ولا ألحس كلامي!

ـ أجابه أخي: لا أقصد ذلك. ألم نقل لا نريد أن نغلط.. ولكن صالح يعرف المشكلة. والواحد منا يتفاءل بواسطة الخير.

ـ قال حسين: وساطة لمين.. لي أنا، أم لزوجتي التي تعصاني وترفض أن تعود إلى بيتها وزوجها؟!

ـ قال أخي: على كل حال لا تفتح الموضوع الآن.. وموعدنا هو مساء الغد الساعة التاسعة.. ما رأيك؟!

وأخبرني أخي بهذا الموعد. وشدني الاستغراب والتساؤل، قلت له:

ـ ولكن.. ما دخل صديقكما «صالح» لماذا الغريب، هل تريد أن تحرجه، أم تلزمه بما يقول؟!

ـ قال أخي: لا هذا ولا ذاك.. أريد فقط أن أكشفه أمام أصحابه وأصدقائه، ولا شك أن «صالح» سيقول لكل الأصدقاء عن تصرفه الذي سيفعله!

ـ قلت: وهل تتوقع منه تصرفاً مشيناً إلى درجة أنك تكمن له بصالح ليفضحه؟!

ـ قال أخي: إنني لا أتوقع، بل أجزم أنه نذل، ولكني لا أتكهن بالذي سيقوله أو يطلبه في مقابل منحك حريتك بعد سنوات طويلة من هذا التعليق والاهمال!

ـ قلت بأسى: وماذا تتكهن غير أن يتحفكم بالخبر الجديد الذي لا تعلمون أنتم جميع أهله وأصدقائه به!

ـ قال أخي يتساءل مندهشاً: خبر جديد.. ماذا تعنين؟!

ـ قلت: أعني أن السيد «حسين» ـ زوجي ـ مقبل على دنيا جديدة، وأنه خطب لنفسه فتاة صغيرة جداً.. تصغره بعشرين عاماً، أقصد لو أننا أنجبنا منذ ارتبطنا لكانت لنا فتاة عروسة في سن هذه التي سيتزوجها!

ـ قال أخي: عجيب.. من أخبرك، وكيف علمت، قد تكون مكيدة؟

ـ قلت: ومكيدة ليه؟.. أنا لم أغضب، ولكني أفتش عن حقي، ومن حقوقي أن أطلق منه، وأسترجع حريتي، وليهنأ بلعبته الجديدة!

وسمعت أخي يحادث نفسه كمن يهذي:

ـ عجيب.. وكيف وافق أهل الفتاة على زواج كهذا غير متكافئ؟!

ـ قلت لأخي: لا عليك، اهدأ.. فالمشكلة تمس حياتي، وأنا كفيلة بتجاوزها، وصدقني أنني لم أغضب، ولم أشعر بالغيرة.. فالمرأة تغار على رجل تحبه.. المهم أن تنهي لي هذه المشكلة، وتعود إليّ بصك تحريري من عبودية هذا الرجل.. فتكون بذلك قد ساعدتني على كتابة عمر جديد لي.. حتى لو كان هذا العمر شهراً، أو يوماً واحداً، أو لحظة فقط!

ـ قال أخي: إلى هذه الدرجة أصبحت تكرهينه؟!

ـ قلت: حتى الكراهية لا يستحقها.. إنني أحتقره، والاحتقار إسقاط تام!

ـ قال: غداً إن شاء الله آتيك بالخبر اليقين!

* * *

ـ ٣ ـ

لم تذق عيناي طعم الكرى.. بت أتقلب فوق فراشي كسمكة في مقلاة، أتألم، أحترق، أحتار، أتساءل.. أستعجل هذا الليل الطويل أن ينجلي ليأتي صبح الغد، والنهار له عيون كما يقولون.. سيضيع في زحمة الناس، في

الزيارة.. وسيأتي مساء الغد، وذلك الموعد ـ المصير.

أعرف أن الموعد لن يستغرق ساعات طويلة، بل لعله أكثر اختصاراً.. فأنا أعرف تماماً نفسية «حسين» وسوداوية مشاعره.. وحتى ينتهي النقاش، ويخرج أخي ويأتي إلى بيتي.. أكون قد قتلت عشرات المرات!

إنني لا أفكر حزناً على هذا الإنفصال.. فأنا التي أطلب ذلك وألح عليه بأي ثمن.. لكن تفكيري ينحصر في خوفي من استمرار امتناع زوجي عن تخليصي من ربقته.. حينذاك سأضطر إلى رفع قضية ضده، وإلى ارتياد المحاكم والتفرغ لهذا الأمر الذي يريده.. لمزيد من إذلالي وإخضاعي للانتقام مني.. وحتى تخرج القضية من المحكمة أكون أنا قد صفيت تماماً وانتهيت.. ويكون هو غارقاً في بحر العسل مع عروسه الجديدة التي سمعت أنه «سيستوردها» من بلاد بره، لتنجب له أطفالاً أكثر صفاء منه، ومن ظلام نفسه!

وقمت من سريري، وقد هجم القلق على كل خفقة، وكل نبضة مني.. خفت أن تفلت أعصابي. خفت أن أجهش بالبكاء في هذا الليل البهيم، وما بهيم إلا الحيوان الناطق!

خفت أن تستيقظ أمي، فتحمل همي، ولا تنام أبداً.

ورغم أنني استعنت على النوم بحبتي فاليوم، وبجرعة من شراب الكحة ليخدرني فأنام ساعة أو اثنتين فقط، حتى أستطيع أن أواجه الانتظار الممل يوم غد.. رغم ذلك لم يكتحل جفناي بالنوم.. استهلكت كميات هائلة من السجائر منذ انتصف الليل!

ترى.. ما الذي يكون، لو رضي هذه المرة أن يطلقني؟!

لا شيء.. مثل كل مرة، وطوال السنوات السحيقة التي مرت، وكنت فيها كما يقال: لا أنا مطلقة ولا أنا معلقة!.. حتى هذا «التعليق» لم أحظ به، ولكنني في اعتبار كل الأسرة والناس، ما أزال الزوجة التي على ذمة زوجها.. لا بد أن ترعى سمعته وأن تحافظ على التقاليد.. بينما هو يسرح ويمرح، لا تهمه سمعة، ولا يراعي التقاليد.. وفي كل يوم هو في بلد، وفي ذراعه فتاة. ويبدو أن المرأة وحدها هي التي ينبغي أن تحافظ على السمعة وعلى التقاليد، والرجل يعبث كما يريد.. كأن المرأة ما زالت في هذا الشرق من السبايا!

أوف.. يا ربي، أعني على هذه الليلة ويوم غد، حتى أنام في مساء جديد قريرة ومطمئنة وأمتلك حريتي!

ولا أدري كيف مرت ليلة البارحة.. فقد أشفق النعاس عليّ، فحملني مع تباشير الصباح، وهدهدني.. ليدخل بي عالم النوم المريح.. فلم أستيقظ إلا بعد الظهر، وكأن أمي كانت ترقب معاناتي وآلامي، فلم تحاول إيقاظي، فالنوم راحة لي من الأفكار والتخمين والتوقع.

ولكني استيقظت بعد الظهر على قرع جرس الباب.. قمت فزعة، أركض في الصالة الكبيرة، ووجدت أمي قد سبقتني إلى الباب، ورأيتها تأخذ من السائق مجموعة كبيرة من الصحف والمجلات التي اعتاد السائق أن يحضرها من المكتبة.

ـ سألت أمي وأنا أتثاءب: كم الساعة الآن؟!

ـ قالت تسخر بابتسامة: اسم الله عليكي.. دخلنا على الثالثة بعد الظهر!

ـ قلت: أحسن!

ـ تساءلت أمي: ماذا قلت؟!

ولم أجبها.. فما زال النوم يحتشد في عيني بعد إرهاق وآلام الليلة الماضية، ولكني بعد أن صحوت، من المستحيل أن أعود إلى النوم، بل ستفترسني الأفكار والتوقعات، ومن الأفضل لي أن أصحو، وأن أتغدى، وأصك رأسي بفنجان قهوة معتبر!.

وكنت أتحول إلى هياج وجنون كلما رن الهاتف، أو قرع جرس الباب.. أحسبه أخي قد عاد بالبشارة!

ولا أدري كيف احتملت كل هذا التوتر والتحفز، حتى بلغت الساعة العاشرة مساء.. وقد تركت كل شيء، ولم يعد يعنيني إلا رنين الهاتف أو قرع جرس الباب. تركت التليفزيون، قذفت بالمجلات، وبقيت أنتظر الخلاص!

تعبت من هذا الانتظار.. وشعرت أن أعصابي قد تلاشت جميعها بسبب هذا التوتر، وكدت أجن بعد كل الانتظار الساحق، لولا أن تعالى صوت جرس الباب، قفزت أركض لأفتح.

كان وجه أخي.. كانت نظراته.. كان جسمه الطويل!

ولكن خيل إلي لحظتها.. أن هذا الوجه ليس وجهه، والنظرات ليست له، وقد تضاءل جسمه الفارع!

كأنه لبس على وجهه قناعاً يبرز ملامح وجه زوجي، والنظرات مباعة للحيرة!

ـ صرخت في وجهه: ماذا حدث.. لم أعد أحتمل أكثر من عذاب ليلة ويوم.. تكلم؟!

ـ قال أخي: أخبارك صحيحة.. قد خطب فتاة في العشرين، وسيتزوجها في الشهر القادم!

ـ قلت متوترة: قديمة.. ما الجديد المفيد؟!

ـ قال أخي كأنه يهمس: إنه نذل.. نذل!

ـ قلت ساخرة: برضه قديمة.. اكتشفت ذلك من سنوات!

ـ قال أخي: لقد وافق على الطلاق أخيراً.. ولكن بشرط!

ـ قلت متلهفة: أخيراً.. الحمد لله، كل شروطه أنفذها!

ـ قال: ولكنه نذل بالفعل!

ـ قلت متعجلة: لم يبق عندي صبر.. تكلم ما هو شرطه؟

ـ قال: إنه يطلب ثمناً لحريتك والخلاص من عبوديته!

ـ قلت: طلب فلوساً يعني.. كم يريد، فأنا أعرف دناوته!

ـ قال أخي: اشترط أن تدفعي له مبلغ نصف مليون ريال!

ووجمت في اللحظة الأولى.. وتنقلت النظرات من عيني إلى عيني أمي.. إلى عيني أخي.

وكان لا بد لي أن ابتسم بمرارة، فما زالت المرأة تباع بالفلوس.. المشاعر كذبة وما زال الرجل ينظر إلى المرأة كمتاع.. أنا في نظره الآن متاع قديم.. - روبابيكيا يريد أن يكسب منها في الحراج!

ـ قلت: إنه يقصد البيع!

ـ قالت أمي: يا بنتي.. يمكن الرجل حب يعجزكم بهادا المبلغ الي ما

هو عندكم لأنه يقصد أن يحتفظ بك كزوجة وترجعي له!

ـ قلت: يا ماما من فضلك.. ده جزار بيبيع لحمة. أنا تحولت إلى لحمة معلقة للبيع، وكيف يفكر إني أرجع له وهو خاطب وراح يتجوز بعد شهر!

ـ قالت أمي: أنا عارفة.. المهم ما نسيء الظن بالناس!

ـ قلت: ده ما يسموه إساءة ظن يا ماما يا طيبة، ولكن يسموه إثبات ظن وسوء. بس كيف ومن فين أدفع له النصف مليون، وكل اللي عندي في البنك حوالي نصف هذا المبلغ.

ـ قال أخي: والله يا أختي.. يعني أنا خجلان منك.. العين بصيرة.

ـ قاطعته: لم أطلب منك يا أخي.. عارفة مسبقاً، لكن يمهلنا فترة بس ومستعدة أعطي له اقرار بدفع هذا المبلغ كدين.

ـ قال أخي: ألم أقل لك إنه نذل.. لقد اشترط أن يكون الدفع خلال نصف شهر، وإذا تأخرنا عن ذلك فسيرفع المبلغ إلى مليون!

وأسقط في يدي.. ولم أشعر إلا بدموعي تنزلق من عيني بصمت!

هل هناك ذل أعظم من هذا.. وهل هناك إنسان تجرد من إنسانيته بمثل هذا التشوه؟!

ـ قلت لأخي: لا عليك.. دعني أفكر للغد وأعطيك رأيي!

* * *

ـ ٤ ـ

تخلصت من توتر وقلق الليلة السابقة، ولكني سقطت في أسى لا يوصف..

أصبحت أعاني من الإحباط، ومن الفجيعة، ومن القرف.. ما ظننت أن الحياة الحلوة تتعفن بمثل هذا السلوك الذي اتبعه «حسين» معي!

وهرعت إلى القرآن الكريم.. لا أدري كيف اندفعت إلى غرفتي بحماس. ألوذ إلى آيات القرآن فهي ستمنح داخلي طمأنينة ودعة. كيف نسيت القرآن ليلة البارحة، إنني جربت ذلك في لحظات محنة أو حزن أو ألم.. وأشعر بعد الترتيل بصفاء النفس.

قرأت.. وانهمرت دموعي.

وقرأت.. لا أريد أن أتوقف.

ونمت.. أخذني السبات العميق، فلم أستيقظ إلا في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي.

قالت لي أمي في الصباح:

ـ لقد جئت أطمئن عليك في الليل.. فوجدتك متكئة برأسك على مقدمة السرير، والمصحف بين يديك وفوق صدرك وأنت نائمة.. وسحبت المصحف وعدلت نومتك. وغطيتك وفرحت أنك تذكرت القرآن.

ـ قلت لأمي على الفطار: عندي فكرة.. نخلص بها من شرط «حسين» وهي:

أن أبيع الفيلا الصغيرة، ونسدد من ثمنها المبلغ الذي اشترطه، والفلوس تروح وتجي يا أمي.

ـ قالت أمي وقد انزلقت دمعة على خديها: اللي تشوفيه يا بنتي.. بس الفيلا دي وخّرها أبوك لك بالاسم.. قال قبل ما يموت: الفيلا دي لليلى وبس!

ـ قلت: معليش.. ربنا يعوض ونجيب أحسن منها. المهم نخلص يا ماما.

وقمت إلى أمي، احتضنها، وأقبل رأسها. وسارعت إلى الهاتف أطلب أخي. ووعدني أن يحضر بعد العصر.. بعد أن اختصرت له شرح فكرتي للخلاص!

وافق أخي، وعرضنا الفيلا للبيع. ومر أسبوع، والمهلة تتناقص أيامها.. ولا من مشترٍ يأخذ الفيلا حتى بثمن بخس!

لكن أخي بعد أسبوع.. جاءني يحمل لي عرضاً، لم يكن مفاجئاً لي في هذا الزمن المادي!

ـ قال أخي: لقد تم تسعير الفيلا وقيَّمناها من مكاتب عقار عديدة، واتفقوا جميعاً أنها لا تستحق أكثر من مليون ريال.

ـ قلت: وأنا بعت.. فهات الشيك!

ـ قال أخي مندهشاً: وكيف عرفت أنني الذي سأشتري الفيلا؟!

ـ قلت: ليس مهماً الآن من يشتريها.. حتى لو كان «حسين» نفسه.. المهم أن تسلمني المبلغ اليوم، وندع إجراءات الافراغ والصك تسير وفق

النظام المعتاد. وأخرج أخي من جيبه دفتر الشيكات، وكتب باسمي مبلغ مليون ريال.

وفي الصباح الباكر.. كنت قد انتهيت من صرف الشيك وإيداعه في حسابي، وحررت شيكاً باسم «حسين» بمبلغ نصف مليون ريال!

واتصلت بأخي.. طلبت منه أن يبلغ «حسين» أن المبلغ أصبح جاهزاً، وأن عليه أن يحرر ورقة الطلاق لنذهب بها في الغد إلى المحكمة لتصكيكها.

وذهل أخي عندما حضر، وهو يراني أرتدي ثياباً فاخرة، وأبدو في كامل زينتي.

ـ قال مندهشاً: هل حوّلوا السهرات إلى النهار.. إيه ده كله.. تبدين جميلة جداً!!

ـ قلت مبتسمة: أجمل سهرة انتظرها في أهم فترات العمر التي ضاعت.

ـ قال: إلى أين؟!

ـ قلت: معك.. سنذهب إلى «حسين» أليس هو حتى هذه اللحظة زوجي؟ فمن حقه أن يرى زينتي، ومن حقي أن أسلمه ثمن النعجة التي أراد ذبحها.

❊ ❊ ❊

لم يكن «حسين» يعلم بقدومي مع أخي.

أردت أن أجعلها مفاجأة له.. لأدعه يضطرب، فلا يجد الفرصة ليفكر

في خبث جديد يرميني به، فلم أعد أحتمل وخزاً جديداً، ولا أن أدمي أكثر مما نزفت من شبابي وعمري.

وصعق «حسين» وهو يراني في صالونه الكبير. كان ينتظر قدوم أخي بالمبلغ، وقع لنا الخادم، وأوصلتنا خادمة في الداخل إلى الصالون. ورائحة عطري تنفح فتملأ المكان والأرض والصدور.

وحاول أن يتماسك ويربط جأشه، وأن يقابلني بنفس البرود المعتاد والسخرية، فقال يحادثني:

ـ يتهيأ لي أنك خسيتي شوية!

ـ قلت مبتسمة: وأنت برضة «خسيت» بس ما هو في جسمك!

عرف معنى كلمتي «خسيت» التي ضغطت على مخارج حروفها، بأنها تعني الخسة. وابتلع ريقه، ثم قال:

ـ على أية حال.. الحياة صفقة. جبت الفلوس.

ـ قلت: الورقة أولاً.. سلم أسلمك.

ـ قال: لا.. في دي أعرفك أمينة جداً.. هذي هي الورقة.. خذي.

ـ قلت وأنا أتسلمها منه: في كل حياتي معك كنت أمينة، والآن بعد هذي الورقة سأصبح آمنة مستقرة مطمئنة حرة.

وأخذت الورقة، وكنت أمام أمي في البيت أرقص.. أطير في الفرح.. أضحك بهستيريا.

واكتمل اطمئناني في اليوم التالي بعد أن عدنا من المحكمة أنا وأخي،

وبين يدي صك تحرري من «حسين» بعد سنوات عجاف، سوداء، قاحلة، مميتة!

هدأت الآن..

أريد أن أنام عدة أيام..

لا.. بل أريد أن أراك يا حبيبي.. أين أنت، تراني نسيتك في ركضي وراء تحقيق حريتي، أم تراك أنت خذلتني ونسيتني فابتعدت عني؟!

اغفر لي.. فلم أسأل عنك طوال نصف شهر.. كنت فيها أتخيل نفسي عروساً صغيرة أزف إليك، فكان شعور الفرح هذا ممزوجاً بشعور الترح والتعاسة والتوتر الذي عشته في فترة المساومة على حريتي!

اغفر لي.. فأنا أحبك.

لا.. فأنا لم أحب أحداً غيرك، ولكني لم أنس يا حبيبي أنني أحلم!

لم أنس أنك أصبحت في حياتي «كل» حلمي.. وأنني في حياتك لا أعدو جزءاً من حلمك.

لا ينبغي لي أن أطلب المستحيل.. قلت لك مرة: أعرف أنك لست لي!

الآن هدأت.. وصك حريتي بين يدي، وقلبي يزداد وجيبه حباً لك وشوقاً وحناناً!

أية أنثى في مكاني.. ينحصر تفكيرها في شيء واحد، وهو: أن تمتلك الرجل الذي أحبته!

أنا أعرف أنني لا أقدر أن أحقق هذا الحلم.. وأنت أيضاً لا تستطيع

أن تسعدني لا أنت ولا الزمن.. عذابي يتجدد في فقدك الدائم.. في تطويعي لأشواقي لك.. ولكني أعجز أن امتلكك، لأنك أنت لست ملكاً لنفسك.

ترى.. ما الذي يمكن أن أفعله الآن بعد أن أصبحت حرة؟!

أن أحبك أكثر وأعنف.. وأين أنت، لأخبرك على الأقل!

هل تعرف ماذا حصدت الآن؟!

لقد باعني زوجي بالفلوس، واشتريت نفسي بالسأم للفراغ!

وأنت.. لقد بعتني نفسك لفترة زمنية بكلمة حب.. أردت أن تسعدني بها لأرتاح. ولكن.. هل ارتحت الآن حقاً؟!

بدأت الكلام معك بالخفقة وليس بالنبرة أو بالحرف.. كنت أريد أن أتخطى بحبك ذلك الصمت المفتون على شفاهنا المنفرجة بالدهشة!

كان طريقي إلى آفاقك وعالمك وجنونك وحنانك.. طريقاً مسكوناً بمناجم الأسئلة، وبآلاف النجوم التي تدلني على ابتسامتك!

أحببت ابتسامتك، حتى حسبتها عمري.. واخترعت من ولهي الصادق بك.. اجتيازاً يوصلني إلى ولادتك في حضارة روحي.. ويوصلك معي إلى «حنان يقطر مني لأجيال»!

فمن أنت الآن؟!

ما زلت حبيبي، وكل حلمي.. ولكني لم أعد أطيق أن أطاردك لاصطاد صوتك، أو أعتقل ابتسامتك في عيني.. فقد تعبت منك أيضاً، وتعبت بك!

الآن.. أريد أن أسترخي، وأحدق في السماء.. أن أعايش تفسير ذلك

الحلم الذي ضمنا معاً.. حين رأيت بيتي بلا سقف، أو السماء سقفه. أنظر.. لقد فسّر الحلم الآن!

ومن أنا الآن عندك؟!

إنني هذا الـ «جزء» من حلم.. عَبَر حياتك، وحاول أن يكبر ويكبر ليكون هو الحلم المتكامل والوحيد.. دون جدوى!

ولست نادمة ـ صدقني ـ بل أشعر بسعادة.. فالعالم كله يتلاشى في استرخاءتي هذه.. وتبقى أنت وحدك كل عالمي!!

زمن.. يليق بنا

المقدمة

* عندما كنت أكتب تحت عنوان: «العالم رجل».. وذلك منذ بدء صدور مجلة «سيدتي» وحتى الحلقة الأخيرة. حاصرتني أسئلة كثيرة من المرأة بالذات!

بعضها كان يستفسر عن المعنى من وراء ذلك العنوان!؟

والبعض الآخر.. كان يشجب هذا «التخصيص» للرجل، ويقول: بل العالم.. رجل وامرأة!

أما البعض الثالث من وراء القارئات، بالذات.. فقد ذهب إلى أبعد، وإلى الأكثر شططاً، فقال ذلك البعض:

ـ بل العالم امرأة.. أولاً!!

ولم أقل ـ حينذاك ـ أية إجابة عن كل تلك الأسئلة، أو ذلك الاعتراض...

لقد اعتبرت أن العنوان يعطي دلالة أكثر على: أن دور الرجل أوسع وأشمل.. بدليل أن كل امرأة تحمل، تتمنى مع أول حمل لها أن تنجب ولداً، ليكون رجلاً يحميها.. ربما لأنها لا تثق في زوجها للأبد!.. بسبب أن الكثير من الرجال عيونهم طويلة، وأن المرأة أكثر وفاءً من الرجل!!

وكنت قد بدأت في كتابة سلسلة جديدة تحت عنوان: «العالم طفل» في غير هذا المكان: «سيدتي». . عندما توقفت عن الكتابة فترة في «سيدتي». . ثم واصلت كتابة حلقات هذه السلسلة دون أن أنشرها، لأنني احتفظت بها لقارئات وقراء «سيدتي»!

وكان لا بد أن أبدأ نشر هذه الحلقات هنا منذ بدايتها. . حتى يتمكن قارئات وقراء «سيدتي» من المتابعة بدءاً، وحتى انتهاء الحلقات!

والرمز، أو «التورية» في هذا العنوان. . يحفلان بعدة معان، المباشر منها، والرمز، والمعنى الذي فعل الإيحاء، والمواكبة لدعوة الاهتمام بالطفل، ورعايته، وفهم نفسيته وللدخول في عمر. . قد يأتي جديداً على الآباء والأمهات أيضاً!

فالعالم طفل. . لأنه أحال حضارته العظيمة إلى لعبة، أخذ يحطِّمها بعد أن امتلكها!

والعالم طفل. . لأن بدء الإنسان يأتي مدخله من الطفولة. . ولأن الإنسان في قوة شبابه وحيويته، يقف عند لحظات مفرقة في العاطفة، ويتصرف كطفل يعاند، أو كطفل يبحث عن الحنان. . ولأن منتهى، الإنسان يصل به إلى قدرات الطفل المحدودة، عندما يهن ويعجز. . فهو يموت طفلاً بشيخوخته!

والعالم طفل. . لأن أول سؤال يطرحه الإنسان بدون خوف، وأيضاً بدون أن يفكر قبله. . هو سؤاله وهو طفل، قائلاً:

ـ من أين جئت؟!

والعالم طفل. . لأن آخر سؤال يتركه الإنسان وراءه قبل رحيله عن الدنيا

ـ بكل الخوف وكثافة التفكير ـ هو سؤاله عن أبنائه الذين يخلِّفهم في الحياة: ماذا سيفعلون من بعده؟!

والمعاني كثيرة في هذا الشرخ.. ولكن، يبقى «الطفل» هو هاجس المستقبل، وهو خوف الآباء، وحنان الأمهات.. هو تعبير الفرحة وبدء الحياة.. وهو ميلاد الأسرة وتكوينها.. وهو «ميزانية» الدولة الإنسانية الحضارية!

وهذه السلسلة التي كتبتها تحت عنوان: «العالم طفل».. إنما أستمد فكرتها من الإنسان «الأغلى» ـ بدءاً وانتهاءً ـ كما أستمدها من المجتمع: ملامح وعادات وطموحات وقيماً.. ومن عصرنا هذا: تطوراً واحتياجاً.. ركضاً واحتجاجاً.. تقدماً وأسئلة محرجة.. معادلة وتناقضات.. حباً ومادة.. قيمة وتبدداً!

وستلاحظون أن المناخ الاجتماعي لا ينحصر في إقليم بذاته.. بل هو ممتزج بفكرة وحدة الأمة العربية، في طباعها، وعاداتها، ومشكلاتها، وهمومها، وأحلامها!!

عبد الله

الميلاد

* تتصاعد رائحة الشواء إلى الطابق الثاني في العمارة المكونة من خمسة طوابق. .

هنا تحت العمارة مطعم يفتح أبوابه للزبائن، ويقدم المأكولات بأنواعها، ولكن في المساء. . يخرج المطعم إلى رصيف الشارع بشواية «الشاورما»، واللحم والفراخ المشوية، ويستقبل في الغالب الشباب من «العزَّاب». . ممن لم يستطيعوا حتى الآن أن يوفِّروا «المهر» المطلوب لزوجة تكوّن البيت والأسرة!

وتتعالى أصوات أبواق سيارات الشباب وضحكاتهم ومزاحهم إلى طوابق العمارة!

ولكن الطابق الرابع يختلف هذه الليلة بالذات عن كل طوابق العمارة. . إنه الطابق الذي يحتوي على شقتين. . واحدة تحمل رقم (٧)، والأخرى تحمل رقم (٨) وهي التي تطل على المطعم، تحتها. . وهي شقة مكونة من ثلاث غرف، ومطبخ، وحمام، «وبلكونة» تطل على الشارع، والمطعم!

وعلى باب «الشقة» ثبتت لوحة من البلاستيك الأخضر، كتب عليها اسم صاحب الشقة: «خالد السعيد». . وهو شاب يعمل في شركة خاصة، بعد أن

تخرج مهندساً مدنياً من بلد عربي.. وعندما عاد ألَحَّت عليه أمه أن يتزوج لتفرح بأولاده!

وبقي يماطل فترة طويلة تعدَّت العامين، حتى يختار الأنثى التي ستشاركه كل الحياة.. ويجد عندها الاستقرار الذي يعينه على شق طريقه في حياة ناجحة.

وازدادت ضغوط أمه عليه حين كان يراوغها.. حتى وافق أخيراً على «إلهام»!

تخرجت «إلهام» من الجامعة، وسمع أمه تقول إن هذه الفتاة ـ ابنة صديقتها الحميمة «عائشة» ستبقى في البيت حتى يبعثوا إليها بأمر التعيين في إحدى المدارس، وكانت أمه تتحسر على ضياع الوقت قائلة:

ـ البنت يا عيني حتجلس حوالي سنة.. حتى يلاقون لها وظيفة!

ـ قال لأمه: أوصفيها لي.. شكلاً وأخلاقاً!

وبدأ يفكر.. ولم يقتنع بالوصف، فطلب أن يراها.

ـ قالت أمه: «وَيْ.. وايش نقول للناس، هيّا البنت فرجة»؟!

ـ قال لأمه: أنا هذه المرة جاد.. أراها وتراني، وإن حصل النصيب فالفرحة أكبر. لا خاصة أنها ابنة صديقتك!

وضمت هذه «الشقة» الصغيرة زوجين.. لم يكملا بعد عامهما الأول، فقد مضى على اقترانهما عشرة شهور.. صنعا في خلالها التفاهم بينهما. ولم تغب ضحكاتهما، وابتساماتهما.

ولكن... هذه الليلة بالذات، حدث تغيير في مناخ «الشقة» الصغيرة،

وفي أجوائها. . فقد غصت بأم «إلهام» وبأم «خالد»، و«الزوجين» وبالأخوات وبالأخوة!

إن «خالد» مضطرب وهو يواجه لأول مرة تجربة جديدة لم يعهدها في حياته بهذا التخصيص له!

إن زوجته «إلهام» تعاني من آلام المخاض. . اللحظة الهامة التي استدعت إعلان حالة الطوارئ، وحانت مع هذه اللحظة فرصة البدء لتكوين أسرة!

وجاء الزوج «خالد» مهرولاً. . يقفز سلالم العمارة جرياً وتعثراً، لأن المصعد قد عُطِّل بفعل فاعل، والفاعل هو صاحب العمارة الذي عمد إلى ذلك من أجل «تطفيش» سكان العمارة القدامى الذين لم يزد إيجارهم بنسبة كبيرة يريدها. . فكأن «خالد» يدفع الثمن عن كل السكان. . بينما «القابلة» تركض وراءه لاهثة، فقد كانت سيدة بدينة. . تبدو أردافها كأنها امرأة أخرى تجري وراءها!

أمه رفضت أن ينقل زوجته إلى المستشفى، وهي تقول:

ـ «وي. . ماذا يقولوا الناس»؟!

ـ قال لها: بالعكس يا أمي. . التوليد في المستشفى الآن ضمان بعد الله للأم وللطفل. . ثم إنه شيء كالتنافس بين الناس للذهاب إلى المستشفى الأشهر؟!

ـ قالت له: لا. . لا أوافق، البيت أستر، وأنا هنا أرعاها مع أمها. . يعني فكرك أخليها للممرضات ممنّ ينمْن في الليل، والمريض يدق الجرس ولا أحد هنا!!

ـ قال يجادلها: لكنها ليست جريمة؟!

ورمت عليه اليمين.. وحتى لا تغضب عليه، نفذ رغبتها، وذهب إلى «القابلة» رغم قناعته أن مهمة القابلة محدودة، خاصة مع امرأة تلد لأول مرة!

وعندما كشفت القابلة، على زوجته المتوجعة.. ضربت على صدرها بيدها، وقالت:

ـ يا لطيف.. دي «بكرية» ومتعسرة كمان.. لازم تنقلوها للمستشفى!

ونظر «خالد» إلى أمه، وقد أغضت محرجة، وخرجت من الغرفة، وهي تتمتم:

ـ يا ربي لطفك. ما تضيِّع تعب ابني يا رب!

وتدافع كل من كان في «الشقة» إلى السيارة.. بينما أحاط «خالد» بزوجته وأعانها حتى العربة!

* * *

وفي المستشفى.. طلب الطبيب إدخالها فوراً إلى غرفة العمليات، قائلاً لزوجها:

ـ لا بد من عملية قيصرية.. إن حجم الطفل كبير، ووزنه فاخر ما شاء الله!

ـ قالت أم خالد للطبيب: «أنتم يا دكاترة ما عندكم إلاَّ العملية.. جزارة إيه»؟!

وانتقلت زحمة «الشقة» الصغيرة إلى ردهة المستشفى، وقد تكوم الجميع قريباً من باب غرفة العمليات.. بينما كانت أم الزوجة تبكي والقلق يعصف

بها، و«خالد» يذرع الممر الطويل جيئة وذهاباً، وهو يردد: يا رب أنقذها. . لا أريد طفلاً، أريدها هي!

وأمه تجلس على مقعد وسط هذه «اللمَّة» تشعل سيجارتها ونظراتها تلاحق ابنها، وهي تهمس لنفسها: يا رب. . أعطيه ولداً!

وجاءت ممرضة كانت تعبر الممر، وفوجئت بهذا الزحام أمام غرفة العمليات، فقطبت حاجبيها وقالت غاضبة بلغة لم يفهمها أغلب المزدحمين:

ـ «إحنا فين. . مستشفى، ولا فندق»؟!

ـ أجابها «خالد» بالإنجليزية: نعتذر. . لكنها زوجتي التي في غرفة العمليات، وهي الآن تلد!

ـ قالت له: قل لهم أن يخفضوا أصواتهم. . يعني ولادة، دي عملية صغيرة!

ـ وعلقت أمه قائلة: «هادي بترطن تقول إيه. . إحنا خلصنا مع العربي حتى يجيبوا لنا واحدة نصرانية؟!. . كل المستشفيات صارت تتكلم بالرطانة، هُمَّا يعني بناتنا فيهم إيه»؟!

وارتفعت نسبة الزحام في ردهة المستشفى المؤدية إلى غرفة العمليات. . لقد وصلت إلى المستشفى أخت «خالد» ومعها أطفالها الثلاثة في أعمار صغيرة متقاربة. . ثم حضرت بعد قليل أخت «إلهام» ومعها الطفل الرابع، وحولوا الممر إلى حارة صغيرة يجرون فيها وأصواتهم تضج!

وعادت الممرضة ثائرة. . لكن الطفل الرابع لم يمكنها من بدء الكلام، بل سارع فأمسك بـ «روبها» الأبيض وشدَّه بقوة. . وتعالت ضحكات الأطفال، وأخذت الممرضة تركض هاربة تستغيث، والأطفال وراءها.

«خالد» لم ينتبه لما فعله الأطفال، فقد ترك الممر يتجول في ردهات وممرات المستشفى قلقاً، فالعملية طال زمنها، ولم يخرج أحد من غرفة العمليات حتى الآن!

أصبح أكثر لهفة.. يفتش عن أحد يسأله، وتداعت صور كثيرة من المواقف والذكريات، وهو يقفل راجعاً إلى حيث كان ينتظر أمام باب غرفة العمليات..

وفتح الباب فجأة، لتخرج منه الممرضة الأولى، ثم الطبيب وهو ينادي «خالداً» إليه!

* * *

الفارس الأول

* هرول «خالد» إلى الطبيب بعد أن ناداه. . يسأله بلهفة وقلق:

ـ طمنِّي يا دكتور. . صحة زوجتي أهم!

وضع الطيب يده على كتف «خالد» وشدَّه إليه مبتسماً، يقول:

ـ مبروك. . جالك ولد، طبعة ٨٣ . . وهو من الآن مستعد لارتياد الفضاء!

ولم ينتظر نكتة باردة أخرى من الطبيب. . بل انطلق إلى الغرفة التي أُعدَّت لزوجته. . ورآهم يحملونها إلى سريرها، وهي تبدو منهكة، خائرة القوى. . تردد كلمات غير واضحة من تأثير العملية والولادة!

أمسك بيدها متلهفاً، وأخذ يمسح عليها بكفه:

ـ إلهام. . حبيبتي. . الحمد لله على السلامة. . أجمل ولد لأنه منك!

لكن زوجته تعبت كثيراً من هذه التجربة الأولى والصعبة، وما زالت في إغماءتها. . بينما أخذت الغرفة تمتلئ بأفراد الأسرتين، وبالأطفال. . شيء يموج داخل الغرفة الصغيرة وحول السرير، و«خالد» لا يعرف ماذا يصنع في هذه التصرفات التي تضر بزوجته.

ودخلت الممرضة تنقذه، وهي ترفع حاجباً، وتردِّد كلمات غير مفهومة لرواد الغرفة، ثم التفتت إلى «خالد» تحادثه غاضبة:

ـ المريضة تحتاج إلى هدوء.. ما هذا الصخب؟!

ـ أجابها: معليش.. إنهم يفرحون بطريقتهم، وأنا محرج!

ـ قالت: ولكنها مسؤوليتي.. ولا بد أن تخرج هؤلاء جميعاً، قبل أن أضطر إلى إخراجهم عنوة!!

ـ قالت أمه وقد فهمت من حركة الجدل بينهما: مسكينة، لا بد أنها لم تجرِّب فرحة الولادة.. «كبَّة» عليها!

ـ قالت الممرضة: أخرج هؤلاء، وتعال معي لترى ابنك من وراء الزجاج.. لأنه ما زال في الصندوق الطبي.. فهو بعد ضعيف ويحتاج إلى عناية مركزة.. إذ يبدو أن أمه لم تكن تتغذى جيداً!...

* * *

وقف «خالد» أمام الصندوق الزجاجي الطبي.. يحدِّق في وجه طفله، وجسده الضعيف.. يريد أن يحمله إلى صدره، وفي أحضانه، وعلى ساعديه.. يريد أن يطبع على خده أول قبلة حنان. أخبروه أن هذا المطلب هو من الممنوعات الآن، حتى على أم الطفل.. عليهما أن ينتظرا حتى يكمل الطفل استعداده الجسمي لمواجهة المؤثرات خارج هذا الصندوق الطبي بعد غد، وعاد إلى غرفة زوجته..

كانت قد أفاقت قليلاً من غيبوبتها، وتعاني آلاماً تتأوه بسببها، والطبيب يفحصها، ويطمئن «خالد» بأن الأمر طبيعي بسبب فتح البطن، وستنتهي الآلام! لكن «إلهام» تريد رؤية ابنها.. كانت تردد:

ـ أين ابني. . أريد أن أراه؟!

سمعت أمها إلحاح ابنتها، فدخلت إلى الغرفة تهدئ من انفعال ابنتها:

ـ غداً يا حبيبتي سيحملونه إليك. . إنه بخير، مثل القمر. . مثل التفاحة ما شاء الله.

ـ قالت أم خالد: «أنا عارفة زمان إيه ده؟. . كنا نلد في بيوتنا، والطفل ينزل كدة «مرَبْرَبْ» وفي صحة جيدة، وكنا بعد الولادة بساعة نقوم نخدم بيوتنا. . إلا الزمن هادا، الطفل ينزل زي العصاية مريض، والأم ما تقدر تجلس، وقال إيه: الطب متقدم»!

ـ قال لها خالد: الطب ليس له دخل. . لكن الناس اتغيروا يا أمي، وطريقة الحياة، والأكل. . أفهمك كيف؟ هذا موضوع يحتاج إلى شرح.

ـ قالت أمه: ولا تفهمني ولا حاجة. . الجيل واضح من عنوانه

ـ قالت إلهام بإصرارها: أريد إبني. . إبني يا ناس.

ـ قالت أمها: بخير. . راح تشوفيه، وتعرفي من الآن قيمة الضنا، وحب الأم!

وضع «خالد» يده على كتف حماته، وقال لكل من في الغرفة:

ـ أنتم الكبار خيرنا وبركتنا، والآن. . لا بد نطلع من الغرفة، إلهام بخير وسأكون أنا بجانبها، فلا تقلقوا!

ـ قالت أمها: أنت! إيه يا ابني، أنا أمها، وأنا اللي لازم أجلس معاها.

وانتصرت أم إلهام. . أمضت الليلة الأولى بجانب ابنتها. . بينما أخذ «خالد» كل أفراد الأسرة إلى «الشقة». . لكنه لم ينم تلك الليلة، فرحة

بالطفل، ورغبة منه في الاطمئنان عليه وعلى زوجته إلهام. . ورغم أن البيت كان يمتلئ بالضيوف من الأسرتين. . إلا أن الوحشة كانت تسود في نفسه، وفي أرجاء البيت لغياب «إلهام»!

* * *

وانتهت أيام الرعاية في المستشفى. .

وحل موعد «السبوع». . فأضيئت الشموع في «الشقة» الصغيرة، وامتد الزحام إلى «شقة» الجيران التي استعاروها للاحتفال بهذه المناسبة!

كان «خالد» ينظر إلى مجموعات الأطفال التي تحمل الشموع، وتغني للمولود الجديد:

ـ «يا رب يا رحماني. . بارك لنا في الغلام»!

وكانت الفرحة تفجِّر في صدر «خالد» أعمق عاطفة، والدمعة التي تجول في عينيه نقية. . تلمع، فكأن في لمعانها صوت الزغاريد.

وحينما أقفل باب «الشقة». . بعد توديع آخر ضيف من الأسرة. . استلقى «خالد» على سريره، وأغمض عينيه يحلم في اليقظة بأمانٍ جميلة لهذا الفارس الجديد الذي جاء إلى دنياه. . هو الرقم الأول الذي سيحمل اسمه ولقب عائلته.

وأخذ يسترجع الأيام القليلة التي مضت. .

كانت فرحته أكبر عندما أذن الطيب بإخراج الطفل من الصندوق الزجاجي الطبي في وقت قصير، وقال له:

ـ إن ابنك في صحة جيدة. . لقد وضعناه في الصندوق للتأكد،

وللحرص. . إن صحته الآن مكتملة، ولكنه بجانب ذلك يحتاج إلى رعاية، فلا بد أن أراه مرة في الشهر!

وعندما ضمته أمه إلى صدرها. . سألها:

ـ ما هو الاسم الذي تقترحينه؟

ـ قالت: أمي اقترحت أن نسميه باسم أبي!

ـ قال: وأمي اقترحت اسم أبي. . ولكن علينا أن نفكر في اسم جديد معاً، ونخرج من هذا الإحراج. . فما رأيك لو جعلنا اسمه: فارس؟!

ـ قالت: اسم جميل، ولكن. . . . .

ـ قاطعها: «ولكن إيه»؟!

ضحكت مقهقهة، ثم قالت:

ـ أبداً. . إنما جدتي والدة أمي كانت تحب القطط كثيراً، وكان لديها قط تركي ناعم الفروة. . أطلقت عليه اسم «فارس»!

ـ قال: وبعدين؟!

ـ قالت: أمي حكت لي ذلك. . ولكن الاسم جميل.

ـ قال: ولو. . سيكون قطاً متباهياً، والناس تطلق الأسماء الجميلة على الحيوانات الأليفة التي تحبها، والإنسان يا حبيبتي حيوان ناطق. . وسيصبح فارساً. . في أخلاقه، وفي علمه وسلوكه.

ـ قالت متردِّدة: لكن. . . . تصور يا خالد، لو أن أمي اعترضت؟!

ـ قال بانفعال لم يكتمه: وبعدين؟ هذا إبننا، ونحن أحرار، والا يكون قصدك أن القط أغلى عند أمك، فلا تريد أن يشاركه إنسان في اسمه؟!

ـ قالت: خالد.. بدأنا نلبِّخ؟!

ـ قال: ما هو الكلام بالشكل دا.. معجون ومخربش!

ـ قالت: خلاص يا حبيبي لا تزعل.. فارس يا أبو فارس!

* * *

لقد دبت حركة الحياة الحقيقية في هذا العش الصغير، وتمنَّى «خالد» لو حصل على إجازة من عمله لعدة شهور حتى يضمن البقاء بجانب فرحة عمره: ابنه فارس!

وقالت له إلهام ضاحكة:

ـ «طلبك غريب.. طيّب إحنا، اللّي هُوَّ إحنا يا ستات، يعني الأمهات لا نستحق إجازة من العمل في مثل هذه الظروف إلا لمدة شهرين فقط، بما فيها أيام الولادة»!

لكن «خالد» يشعر أنه لا يطيق البعاد عن ابنه.. فكان يفتعل الأعذار في عمله ليرجع. إلى البيت، ويجلس أمام «فارس» يناغيه، ويضعه تارة على حجره ويتكلم معه.. يسأله ويجيب عنه!

وتبدو «إلهام» سعيدة بهذا الحنو المتدفِّق.. وهي تقول مازحة ولامزة:

ـ إن شاء الله يدوم هذا الحنان حتى الطفل الثالث، ولا تتغير يا خالد!

وفكرت أن تستغل هذا الحب.. فكانت تطلب من زوجها أن يساعدها في خدمة طفلهما. و«خالد» يفعل راضياً.. فهو المغتبط بهذا الوافد الجديد الذي سيكون سنداً له في شيخوخته، وسيكون فخراً له في تفوقه.

واكتشف «خالد» أنه يقوم بدور أم ثانية، فمرة يبدل «حفاضة» فارس بعد

أن يبلِّلها، ومرة يشارك في تبديل ملابس «فارس» ويضع له البودرة، ويجهز له الرضاعة!

كان يختلف مع «إلهام» في مسألة الرضاعة. . فهو يريد منها أن ترضع الطفل من ثديها، وهي تصر أن تغذي طفلها بالرضّاعة لتحافظ على نضارة صدرها!

و«خالد» يؤكد لها أن أحسن غذاء للطفل هو ما كان من ثدي الأم، ولكنها تعارضه حيناً، وتدعي في حين آخر أن الثدي لا يستجيب!

ويبدو الأب رغم ذلك سعيداً بهذا العمل الإضافي في البيت. . ويحبو هو إلى طفله، ويقترب بوجهه منه، ويتكئ أمامه على مرفقيه، ويبتسم لطفله ويغنِّي له ويلاعبه. . وأتعس لحظات يومه عندما يبكي «فارس» فلم يكن يطيق أن يسمع بكاءه. . وتقول له زوجته:

ـ ولكن البكاء ضروري للطفل. . دعه يبكي قليلاً، فهذه طبيعة الطفل في هذه المرحلة، إذا لم يبكِ يكون طفلاً غير عادي.

ـ لا تقولي هذا لئلا أتهمك بالقسوة. . كيف يبكي. . ها؟

ـ ولكنه لا بد أن يبكي، وعندما يكبر سيبكي أكثر. . الله يعينه على زمنه، خلِّيه يتمرن!

ـ يتمرن إيه أيتها الأم الفيلسوفة؟. . فمادام هو يتمتع بوجود أمه وأبيه بجانبه. . إذن ما الذي سيفعله الأطفال الذين يفقدون الأم أو الأب أو الأرض؟!. . قولي الحمد لله يا بنت الناس!

ـ الحمد لله على كل حال. . ولكنك تحاول أن تغير طبيعة الأشياء.

ـ طبيعة الأشياء.. ها؟.. بدأنا الفلسفة، ويمكن تقولي بعض ما قرأتيه عن البكاء عند الإنسان.. أعرف ذلك، فالإنسان يولد في اللحظة الأولى بصرخة، فهو يبكي لأنه جاء إلى الحياة، ويموت الإنسان فيبكي الناس عليه لأنه ودَّع الحياة.. كأن الحياة لا أكثر من دمعة!

ما هذا.. ليه الغم.. ليه ما نضحك؟!

ـ نضحك يا حبيبي.. إنما لازم نبكي أيضاً!

ـ استمري.. ماذا تقصدين أيضاً؟!

ـ ولا حاجة.. هل نختلف من أجل دمعة؟.. خلاص.. اضحك يا شارلي شابلن!

ـ سأضحك من أجل هذا الطفل، وكل طفل... من أجل المستقبل.

ـ تصفيق... ثم ماذا؟!

ـ لا شيء.. من الأفضل أن ننام قبل أن يصحو «فارس»!!

* * *

بطن «أَلْبِسَّه»!

* تعود الضحكات تجمعهما حول «فارس» الذي لا يعي من دنياه شيئاً. . ولكنه يتطلع إليهما بنظرات غير مستقرة.

ويطوِّح «فارس» بقدميه وبيديه تارةً، ويبتسم لهما تارةً أخرى، ويبكي أحياناً لأنه جائع، أو لأنه يعاني من مغص. . لا يقدر أن يعبِّر عنه، أو يشكو منه!

وفي تلك الليلة. . ازداد بكاء «فارس»، والأم حائرة لا تدري ماذا تفعل. . خبرتها في هذا المجال منعدمة. والكتب الذي جاء بها «خالد» لتقرأها، ركزت على تربية الطفل. . أما معلوماتها الطبية. . فلا شيء!

والأب. . يحاول أن يهدىء طفله، ويضحكه، ويلاعبه، دون جدوى.

والتقطته «إلهام». . تدور به أرجاء الغرفة، والبيت. . . و«خالد» يتابعها بعينيه حيناً، وهو يشعر بالعجز، ويقف محاولاً إسكات الطفل حيناً آخر!

وينفد صبره. . فيطلب من «إلهام» أن يحملا الطفل إلى المستشفى.

ـ ترد عليه: أيُّ مستشفى في هذا الوقت المتأخِّر من الليل؟. . سنجد الإسعاف، ولا يوجد طبيب مختص بالتأكيد، والطبيب المناوب سيعطيه مهدِّئاً لا أكثر!

ـ قال لها: مهدِّئ، مهدِّئ.. لا بأس، فالمهم أن ينام بدلاً من هذا العذاب.. ينتظرني عمل في الصباح، فارحميني أرجوك

ـ قالت: وهل أنا التي أؤلمه؟

ـ قال: أنت لا ذنب لك، ولكن.. لا بد أن نتصرف.

ـ قالت: ولو كان يشكو من مرض.. أفلا يصح أن المهدِّئ سيؤذيه؟

ـ قال: يا حبيبتي.. الطبيب على كل حال أعرف منك ومني، ولن يؤذيه.

ـ قالت: يا ربي.. ليتني أعرف ألمه وعلاجه.

ـ قال بإصرار: الطبيب سيعرف.. خلصينا.

وطرأت على ذهن «إلهام» فكرة.. فسألت زوجها:

ـ ما رأيك لو حادثت أمي بالتليفون، أسألها.. فهي مجرِّبة؟!

ـ وما هو الاعتراض على الطبيب.. إن الطفل يصرخ؟!

ـ يا سيدي الوقت متأخر.

ـ ولماذا يفتحون المستشفيات والعيادات المناوبة؟!

ـ لقد سمعت أمي تقول في مثل هذه الأحوال، تعني عندما يبكي الطفل بشدة: فإن السبب يرجع لألم في أذنه، أو... يمكن من بطن «البسَّة»!

ـ بطن الأيه؟!

ـ «البسَّة» يا خالد.. القطة يعني، وهذه الحالة معناها أن الطفل يشكو من مغص شديد.

ـ أفادكم الله. . ولكن، هل بطن «البسَّة» أو القطة أو الهرة. . دائماً ممغوصة؟

ـ حضرتك بتتريق؟ والله ما أدري. . اسأل الكبار اللي جابونا وربونا!

ـ والله لهم حكم عجيبة!

ـ الآن ما هو وقت مزاح وسخرية. . الولد يتألم، وعلى العموم أمهاتنا القدامى وجدّاتنا يعرفون أحسن من بعض الأطباء المتخصصين.

ـ بالله. . هل هذا كلام واحدة جامعية؟. . «بسَّة» إيه يا شيخة؟!

ـ يا خالد. . الولد يتألم.

ـ الوقت يا سيدتي تبدَّل، وحتى أنواع الحليب اتغيرت.

ـ على رأيك. . إنما لو كان كل أم تحرص أنها تغذِّي طفلها في الشهور الأولى على الأقل من صدرها. . كان الأطفال ما اتعرضوا لأمراض متعددة، ولا لتقلبات المعدة!

ـ حلو. . كلام مثقفين ومتعلمين. . إنما قولي لنفسك!

ـ قصدك إيه؟

ـ قصدي إنك حرمت الولد من الرضاعة الطبيعية.

ـ ما أنت عارف. . صدري ما فيه حليب، وكمان لا تنسى يا فيلسوف الغبرة أن أمهاتنا اللي كانوا يرضّعوا من صدورهم، كان أطفالهم بيتألموا من بطن «البسّة»!

ـ يا دي «البسّة» وبطنها!

ـ خلاص. . أنت اللي بتناقش.

ـ يا ستي ارحميني.. خلينا نروح المستشفى قبل ما يطلع الصَّباح!

* * *

وأذعنت «إلهام» بعد إلحاح زوجها، وقد تضاعف صراخ «فارس».. فحملته على كتفها بعد ارتداء عباءتها!

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد منتصف الليل، والشوارع تبدو خالية وجميلة، بينما «فارس» وضع رأسه على كتف أمه ونام.. كأنه لم يكن يريد سوى الخروج من البيت، أو «الفسحة» ليستمتع بجمال الهدوء في الليل.

والتفتت «إلهام» إلى زوجها مبتسمة، تقول:

ـ فارس نام.. باين عليه شقي وعنيد، مثل أبوه!

ـ قال ضاحكاً: والاّ يمكن «البسّة» طلعت من بطنه، لما فتحنا باب الشقة!

ـ قالت: تعرف يا «خالد».. أنا مرة سألت ابن عمي الدكتور «عصام» عن حكاية بطن «البسّة» هذي.. وأن السبب في الغالب يأتي من تعدد أنواع الحليب المعلب.

ـ وأفتى الدكتور عصام بإيه، لما سمع عن بطن «البسّة»؟

ـ بلاش تريقة يا خالد.. أنا ما قلت له بطن «البسّة».. صحيح سألته عن المغص الذي يصيب الأطفال في شهورهم الأولى، فقال لي: صحيح إن السبب من تعدد أنواع الحليب، أو من إعطاء الطفل أي حليب بدون استشارة الطبيب لتحديد النوع الملائم للطفل.. وقال أيضاً.......

وصمتت.. كأنها تذكرت شيئاً، وأرادت أن تستدرك.

ـ فقال خالد: أنا أكمل الذي قاله ابن عمك . . بذمتك، ما قال أن أحسن غذاء للطفل هو من صدر أمه؟!

ـ قالت: لو كان صدري فيه حليب ما كان بخلت . . إنما أنت «بتنق» ليه، ما هو أنتم الرجال لو كنتم كما الستات، وتؤدون واجب الرضاعة . . كان اخترعتم صدراً صناعياً يطلع منه حليب صحي!

ـ قال: تعترفين إذن . . إن الرجال هم الذين يقدرون على الاختراع؟!

ـ قالت: يوه . . . دائماً تخلط الجد بالهزل، ومع ذلك، ومهما فعلتم . . فأنتم في حاجة إلى صدر الأم!

ـ قال ضاحكاً: صدر الأم فقط؟ . . الرجل يا حبيبتي طفل مهما كبر . . لأنه يحتاج إلى صدر حنون، ولا يوجد الصدر الحنون إلا عند المرأة . . سواء كانت أماً، أو زوجة!

ـ رشوة يعني؟!

ـ والله أنا تعبان . . واحتاج إلى صدر حنون علشان أضع عليه رأسي، وأنام مطمئناً.

ـ ويهون عليك «فارس»، يجلس لوحده من غير صدر؟!

ـ فارس قام، واحنا قربنا من المستشفى . . تلاقيه بيحلم بحليب حضاري . . أصله طالع ولد عفريت!

ـ من شابه أباه!

ـ نعم . . عفريت حضاري، وعفوي، ويبحث عن الله!

ـ وصلنا للمستشفى.. بطِّل رغي.

* * *

وخرجا من المستشفى بعد أن عرضا «فارس» على الطبيب المناوب، ولم يكن أخصائياً بالطبع.. وكما توقعت «إلهام»، فقد أعطاه مسكناً، وطلب منهما أن يعودا به في الصباح ليراه الطبيب المختص.

ونام «فارس» مستغرقاً.. بينما تهيأ «خالد» للنوم، وهو يهمس لزوجته:

ـ الولد كده ارتاح.. شيء أحسن من لا شيء، لو كان وافقتي من بدري؟!

ـ قالت: لكني قلقة.. ما راح أنام.

ـ قال: يا ستي.. أكيد أنها بطن «البسَّهْ»، والحمد لله إنها لم تكن بطن «ألبس» تبقى مشكلة!

ـ قالت: والله أنت فايق.. يا عيني على قلب الأم.. أنا يستحيل أنام، يمكن يصحى من الألم بعد شوية.

ـ قال مغتاظاً: وأنا عندي شغل من بدري، كده حرام، والساعة حوالي خمسة إلاّ، وبكره نرجع به للمستشفى لتطمئني، وحتى لا يكرر الموشَّح في الليل.

ـ قالت: الرجال صدورهم واسعة.

ـ قال: يعني أعمل إيه أكثر من كدة؟

ـ قالت: ولا حاجة.. نام يا شيخ.. نام!

ولم يكد «خالد» يستغرق في النوم.. حتى أيقظه بكاء «فارس» من

جديد. وكانت «إلهام» قد استغرقت هي الأخرى في النوم متعبة.. فقام «خالد» يحبو، ويقفز من فوقها إلى سرير الطفل.

التقطه.. وأخذ يدور به في أرجاء الغرفة، وبكاؤه لا يتوقف. وحاول أن يوقظها عدة مرات.. فكانت تهمهم بكلام غير مفهوم!

ـ وهمس لنفسه: أمهات آخر زمن.. أمهات من الرجال!

ولم يحتمل بعد مرور وقت من المعاناة مع الطفل.. فأخذه ووضعه بجانبها لتحس به، لعلها تستيقظ!

ونجح.. فأخذت «إلهام» طفلها إلى صدرها، فسكت ونام. وابتسم «خالد».. لقد أصبحت مشكلته الآن: كيف ينام هو؟!

ليس عند «إلهام» سوى صدر واحد.. ومنذ مولد «فارس».. أصبح ينام وكأنه في صدر معلب!!

* * *

الطُّهار

* أطلت «إلهام» من ضلفة باب غرفة النوم، تشير لـ «خالد» بيدها نحو جهاز التلفاز في غرفة الجلوس، وتضع أصابعها على شفتيها بحركة احتجاج!!

نظر إليها «خالد» مبتسماً.. أعجبته حركتها المشفوعة بالرجاء، ليخفض صوت التلفاز.. وهي تعبِّر له بإشارة من يدها: أن «فارس» قد نام، وصوت التلفاز سيزعجه ويوقظه، وبالتالي يتعذر نومه مرة أخرى!

وقام «خالد، من اتكاءته على الوسائد، وخفض صوت الجهاز متبرماً يتأفف بهمس!

وابتسمت «إلهام» فرحة بغيظه، كأنها تتشفى فيه، وتراه ينفذ أمرها بدون جدال.. فاتجه نحوها يهمس بحنق:

ـ وتبتسمي كمان.. هِيَّا أحكام عرفية؟!

ـ قالت تهمس: يا أخي اتحمل.. هوه دا مين، ما هو ولدك.. بكرك العزيز؟!

ـ قال: ولدي يعني يخرس كل البيت؟ الواحد ما يطيق!

ـ قالت: قول بس نفسك تستمتع بأصوات الممثلات في المسلسلة اليومية. . شكل وصورة، كأنك عايش معاهم.

ـ قال: بدأنا المماحكة والاستفزاز. . بس أكمل المسلسلة، وارجع لك!

ووسَّدت «إلهام» طفلها داخل سريره الصغير، وغطَّته، وأبقت الإضاءة الخافتة، وتركت ضلفة باب غرفة النوم المؤدي إلى غرفة المعيشة والجلوس مواربة، حتى تسمع صوت «فارس» لو استيقظ!

والتفت «خالد» إلى زوجته، وهي تصلح من جلستها بجانبه. . ابتسم، ولكن الغيظ يلازمه، ثم حوَّل نظراته إلى التلفاز، يتابع البرامج. . ومرت لحظة صمت، و«إلهام» تحدِّق في وجهه مبتسمة ومستفزة له، ثم قالت بعد أن تغاضى عن نظرتها:

ـ وكمان ما تتكلم. . يعني المسلسلة أهم مني. . طيب أنا أحلى من الممثلة دي!

ـ قال: طبعاً أنتِ أحلى، وإلا ما اتزوجتك!

ـ قالت: يا سلام. . مسح جوخ!

ـ قال: صدقيني. . دول «فترينات» فقط.

ـ قالت: طيب. . وإيه اللي شادَّك كده؟!

ـ قال: الولد الصغير اللي في المسلسلة. . حدق، ووجهه كله تعبير ناطق.

ـ قالت: ما هو أحلى من «فارس». . اصبر عليه لما يتكلم، إن ما كان حدق ولبلب!

ـ صحيح.. أصل الأطفال بيكتسبوا من أمهاتهم في السنوات الأولى!

ـ قصدك إيه.. أنا رغَّاية؟!

ـ لأ.. العفو، إنما النساء بارعات في الكلام!

ـ والرجال في الأيام دي.. سادة الإهمال واللامبالاة لبيوتهم.

ـ وبعدين في الغلط.. أنا عملت إيه الآن، وقلت إيه؟!

ـ يا شيخ حرام عليك.. بكره «فارس» يكمل ثلاثة شهور.

ـ ودا خبر يعني؟ ما هو أنا عارف.. ربنا يكبِّرنا في طاعته.

ـ لأ.. أنت بتتناسى شيء مهم جداً.

ـ طيب.. فكريني كدة.

ـ أفكرك يا سيدي.. تعرف شيء اسمه «الطهار»؟... كان من المفروض من سابع الولد نجري له اللازم، لكن الأيام مضت وأنت بتتمهل، والولد بيكبر.. أنت تبغاها عملية جراحية وإلا إيه؟!

ـ بس يا «إلهام».. بالله لا تفكريني!

ـ لأ.. أفكَّرك، وأزن عليك كمان.. والله أهل أول، أجدادنا وآباءنا، كانوا ممتازين، وجيل حكمة وبصيرة.

ـ لكن.. أنا ما أقدر، كل ما أتصور المشرط والدَّم، والولد «يفرفر» قدامي، يصعب عليَّ.

ـ هذا وأنت بقلب رجل.. أجل أنا ياللي اسمي أمه أقول إيه؟ ومع ذلك بألح عليك.

ـ تعرفي. . . أمس لما كنَّا في دعوة الغداء عند صاحبي «حسين». . فتحوا «سيرة الأطفال. . وسألوني أصحابي عن شعوري بعد ما رزقنا الله بولد، هو البكر وأول العنقود. . فافتكرت موضوع «الطهار» فاتغميت.

ـ وتتغم ليه يا ناعم؟ هذا شيء ضروري وسُنَّة، اليوم أو بعد سنة، وبدل ما نعذب الولد، نسارع ونعملها وهو في السن دي، واهو ما هو حاسس تقريباً.

ـ كيف ما هو حاسس. . دا مشرط، وقطع جلد، و. . . . . . .

ـ قاطعته: والله آخذ أمي بكره، ونروح لأي مستشفى. . يظهر ما يجيبوها إلاَّ ستاتها. . إذا كان الرجال ما عادوا ينفعوا للحاجات دي، أهو الستات قدها وقدود!

ـ شغلتكم!

ـ أنت قلت إيه؟

ـ بأقول إن أصحابي اختلفوا في الوسيلة أو الأسلوب. . بعضهم أصر إني آخذ الولد إلى المستشفى علشان يتم الأمر بشكل مضمون وبطريقة الطب. الحديث!

ـ والبعض الآخر؟!

ـ حاول يقنعني بأن آخذ الولد لرجل قديم ومعروف في وسط البلد، اسمه «العم سالم» متخصص من سنوات طويلة في المسائل دي. . وكان بيقولوا عنده شهادة رسمية معترف بها من وزارة الصحة، ومحله نظيف، ومشرطه معقم، ويده خفيفة، والجراحة ما تطول أكتر من أسبوع، وكل العلاج: بودرة «سيلفا»، و «مكركروم»!

ـ وأنت. . رأيك إيه؟!

ـ والله ماني عارف. . خايف، أو على الأصح ماني واثق، والمنظر لما اتخيَّله. . يا لطيف! تضحك «إلهام» بصوت مرتفع. . فوضع أصبعه على شفتيها محذراً:

ـ الولد نايم، لا يصحى على صوتك. . إيه اللي بيضحكك؟!

ـ أنت يا خالد. . أما لو كنت فاتح عينك في أيام طفولتك الأولى، أقصد لما أخذك والدك للعم سالم. . كنت تعمل إيه؟

ـ تعرفي. . أظن أني طالع لوالدي!

ـ كيف. . وليه؟

ـ أبويا خلاني أكتر من ستة شهور، وهو متردد. . ياخذني للراجل علشان يطهرني، والا لأ، وأمي زيِّك كده. . كل يوم تشعلها خناقة معاه، وستي ـ أمها يعني ـ تحرضها على أبويا، وفي الآخر. . أخذني جدي وعمل اللازم!. . وأبويا ما رجع البيت إلا بعد نص الليل، لما اتأكد أني نمت!

ـ خلاص. . أنا موافقة، اعمل مثل ما عمل والدك. . المهم الولد نجري له اللازم.

ـ لأ. . طيب. إن شاء الله يوم الخميس آخذه للمستشفى، وأسلمه للطبيب، و. . . . . . . أهرب!

ـ تهرب فين؟. . والله رجلي على رجلك!

ـ طيب حاسبي. . رجلك على رجلي بالفعل!

ـ ضربه!!

ـ ضربه ليه . . أنت حكايتك إيه الليلة؟ لمتى راح نجلس كده . . للصبح نستمر نتكلم في موضوع رجولة الطفل النائم الآن في أمان الله؟ . . ضاعت المسلسلة، والفقرة اللي بعدها في كلام سخيف!

ـ قوم طيب علشان ننام!

ـ ننام بس . . ما في حاجة كده قبل النوم . . علشان الأحلام تجي حلوة!

ـ حاجة إيه . . أنت ما تهمد من السهر؟!

ـ أقصد يعش . . عندي موضوع شخصي بدي اتكلم معاك فيه .

ـ أعرفه . . . إنه مرفوض، مرفوض يا ولدي

ـ يعني لازم استعمل سلطة الرجل صاحب البيت والكلمة؟!

ـ والله إنك طفل . . ما تختلف عن ولدك «فارس»!

ـ اختلف في حاجة واحدة .

ـ يحنِّن!

* * *

في صباح يوم الخميس . . حمل «خالد» طفله بين ذراعيه إلى العربة، واحتضنته أمه في صدرها، وفي عينيها دمعة حائرة، وإشفاق على ضعف طفلها .

ولاحظ «خالد» الدمعة الحائرة في عيني زوجته، فابتسم، وهو يقول :

ـ وليه البكا.. ما هو أنت قبل يومين كنت يا ست الستات راجل شجاع.

ـ صعبان علي.. يبكي ويتألم، أنا أم!

وسلَّما «فارس» إلى الممرضة، لتدخل. به إلى غرفة العمليات، وأمسكت «إلهام» بيد المقعد، وحين تلفَّتت تبحث عن زوجها.. اكتشفت غيابه.. بحثت عنه في ردهات المستشفى فلم تعثر عليه.

ومضى الوقت بطيئاً عليها.. نصف ساعة شعرت أنها نصف شهر.. حتى أقبلت عليها الممرضة مبتسمة، تحمل «فارس» بين يديها!

ـ قالت للممرضة: وبتضحكي كمان.. ما أجبر قلبك!

ـ قالت الممرضة وهي لم تفهم كلمة مما قالته: «فري قود.. ذس اس جوكي»!

ـ همست: الله أكبر عليك.. عينك فارغة!

وحملته.. تود لو شقت صدرها، وأخفته بداخله.. وخرجت من باب المستشفى تفتش عن «خالد».. حتى رأته يجلس داخل العربة متوتراً، وما إن رآها حتى هرع إليها يحمل «فارس» وهو يقول بلهفة:

ـ بشريني.. ليه ما بيصرخ؟

ـ قالت: عقبالك مرة تانية.. يبدو أنهم نوَّموه.

بدَّل «خالد» ثيابه في دهشة من زوجته، وهي تسأله:

ـ إيه.. مضرب عن الخروج؟!

ـ اليوم الخميس.. نسيتي إنه ما في عمل؟!

ـ ما نسيت.. لكن، من متى بتجلس في البيت!

ـ واحشاني.. يضايقك جلوسي؟

ـ بالعكس.. وحيث كده، من فضلك خد «فارس» بجنبك، وانتبه له، وأنا أطبخ!

ـ حاضر.. لازم تشغليني يعني؟

ـ بلاش.. تفكر تعمل إيه؟

ـ أفكر أجلس معاك، ونتكلم، و.......

ـ فهمت... انتبه للولد، لأنه راجع من عملية!

ـ وأنا؟!

ـ أنت؟.. أنت ما عملت عملية يا روحي!

* * *

حب.. عدم الانحياز!

* ألقى الصحيفة بجانبه، وشرد ببصره وبأفكاره بعيداً.. كأن نظراته المبعثرة، وأفكاره السادرة، تثقبان جدار الغرفة، وتنطلقان به نحو عوالم مختلطة ومتضاربة!

وخيِّل إليه أن لهذه الأفكار أصواتاً تحدِّثه وتحاوره.. وأن لهذه النظرات الشاردة به إضاءة تعم شوارع وطرق العالم.. حيث الأفكار والنظرات تحملانه إلى متناقضات عجيبة.. لا يعرف في هذه اللحظة كيف يقارن بينها، وكيف يجانسها!

إنه ـ في الحصيلة ـ يبدو مثل مهموم من طراز بالغ الحساسية!

لقد كان سبب هذا الشرود محصوراً في صورة.. لا أكثر!

شاهد تلك الصورة بحجم مكبر على صفحة الجريدة، وتحتها بضعة سطور مختصرة جداً.. غير أنه يقرأ تلك السطور كدبابيس تنغرز في حدقتي عينيه، لتضاعف ألمه.

ولم يشعر باقتراب «إلهام» منه، ثم جلوسها بجانبه، وتحديقها المعتاد في وجهه كلما رأته ساهماً.. فلم يزل الشرود يطوف به ويبعثره، وينأى بحضوره عن زوجته.

وهذه المرة.. خافت «إلهام» على زوجها من هذا الشرود.. شعرت أنه بعيد جداً،

ـ وهمست برفق: اللي آخذ عقلك!

ولم يجبها.. ولم تستطع بمزحتها أن تنتشله من سرحته، فأعادت الهمسة بنبرة مرتفعة قليلاً:

ـ خالد.. ما بك، اختلفت مع أحد في عملك؟!

وتنبه لصوتها، ولجزعها.. فالتفت نحوها يتصنع ابتسامة لم تفلح مع «إلهام».. فألحَّت عليه أن يتكلم:

ـ لا تجعلني قلقة عليك.. طمني، مريض، أم هي مشكلة؟!

ـ قال بنفس الابتسامة الباردة: لا تخافي.. أنا بخير.

ـ ما هي الحكاية إذن؟.. ريحني بالله عليك.

ـ هل استغرق «فارس» في النوم؟

ـ من زمان.. نومه عبادة، تصور من يوم ما بدأ يحبي وهو مجنني، الهوى هواه يكسر كل الأشياء اللي قدامه، واللي يقدر يطولها!

ـ ما هي السن دي كده.. مشاكلها بالنسبة للأم مزعجة، أما بالنسبة للطفل، فمعناها أنه بدأ من الآن يكون شخصيته، وبدأ مرحلة الوعي على الأشياء والمعرفة، ويحاول يتصرف وينول اللي قدامه، ويتعرَّف على كل شيء.

ـ أمس كسر براد الشاهي، وحطم اللعبة اللي اشتريناها له قبل أيام.. ما في شيء يوصل ليده ويبقى سليم.

ـ ممتاز.. عال جداً.

ـ عال وممتاز إيه؟.. يعني يطلع الولد عدواني، يحطم كل شيء؟!

ـ بالعكس.. في المرحلة دي، معناه إنه متحرك، وحيوي، وفضولي، ودي السن اللي يكتسب فيها الطفل بعض الأشياء الجديدة.. أحمد ربنا أنه كده، بدل ما يكون خامل، أو لا سمح الله معاه شلل أطفال، أو قصور في النمو، أو ضعف عام، أو....

ـ قاطعته: كفاية.. أنت إيه؟!

ـ أمراض الأطفال كثيرة، واللي ما يعتني بطفله يتعب، ويجني على الطفل.

ـ الحمد لله، وايه اللي يخلي عنده مرض من اللي عددتها وأنا منتبهة لتغذيته وأكله، بالإضافة لحرصي أنه يلاقي اللي يبغاه، وما يبكي!

ـ النقطة دي خطأ.. اختلف معاك فيها، لا تخليه يلاقي اللي يبغاه دائماً وباستمرار.. بالعكس، أتركيه يفهم في بعض الأحيان أن بعض مطالبه غير ممكنة أو صعبة، أو تحتاج إلى مجهود.

ـ وليه نعذِّب الولد.. احنا عندنا غيره؟

ـ دي تربية يا عيوني.. الحياة كده طبيعتها، الاحتكاك مع الناس، رغبات الإنسان. لا تدلِّعي الولد.. لازم يفهم أن الإنسان يعجز أحياناً عن تحقيق بعض مطالبه!

ـ لكن دا تعقيد، ما دام اللي بيطلبه موجود، ليه نحرمه منه وربنا موسَّع علينا؟.. ولما نربيه على إنه ياخذ اللي يبغاه، أفضل من تربيته على

الاستسلام، والحياة نفسها تعلمه لما يكبر. . الطفولة جميلة يا «خالد». . أجمل كرات العمر، وإلا خلينا إيه لتجارب الإنسان لما يخوض معترك الحياة؟!

* * *

وشرد «خالد» مرة أخرى، ومازالت زوجته تحكي له عن بعض المفارقات التي لاحظتها من خلال تصرفات ابنهما «فارس». . لكنه لم يكن معها، فقد انطلقت به أفكاره مجدداً، واستغرق في التأمل، أو في الشرود! حتى اكتشفت «إلهام» أنها تحكي وتتكلم مع نفسها، وأن «خالد» لا يحيط بشيء مما كانت تقصه عليه، وتظنه يصغي لها.

وقلقت من هذا الشرود. . كأنها أوجست حدساً لاب في ذهنها، فأمسكت بوجه زوجها، وقربته إلى وجهها تتأمل في عينيه. . فأفاق من شروده على تصرفها وحركتها، فقال:

ـ إيه. . حصل إيه. . اتجننت؟!

ـ مين فينا اللي مجنون. . إيه الحكاية بصراحة؟

ـ بصراحة نفسيتي معكننة.

ـ طيب فضفض. . مين اللي عكننها؟!

ـ هادي الجريدة.

ـ مالها. . ارتفعت أسعار المواد الغذائية، وإلا قامت الحرب في الكرة الأرضية؟. . ما هي نفس أخبار كل يوم، من دا المعجون اللي أصبح بديل في فرشاة الأسنان!

ـ أبدأ.. ببساطة، شدتني صورة طفل، يعاني من المجاعة.. شوفي!

وناولها الصحيفة مشيراً إلى صورة طفل، تكاد عظام ظهره وصدره أن تبرز، والبؤس والفاقة يلونان وجهه

ـ قالت: يا حفيظ... إنما دي صور معتادة يا حبيبي، أصبحنا نشوفها دائماً في الصحف والتليفزيون مع الأخبار الخارجية، وبنشوف صور الأطفال المشردين من بلادهم، اللي فقد أمه، واللي فقد أبوه، واللي فقد عينه، أو ذراعه، أو ساقه.. هادا هو عالمنا اليوم، راح تصلح الكون.. خضيتني يا شيخ، ظنيت لا سمح الله أنك تعاني من مرض أو مشكلة في العمل.. الناس اليوم ذاتيين يا حبيبي.. يا ربي نفسي، ويا دوب الحياة تمشي!

ـ إنت إيه؟.. مشاعر أنانية دي، ماعرفتك كدة!

ـ الدنيا أصبحت كده.. زحام شديد، وكل واحد بيجري لوحده، زي اللي هاربين من غارة، إنما الغارة مستمرة!.. وإنت زعلان ومتأثر من صورة الطفل. ما هم في العالم كعبوا عن عام الطفل واحتفلوا، وعن إنقاذ أطفال العالم من المجاعة، وكل يوم بتعتدي الحروب والقوة على أمان الأطفال وأحلامهم.

ـ صحيح.. مأساة بالفعل، بلغها العالم المنشغل عن الأطفال بالحروب وبالأطماع وبشراسة الأقوياء. يمكن انفعلت أكتر من اللازم!

ـ ومالك محموق كده؟.. كأنك المنقذ، بينما أكبر رئيس دولة في العالم ما بيعرف شي عن هذه المآسي والمناظر، ولو عرف.. لا تصدق أنه يوقف أطماعه من أجل الأطفال.

ـ قصدك.. إن كبار العالم ما يشوفوا هذه المناظر، وإذا شافوها لا

تعنيهم لأن الأطفال ما هم أطفالهم، فالإنسانية مجزأة، أو محصورة؟

ـ علشان كده إنت مكتئب وشارد.. كأن الطفل ده طفلك؟!

ـ تعرفي... تصورت وجه هذا الطفل، وكأنه وجه طفلنا «فارس»!

ـ صلي على النبي يا آدمي.. إحنا في خير ونعمة!

ـ الحمد لله.. لكن المشكلة إنسانية، والعالم في النهاية قرية صغيرة.. والصورة ذكرتني بأطفال الحرب في بيروت، وقبل كده بأطفال شردهم الاستعمار والقهر في أماكن كثيرة.. تصوري المستقبل لهؤلاء الأطفال.. وفيهم اللي فقد أهله، واللي خلَّفت الحرب فيه عاهة مستديمة في جسمه أو في نفسه.. وفيهم اللي مشرَّد، محروم من السكن الصحي ومن الأكل النظيف، ومن الرعاية الطبية، ومن التعليم.. ولما يكبروا.. تصوري يصبحوا إيه، وإيه مصيرهم.. يلوموا مين، ويحبوا مين، ويكرهوا مين، والأفظع: ينتموا لمين؟!

واستغرقت «إلهام» في أسئلة زوجها، وزحف الشرود إليها هي الأخرى.. كأنها تتخيل كل أم فقدت ابنها بالحرب، أو بالتشرد، أو بالفاقة.. وكانت تهمس في ذهول:

ـ ياه... المشكلة رهيبة فعلاً.

ـ قال بأسى: أخطر وأهم مشكلة في عصرنا اليوم، تنحصر في «الطفل».. يعني ما هو زي ما بيقولوا: عام الطفل، ولكنه عالم الطفل.. أو أن هذا العصر يعتبر عصر القسوة على الأطفال.. لأن كل شيء من فعل الأقوياء والخلافات بتدمر صناعة المستقبل!

ـ قالت وما زالت في ذهولها: وكيف نقول العالم طفل؟!

ـ قال: لأن كل المشاكل اللي بتحدث من الحروب، ومن الاستعمار، ومن الأزمات المالية.. كلها بتنعكس على مستقبل العالم، والطفل هو مستقبل العالم.. هو «بكره»، أو هو المجهول اللي ما نعرف لحد الآن كيف سيكون، وكيف يلاقي الطفل نفسه في ذلك الغد، لما يكبر ويصطدم بالمشكلات اللي كبرت معاه، وزادت من قسوتها!

ـ لكن.. يتهيأ لي أنك متشائم كبير.. بعدين، فيه هناك مؤسسات وهيئات إغاثة، وتعليم، وصحة، ورعاية طفولة؟!

ـ أنا ماني متشائم.. أنا واقعي، وبعدين.. تفتكري أن الهيئات والمؤسسات الدولية بتقدر على صناعة مستقبل مضمون لطفل اليوم.. طيب عملت إيه لأطفال المجاعة في أفريقيا، وفي الهند، ولأطفال التشريد في لبنان، وفلسطين، وأفغانستان؟!

ـ أجل مين اللي ناجح؟!

ـ تعرفي مين، وبدون سخرية ومزاح؟!

ـ قول.. إني أصغي!

ـ جمعيات الرِّفق بالحيوان أكثر نجاحاً في العالم المتحضر، والمؤسسات العسكرية وتجار السلاح!

ـ كده إنت بتقول كلام مليان خوف!

ـ وعلشان كده خلي ولدك يلعب على كيفه الآن!!...

وقفزت «إلهام» من مجلسها، وهي تسرع إلى غرفة نوم «فارس».. تردد:

ـ باسم الله علينا وعلى «فارس». . يا ولدي يا حبيبي، تعال في حضني. . الله يكفيك شر «شرنينكو» و «ريغاننكو»، وشر «شامير وشمعون»!

وجاءها صوت «خالد» من الغرفة الأخرى، ضاحكاً:

ـ وأنا. . . أنام فين؟!

ـ قالت: روح نام عند «انديرا غاندي». . على الأقل تنام لك ليلة عدم انحياز بالكذب!!

* * *

بعد منتصف الليل

* أطفأت «إلهام» ضوء الأباجورة بجانب رأسها.. بينما أبقى «خالد» ضوء أباجورته، ورأسه يتوسَّد حافة السرير العليا، والتفاتته نحو زوجته إلى اليمين.. حيث استلقت وتهيَّأت للنوم، وهي تتثاءب!

ولم تكن الالتفاتة من رأس «خالد» عابرة.. بل كان ينظر إلى «إلهام» بتحديق تنبهت إليه، ورأت رأس زوجها يشبه علامة استفهام.. لكن قدرتها على متابعة هذا العرض لم تكن نشطة، فهي تشعر بالتعب، وتحس أن جفنيها يتكسران، ويكادان أن يطبقا على العينين.

ولكن «خالد» لم يغير وضع رأسه، ولم يحرِّك التفاتته إلى الناحية الأخرى.. كأنه بتحديقه هذا يشرد مع خاطرة، أو فكرة.. ولكن المعاني التي ومضت في عيني «خالد» واستقرت في ملاحظة وانطباع «إلهام».. تجعلها هي الأخرى تتعجب من أمر زوجها في هذه الليلة!؟

ورفعت رأسها عن الوسادة قليلاً.. كمن يريد أن يتأكَّد من منظر مشوَّش، ونظرت إلى وجه زوجها، وإلى عينيه.. وما زال «خالد» يتأملها، ويكاد لا يطرف له رمش.

هزته برفق من ذراعه، وابتسمت تسأله:

ـ إيه. . مالك عامل زي التمثال، والا زي جندي الحراسة البريطاني أمام قصر الملكة؟!

ـ أجاب وهو يتنبه: ما هو أنا بالفعل أشبه الآن ذلك الجندي. . مصلوب لا أرمش، وأقف عند بوابة الملكة أحرسها، كأن مهمتي قد انحصرت في هادا العمل فقط!

تحركت «إلهام» فوق السرير، واتكأت على الوسادة متعجبة. . تسأله من جديد:

ـ يعني إيه. . تقصد إيه؟!

ـ أنتِ عارفه أقصد إيه!

ـ لا يا سيدي. . ماني عارفه، وإنت مبوَّز. . مع أننا كنا بنضحك قدام التليفزيون.

ـ التليفزيون!. . تعرفي إني صرت ما أحب التليفزيون هادا؟

ـ ليه؟. . بيسلِّينا، وبيفرِّجنا، وكمان بيعلِّم!

ـ صحيح. . بيعلِّم الناس الصمت، خصوصاً عشاق الفرجة، ولما تخلص البرامج، يكون موعد النوم وصل. . يعني أزف باللغة الفصحى!

ـ وزعلان ليه؟. . ما هو أحسن من الجلسة اللي كلها حش في الناس؟!

ـ ما هي المسلسلات عبارة عن «حش» في الرجال وبس. . ليه؟ ما في كلام حلو بين زوجين بيحبوا بعض؟!

ـ طبعاً فيه، لكن. . ما هو دا الموضوع، صارحني. . مالك متضايق؟

ـ بصراحة. . منك أنتِ، كأن مهمتك في البيت إنك. . . .

ـ قاطعته: تقصد اتفرج على التليفزيون وأهملك؟

ـ تعرفي الصورة الساخرة اللي انكتبت مرة عن التليفزيون.. بيقولوا: إن هادا الجهاز هو أعظم وسيلة ناجعة لتحديد النسل!

ـ يا دمك.. ما تخلِّينا نكبِّر «فارس» شويه؟

ـ نقوم نتفرج على التليفزيون طول الليل، أو نشترك في تنويم «فارس»، وبعدين تنامي أنت.. كده زي كأنك بتخلصي من إحراج يسببه الجلوس معايا!

ـ يا ربي.. شوف كيف تكبر الأمور في رأسك.. إنت سيّىء الظن، وتكره التليفزيون!

ـ لأ ما كرهه.. إنما أعتبره جزءاً من الوقت بنشترك فيه، لكني ألاقيك بعد هادا الوقت تعبانة وبدك تنامي، وتشتكي من المطبخ وتنظيم البيت ورعاية «فارس»!

ـ ما لو «فارس»؟ بدأنا نغار يا سيد «خالد»، ما هو ولدنا إحنا الاتنين؟ قول كده من الصبح.. إنت لازم تفرح لأني مهتمة بالبيت، وبإبننا.. وإلا يعني أهمله، والتفت لك وحدك؟!

ـ الله.. بدأنا نلبِّخ!.. أنا ما طلبت منك تهملي الولد، بس لازم تهتمي بالأب.. «بعلك» العزيز والا إيه؟!

ـ أنت تهدف لإيه بالضبط؟

ـ أنا كده بصراحة متضايق!!

ـ طيب.. اتشطَّر وأطلب «فيزا» لخادمة علشان تساعدني، أو على الأقل مربية لإبننا.

ـ مربية؟ لأ.. لأ!

ـ باسم الله عليك.. ومالك كأنه ثعبان لسعك؟!

ـ ما عندي استعداد أخلّي ابني يرطن بالكوري أو بالفلبيني، وبعدين يقلد الخادمة في كل شيء تربيه عليه.

ـ وأنا رحت فين.. يعني فكرك رايحه أترك ولدي للخادمة على طول؟!

ـ الكلام دحين في البراح.. بعدين الأمور تتغير!

ـ تتغير إيه.. ما هي كل البيوت أصبحت كده؟

ـ واحنا مالنا.. نقلِّد حتى الخطأ؟

ـ الحاجة يا حبيبي.. الاضطرار.. ظروف العصر؟

ـ هادا اللي فالحين فيه.. التبرير المغرض!

ـ تبرير إيه؟

ـ إنتِ فاهمة.. من فضلك أنا متضايق، وكمان ما عندي نوم، صار التليفزيون يقفل بدري، وأنا ماني فرخة أنام بدري!

ـ أنتَ عندك عمل.. وإلا أنت مدير، أنا نسيت، المدير يروح الساعة عشرة ونص!.

ـ الوقت بدري.. نفسي اتكلم معاك، نضحك مع بعض!

ـ بس «فارس» يا حبيبي بيصحى بدري وبيصحيني معاه، ومسؤولية البيت، و. . . . . .

ـ قاطعها ثانية: قولي كده. . الولد، أصل طبعكم يا ستات من يوم الواحدة ما تجيب طفل، خلاص تهمل زوجها، وتخليه يعتمد على نفسه في البيت. . «هِلْب يُورسِلْف» يعني، والرعاية والعناية كلها للطفل. . وفي الليل تشعر بالتعب، وما تصدق ينام الطفل، وهي وراه تشخر. . طيب ذنب الزوج إيه؟!

ـ أعمل إيه، ما هو أنا وحدانية في البيت. . كل الشغل على راسي، ليه ماني من لحم ودم ولا بد أرتاح. . الآلة يريحوها؟!

ـ طبعاً منطق. . إنما المفروض انك تنظمي وقتك!

ـ تعرف إيه عن التنظيم؟ ما إنت طول النهار قاعد على كرسي دوار، وفي غرفة مكيفة، وفنجان شاي داخل، وفنجان قهوة خارج، وصف حكي. . حتى العربية فيها تكييف! فيه ترف أكتر من كده، لكن إحنا الستات نندعك في البيوت. . ننشر الغسيل في الحرارة والشمس، نكنس، نوقف قدام البوتاجاز والنار. . إيه، ما في رحمة؟!

ـ لازم يعني الموشَّح هادا، كل ما طالبت بحقوقي كرجل. . يعني الرجال بيروحوا يلعبوا كورة في المكتب، والا كوتشينة؟

ـ ما هو كمان يا خالد. . أنا كده بصراحة ما احتمل شغل البيت، ورعاية الطفل، وكمان مطالبك!

ـ عارف. . المطلوب خادمة، ومربية، وسائق. . ما هي كل البيوت

أصبحت تعمل كده. . بدون مراعاة للمستوى المعيشي والمادي للزوج، ولكن الناس ما هم كلهم أثرياء!

ـ خلاص. . لما تجيب الخادمة والمربية والسائق، أخرج معاك!

ـ معايا فين. . المكتب؟!

ـ المكتب. . بس ما هو مكتبك، اشتغل، والا يعني أخذت الجامعة علشان أعلِّقها في المطبخ؟!

ـ موضوع جديد. . أهلاً!. . بالله عليكي استقدم خادمة ومربية وسائق لشقة من ثلاثة غرف وحمام واحد صغير، وشخصين، والثالث على الكتف؟. . ده حتى يسموه افتراء؟

ـ أف منك. . أختي عندها خدامتين، وأخويا عنده. . . . . .

ـ خلاص. . أنهب وأسرق وأجيب دخل زيادة علشان الخادمة، وإنت تجلسي تلمِّعي أظافرك!

ـ ما قلت كده. . لكن لما أشتغل أنا، دخلنا يزيد!

ـ علشان إيه؟. . علشان يروح للخادمة والسائق، والولد يشعر بغربة؟!

ـ والحل. . . ما هو كده أنا تعبانة، وإنت متضايق علشان ما باسهر معاك؟!

ـ الحل في التعاون، وفي التصرف المنطقي. . إنت كيف متعلمة وفاهمة؟!

ـ خلاص. . أنا صدعت الله يكافيك.

ـ إنت اللي نبشتيني. . نامي، تصبحي على خير!

أطفأ «خالد» ضوء أباجورته، ووضع يده اليمنى تحت خده، وأغمض عينيه!

وساد الصمت والظلام أرجاء الغرفة، ولكن «خالد» لم ينم رغم إغماضه عينيه، و «إلهام» بقيت مشرعة الجفنين، عصف بها القلق.. تفكر في حوار زوجها معها!

وجفاها النوم.. تقلبت، وأحست أن زوجها لم ينم، ولكنه يعطيها ظهره! اقتربت منه.. أدخلت يدها اليمنى تحت رقبته، وتسلَّلَت يدها اليسرى تغطيه، ثم همست من خلفه:

ـ خالد.. خالد، إنت نمت؟!

لم يجبها، ولكنه تحرك وهي تعتقله بيديها، وكررت همسها:

ـ خالد.. إخص عليك، لازم يعني تخليني أنام متنكدة؟ استدار «خالد» نحوها.. وجهه يواجه وجهها في صمت وظلام الغرفة، وقال:

ـ أنا ما قصدت.. كان غرضي إنك تجلسي معايا نتكلم، نضحك، أو.. أتأمل في عيونك، ما تعرفي إن عيونك دنيتي؟!

ـ الله.. أحبك، كان قلت كده من الأول!

ـ وإنت أعطيتيني فرصة؟!

ـ خلاص.. سماح، خلينا نحلم أحلام سعيدة، أنا جنبك وتنام زعلان؟!

ـ خلاص.. لا تخليني أحلم أحلام يقظة!

ـ أنا بردانة.. المكيف برّد!

ـ وأنا دفئك!

الشيطان. . يلوح!

❋ استيقظ «خالد» من نومه مبكراً جداً على غير عادته!

تمطَّى وهو يتثاءب بكسل، وشرع جفني عينيه يحاول أن يعرف الوقت، فليس من عادته أن يستيقظ في الفجر!

كان صوت المؤذِّن يرتفع بنداء الصلاة، وشعر أن جسمه واهن، لا يريد أن يترك فراشه في هذه «الغبشة»، فقد سهر في الليلة الماضية إلى حوالي الثانية صباحاً. . أي إنه لم ينم أكثر من ثلاث ساعات، ولم يأخذ كفايته من النوم!

حاول أن ينظر في ساعة معصمه. . وكان الظلام لم يتبدد بعد، وستائر غرفة النوم تحجب عنه نور الفجر. وتحسس بيده رأس زوجته. . كانت تغط في نومٍ عميق، لكنها نامت قبله بوقت طويل، فما الذي أيقظه الآن؟!

غطَّى وجهه ليستدرج النوم إلى عينيه من جديد، لعله ينام، فمازال الوقت مبكراً!

ما زال صوت المؤذِّن يطوف في صمت الغرفة. . يضيء هذا السكون العميق.

استوى فوق فراشه، وأخذ يفرك عينيه، قائلاً:

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. لا بد أن أنهض لأصلي الفجر. فرصة فيها نعمة من الله أن جعلني استيقظ وأسمع الأذان.. كنت أتمنى أن أصلي الفجر حاضراً، ولكنه النوم، والكسل. على الله.. ودي قومه!

وتحرك من سريره، متجهاً إلى الحمام ليتوضأ.

كانت غرفة «فارس» تؤدي إلى غرفة نومهما، وأطل «خالد» برأسه نحو سرير ابنهما «فارس» ولم يبصر شيئاً، وواصل طريقه ليتوضأ، وخرج إلى الصالة يصلي!

وشعر بعد أداء الصلاة براحة نفسية.. كأنه يصلي لأول مرة!

ـ قال يحادث نفسه: الحمد لله.. ليتني استيقظ كل فجر في هذا الموعد.

ولف سجادة الصلاة، وعادت به خطواته إلى غرفة النوم.. أراد أن يغفو الساعات المتبقية حتى يحين موعد الفطار، والذهاب إلى العمل.

وأمام غرفة «فارس» توقف.. خيِّل إليه أنه استمع إلى صوت ابنه، ولكن... هل استيقظ «فارس» مثله على صوت أذان الفجر؟!

دخل إلى غرفة الطفل على أطراف أصابعه لئلا يوقظه إن كان نائماً.. وكان ضوء «الأباجورة» المضاءة كل الليل يعكس ظلالاً في الغرفة، ورأى «فارس» في سريره وهو يحرك يديه وساقيه، كأنه يسبح، أو لعله ينادي على أمه وأبيه.

وقف «خالد» عند حاجز سرير ابنه، فرآه مستيقظاً، ينظر إلى وجهه ويبتسم، وهو يردد كلمات لا يفهمها الأب: غا.. غا... حمله بين ذراعيه.. احتضنه وقبَّله، وأخذ يلاعبه، يرفعه إلى أعلى ويتلقَّفه!

كان «فارس» يبدو سعيداً في حضن أبيه، وكان «خالد» في تلك اللحظة يمتلك أغلى الجواهر. . وشعر أن النوم قد رحل من عينيه، وأحسَّ بنشاطٍ يختلف كثيراً عن لحظة إفاقته من النوم العميق.

وسار بابنه «فارس» إلى صالة «الشقة»، وفتح باب الشرفة، واستقبل الصبح الجميل على وجه ابنه، وهو يلاعبه بأصابعه، وبحاجبيه وبعينيه، ويبتسم له بأصدق الفرح.

وفي الشرفة المطلة على الشارع الذي بدأت الحياة تدب فيه رويداً. . أخذ كرسياً وجلس وفي حضنه «فارس» يطوح بيديه وقدميه ويضحك سعيداً. . وزادت حركات «فارس» يريد أن يتخلص من بين يدي والده. . فأطلقه على امتداد مساحة الشرفة، وهو يتابعه، ويراقب حركاته، و «فارس» يحبو، وكأنه يتقافز في الحبو، ويطوف في أرجاء الشرفة، وحاول أن يسحب إليه كرسياً آخر، ويتمسك به في محاولة منه للوقوف.

ـ قال: أبوه: بدك توقف؟!

ولكن «فارس» لم يحسن النطق حتى الآن، إنه يواصل سحب الكرسي، ثم التشبث به، حتى استطاع أن يقف بعد محاولات شاقة. . فصفق له والده وهو يضحك قائلاً له:

ـ شاطر. . شاطر!

وبكل الفرحة التي غمرت «خالد» اندفع ركضاً إلى غرفة النوم، تاركاً «فارس» في الشرفة يتشبث بالكرسي، وراح «خالد» يوقظ زوجته «إلهام» بفرح:

ـ إلهام. . إلهام، قومي!

وجلست «إلهام» في فراشها فزعة، وهي تقول:

ـ إيه.. إيه اللي حصل.. فارس جرى له حاجة؟!

ـ ايوه.. قومي شوفي!

ـ باسم الله على ولدي.. ماله، إيه يا «خالد» سيَّبت ركبي!

ـ فارس وقف.. فارس وقف!

وتهاوت «إلهام» فوق سريرها محبطة، وهي تقول لزوجها:

ـ حرام عليك.. كدت أنشل!

ـ فرحان.. فرحان جداً، قومي شوفي «فارس»!

وتركها تجمع قدراتها وعزمها الذي تخلخل، وانطلق إلى غرفة نوم «فارس» وحمل معه لعبة الطفل «أرنوب».. وعاد إلى «فارس» يلوِّح له باللعبة، ويضعها على الأرض ويعبئ «زمبلكها»، ويقول لابنه «فارس» كأنه يفهمه:

ـ شوف يا فارس.. هذا صاحبك «أرنوب».. شوف كيف يمشي على رجليه.. اعمل مثله، هيا يا روحي، خليك أشطر منه!

وتناول «فارس» لعبته، وأخذ يطوح بها ضاحكاً، فرحاً! ووقفت «إلهام» عند مدخل الشرفة، تراقب ابنهما «فارس» وقد وقف على قدميه، ممسكاً بحافة الكرسي، وباليد الأخرى يلوح لها بالأرنب، وهو يردد بلثغته: ماما.. ماما!

وضع «خالد» فنجان الشاي أمامه، وتهيأ للقيام ليرتدي ملابسه ويذهب إلى عمله.

ـ قالت له إلهام: إلى أين إن شاء الله؟!

وتطلع إليها مستغرباً من لهجتها الحادة، وسؤالها المتهكم. أجابها:

ـ إلى العمل إن شاء الله. . أي خدمة؟!

ـ طبعاً. . ماشي طويل طويل من غير ما تفكر معايا راح نتغدى إيه؟!

ـ وهل التفكير في الطبخ من صميم عملي؟!

ـ وهل أنا اللي بآكل وحدي في هذا البيت؟!

ـ إيه. . أنت قايمه على جنبك الشمال؟!

ـ لأ. . قايمة مفزوعة ومخضوضة، وكان راح يجيني شلل!

ـ يا ستي أنا آسف. . من فرحتي عملت كده، سماح المرة دي!

وتركها تتأفف، بينما دخل إلى غرفة نومه، وارتدى ملابسه، وخرج متجهاً إلى عمله. لكنه كان يعاني من توتر شديد، وكان يسائل نفسه:

ـ لماذا تعاملني «إلهام» بهذه الطريقة الفظة؟!

وانتابته حيرة ضاعفت قلقه على الاستقرار في هذا العش الصغير، فعندما تزوج من «إلهام» لم تكن تعامله بهذه الغلظة. . بل كانت تشيع جواً من الحب والألفة في داخل البيت، وكان يعتقد أن المرأة عندما تلد طفلاً، تنضج أكثر، وتصبح حريصة على بيتها، وعلى تربية طفلها في حنانها ورعاية أب مسؤول!

كانت فرحة بالطفل، وذات مساء قالت له وهما ينسجان أحلام الغد لهذا البيت:

ـ صدقني يا خالد. . لم أتمنّ والداً لطفل مني سواك، ولو لم أجدك لبحثت عنك!

عجيب. . وما الذي غيَّرها بصورة مفاجئة؟!

وأخذ يحدث نفسه، ويسترجع بعض المواقف الساخنة والعصبية بينهما. . إن زوجته «إلهام» عصبية، تفقد أعصابها بسرعة، لكنها طيبة القلب، تصفو في دقائق!

هل قصَّر في فهمها جيداً؟!

وما الذي تريده «إلهام» بالضبط؟!

واستغرقته هذه الأسئلة في حيرة عصفت بهدوئه، وبإقباله على العمل. . ولم يشعر بمدير الإدارة المالية وهو يقف أمامه محاذياً لمكتبه، والرجل يناديه، ويتطلع إليه في حيرة من أمر «خالد» الذي يبدو منشغلاً. . يطرد بعيداً ولا يحس بالرجل أمامه!

ـ يا أخ خالد. . أخ خالد، ما بك؟!

وأعاد الرجل النداء عدة مرات، دون أن يتنبه له «خالد»، فعمد إلى هزه من كتفه، حتى تنبه إليه، وتطلَّع إلى الرجل الواقف أمام مكتبه، ووقف مضطرباً، وهو يعتذر له:

ـ آسف جداً. . اعذرني.

ـ الله آخد بالك. . أنا واقف من خمس دقائق، ولا انت هنا!

ـ برضه آسف، معليش، أي خدمة.

ـ المدير العام يطلبك بسرعة.

ـ خير.. ما الأمر؟!

ـ لا أعرف.. قال إنه طلبك بالتليفون ولكنك لم ترد.

حتى التليفون لم يسمعه؟!

ترى.. ما الذي سيطلبه منه المدير العام.. ماذا فعل، هل ارتكب خطأ؟!

ربما.. فهو يأتي إلى العمل منذ أكثر من أسبوعين في مثل هذه الحالة تقريباً، لا يذكر أنه خرج من بيته صباحاً، قبل أن تصطدم به «إلهام» وتوتّره!

لعله أخطأ في مذكرة، أو لعل المدير العام طلب منه إنجاز عمل ونسيه!

ماذا يفعل الآن.. وكيف يرد على المدير العام؟!

وقام متثاقلاً.. يخطو إلى غرفة المدير العام، وهو يقطع ذلك الممر الطويل، ويشير بيديه، ويحدث نفسه مثل مخبول!

وطرق باب غرفة «المدير العام» ودلف إلى داخل المكتب متردداً متوجساً، وبصوت محبوس، قال:

ـ صباح الخير.. هل طلبتني؟!

ـ نعم يا «خالد».. هناك بضعة أعمال نريد منك أن تنجزها للشركة في الرياض!

ـ تقصد.. أن أسافر إلى الرياض؟!

ـ نعم يا «خالد».. مابالك، ماذا بك؟

ـ ها.. لاشيء يا سيدي، ومتى سأسافر؟!

ـ في الغد إن شاء الله، وإنت وشطارتك إن أنجزتها في يوم أو عشرة، وقد عمدت الإدارة المالية بصرف ما تستحقه من مصاريف الانتداب!

* * *

وخرج، من مكتب المدير العام، يطوح بيده، متسائلاً:

ـ وهل أترك «إلهام» و«فارس» وحدهما؟!.. هذه أول مرة أتركهما، فهل أدعها تذهب عند أمها، أم عند أمي؟!

ـ قالت له إلهام وهو يخبرها على الغداء: بل أذهب عند أمي!

ـ ولماذا لا يكون ذهابك إلى أمي؟!

ـ لما أنا أسافر.. روح إنت عند أمك!

فوجئ بهذا الرد منها.. إنها تواصل استفزازه بدون سبب!

ـ حسناً.. الله يسامحك، لنؤجل خلافاتنا لما بعد!

ـ وليه.. أحسن من الآن!

ـ تقصدي إيه؟!

ـ أقصد إنك سئمت مني، وما عدت تطيقني، وإن كانت راحتك إني أجلس عند أمي على طول، ما عندي مانع!

ـ لا حول ولاقوة إلا بالله.. إخزي الشيطان يا بنت الناس.

ـ وإن ما خزيته؟!

ـ خلاص.. أخزيه أنا، وكمان شبعت والحمد لله!

وقام «خالد» من أمام مائدة الغداء، وحمل «فارس» بين يديه، وجمع له ألعابه، وجلس يلاعبه، وهو يحاول أن يمتص غضبه ويسري عن نفسه مع «فارس»!!

* * *

التخيُّل

* تسلم «خالد» تذكرة السفر، وعليها الحجز المؤكد لموعد سفره إلى الرياض بعد الساعة الثامنة مساء، وكان اقتراح مديره أن يسافر في المساء ليبكر منذ صباح الغد في الذهاب لإنجاز مهمته مع بدء الدوام الرسمي، وخوفاً من أن تتأخر الرحلة في الصباح.

وعندما دخل إلى بيته بعد الظهر.. كانت «إلهام» مقطَّبة منذ كانت يوم أمس.

حاول أن يضحك معها، فلم يجد استجابة، وبحث عن «فارس» فوجده يجلس في وسط غرفته قرب سريره، ومن حوله أشكال الألعاب، وهو يعبث بها، منشغلاً عن كل ما يجري في الدنيا!

أخذه إلى صدره وضمه، وقبَّله، ورفعه إلى أعلى وتلقَّفه، و «فارس» يقهقه سعيداً بمرح والده معه، ولكن صوت «إلهام» من غرفة الطعام أفسد عليهما هذا المرح، فقد كانت تنادي على «خالد» بصوت متوتر وجاف، ليحضر ويأكل.

وما زال «خالد» يتجاوز توتر زوجته، ويتغاضى عن أسلوبها غير الودي منذ اختلفا في صباح الأمس، لكنه لم يجد تفسيراً واحداً لهذا الانقلاب

«الداخلي» في أعماقها نحوه، وهو يحاول أن يسترجع موقفاً قد يكون أساء فيه إلى «إلهام» أو أغضبها.

حمل طفله بين ذراعيه، وجلس إلى مائدة الغداء. . ينتظر التي نادت عليه دون أن تأتي، ورفع صوته يستعجلها:

ـ يا الله يا إلهام. . أنا حضرت، والأكل برد.

ـ قالت تجيبه من غرفة نومها: لا تنتظرني. . ما عندي نفس.

ـ قال بصوت مرتفع: أنتِ آخده موقف من إيه؟

لم ترد عليه، ولم ينتظرها أكثر. . ومد يده ليأكل، وبجانبه «فارس» يحاول أن يمد كلتا يديه، ويزحف إلى المائدة. . يريد أن يعبث ويدلق. ونظر إلى ابنه يعاتبه كأنه يفهم:

ـ وبعدين يا «فارس» راح أزعل منك. . أنا أعطيك الأكل.

«فارس» يفتح فمه على آخره. . دون أن يعرف والده إن كان يضحك، أو يطلب الأكل.

ومد «فارس» يده نحو ملاعق الأكل، ووضع ملعقة أمامه، ومط جسمه قليلاً يحاول أن يتناول سكيناً.

اضطرب «خالد». . فهو لا يعرف كيف يتعامل معه، وكيف يعطيه الأكل. . هذه مهمة الأم.

إنه يعرف أن طعام «فارس» المفضل هو الحليب. . وفي الصباح عندما تتأخر أمه عن إعطائه وجبة الفطار، فهو يحبو ويزحف حتى يجد علبة الحليب التي أحضرتها أمه، ويتناول العلبة بيديه، ويحاول بكل ما فيه من قوة أن يفتح

العلبة. . حتى يصيبه اليأس، فيعمد إلى وضع علبة الحليب على الأرض، ويدق عليها بيديه الصغيرتين ليشعر أمه أو والده بأنه جائع! ولكن الآن. . لا بد أن «إلهام» قد أعطته غداءه، فهو يريد أن يلعب فقط.

لم يتناول «خالد» غداءه الكافي. . لقد عكرت زوجته مزاجه، وحمل «فارس» بين يديه، وأخذه إلى غرفة النوم، ووضعه بجانب أمه.

ـ قالت له إلهام: أعمل لك شاي؟

لم يجبها، واتجه إلى الحمام ليغسل يديه، وعاد ليغفو كعادته بعد الظهر إغفاءة القيلولة التي تعود عليها برغم أنه حاول التخلص من هذه العادة دون أن يفلح، وغطَّى وجهه بفوطته الصغيرة، وتهيأ للنوم.

استلقت «إلهام» بجانبه، وقد افتعلت حركة غير عادية وهي تستلقي، ولم يعرها التفاتاً. وشعرت أنها فشلت في استفزازه، وملأت يدها إلى كتفه، وهزته، ثم حاولت أن تسحبه إليها ليلفت وجهه نحوها. نظر إليها مغتاظاً. قال:

ـ نعم. . أوامر السيادة؟!

ـ أنت ما تنام، لأني أنا ما عندي نوم!

ـ يا سلام. . أحكام « قراقوش»، والا فاكرة نفسك «شجرة الدر» وأنا «عز الدين أيبك»؟!

ـ مين أيبك ده؟

ـ دا زوجها يا شجرة الدر. . أحكي لك حكايتها؟

ـ أنت عدواني!

ـ أنا؟. . و ليه، وكيف؟

ـ أنا زعلانة منك؟

ـ أيوه. . وصلنا إلى مربط الفرس.

ـ أنا ماني فرس. . أنا امرأة!

ـ آسف. . أنت مهرة جميلة، ولكنك أحياناً «تبرطعين»!

ـ إيه تبرطعين دي؟. . ألفاظ وحشة!

ـ أوه أيتها «الليدي»، معليش. أمرك. . زعلانة ليه، ومن إيه؟

ـ زعلانة منك، وليه؟. . لأنك قلت كلمة زعَّلتني، حسيت إنك كنت قاسي عليَّ، وعنيف في المخاطبة، وأنا ما أحب المعاملة اللي تشعرني بها أنك السيد والقوي!

ـ عجيب وأنا في رأيك لا أستحق أن أكون سيد البيت؟!

ـ تستحق. . لكن بشرط ما تحاول إنك تمحي شخصيتي!

ـ أنا؟. . اشرحي لي.

ـ لما صحَّيتني من النوم، قمت مفزوعة وعاتبتك، وإنت تعرف لما الواحد يقوم من النوم، وأنت صعَّدت الخلاف، وأخذت تتكلم معايا بجفاف، وبعدين خرجت وصفقت الباب بشدة.

ـ صح. . لكن، ما سألت نفسك أنا عملت كده ليه. . مين فينا اللي اضطر الآخر يتكلم بجفاف. . مين اللي بدأ!

ـ بس الرجل يتحمل.

ـ إنما الموضوع مختلف. . أصدقيني ما هو السبب؟!

ـ في الأول. . أنت عندك شك إني أحبك؟

ـ أبداً، وهذا سبب دهشتي واستغرابي من تصرفك. . صدقيني أنا ما عرفت أعمل في مكتبي. ملّيتيني نكد وغم، وعلشان إيه. . كلمة؟ إذا كان كل واحد فينا يجلس للآخر على كل كلمة، ترى ما راح نعمِّر مع بعض. . راح تدب الخلافات بدون انقطاع!

ـ تقصد إيه بكلمتك: ما راح نعمِّر، تعني إنك ناوي على نيَّـة؟!

ـ شوفي تحميل الكلام أكتر من معناه يعمل إيه. . هذا أفظع من سوء الظن.

ـ حقيقي أنا زعلت منك بسبب شيء آخر.

ـ حلو. . أحبك وإنت صريحة، ونقيَّـة. . أفهم؟

ـ قبل ثلاثة أيام قلت لك حكاية عن ولدنا «فارس». . كنت لاحظت عليه إنه أحياناً يشرد بأفكاره بعيداً عني.

ـ أفكاره إيه. . هو عنده أفكار في الشهور الأولى دي؟!

ـ معليش. . أقصد كأنه يتأمَّل، يفكِّر، ولما سألتك في الليل، أجبتني بكلمة خلتني أفكر فيها بقلق!

ـ أذكر بالفعل، وقلت لك: الطفل في السنة الأولى يفكر ويتخيَّل أشياء لا نعرفها، ويتبلور عنده التفكير كلما كبر. . وقرأت مرة أن الطفل من ثلاث سنوات إلى حوالي السابعة من عمره يستغرق في تخيلات، والمهم أن الأبوين يلاحظان أن هذا التخيُّل ليس بسبب مرض، أو تخلف عقلي لا سمح الله.

ـ جميل. . وقلت إيه كمان؟!

ـ فقط. . لم أزد على ذلك، إلا. . لو كنت أمزح معك!

ـ مزح لما تقول: الطفل يتخيل في السنوات الأولى دنيا الكبار الغريبة عليه، ولما يكبر يتخيل امرأة لو كان ذكراً، ورجلاً لو كانت أنثى؟!

ـ صح. . وفيها إيه؟!

ـ فيها إنك بتوحي لي إنك بتتخيَّل شيء، بالإضافة إلى أني ملاحظة سرحانك في الأيام دي!

ـ بالله أنت سخيفة للدرجة دي؟

ـ لأ. . إنما كنت شارد الذهن لعدة أيام ليه، بتفكر في مين، وأعصابك في خشمك!

ـ لأن الرجل بعد أن يتزوج، وبالذات لما يختار زوجته، أو يوافق على اختيار الأهل لها. . فمعنى ذلك أنه ارتضاها وأحبها، وبعدين. . ليه أفكر في امرأة أخرى وأنت جميلة، وواعية وذكية، أما السرحان. . على رأيك فشيء طبيعي أفكر في العمل، في المستقبل، في قضية فلسطين!!

ـ خلاص. . أنت اعترفت.

ـ ما كنت أنكر قبل ما تفصحي عن أفكارك الأخيرة!

ـ من حقي أن أغار عليك.

ـ من حقك لو عرفت أي شيء حقيقي، لكن تتخيَّلي تماماً مثل طفلك ده، تبقى كارثة. . . إلاَّ قولي لي فين فارس، ما هو في الغرفة؟

ـ صحيح. . هو راح فين. فارس. . . فارس.

ـ قفز «خالد» من فوق سريره يركض في أرجاء «الشقة» بحثاً عن «فارس».. ولحقت به «إلهام» قلقة، ووجدت «خالد» يقف أمام باب الحمام ويضحك. مدت رأسها لترى «فارس» قد أغرق نفسه وملابسه بالماء، بعد أن فتح صنبور الماء، وتناول صابونة كانت موضوعة على حافة المغطس، وأخذ يمرِّرها فوق بلاط الحمَّام حتى ملأ الأرض بالماء والصابون، وهو يحاول أن يتزحلق، وقطعة أخرى من الصابونة في فمه!

خفَّت إليه أمه تحمله، وهي تضربه على أصابع يده حانقة:

ـ عملت إيه أيها الشقي؟!

«فارس» رفع صوته بالبكاء، محتجاً على انتزاعه من هذه اللعبة التي استهوته. بدَّلت له أمه ملابسه وجفَّفَته وهو يواصل البكاء.

نظر إليها «خالد» وهو يبتسم ساخراً:

ـ مبسوطة كده.. حوار بيزنطي وفارغ، نسَّانا الولد، والحمد لله ما عمل حاجة تانية.

ـ الولد الشقي.. يعني إنه حيوي!

ـ أفادكم الله.. فين حقيبتي حتى ألحق الطائرة.

ـ راح تغيب كم يوم يا خالد؟

ـ كم يوم إيه.. لو خلصت العمل بكره.. أرجع إن شاء الله، أنا رايح فين.. المكسيك؟!

ـ راح توحشني.

ـ والله؟. . الآن أوحشك، ولما كون في وجهك تبحثي عن المشكلات!

ـ حاول ما تتأخر. . أحسن فارس ما يطيق غيابك يوم واحد.

ـ فارس لوحده؟

ـ لا. . وأم فارس في الأول!

* * *

كوارث في ثلاجة

* رن جرس الباب في منزل أسرة «إلهام».. كان القادم هو «خالد» بعد غياب ثلاثة أيام في الرياض. قذف بحقيبة يده فوق مقعد في الصالة.. بينما أسرعت إليه «إلهام» وقد لاحظت الإرهاق بادياً على وجهه:

ـ مالك.. أنت مريض؟

ـ لأ.. إنما هلكان من التعب، ومن نوع موجود في الوظائف الصغيرة، هوايته تعذيب الناس.. تعال بكره. معاملتك ما وصلت.. إنما «فارس» فين، وحشني جداً؟

ـ فارس نايم.. المرة دي بيحلم ما بيتخيل!

ـ وإنت طبعاً بتتخيلي؟

ـ وحشتني.. حالاً نروح بيتنا، أنا جاهزة.

في الطريق إلى منزلهما، كان «فارس» قد استيقظ من نومه، ولم تهدأ حركته في حضن أمه، والتفتت «إلهام» نحو زوجها ضاحكة:

ـ تعرف.. فارس بيرسم!

ـ حلو.. موهبة مبكرة في العام الأول!

ـ وجد مجموعة أوراق وقلم رصاص بجانب التليفون عند أمي، وجلس يشخبط، ويلتفت لي ويردد: ماما . . ماما، ويشير إلى الخطوط اللي بيرسمها.

ـ لازم رسم وجهك!

ـ خالد؟! . . أنا وجهي شخبطة يعني؟

ـ ما أقصد يا حبيبتي . . لكن الطفل في هذه السن لا يعرف إلا أمه، وهي أقرب إليه من والده، والأم عظيمة كما تعرفي، والا إيه؟!

ـ أحسنت . . لبق ودبلوماسي!

ـ وعمل إيه كمان؟

ـ كان مبسوط مع الورق والقلم، ولما يزهق يتمسك بالأرنب صديقه!

ـ علماء النفس بيقولوا إن الطفل يعبر عن طاقاته المخزونة من خلال اللعب والرسم أو الشخبطة، وممكن تلاحظي سلوكه عن طريق تصرفه مع اللعبة أو الدمية!

❊ ❊ ❊

عندما بلغا منزلهما، كان الإرهاق قد نال كثيراً من «خالد» فأغفى دون أن يتناول عشاءه، وتركته زوجته ينام ليرتاح حتى الصباح . . ليستيقظ على ندائها:

ـ الحقني يا خالد . . أرجوك كفاية نوم!

قام فزعاً، ولكنه كان قد أخذ كفايته من النوم والراحة، غير أن صوتها دفعه ليركض حيث كانت تقف في المطبخ، و«فارس» يجلس عند قدميها:

ـ حصل إيه.. فزَّعتيني؟!

ـ شوف ولدك.. خلاني أدخل الحمَّام، وتسلل إلى المطبخ، وحاول الوقوف ليأخذ السكين، وجلس على الأرض يلعب بها حتى جرح أصبعه.. شوف الدم.

ـ بسيطة.. أعطيني «المكركروم»!

ـ بيقولوا البن واحدة بوحدة.. يوقف الدم.

ـ بن إيه.. أسرعي.

سكت «فارس» عن البكاء، وهو في حضن أبيه.

وخرج «خالد» إلى عمله.. بينما التقت «إلهام» مع بداية يومها الجديد لتنظم بيتها، أجلست «فارس»، في عربته، وأوثقته، ووضعت أمامه أرنبه، وألعابه، وانشغلت بمهمات بيتها.

واندمج «فارس» مع ألعابه.. حين رن جرس الهاتف، فأفزعه، وبكى.

أسرعت إليه أمه، وحملته، وتناولت سماعة الهاتف.. ثم ما لبثت أن انشغلت عن «فارس» بالحديث التليفوني:

ـ أهلاً سعاد.. والله البارح رجعت البيت بعد أن عاد خالد.

ـ تعرفي.. انشغلت عند أمي، ونسيت أكلمك، هو موعد البروفة. عند الخياط متى؟

ـ ....

ـ إن شاء الله يطلع فستانك وفستاني أحسن من فستانها، ياباي عليها.. مغرورة ومقنزحة.. تصوري الفستان اللي كانت لابسته في السهرة الأخيرة

قبل شهر، كانت تقول إنها اشترته من باريس، وبعدين نزلت السوق مرة، ولقيت فستان طبق الأصل منه، وقيمته يا ستي ألف ريال، جاهز. . لكن لما تاخده قماش وتخيطه يكلفها أقل!

ـ . . . .

ـ إيوه صحيح. . الخياطين ما عليهم رقابة، وكل يوم يرفعوا أسعارهم، بس تعرفي بصراحة إحنا اللي بنطمعهم فينا. . يعني لما الخياط يقول: أخيط الفستان بألف ما نعارض، والله إحنا فلوسنا عرق جبين ما هي حجارة!

طالت المحادثة. . أكثر من ساعة، وفي أثناء هذا الوقت الطويل، تسلل «فارس» من جديد إلى المطبخ، وأخذ يحاول أن يفتح الثلاجة، حتى نجح، وبدأ في تفريغ ما خف حمله، وقذف به إلى الأرض، وسكب زجاجة ماء، وعلبة لبن، وأصرَّ أن يسحب إليه صحناً مليئاً بـ «الكرميلا» وسكبه على ملابسه، وفوق الأرض، وأدخل أصابعه في كل ما انسكب محاولاً أن يأكل ويتذوق.

صحت «إلهام» من الدردشة الهاتفية على صوت صحن «الكرميلا» وهو يرتطم بالأرض، ويتحطم. . وأسرعت إلى المطبخ، وهي تضع يديها على رأسها مغتاظة ومتوترة:

ـ عملت إيه يا جني. . يا توم وجيري مع بعض. . أنت إيه؟!

بحثت عن الممسحة، وأخذت تنظف. خافت أن يكون الصحن المكسور قد جرحه من جديد. حملت بقاياه إلى كيس الزبالة، وهناك اكتشفت أن «فارس» قد ألقى بداخله مجموعة من الملاعق وبعض العلب التي كانت في متناول يده!

كان لابد أن تستقبل «خالد» حين عودته من العمل عدة موشحات بصوت زوجته، فجاءه صوتها مع صوت الباب وهو يفتح:

ـ تعال انقذني.. أنا خلاص ما عدت أحتمل.

ـ حصل إيه.. إهدئي علشان أفهم!

ـ تفهم إيه.. كل ما أقول لازم خادمة، ترد بالمماطلة، أقطّع نفسي يعني.. أعمل ست بيت، ودادة، وخادمة، وطباخة، وغسالة؟!

ـ إهدئي في الأول، واحكي لي حصل إيه؟

ـ حصلت كوارث.. فتح المحفوظ ابنك الثلاجة، وعمل غارة ولا إسرائيل!

ـ وأنتِ كنت فين؟!

ـ ها.. كنت مكان ما كنت.

ـ يعني إيه.. رحت الحمام؟

ـ لأ.. هيا كلها خمس دقائق كلمتني فيها سعاد، وبس...

ـ خمس دقائق، والا ساعة وخمس دقائق؟!

ـ يعني أنا ناقصاك.. ما اتكلم بالتليفون، انقطع عن الناس.. انعزل؟!

ـ لأ.. إنما المفروض دا طفل، ويده عمياء زي ما بيقولوا. كيف تتركيه، حتى ولا تشعري بغيابه عن الغرفة؟.. لازم كان حديث مهم؟!

ـ يوه.. لقيت لك حجة يعني؟

ـ يعني «فارس» غلطان، وإنت صح؟!

ـ دافع عن ابنك. . خلاص كلامي كله غلط. غيِّر الموضوع حتى ما نتكلم عن الخادمة!

ـ والله طلبت تأشيرة، ولما تجي. . أروح بنفسي وأختار لك خادمة، حتى لو طلبتيها من واق الواق. . خلاص، ليه نتخانق كل يوم؟!

ـ قول لنفسك. . ارحمني قليلاً لو كنت تحبني.

ـ أحبك. . أموت فيك، إنما ما أحب توترك وعصبيتك، ومغالطاتك!

ـ أمري ليه. . جبت معاك خبز؟!

ـ يوه. . والله نسيت في زحمة العمل، وحرصي أني أرجع في موعدي. أروح أشتري!!

ـ أنت كده. . بسيطة، عندي في الثلاجة، نحميه وناكل.

ـ أنت زوجة عظيمة.

ـ وأنت بكَّاش!

ـ بكَّاش حاف كده؟!

ـ بكَّاش. . . وحبيبي

* * *

الشكل الأول!

* ارتدى «خالد» ملابسه في وقت مبكر عن موعد عمله. كانت الساعة لم تتجاوز السابعة صباحاً. وزوجته لم تزل تختفي تحت الغطاء فوق سريرهما.. فلم تتعود منه أن يستيقظ قبل الساعة الثامنة صباحاً، بعدها يتناول إفطاره، ويتجه إلى عمله في حوالي التاسعة. فكر أن يوقظ «إلهام» لتحضر له الإفطار، وتردد قليلاً.. ثم كتب لها ورقة صغيرة وضعها بجانب رأسها على الطاولة:

ـ «خرجت مبكراً فلا تقلقي.. إلى اللقاء»!

حين أفاقت «الهام» من نومها لم تجد زوجها. اندهشت.. فهو لا يستيقظ في العادة إلا في الثامنة، وتمارس معه كل النداءات، والتربيت على كتفه، والاحتجاج على كثرة نومه، وعلى ثقل نومه.. فلا يستيقظ حتى ينفد صبرها، ويضطرها أحياناً أن تزأر، وأن تتوعده بتركه نائماً حتى يفوت عليه موعد حضوره للعمل.

ـ ولكن... أين ذهب هذا الرجل منذ هذا الصباح الباكر؟! تساءلت ولم تجد الإجابة.. وبعد أن أفاقت جيداً، وخرجت من الحمام.. لفتت انتباهها تلك الورقة الصغيرة التي تركها لها. تطلعت إلى الساعة. اكتشفت أنها نامت هذا الصباح أكثر من المعتاد.. فبرغم معاناتها وسهرها مع ابنهما

«فارس» إلا أنها تحرص أن تستيقظ من نومها قبل زوجها لتجهز له الإفطار، ولتقوم بالمهمة الصعبة معه كل يوم، وهي مهمة انتزاعه من الاستغراق في النوم إنه يقول لها دائماً:

ـ الله. . ما أجمل النوم في الساعات الأولى من الصباح. . إنه مريح، ومطرز بالأحلام الجميلة!

كانت تسخر منه في كل مرة، وترد عليه:

ـ طبعاً. . تسهر إلى ما بعد منتصف الليل، وتحلم في النهار، والصباح المبكر عندك يا أستاذ يوافق كده يعني الساعة الثامنة، وأحياناً التاسعة، بعد ما تكون الشمس سخنت، وأنا معاها!

ابتسمت «إلهام». . فمثل هذه «البهارات» في عش الزوجية تجعل الحياة «حادقة»!

ـ ولكن أين ذهب في هذا الصباح، ومتى استيقظ، وكيف. . وما هي حكاية «لا تقلقي»؟!

أعادت السؤال على نفسها، ورأت الساعة قد شارفت على التاسعة والنصف.

طرأت عليها فكرة. . وتناولت سماعة الهاتف، وطلبت «خالد» في مكتبه. أخبروها أنه حضر، وبقي ساعة في العمل، ثم خرج!

ـ عجيب. . وأين ذهب، ولماذا. . إنه لم يخبرني في الليل بشيء؟!

حدثت نفسها بهذه الحيرة. وحاولت أن تجيب:

ـ الرجال لا يقولون لزوجاتهم كل شيء.. لأن تفسيرات الزوجات فوق الحدث!

ابتسمت ثانية وهي تتذكر هذه العبارة.. لقد قالها لها «خالد» ذات ليلة، وهو يمازحها، وهي كانت تصر عليه أن يخبرها بكل شيء يفعله وسيفعله، لأنها شريكة حياته وتخاف عليه!

يومها.. قال لها متخابثاً:

ـ هل تشعرين بالشك فيَّ؟!

ـ أجابته: لا أشك فيك، لأني أثق في حبك لي.. فقط أخاف عليك!

تخاف عليه فعلاً.. أم تراها لا تستطيع أن تتخلص من طبيعة المرأة في الغيرة على زوجها؟!

وتناهى إليها صوت «فارس» يبكي. توقيت جيد.. لعلها تنشغل بولدها عن هواجسها.

وأسرعت إلى ولدها. أدخلته الحمام وأبدلت له ملابسه. أحضرت له طعامه وجلست تؤكله.

ـ لن أطبخ اليوم.. لدينا في الثلاجة خضار.. سأطبخ الرز في الظهر قبل حضور «خالد».

أقنعت نفسها بذلك، ولكن سؤالها عن «خالد» لم يغب عن ذاكرتها.

ـ لعله ذهب في عمل للشركة. دائماً هو يخرج وينهي عملاً لشركته في شركات وإدارات أخرى.. صحيح، ولكنه خرج مبكراً، ولم يتناول إفطاره.. لماذا، وأين ذهب؟!

ما زالت تحدث نفسها. تطلعت إلى الساعة من جديد. . كانت قد بلغت الثانية عشرة.

ـ لو عاد. . كان قد اتصل، فمن المؤكد أنهم أخبروه. وليه من المؤكد. . يمكن لم يخبره أحد. هل أعيد الاتصال به؟!

استفتت نفسها. . ولكنه يقول لها دائماً:

ـ أرجوك لا تتصلي بي في العمل إلا للضروري. . . إنني مشغول، فلا تحرجيني ولا تعطليني!

ـ قالت لنفسها: ولكني أنا الآن منشغلة عليه. . ألا يعرف خوفي عليه؟

وأدارت قرص الهاتف، وطلبت زوجها. سمعت صوته هذه المرة، وهو يردد: آلو. . آلو. وكأنها وجمت في تلك اللحظة، وأعادت سماعة الهاتف إلى مكانها. . ولكن السؤال تفرع إلى عدة أسئلة:

ـ متى عاد، وأين كان، ولماذا لم يتصل بي، ولماذا لم يكتب لي في الورقة وجهته؟!

ولم تستطع أن تقوم بأعمالها في البيت. . كانت بين لحظة وأخرى تهم بأن تطلب زوجها، ثم تتراجع.

ـ ما هي الحكاية يا «إلهام». . حب هذا، والا عشق. أم هو خوف فقط، أم شك؟!

ولم تجد إجابة عند نفسها. واتجهت إلى المطبخ لتجهز طعام الغداء.

* * *

شارفت الساعة على الثالثة بعد الظهر، و«خالد» لم يعد إلى بيته. نظرت

إلى «فارس» ابنهما، وكان يجلس على الأرض وهو يمد ساقيه بشكل منفرج ويحتوي مجموعة من ألعابه، وبين فترة وأخرى يتطلع إليها كأنه يتساءل، وهو يردد: بابا.. بابا!

ـ قالت له: بابا في الطريق.. طبعاً اتأخر عن العمل في الصباح، ولازم يكمل عمله على حسابنا!

وسمعت باب «الشقة» يفتح، ورمى «فارس» بلعبه، وقام يتطوح وهو ينادي:

ـ بابا.. بابا!

ـ قالت له وهو يطالعها بوجهه: حمد الله على السلامة.. بدري، كان لازم نتعشى بدل ما نتغدى!

ابتسم في وجهها، واتجه إلى غرفة نومه ليبدل ملابسه، وهي تمشي خلفه متحفزة!

ـ قال لها وهو يبدل ملابسه: بدك نتغدى أكل.. والا نتغدى خصام؟!

ـ شوف إنت بدك إيه.. خارج من الفجر من غير ما أعرف أنت رحت فين، وراجع لعملك بعد منتصف النهار، وداخل بيتك في وقت العصر!

ـ يعني كنت فين.. عند الزوجة الثانية في ظنك؟!

ـ ولا ظن ولا حاجة.. بلاش أقلق عليك.

ـ شكراً يا حبيبتي.. نتغدى والا لأ؟

ـ نتغدى.. إنما الأكل بايت. الله يجازيك، ربَّطت عزيمتي كلها.

ـ لما أقول لك الخبر راح تفرحي.

ـ خبر؟!. . خبر إيه؟!

ـ على مائدة الطعام البايت. . يصير فيه تعادلية: أكل بايت، وخبر طازج.

ـ ما نخلص من سخريتك أبداً. . هادا الرز جديد وطازج. . كل.

ـ وأنت. . مالك نفس؟!

ـ ما هو ما راح آكل حتى تقول لي فين كنت؟!

ـ كنت هناك.

ـ هناك فين. . لغز؟!

ـ هناك. . انفِّذ أوامرك.

ـ أوامري أنا؟!

ـ نعم. . رحت ياستي إلى مكتب الاستقدام، وقدمت طلب باستقدام خادمة. . تريحك، وتهنيك، وتخليكي تلتفتي شوية لزوجك، وتبطلي زن كل صباح ومساء!

ـ صح يا حبيبي؟!

ـ حبيبك؟!. . خلاص وجهك انفرد، والابتسامة رجعت، وحصلت المساواة بينك وبين أختك وجارتك. . ما فيش حد أحسن من حد. . كله عنده خادمة!

ـ يا حبيبي. . أنا عارفه إني ما أهون عليك. . ها، قل لي. . متى موعد حضورها؟!

ـ أبلعي ريقك. . إيه، صاروخ؟. . لما تروح الأوراق، وينظروا في

أحقيتنا للطلب، وتتحول إلى وزارة الخارجية، وبعدين للسفارة في أندونيسيا.

ـ ياه.. مشوار طويل. أنا عندي زواج واحدة صاحبتي بعد شهر، والخادمة مفيدة هنا علشان تهتم بابننا «فارس» تشيله، وتنتبه له.

ـ حيلك.. الطلبات كثيرة. وحتى ما تزعلي وتخليني أكمل أكل.. أوعدك إني أخلي «فارس» عندي وتروحي إنت الزواج.. أصل أهل صاحبتك ما هم أصحابي.

ـ والله أحبك.. إنت عظيم!

ـ عظيم لمدة دقايق.. وبعدين؟!

ـ يا خالد.. يا حبيبي، أنا بس قلقت عليك، وإنت يا مسكين رحت تعمل طلب استقدام للخادمة علشاني؟!

ـ حتى تشوفي.. فين «فارس» وحشني اليوم جداً. تصوري ما بسته في الصباح وأنا خارج!

* * *

استيقظ «خالد» من إغفاءته التي تعود عليها بعد الظهر. تمطَّى، وترك سريره، وهو ينادى على زوجته:

ـ الشاي يا إلهام.. أنا صحيت!

وجاءه «فارس» يشده من يده، ويشير بأصبعه الصغير إلى التليفزيون، وهو يردد:

ـ سمسم.. سمسم!

ضحك «خالد» وقام معه يفتح له جهاز التليفزيون، وهو يقول له:

ـ عاجبك، «افتح يا سمسم»؟!

ـ قال فارس ضاحكاً وهو يطوح بيديه ويصفق: سمسم . . سمسم .

«فارس» تستهويه مقدمة هذا البرنامج . . يحدق في الأطفال وهم يتقافزون ويرقصون، ويرددون: افتح . . ياسمسم، ويحاول أن يقلدهم بقدراته المحدودة . . يحاول أن يتقافز، ويغني، فيسقط!

ولكن «فارس» لا يلبث أن يمل . . تعجبه شخصية «نعمان» و «أنيس وبدر» . . ثم يذهب إلى جهاز التليفزيون، ويصر أن يعبث بمفاتيحه وأزرته، ويغير القنوات . . حتى تمسك به أمه، وتجلسه بجانب أبيه، وهو ما زال يردد: سمسم . . سمسم، كأنه لا يريد إلا المقدمة لهذا البرنامج!

في المساء تعنى أمه بعشائه، وإبدال ملابسه، وتهيّئه للنوم، و«فارس» يقاوم رغبة أمه . . إنه يريد أن يجلس بجانب أبيه حين مشاهدة المسلسل اليومي .

ـ قال خالد: شفتي . . جيل آخر زمن . . جيل تلفزيونجي . تلاقيه فاهم أحسن منا!

ويعيد «فارس» حركات يديه، ويصفق ضاحكاً . . ثم يستقر في حضن أبيه، وما يلبث النوم أن يسرقه . . لتبدأ سهرة الكبار: أمه ووالده!!

* * *

العصفور المراهق!

* الخطوات الأولى في عمر «فارس».. بدأها في شهره الثامن، والأسرة من حوله تنظر إليه في إعجاب!

«جدته» ـ أم والده ـ تأخذه إلى حضنها، و «تحصّنه».. تقرأ عليه آيات من القرآن الكريم، وتنفخ في شعر رأسه، تلتفت إلى «خالد وإلهام» محذرة، وهي تقول:

ـ أوصيكم.. لا أحد يعرف أن «فارس» باسم الله عليه، مشى في شهره الثامن، حتى لا يحسدوه!

تضحك «إلهام» من فزع حماتها، وتجيبها في صيغة تساؤل:

ـ وليه ما يكون «فارس» طبيعي يا ماما.. بياكل وبيتغذى بشكل جيد؟ وهناك أطفال بيمشوا في الشهر الثامن بالفعل؟!

لكن حماتها لم تهضم هذا الرد. أرادت أن تحاور، وتؤكد وجود الحسد والخوف من العين:

ـ لكن الناس يا بنتي عيونهم فارغة. تعرفي جارتنا «أم نعيم».. قاست يا حسرة من العين. ولدها الطفل مشى من بدري، وكان شكله حلو.. أبيض، ومتختخ، وعيونه ملونة، وإيه؟.. حدق ما شاء الله عليه!

ـ سألتها إلهام: خير. . حصل إيه؟!

ـ جابوا خبره. . عيون ما تصلي على النبي يا بنتي. . وعنها، تشوفي هذا الطفل البريء وهو يتلوى من المغص، وبعدين صار يتألم من آلام في مفاصله. . تصوروا طفل يشتكي من المفاصل؟!

تدخل «خالد» في الحوار. لم يحتمل، فقال لأمه:

ـ هذا الألم ليس من العين. . يمكن شلل أطفال، ويمكن جهاز التكييف بارد جداً ولا يحتمله طفل، ويمكن ما أعطوا فرصة للطفل يجري ويلعب. . يعني أسباب متعلقة بالمرض، أو بالرفاهية والتدليل!

ـ ردت على ابنها: رفاهية إيه اللي طالعين لنا بها؟ دي عين ما تصلي على النبي، وعلى فكرة. . أنا كدة بصراحة ما أرتاح من جارتكم. ما نزلت لي من زور. . دي ما جابت أطفال في حياتها، ولازم تكون عينها واحدة بواحدة!

ـ قالت إلهام: يعني يا ماما راح نخبي «فارس» فين؟. . ما هو لازم يمشي ويجري والناس تشوفه!

وانفلت «فارس» من حجر جدته، وأخذ يمشي، ويسقط، ويقف ويصفق بيديه!

كان «فارس» مرحاً، مبتسماً. . تبدر منه حركات متعجلة، ويحاول أن يقفز كأنه يقلد الأطفال في التلفاز، وتصرخ جدته هلعاً:

ـ باسم الله على ولدي. . تاتي خطوة خطوة. . تاتي عدِّي العتبة!

ويضحك «خالد وإلهام» وهما يقولان للجدة:

ـ ما هو بيمشي.. تاتي دي خلصنا منها.

ـ ترد: هس.. لازم ما تقولوا كده!

ويتنقل «فارس» داخل الغرفة ليثبت لهم قدرته على المشي.. وفي تنقلاته تمتد يداه إلى أثاث وأشياء الغرفة.. تارة يحاول الإمساك بفازة فتصرخ أصواتهم: لا. وتعبث يده بسماعة الهاتف ويسحبها إليه ليسقط الجهاز على الأرض. وتصرخ أمه مؤنبة له:

ـ يا ولد إهمد.. إنت طالع عفريت من بدري!

ـ ترد عليها حماتها التي تقتنص كل كلمة: الله أكبر على عينك يا شيخة.. ما يحسد المال إلا أصحابه، لاتعقّدي الولد!

ـ قالت إلهام: إنه يبحث عن العصفور.

ـ سألها خالد: عصفور إيه؟!

ـ أجابت: عصفور ملون.. ما أدري من فين بيجينا.. كل يوم في الصباح يوقف على سياج البلكونة ويزقزق، و«فارس» ينبسط، ويحاول يجري إلى البلكونة حتى يمسك به.

ـ قال خالد: بسيطة، وليه ما اتكلمت من بدري؟ بكره أشتري له عصفور ملون.. تعرفي؟ الطفل يتمنى إنه يمسك العصفور علشان يشوف كيف يقدر يطير، وكيف يزقزق.

ـ قالت إلهام متخابثة: والكبار.. ليه يمسكوا العصافير؟!

ـ الكبار يفكروا في المكان اللي حط عليه العصفور، ويتساءلوا: ليه الإنسان ما يقدر يمتلك المكان اللي يريده؟!

ـ فلسفة دي. . والا «فضفضة»؟!

ـ خليط. . الأطفال أيضاً بيصعدوا إلى أسطحة العمائر ويشوفوا العصافير والطيور، لكن الكبار يمتنعوا عن هذا الفعل

ـ ليه يا مفلسف كل حاجة؟!

ـ يمكن. . علشان لا توجه إلى الكبار تهمة الرؤية من فوق!

ـ قالت أمه بعد متابعتها للحوار: والله ماني فاهمة حاجة من اللي بتقولوه. . عن إذنكم أرجع لبيتي قبل ما يرجع أب إلهام!

* * *

في المساء. . كان «فارس» يلعب بجانب والده، ويعبث كعادته بكل ما تصل إليه يده!

حاول «خالد» أن يمنعه، ونهرته «إلهام» عن تحطيم الأثاث. . دون جدوى! و «فارس» يضحك، ويستمر في ممارسة أجمل عمل لمن كان في سنه. وفجأة. . امتدت يد «فارس» إلى مجلة وضعها والده بجانبه لقراءتها، وتناول «فارس» المجلة بيديه في غفلة من أبويه، وأخذ يمزق صفحاتها. . بينما «خالد وإلهام» يتابعان أحداث مسلسل التلفاز، فلم يشعرا بما كان يفعله. . ولعلهما كانا في غبطة، لأن هذا الطفل العفريت قد تلهى بشيء شغله عن الحركة والعبث.

وبعد أن نفذ فارس، تمزيق صفحات المجلة. . أخذ ينثر قصاصاتها على أبيه!

وتنبها في هذه اللحظة. اغتاظ «خالد» لأنه لم يقرأ حرفاً من المجلة، ودفع قيمتها سبعة ريالات!

وأمسك بيد ابنه الصغيرة، وضربه عليها. بكى «فارس» واحتجت «إلهام» غاضبة من زوجها ومنفعلة:

ـ إنه طفل لا يفهم.. مين العاقل اللي يحط مجلة في متناول طفل؟ هذا جزاء من يهمل أشياءه!

كادت تنشب معركة كلامية بين الزوجين.. بينما «فارس» قد كف عن البكاء وجلس يتفرج على خصام أبويه مندهشاً!

غير أنه لم يواصل تلك الفرجة، بل عاد إلى المجلة، مقتنصاً فرصة خصامهما وواصل تمزيق صفحاتها.

ونظر «خالد» بعد أن هدأت زوجته، ووجد كومة من القصاصات. كان قد نفث غضبه، وانفجر بعد ذلك ضاحكاً. و«فارس» يتطلع إلى وجه أبيه، ثم ما لبث أن شاركه الضحك.

ـ سأل خالد زوجته: هل تعتقدين أن الولد عدواني؟!

ـ أجابت: بالعكس.. إنه من أنصار السلام. كل طفل هو من أنصار السلام.

ـ قال: ولكن.. كيف يكون من أنصار السلام، وهو يحطم ويمزق كل شيء؟!

ـ قالت: الطفل فضولي بطبعه، ثم هو عمل إيه؟.. مزق مجلة، لو

قرأتها فلا بد أن يرتفع الضغط عندك من أهوال الكلام في السياسة والحروب والمجاعة وتشريد الأطفال، ومن قراءة الكوارث والفجائع!

ـ قال: يا ساتر عليك. . إنما هناك أشياء جميلة أخرى في المجلة: الأدب والفن ومعرفة الحياة، والتاريخ، يعني بنستفيد، ثم إنه هذا عالمنا وعصرنا، ومن الضروري نعرف ما يجري حولنا!

ـ قالت: المهم أنه أراحك من المنغصات، ولعله شاهد صورة شامير فانفعل ومزق المجلة!

ـ قال: لكنه لا يعرف حتى الآن من هو شامير أو بيغن، أو أي طاغية آخر!

ـ قالت: الإحساس يا حبيبي، وتضامن الطفل مع طفل آخر قتله واحد من الطغاة. . ملامح المجرم تنعكس من بواطن الشخصية، وتتضح بالإحساس!

ـ قال ضاحكاً: تحليل. . ما شاء الله عليك!

ـ قالت: لا تسخر كعادتك. . أتمنى أن لا يرى أطفالنا وجوه ساسة العالم، حتى لا يسقطوا في الخوف في سن مبكرة. . كفاية الكبار بيخافوا!

ـ قال: أنا عكسك. . لا بد أن يعرف أطفالنا وجوه أعدائهم، حتى لا يخافوا منهم لما يكبروا، ويتضخم الهلع، أو ينزرع الجبن!

ـ قالت: لكن مشكلتنا ما هي في الخوف، ولكني أعتقد إنها في الضعف وفي الخلافات.

ـ قال: خرجنا من الموضوع، و «فارس» نام. الآن لا بد أن نناقش أسلوب توعية أطفالنا.. فكيف ننجح؟!

ـ قالت ساخرة: بالكرتون.. أفلام الكرتون بتعلمهم العنف!

ـ قال: وتعلمهم أيضاً القدرة على استخدام الخيال لو أحسنا اختيار المادة، وفي هذا تفتيق لمداركهم.

ـ قالت: تفتيق.. صح! يا حبيبي أنا دارسة علم نفس واجتماع وقارئة في كتب التربية.

ـ قاطعها: ما هو أنا عارف إنك مثقفة!

ـ قالت: استمر في سخريتك، لكني أبحث عن إيصال التخيل اللي تتجسد فيه ومنه توقعات المستقبل بالنسبة للطفل القادم إلى هموم الحياة ومشكلاتها. لكن.. هادا الخيال يضخم الفزع بالطريقة اللي بيوصلوا الخيال أو التخيل عن طريقها، ويضخم الخوف والعنف.

ـ قال: وإذن.. ماذا نقدم لأطفالنا.. ما هو دا هو واقع عمرنا؟!

ـ قالت: بتتكلم بالفصحى أيها المحاضر، وجوابي عن سؤالك: بلى!

ـ قال ضاحكاً: بلى.. بالفصحى، والا بالعامية؟!

ـ قالت: بالاتنين، وراح تلاقي «فارس» لما يكمل عامه الأول، يضطرك أن تشتري له دبابة، أو مدفع رشاش، أو مسدس، لأنه ـ بكل أسف ـ الطفل أصبح يعتقد أن العالم غابة، وأن الحرب شاملة، وأن القوة والعدوان والتفوق.. أشياء موجودة في العنف وبس!

ـ قال يناكفها: جميل.. وزعلانة ليه؟ لازم يعرف طبيعة عصره حتى

يقدر يدافع عن نفسه، وعن حقوقه. . فلا يأكله من هو أقوى منه!

ـ قالت: حلو. . إنه منطق الغاب، أو على رأيك: منطق العصر، إنما. . بجانب كده، لازم نزرع في نفوس أطفالنا الحب والخير والتسامح والأمل.

تثاءب «خالد» وهو ينظر إلى وجه زوجته المنفعل، و«فارس» يوسِّد رأسه فوق فخذه، ويغط في نومه. وتنبهت «إلهام» واعتذرت أنها انفعلت. قالت لزوجها:

ـ آسفة. . النقاش مثير، ومتعب!

ـ بالعكس. . . كلامك حفزني أن أقدم للمستقبل رجالاً. تعرفي ليه؟. . لأن «فارس» وحده لا يكفي. . نفسي في مجموعة فرسان!

ضحكت. . وانحنت على «فارس» تحمله إلى سريره، وهي تقول لزوجها:

ـ نام فارس وارتحنا من عفرتته، وبقيت أنت العفريت الأكبر!

ـ أنا. . ليه؟!

ـ لا تزعل. . إنت العصفور المراهق!!

* * *

دموع فارس!

* للمرة الثانية يتركها «خالد» وحدها ويسافر بعيداً عنها!

كانت المرة الأولى عندما انتدبت الشركة زوجها لإنهاء بعض الأعمال في «الرياض»، ولم تكن المسافة بعيدة بين الرياض و «جدة».. وعاد «خالد» إليها بعد. أيام لم تطل، ولكنها عانت فيها من الفراغ والشوق لزوجها، كما عانت أيضاً من مسؤوليتها وحدها عن طفلهما «فارس»!

هذه المرة أخبرها «خالد» أنه سيسافر إلى «باريس» في مهمة.. وحاولت أن تقنعه باصطحابه لها ومعهما «فارس»، غير أنه رفض هذا الطلب، متذرعاً بأن المهمة لا تستغرق وقتاً طويلاً، بل هو سينجز عمله في أقل من أسبوع، ويعود.. والتليفون بينهما يقرب المسافة ويمتص الشوق بعد أن أصبحت الخدمات الهاتفية ميسرة!

وجلست تتذكر شهر العسل.. يومها لم يستطع «خالد» أن يخرج بعروسه «إلهام» من حدود بلدهما، فالتذكرة مرتفعة السعر إلى أوروبا، وإمكاناته المادية محدودة. وقنعت أن يمضيا شهر العسل في داخل بلدهما، وكانت سعيدة، طالما أن «خالد» بجانبها.

وأثارت فكرة سفر زوجها غيرتها من جديد:

ـ كيف سيكون وحده في باريس طوال أسبوع. . إنه في لهب الفتنة!؟

ولكنها ترجع إلى صوابها مرة أخرى، وتقول:

ـ لا. . أعرف أن «خالد» يحبني كثيراً، وهو شاب مستقيم، ولو لم يقرر الاستقامة. . لما أقدم على الزواج!

ابتسمت لهذا الإقناع الداخلي منها وإليها. . ولكنه إقناع مذبذب، ما يلبث أن يهتز بين لحظة وأخرى. . وجلست وحدها تبكي!

تذكرت كيف كانت أيام زواجهما الأولى. . وكيف فاضت السعادة من حفافي نفسها!

كانت تفكر أيضاً في طفلهما «فارس»، ومدى حب والده له، وتعلقه به. صحيح. . ولكن «خالد» يذعن لواجب العمل والمسؤولية، وهو يطمح أن يصبح مسؤولاً كبيراً في الشركة، ويتطلع إلى تنمية موارد عيشهم داخل هذا العش الصغير، ولابد أن من واجبات الزوجة: إعانة الزوج والوقوف بجانبه لتحقيق طموحه.

وكانت تسترجع أحلامها القديمة، وتتوقف عند اليوم الأول الذي ولد فيه طفلهما «فارس»، وفكرتها عن قدوم الطفل الأول الذي يمثل في حياة كل زوجين تثبيت الرباط المقدس بينهما!

إن ولادة الطفل الأول ستعطي حياتهما ذلك المعنى الحقيقي والجميل لتعميق روابط هذه الأسرة الصغيرة التي تكبر مع الأيام! ولكنها ـ أيضاً ـ اكتشفت أن مشكلات صغيرة بدأت تولد مع ميلاد الطفل، وكل خوفها أن تكبر تلك المشكلات، وأن تتضخم!

ومن الملاحظات. التي اكتشفتها «إلهام» بعد مرور عام على زواجهما

ودخولهما في العام الثاني: أن زوجها «خالد» انفعالي، كثير الغضب في بعض الأوقات، وللحق فإنها لا تظلمه.. فهو عندما يكون هادئاً يبدو مريحاً، وودوداً جداً.. لكنه لا يتحكم. في أعصابه حينما ينفعل!

ومنذ اكتشفت هذه الصفة فيه، وهي تحاول أن تعالجها تارة، وتحاول أن تمنعها تارة أخرى، برغم أنها لا تقل عنه عصبية، وهذه النقطة قرأت عنها.. فالمطلوب أن تأتي زوجة هادئة للرجل العصبي، وبالعكس، وقراءاتها دلتها أيضاً إلى وقفة أخرى.. فإذا كان الحب موجوداً بين الزوجين، فلا بد أن يحتمل الطرفان تجاوزات كل طرف منهما!

* * *

وعاد «خالد» من عمله، ولاحظت أنه لم يحادثها كثيراً. تناول طعامه، واختفى في غرفة النوم ليرتاح، وكأنه يعلن عن قطيعة بينهما!

وعانت من الدهشة أمام تصرف زوجها.. خاصة وأنه سيسافر في فجر اليوم التالي!

وحاولت أن تغفو بعد الغداء في وقت القيلولة.. لكنها لم تستطع، لأنها كانت متوترة، وحزينة.. فهي لم تغضبه في الليلة السابقة وهو يخبرها عن رحلته إلى باريس.. ربما غضب من كلمة قالتها له حينذاك:

ـ بدأت أسفارك، وتتركنا وحدنا.. فخذني وفارس معك!

وتركت دمعة ساخنة تفر من حدقتيها، ولكنها تحتار.. لا تدري إن ـ كانت تبكي على فراقها له بضعة أيام، أو أنها تبكي حين رفض اصطحابها وابنهما فارس، أو تبكي لجهامته التي عاد بها من العمل، كأنه يشعرها بتأثره واحتجاجه على حوارها في الليلة السابقة عن سفره.

وتركت سريرها. . لم تتمكن من الإغفاءة، بينما «خالد» يغط في نومه كما تعود بعد الغداء من كل يوم، ووعدت نفسها أن تصالحه عندما يستيقظ برغم كثافة حزنها على سفره. وقامت إلى ابنهما «فارس» وبدلت له ملابسه، وعطرته، وبدا الطفل كما وردة متفتحة. . يضحك وهو لا يعي ما يدور حوله.

وعندما استيقظ «خالد» من نومه، حملت إليه «فارس» ووضعته في حجره لتكسر حدة الجفوة بينهما. . وابتسمت في وجه زوجها، وفي ابتسامتها دعوة للصلح إن كان غاضباً أو عاتباً!

ولكن «خالد» ألقى بابنه على الأرض، وقال وهو يطوح بيديه:

ـ هيا شيلي ابنك من هنا!

إنسابت الدموع من عينيها، وهي لا تعرف سر هذه الحدة. ثم قالت له:

ـ لو يعرف هادا الطفل إنت عملت فيه إيه. . ما كان غفر لك أبداً! ولم يجبها. . بل أخلد إلى الصمت، وقسمات وجهه متوترة.

ـ أردفت تقول له: أحياناً. أحس أنه ابني لوحدي.

ـ يا ستي خديه. . اشبعي بيه، من يوم ما جاء وحياتي انقلبت. . لا نظام، لا راحة، لا اهتمام بي ولا إنت حاسة بزوجك.

ـ ليه؟ عمرك جيت ولقيت البيت ما هو نظيف؟

ـ وفي رأيك. . إن الاهتمام ينحصر في نظافة البيت فقط، أو في المطبخ؟!

ـ هل جيت مرة ولقيت ولدك مهمل ووسخ؟

ـ (ساخراً): لأ طبعاً.. وهل دا يحصل للأستاذ فارس؟

ـ خالد؟!.. إنت بتكره ولدك؟

ـ أيضاً لأ.. إنما أكره الإهمال للزوج على حساب الطفل.

ـ وحتى معاك.. أنا ما قصرت في واجباتي ـ.. إيه اللي ما هو عاجبك؟!

ـ ولا حاجة.. فضيها سيرة، وخليكي كده مهتمة بفارس وحده، إنما أبوه.. إلى أم عمرو!

ـ تنسى ضحكاتنا لما نكون صافين.. إنت مالك، متضايق من حاجة؟ إن كان علشان رحلتك لباريس، خلاص يا سيدي.. سافر وأنا أجلس، ما هي مشكلة تعمل منها قضية وتسافر زعلان.. حجة يعني!

ـ أف.. الحياة. صارت تقرف.. مشكلات في الشغل، وفي البيت، و... فوق كده، حضرتك. مشغولة عني.. إما بتبدلي ملابس الولد، أو بتحمميه، أو بتطبخي، أو بتكنسي، أو... بترغي في التليفون!

ـ الحمد لله إنت قلتها.. يعني مشغولة على طول، وبالرغم من كده، لما أشوفك متضايق أسألك، وأحاول أخفف عنك، والتليفون ما هو مشكلة.. إن كان مضايقك أقطعه وخلصني!

ـ طبعاً.. صرت إنت مظلومة، وأنا الظالم!

ـ ما أقصد.. لكن إنت لما تكون متضايق وأسألك.. ما تكلف نفسك حتى ترد علي!

ـ أكون زهقان من الكلام في الشغل.. أبحث عن الراحة في البيت!

ـ وكمان لا تنسى إني طول النهار لوحدي بين أربعة جدران، ما أصدق إنك ترجع علشان أتكلم معاك!

ـ والله أنا طبعي كده!

ـ لأ. . إنت أناني ما تحب إلا نفسك. . وما كان لازم تتزوج إذا ما تقدر تتحمل مسؤولية زوجة وأطفال!

ـ إيه الكلام هادا. . إنت اتجننتي؟!

. ـ لأ. . إنما ما عدت احتمل مزاجك المتقلب، واحنا فيها إذا أردت الإنفصال

ـ إيه بتقولي يا مجنونة؟!

ـ إنما قبل ما ننفصل. . أحب أقول كلمة لك: أنا كان نفسي في أخت لـ «فارس». . تعرف ليه؟!. . علشان ماله ذنب يعيش وحداني. . بعيد عن أمه أو عن والده. أنت أناني!

ـ إلهام. . يعني لما كون متضايق، دي طريقتك في امتصاص زعلي؟!

ـ أنا احتملت وعندي قدرة محدودة. . وإذا كان بتحبني لازم تقدر كمان ظروفي، وتقدر حبي لك. أنا فعلاً باحبك، لكن ما أقبل كل شوية تفرغ ضيقك فيَّ أنا!

* * *

تركت «إلهام» الغرفة، وحملت ابنها «فارس» ودموعها تغطي وجهها.

دخلت إلى غرفة النوم، وأخذت تعد حقيبة ملابسها، والدموع تعيقها أن تبصر جيداً.

و «فارس» يدور بين قدميها وهو يبكي بصوت عال، كأنه في هذه اللحظة يشعر بخطورة المشكلة، أو يتصور ضياعه لو حدث انفصال حقيقي بين أمه وأبيه.

وأخذ يعبث وهو يبكي بملابس أمه، وكلما وضعت فستاناً في الحقيبة أخرجه، وهي متوترة. ضربته على يده، فازداد صراخه. وبكت «إلهام» وضمت إليها طفلها، وأخذت تمسح على رأسه وتحضنه أكثر ليسكت.

***

تركت ملابسها، وجلست على الأرض تضم «فارس» في حضنها ودموعها لم تجف.

وأطل «خالد» من باب الغرفة، وتسلَّل إلى «إلهام» وفارس دون أن تشعر به زوجته، واحتواها بين ذراعيه وهو يقبل رأسها ووجهها. وفارس قد فاجأته حركة والده.. فأخذ يتطلع إليه، ويمد يده نحو فم والده، وهو يقول: بابا... ماما!

ـ خلاص يا إلهام.. متأسف. كنت متعباً ومتوتراً.

وألقت «إلهام» برأسها على صدر زوجها، وضمته إليه، وقد تدَّفقت دموع أكثر غزارة من عينيها!

***

عروس الولد!

* عاد «خالد» من رحلة باريس. لم يغب عن بيته أكثر من أربعة أيام. . اشتاق فيها لابنه «فارس» ولزوجته. . برغم أنه كان يتصل يومياً بالهاتف.

كان يبتسم وهو داخل الطائرة في طريق عودته. تذكر أيام العزوبية، ورحلاته الكثيرة، وسهراته في لندن وباريس، وعواصم أخرى. . واليوم. يجد نفسه في شعور مختلف. حاول أن ينجز مهمته، ويختصر الأيام، ويعود.

وجَّه اللوم إلى نفسه كثيراً منذ أن وصل «باريس» لأنه قسا على زوجته في «الخناقة» الأخيرة. كان قد فكر في تلك الغضبة ليسافر مخاصماً، وبالخصام يبرر مدة أطول لبقائه في «باريس» وللاستمتاع بالرحلة. . لكنه اكتشف أنه لا يطيق ذلك. . لم يعد ذلك الشاب المنطلق، العابث، المرح. . كلما فكر أن ينطلق ليسهر مع أصدقاء له وجدهم هناك، ما يلبث أن يطالعه وجهان: إلهام، وفارس!

احتد في نفسه ذات ليلة، وهو يحاول الخلاص من هذا التسلُّط.

قال:

ـ وبعدين. . أنا وحدي الآن، ولا بد أن أستمتع.

وفي منتصف السفرة.. ترك المكان، واختفى في فندقه ونام.

ـ عجيب.. هل هو الحب، أم القناعة بما أعطاني الله؟!

ساءل نفسه، ولم ينتظر الإجابة.. فقد كان يشعر بشوق حقيقي لبيته.

* * *

وجاء «فارس» يرمي بجسمه الغض في حضن أبيه، ويمسك بشاربه الكث كأنه يقول له: لقد اشتقت إليك.

ـ جبت لك هدية تجنن.. تعال نفتح الشنطة.

وأصر «فارس» أن يفتح الحقيبة بيده الصغيرة دون جدوى، وهو يقول لأبيه فرحاً:

ـ نوب.. نوب.

ـ قال خالد يسأل زوجته: نوب إيه.. ماني فاهم؟

ـ قالت: يقصد «أرنوب» لعبته.. يمكن منتظر لعبة زيها.

ـ قال خالد: جبت لك لعبة أحلى.. تعال شوف!

وناوله علبة مليئة بالمربعات الملونة. و «فارس» يقهقه، ويقذف بكل مربع إلى جهة من الغرفة.

ـ قالت إلهام: بالله دي لعبة يعرف لها.. دا صغير يا خالد، وعقله محدود!

ـ اللعبة دي تفتق عقله.. لازم يحاول فيها علشان يبني منها بيت، وينجح في تركيبها.

وانشغل «فارس» بالمربعات الملونة، بعد أن حاول والده أن يدله على الطريقة بأسلوب مبسط يتفق واستيعابه.

وتطلع «خالد» إلى زوجته:

ـ أما هديتك يا أم فارس. . أعترف أنها حيرتني.

ـ عجيب. . يعني تفهمني إنك ما عندك خبرة بذوق الستّات؟!

ـ حرصت أن أحضر لك هدية تتفق وجمالك!

ـ إيه دا كله. . دا غزل باريسي طازج!

ـ صدقيني الجمال العربي أحلى. . الوجه العربي معبِّر وجذَّاب.

ـ والجسم الأوروبي؟!

ـ رشيق طبعاً. . بس لو تمشوا يا ستات يا عربيات، لو تعتنوا بالأكل!

ـ وبعدين يا خالد؟!

ـ تعالي شوفي هديتك.

ـ الله. . دا فستان سهرة يجنن، وباين عليه غالي جداً يا خالد. . ليه كده؟

ـ ما يغلى عليكي شيْ. . كفاية إنك نجحت في السيطرة على فكري وأنا مسافر.

ـ بتتكلم جد، والا. . . مجاملة؟

ـ صدقيني. . هناك وأنا وحدي في غرفتي بالفندق، تذكرت أيام الزواج، وشعرت بالحنين لك، واستعدت اللحظات اللي بنتخانق فيها. . ليه

أزعلك، ليه تزعليني، خاصة وأنا أفتكر منظر «فارس» في حضنك وإنت تبكي وهو يصرخ، وأنا مزعلك. معقول نختلف ومعانا الطفل الجميل دا؟

ـ معليش.. المصارين في البطن بتتخانق!!

ـ صحيح.. إنما الرجل يا حبيبتي له حقوق على الزوجة، والزوجة أيضاً لها حقوق على الزوج، مهما كان حب كل واحد منهما لأول العنقود!!

ـ خلاص لا تفكرني.. أصلك لما تزعل تبقى وحش!

ـ أنا؟!.. وإنت لما تركبي أعصابك تبقي هدير!!

ـ طيب.. قل لي إنت تطلب إيه يا ذئب؟!

ـ أنا ذئب.. ليه؟ والله مستقيم، حتى أسألي باريس!!

ـ كل رجل أمام المرأة.. هو ذئب!

ـ قاعدة دي، والا نظرية؟!

ـ قاعدة والاَّ واقفة.. دي طبيعة الرجل!

ـ أختلف معاك. التعميم هنا خطأ، هناك المشاعر اللي بتكون فوق الغرائز، وتكون أسمى منها. يعني الرجل يفرح بكلمة حلوة، بابتسامة، بنظرة تفيض بالحنان، بلمسة يد.

ـ إيه يا خالد «فلنتينو».. سرحت كده مع الغزل، وكأنك طفل.. أنا خلَّفت «فارس» وخلَّفتك كمان والا إيه؟!

ـ الرجل طفل في عواطفه.. كل شيء فيه يكبر: أفكاره، عقله،

مداركه، صلابته، قدرته . . لكن عواطفه تبقى في أعماقه، عواطف طفل . . يحتاج للحنان، وللرعاية، وللكلمة الحلوة، وللمسة رقيقة . . والمرأة بالنسبة للرجل هي وحدها التي تمنح كل ذلك!

ـ خلاص يا حبيبي . . بدك شوكولاته؟!

ـ رجعنا للسخرية . . ما عندك لحظة جد، ولحظة حب ناعمة؟!

ـ والله الولد مغلبني يا خالد، والله مغلبني أكثر إني بأفكر في مستقبله!

ـ في إيه . . مستقبله من الآن؟!

ـ لازم . . الدنيا مقلوبة ما عاد هناك ثبات.

ـ دائماً الدنيا مقلوبة، وحتى النهر لما يركد يأسن. لازم من الحركة، والتغير؟!

ـ لكني أم . . أخاف على ولدي.

ـ طيب وأنا . . زوجك وحبيبك، وطفلك الكبير؟!

ـ أنت برضك همي.

ـ أنا هم؟!

ـ لازم أرضيك، وأريحك، وأسعدك. وبالإضافة لهذا كله أعرف مطالبك الخبيثة!!

ـ مطالبي غير خبيثة . . ولا بد أنها تكون مطالبك، والا تكوني إنسانة غير طبيعية . . غير البشر!

ـ طيب . . عندي اقتراح في هذا المساء الجميل.

ـ اطرحي.. إنما حافظي على أعصابي.

ـ علشان كده.. تسمع موسيقى؟

ـ يا سلام.. وتلبسي اللي جبته لك مع الفستان!

ـ أنت جبت حاجة تانية وساكت، ورِّيني جبت إيه؟

ـ جبت رسالة من تحت الماء!

ـ آه.. رسالة من تحت الماء، بعد منتصف الليل!

* * *

وتعالت ضحكاتهما.. لم يقطعها سوى رنين الهاتف. وخفَّت «إلهام» تجيب على الهاتف:

ـ ماما.. أخباركم إيه.. ها.. ما هو معقول!

ـ قاطعها خالد: إيه هو اللي ما هو معقول؟!

ـ استنى يا شيخ (وتكمل حديثها مع أمها): أيوه يا ماما.. إن شاء الله ما تعبت. والله بشارة حلوة. الآن أجيكم أنا وخالد. مع السلامة.

ـ سألها خالد: طمنيني.. إيه الحكاية؟

ـ أختي ولدت يا خالد.. جابت بنت زي القمر، وماما قالت لي: أختك جابت عروسة لفارس!

ـ وانطلقت إلى دولاب ملابسها لتبدِّل ثيابها. وصوت «خالد» يلاحقها:

ترى اسمعي من الآن.. ولدي ما يتجوز بنت أختك!

(ضاحكة): إنت بتتكلم جد.. ما أصدق؟!

باتكلم جد. . وبلاش تكبِّروا الحكاية من الآن!

أما حالك غريب. . بدل ما تقول مبروك؟!

زواج الأقارب صحياً لا ينفع!

يا سيدي. . أنت شايف المأذون واقف على الباب. . لما يكبروا يحلَّها الحلال، وبعدين ماما بتمزح!

أختك متزوجة واحد أجنبي!

يا سلام. . كان يهودي يعني؟

لأ. . إنما العادات مختلفة!

ـ أنت عامل الموضوع قضية. . قوم ألبس وأفرد وجهك. . يا أخي راعي إحساسي على الأقل في لحظة فرحتي الأولى بأختي!

ـ أنا ما بدي أزعلك. . ومن بدري تعرفي رأيي!

ـ أفرض لما يكبر «فارس» يحبها، وطلب منك أنك تجوزها له؟

ـ الحب كلام فارغ. . قال حب، قال!

ـ الحب كلام فارغ. وأنت عايش بإيه؟

ـ عايش بعقلي!

ـ الله يكملك بعقلك. . قوم وصلني عند أختي، أحسن لا ينقلب كلامنا غم كالعادة!

ـ أنا كلامي غم؟!

ـ من فضلك. . في السيارة نكمل الكلام!

ـ لا تزعلي.. أنا عندي وجهة نظر.. زواج الأقارب فيه مشكلات، وأيضاً لا ينصح به صحياً!

ـ يا حبيبي.. كل اللي اتزوجوا من الأقارب حصل فيهم إيه؟!

ـ انعكس على أطفالهم!

ـ يا الله نمشي.. وبعدين نتناقش، إنما بالعقل، وبدون عصبية!

ـ والآن... ما تجيبي قُبْلة؟!

* * *

«السندويتش» الثاني!

* انتصف الليل في مدينة «جدة». . ومازالت حركة السيارات نشطة، ويحلو للشباب في هذا «المنتصف» أن ينطلقوا بعرباتهم كالسهام العمياء.

في حين أن «خالد» يمسك بمقود عربته، كأنه يتشبَّث به، وهو يحوقل معترضاً على أسلوب هؤلاء الشباب في قيادة سياراتهم، وجنون مزاحهم فيما بينهم، والتسابق. . ولا يخفي «خالد» تخوفه من تهور بعض السائقين، فقد يخبطه سائق شاب منطلق بعربته!

وتضحك «إلهام» من تخوف زوجها، وتسخر منه قائلة:

ـ ما هو أنت شباب أيضاً. . والاَّ كل اللي يتزوج يشيخ؟

ـ قال لها: البركة في الزواج!

ـ قالت: تعني أن الزوجة هي اللي بتشيِّب الزوج، والا العكس صحيح يا مبارك؟

ولم يرد عليها. . فقد أطلق عبارته الاستفزازية وصمت، لأنه كان يعاني من استفزاز السرعة التي يمارسها الشباب على الطريق، ويبدو عليه التوتر منذ خروجهما من السهرة.

ولفهما صمت مؤقت. . و«فارس» ينام قريراً في حضن أمه. وتجاوز

«خالد» في طريقه مطعماً يبيع «السندويتشات»، وفجأة قالت له زوجته: لحظة من فضلك يا خالد.. توقف.

ـ فيه إيه؟

ـ أصلي بصراحة ما عرفت اتعشى في بيت أختي!!

ـ انبهرتي بجمال بنت أختك المولودة؟

ـ وبعدين.. راح نفتح الموضوع تاني؟.. أنا بدي سندويتش من المحل اللي تعديناه.

وعاد «خالد» بالعربة إلى الوراء، وتوقف قريباً من المطعم، وبقي جالساً أمام مقود السيارة. اندهشت «إلهام» وهي تقول له:

ـ الله.. ما تنزل تشتري «السندويتش»؟!

ـ آسف.. أنا تعبان وماني جوعان. انزلي أنت؟

ـ أنا؟ غريبة.. كيف أنزل أنا وأنت جالس في السيارة؟

ـ وفيها إيه.. نوع من المساواة بين الرجل والمرأة.. ليه دايماً أنا اللي اشتري، اعملي كدة أنت مرة واحدة؟

ـ يعني علشان قلت لك جوعانة؟.. خلاص شبعت!

ـ نفسي أشوفك تعملي شيء بنفسك خارج البيت!

ـ والولد النائم في حضني؟

ـ حطيه بشويش على المقعد.

ـ توترت «إلهام» بعناد.. وضعت «فارس» على المقعد، ومدَّت يدها

إلى جيب زوجها، وتناولت نقوداً، وخرجت تتحدَّاه لتشتري لها سندويتشاً.

وعندما عادت من محل «الشاورما» رأت ابنها يصرخ بالبكاء، وأخذته إلى صدرها تهدهده، وهي تنظر شزراً إلى زوجها. قالت:

ـ يهون عليك تخليه يبكي وما تحمله. . كأنك ولا أنت هنا؟

ـ يعني أعمل له إيه. . يبحث عن أمه!

ـ يا سلام!. . اشمعنى لما تكون مشتهي أكلة في البيت، تمسكه بالساعة، وتلاعبه، حتى تعطيني فرصة أطبخ؟

ـ ساعتها يكون مزاجي رايق وماني تعبان!

ـ تعرف إنك أناني وقاسي كمان؟

ـ أمشي. . والا نوقف حتى تاكلي السندويتش؟!

ـ سندويتش دا، والاّ سُمْ سقطرى، وهادا السندويتش!

وقذفت به من نافذة السيارة. وحرَّك «خالد» السيارة، وانطلق متوتراً في اتجاه البيت!

* * *

ولم يتبادلا في تلك الليلة أية كلمة. . كل منهما أدار ظهره للآخر، ونام!

ولكن «إلهام» بقيت قلقة، متيقظة. . تفكر في الأسلوب الاستفزازي الذي أخذ يتبعه معها زوجها من فترة. كانت تحاور نفسها في صمت الغرفة والليل. . دون أن تصل إلى نتيجة.

هل تبدل زوجها. . ولماذا؟

في بداية الليل، افتعل معها خصاماً من كلمة مازحة قالتها بلسان أمها عن زواج «فارس» من ابنة أختها عندما يكبر، وهي كلمة تقال داخل الأسر المتراحمة، ولكن «خالد» لم يطقها!

ولم تهدأ حيرتها.. حتى غلبها النعاس، حين كانت ترى في عينيها وجه طفلها «فارس» أجمل ما في دنياها، وهو يكبر رويداً، ويتخطى عامه الأول.. ولكن «خالد» يشعرها وهو متوتر وعصبي وكأنه نادم على الاقتران بها، وعلى إنجاب هذا الطفل!

لعلها هواجس، أو إسقاطات الغضب عندما تثور الأعصاب!

استيقظت «إلهام» مبكِّرة، وهي تشعر كأن معدتها كلها قد قلبت، وركضت تجري إلى الحمام. تقيأت.

صحا «خالد» على صوتها في الحمام.. فهرع إليها. وأمسك بها، وغسل لها وجهها بالماء، وهو يقول قبل كلمة «صباح الخير»:

ـ هذا فضل السندويتش!

ـ أجابته بإعياء: سندويتش إيه.. هو إنت داري عني، من يومين وأنا على هذا الحال!

وضع يده على كتفيها، وضمها إليه، وساندها في المشي، وهو يقول:

ـ يعني إيه.. ما تروحي للدكتور؟

ـ أنا عارفه يعني إيه، والطبيب ماله لزوم.

ـ ليه.. عارفه إيه؟

ـ عارفة الهم الجديد اللي بيعذبك أنت!

ـ هم جديد إيه. . ويعذبني إيه، ما تتكلمي عربي؟

ـ أنا. . . حامل

ـ أهلاً. . . لو زغردتُ في هادا الفجر، يقول الجيران عني مجنون!

ـ من جد، نفسك تزغرد. . فرحان يعني، والا. . . . ؟!

ـ قصدك علشان بنتخانق. . لأ، دا شيء، وتكوين قبيلة باسمي شيء آخر!

ـ بس أنا ما تحولت إلى أرنبة!

ـ لسه. . أنا بدي ستة!

ـ ليه. . بدك تحارب بهم في فلسطين؟

ـ والله ماني داري. . فلسطين، والا لبنان، والا العالم العربي، المهم. . . مبروك يا أحلى أم. . يا حبيبتي. . يا عيوني.

ـ كفاية. . سندويتش واحد ما هانت عليك نفسك تنزل من السيارة وتشتريه!

ـ ما كنت أعرف أنك في مرحلة وحام!

ـ ولو. . ما قلت لك إنك أناني.

ـ آسف. . كنت متوتر من الهيصة اللي كانت لي في بيت أختك.

ـ وإنت مالك. . الناس أحرار، يفرحوا على كيفهم، والا البنت ما عجبتك في شكل عروسة لابنك؟!

ـ بلاش نفتح الموضوع.

ـ لأ.. نفتح أبوه وعيلته، قل لي سبب واحد منطقي؟

ـ قلت لك.. أسباب صحية، ويمكن وراثية.

ـ وليه.. لا أختي عندها أمراض، ولا زوجها.

ـ إحنا نتخانق من بدري ليه.. يمكن البنت لما تكبر ترفض «فارس»!

ـ أنت رجل زئبقي!

ـ وأنت امرأة قشطة.. زبدة!

ـ ما يغريني غزلك.

ـ وما تجهزي الفطار كمان؟

ـ لازم، لأنه واجبي.

وقامت من مجلسها، وإذا بها تضع يدها على فمها، وتركض نحو الحمام مرة أخرى. ولحق بها.

* * *

ارتدت «إلهام» ملابسها بعد صلاة العصر، رافقت زوجها إلى المستشفى.

أخبرها الطبيب أن الحمل ثابت، ولكن.. عليها أن تختار الطعام الذي تتناوله في الشهور الأولى.

قالت لزوجها حين خروجهما من المستشفى:

ـ سمعت الدكتور قال إيه.. باين عليه غلس!

ـ مين الدكتور؟

لأ.. المحفوظ، والا المحفوظة التي راح تشرف وتحمل اسمك!

إذا كان الجنين. بنتاً. . فلن تكون غلسة.

ليه. . سبحان الله؟

علشان إنها بنت. . البنات حلوين.

بس الأولاد أكثر فائدة، ويحيوا ذكرك واسمك.

أنا بدي بنت حلوة زي أمها!

أنا لازم أحمل كل يوم علشان تمطر عليَّ محبتك.

يا أجمل أرنبة!

يا أحن ذئب!

بدك اشتري لك سندويتش يا عيوني؟!

لأ. . أشتري لنفسك لأنك راح تجوع كتير!

* * *

زوج شقي!

* تعوَّد «خالد» أن يغفو بعد الظهر.. يتغذَّى وينام حتى حلول موعد صلاة العصر، فيستيقظ ويصلي، ويجد في انتظاره كأس الشاي الذي تعده له زوجته.

ويبقى «خالد» في هذه الفترة يشاهد ابنه «فارس» وهو يتابع برج الأطفال والكرتون، ويحاول أن يقلد ما يراه. إنها لحظات سعيدة لا يفرط فيها هذا الأب الفرح بابنه البكر. فيقضي فترة ما بعد العصر حتى بعد المغرب يلاعب طفله، ويتجاذب الحديث مع زوجته، وكأس الشاي.

لكن «إلهام» اليوم تبدو في مزاج متقلب. سألها زوجها:

ـ هل أنت متعبة؟

ـ قالت: أحس بالتعب، خاصة بعد مرات التقيؤ في اليومين الماضيين. جسدي مكسَّر، أو كأنه قطعة زجاج.

ـ سألها: نفذت تعليمات الطبيب؟

ـ قالت: أحاول.. أصل شغل البيت يضطرني أحياناً لمضاعفة الجهد.

اندهش من قولها. اقترب منها ووضع يده على كتفها، وهو يواصل حواره معها:

ـ شغل البيت ما هو أهم من صحتك. بعدين أنت مسؤولة عن شخص آخر تحمليه لي داخلك.

ـ قالت: والله ماني عارفه يا «خالد». . إحنا محتارين مع الأول «فارس» تفتكر كيف تكون حالتي ومعايا طفلين؟

ـ قال مبتسماً: من فضلك. . طفل وطفلة.

ـ قالت: الله كريم.

ـ قال: ومالك بتتكلمي كده بقرف. . إفرحي يا شيخه، حتى دول الأطفال أحباب الله.

ـ قالت: أحباب الله. . إنما يحتاجوا لخدمة، ويد واحدة ما تصفق يا حبيبي.

ـ قال: آه. . جينا للكلام العميق. . والله التأشيرة راحت، وكلها أيام والخادمة تكون عندك. فرفشي كده. على فكرة. . أنت نسيتي والاّ إيه؟!

ـ قالت: نسيت إيه؟

ـ قال: الليلة إحنا مدعوين على العشا عند أختي. . أفتكر عيب نعتذر في الوقت ده!

ـ قالت: أنت عارف إني أحب أخرج، لأني طول اليوم في البيت ومع المطبخ والغسالة، والكنس، بس أنت فيك طبع وحش يا «خالد». . لا مؤاخذة يعني.

ـ لأ. . قولي. ما هو طبعي الوحش يا سيدتي؟

ـ حضرتك.. يتجمع مزاجك كله مع منتصف الليل، لحظتها تحب السَّهر والجماعة، وتحب تجلس لآخر السهرة.

ـ حسب الجلسة.. بعدين أنا رجل اجتماعي، والسهر ما يحلى إلاّ بعد منتصف الليل!

ـ يعني أنا اللي ست انغلاقية؟.. إنما أنا بأصحى بدري مع «فارس»، وبأكون تعبانة طول النهار، ومطلوب مني أصحى بدري علشان أجهز لك فطارك.

ـ بالاختصار.. نروح، والا «فيتو»؟

ـ فيتو إيه.. دي أختك لو مارحنا تعملنا ثغرة زي «الدفرسوار»!

ـ وبعدين في التلبيخ العائلي.. وإنت إيه اللي ذكرك بالدفرسوار.. امرأة سياسية حضرتك؟!

ـ امرأة ست بيت، وست البيت الحقيقية تعبانة وتفكر في الثغرات!

ـ أنا شخصياً عندي ثغرة واحدة بس، أهتم بها وتسعدني.. تعرفي اسمها إيه؟

ـ إذا من كلامك إياه.. بلاش، أنت أحياناً قليل أدب!

ـ يا سلام.. يعني كل الشعراء قليلين أدب؟.. أنا أقصد الثغرة اللي على خدك، اللي يقولوا عنها «النغزة».. تجنن لما تضحكي!

ـ وأنت تجنِّن لما تكون صافي ومبسوط.. أحس أنك رجل نموذجي وبتموت في.

ـ أموت بس؟.. ده أنا والله العظيم........

ـ (تقاطعه): كفاية، لا تكمل. . إنما اتذكر قسمك لما تكون زعلان. . شوف نفسك في المرآة وأنت العبوس القمطرير.

ـ هاتي إيدك!

ـ ليه. . إحنا كده أصحاب. . راح تقرا لي الكف يعني؟

ـ هاتي بس، وما راح تندمي!

ـ واحتوى كفها بين كفيه، يقربه من شفتيه، وطبع قبلة. . كأنه يوشم كفها بشفتيه.

ـ أغمضت «إلهام» عينيها كأنها في حلم جميل. . ثم ما لبثت أن انتفضت فجأة، وسحبت يدها من. صدر زوجها، ونظرت إليه مبتسمة وعاتبته:

ـ إيه. . أيها المجنون بليلى. . إنت نسيت ولدنا «فارس» شوف بينظر لنا كيف؟

ـ ما ينظر أو ينتظر. . ثقافة!

ـ أنت مجنون بجد. . عيب كده!

ـ هو فين العيب. . لما نكشر ما نعجب، ولما نغازل ما نعجب. . الرجال احتاروا يا عالم!

ـ قوم، أفرد طولك وافتح دولاب ملابسي، وأنا أشير على الفستان اللي راح ألبسه، وأنت تطلعه. . ياللا!

ـ حاضر. . إنما بشرط.

ـ شرط في عينك. . أقول لك الولد صاحي!

* * *

شارفت الساعة على الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. . و «إلهام» تزايدت تثاؤباتها، وبين لحظة وأخرى تلكز زوجها في يده، وتشير له بعينيها إلى الساعة. . لكن «خالد» فيما يلوح قد استمتع بالجلسة، ولم يلحظ امتداد الليل، والإرهاق الذي بدا على زوجته، وابنهما «فارس» قد توسَّد ذراعه ونام على الأرض.

وقررت «إلهام» أن تحسم الأمر. . فرفعت صوتها مضطرة، تعتذر:

ـ معليش يا جماعة. . جلستكم ما تمل، إنما الوقت اتأخر، والا إيه يا «خالد» أحسن نمشي؟

ـ لاحظت إلهام، أن وجه زوجها قد امتقع، فقد فاجأته بهذا الحسم، وكان يعرف أنها ترغب في الانصراف من تعدد لكماتها له، وشعر بالحرج. . فقام مستأذناً وهو يقول:

ـ ياه. . صحيح إحنا اتأخرنا، وكمان سهرناكم.

حمل «خالد» طفلهما على كتفه، ونقله إلى العربة، ووسَّده فوق المقعد الخلفي، وتحرَّك بالعربة صامتاً، و «إلهام» تنظر إلى وجهه. وقررت أن تكسر هذا الصمت:

ـ إيه. . مالك، زعَّلتك يعني؟

ـ زعلت من طريقتك في إنهاء الجلسة.

ـ يعني تفتكر كنا راح ننام عندهم؟. . بعدين أنا أستأذنت بلباقة، والناس نفسهم إننا نمشي لأن أختك كانت تتثاءب!

ـ وأنت كمان. . يمكن نعست. لكن. . ما هي لطيفة لما تقولي قدامهم نمشي.

ـ آه. . آسفة، لازم الرجل هو اللي يؤمر؟

ـ بلاش تريقه من فضلك.

ـ ما هو أنت السبب، وعارف أني تعبانة، وأني. . . . . .

ـ (قاطعها): خلاص. . مافي لزوم للموشح، إذا كان آخر السهرة عكننة، بلاش نسهر مرة ثانية، ونجلس في البيت أحسن!

ـ يا الله عليك. . ما تفوت حاجة أبداً، وأنا بأحاول أرضيك وأنا تعبانة!

ـ متشكر. . بس لو كانت السهرة عند أختك. . . .

ـ (قاطعته): كم مرة طلبت منك تبطل حكاية أهلك وأهلي. . إحنا كلنا عائلة واحدة، وأختك أختي، لكن. . كل اللي أطلبه منك أنك تعمل حسابي ولا تطول السهرة.

ـ من فضلك. . كفاية كده الكلام في الموضوع ده.

* * *

لزمت «إلهام» الصمت. . لكنها بعد دقائق كانت تعاني فيها من الضغط على أعصابها، لم تستطع أن تكبح فرار دموعها من عينيها. كانت دموعها تلمع في ظلال الليل كحبات نجوم!

ولم تفت «خالد» الالتفاتة إلى زوجته، فقد شاهد دموعها، لكنه لم يرد أن يتكلم حتى بلغا البيت.

واستبدل كل منهما ملابسه، واستلقى على السرير. أدارت «إلهام» وجهها إلى الناحية الأخرى لتنام. وفي صمت الليل.. همس «خالد»:

ـ أنا آسف.. كم مرة قلت لك لما أغضب لا تجادليني.

لم ترد عليه «إلهام»، ولكنها تحرَّكت فوق السرير لتشعره أنها متيقظة لم تنم بعد..

ـ قال: سؤال محيرني.. هُمَّا كل الستات لما يزعلوا من أزواجهم يأخذوا وجوههم معاهم للناحية الثانية؟!

ابتسمت «إلهام» دون أن يراها، ولم تجبه.

ـ استطرد: طيب.. أنا كمان أدير وجهي للناحية الثانية، وأغيظك.

استدارت نحوه، وقالت:

ـ إنت تبغي إيه بالضبط.. ما تنام. تنكد علي وتصالحني.. لعبة أنا؟

ـ لأ.. عروسة، وأنا طفل.. خلاص سماح لا تكوني قاسية.

ـ خلاص سماح.. تسمح تنام، ما كفاية سهر يا أبو راس مصفح؟!

ـ أنام.. إنما بعد ما تصالحيني.

ـ أنا صالحتك أهو. نام يا أخي.. أنت زوج شقي!

ـ لأ.. صالحيني تحريري ما هو شفهي!

ـ الله يهدك يا مفتري.. هاه، ودي صلحة.

ـ أنا طماع.

ـ وأنا قنوعة.

ـ دمك ثقيل.

❊ ❊ ❊

ـ وعلت ضحكاتهما.. تتجاوز سماء الغرفة، وفي أصداء الضحكات كانت ساعة الحائط تدق معلنة الرابعة صباحاً!!

❊ ❊ ❊

الطفل . . . الحارس!

استيقظ «خالد» من نومه وهو يرتعش. . كانت برودة جهاز التبريد عالية، واكتشف أن الغطاء الذي يتقاسمه مع زوجته قد استباحته «إلهام» لها. . وتدثَّرت به.

كان ضوء «الأباجورة» مطفأ، والظلام حالكاً. . ذلك يعني أن الفجر لم يقترب بعد، وأنه قد استيقظ من البرد. وقام يتخبط في السرير، وفي دولاب الملابس الضخم، وسحب باب غرفة النوم وهو يتجه إلى المطبخ.

شعر بعطش شديد. شرب، وتذكر ابنه «فارس». فكَّر أنه قد يكون ظمآناً مثله. سكب الماء في الكأس، واتجه إلى سرير طفله. فوجئ أن السرير خال من «فارس». قلق وهو يسأل نفسه:

ـ ترى. . أين ذهب الولد؟

مسح غرف «الشقة» بحثاً عنه، دون جدوى، ومازال يمسك بكأس الماء.

عاد إلى غرفة النوم ليوقظ «إلهام»، أو. . . لعل «فارس» مشى إلى غرفتهما ونام.

أضاء «الأباجورة». . وعقدت الدهشة لسانه!؟

رأى «فارس» ينام في وسط السرير، بين الأب والأم، و «إلهام» تحوطه بذراعها وتغطيه معها. ابتسم وهو يهمس لنفسه:

ـ وأنا أقول محتار فين الغطاء، وليه السرير ضيِّق الليلة!؟

وضع كأس الماء على الطاولة بجانب رأس زوجته، وأطفأ النور، بعد أن سرق جزءاً من الغطاء ليتقي برودة الغرفة، وحاول أن يسترجع نومه!

وفي صمت الليل، وهدير «المكيِّف». . كان يبتسم، وهو يسترجع موقفاً من الشهور الأولى لابنه «فارس».

كان «خالد» يومها فرحاً بأن ابنه بدأ يحاول الكلام بعد فترة تسميها أمه «المناغاة»!

حمل طفله بين يديه، وأخذ يقذف به إلى أعلى ويتلقَّفه، و «فارس» يقهقه، ويخرج من صوته كلمات لم يكن والده يفهمها. وضع «خالد» فمه في أذن «فارس» وهو يقول له: قول «بابا». . «بابا»!

ـ قالت أمه «إلهام»: ما تترك الولد على راحته. . لا يقول في الأول: «ماما» كده!

ـ قال لها: وليه ماما؟. . بابا في الأول!

ـ قالت: لازم يقول ماما. . الأم هي اللي بتتعب وبتسهر وبترضع وبتقلق، وحنانها أضعاف حنان الأب، وإلاَّ ما هي حقيقة دي ياسي خالد؟

ـ قال: لمعلوماتك. . أنا مرة قرأت أن أول حرف ينطقه الطفل، هو حرف «الباء». . يعني: بابا، لأنه أسهل في النطق من حرف «الميم». . . يعني: ماما!

ـ قالت ضاحكة: معلومة منحازة، كاتبها واحد راجل.. لكن هناك يا أستاذ مجموعة من علماء النفس في نيويورك قالت: إن الطفل يولد وعنده استعداد غريزي لحب الآخرين، وعلى رأس الناس كلهم أمه، والأم بتقوم بدور كبير في تنمية هذا الشعور أو إحباطه بواسطة التربية النفسية السليمة!

ـ قال: أوه.. دخلنا في الفلسفة، كده طبيعي وعفوي بيقولوا إن الولد يطلع لأبوه.. ده حتى شبهي!

ـ قالت: ما اختلفنا إنه يطلع لأبوه.. إنما أول كلمة هي ماما، لأن الطفل ملتصق بأمه، وعلى سبيل المثال: إنت بترضعه، بتاخده في حضنك بمقدار ما بأخده أنا؟.. طبعاً لأ. وبكده تسمح تقفل الموضوع؟

استدار «خالد» من استلقائه على ظهره فوق السرير، واستقبل ابنه النائم في الوسط بينه وبين أمه، وأخذه إليه.. احتضنه. وطبع قبلة على وجنته، وتحرك «فارس» يهمهم في نومه، وسمعه يقول: ماما!

ابتسم مرة أخرى، وهو يتطلع إلى وجه ابنه الملائكي، وكأنه يود أن يقول له:

ـ ماما برضه يا ابن.......!!

وأحاطه بذراعه، ونام.

❊ ❊ ❊

تنبه «خالد» من نومه على صوت «إلهام» وهي توقظه، وتحرِّكه من كتفه ليصحو.

تطلع إليها ثانية، وفجأة. جذبها من ذراعها، وأسقطها بجانبه على

السرير، وهي تحاول الخلاص منه متوعدة:

ـ يا مجنون. . العمل يفوتك، إنت اتأخرت في النوم!

ـ طبعاً. . لأني طول الليل صاحي أتأمل جمالك!

ـ يا الله صباح خير. أنت نايم على جنبك الشمال؟!

ـ لأ وأنت الصادقة. . نايم على ظهري، لأني عجزت أن أتقلب على الشمال أو على اليمين.

ـ ليه يا حبيبي. . جنوبك بتوجعك؟!

ـ جنوبي، والا جنبي الشمال؟. . يا شيخه حرام عليكي، دا حتى السرير ضيِّق!

ـ طيب بسيطة. . نغيِّره ونشتري سرير أعرض!

ـ أخ. . يا برودك يا آدمية، يعني عاملة نفسك بلهاء؟!

ـ يا خالد. . يا حبيبي، الفطار برد، والعمل ينتظرك، وما يهون علي يخصموا عليك!

يقذف «خالد» بالغطاء جانباً، واتجه إلى الحمام.

وأمام مائدة الإفطار. . كانت «إلهام» تتطلع إلى وجه زوجها وتكتم ضحكة تكاد أن تفلت!

لاحظها خالد، وأطال النظر إليها. . حتى اضطرها أن تطلق سراح ضحكتها. قال:

ـ طبعاً تضحكي. . مقلب معتبر، لكن معليش. . الليلة موعدنا. .

ـ يا حبيبي ما قصدت. أنا عارفة إيه اللي ضايقك.. تقصد «فارس».. ما هو حبيبك؟!

ـ حبيبي نعم.. إنما عنده سرير، وبعدين أنا ما أحب أدلِّع الأولاد!

ـ أصله يا حبة عيني.. كان طول الليل بيتقلب، وكان جسمه سخن مسكين. خفت عليه وكمان تعبت من كثر ما أقوم وأقعد أغطيه، وأتحسس جبينه.. قلت أحسن أنوّمه جنبنا، أضمن!

ـ قصدك تنوميه في وسطنا؟!

ـ ما هو كله واحد يا حبيبي.. خصوصاً وإنك خلاص نمت.

ـ طيب.. يمكن أصحى؟!

ـ ما هو علشان لما تصحى تلاقي لافتة ممنوع التجول على السرير!

ـ والله عال.. أول أحكام عرفية فوق سرير الزوجية، والحارس: طفل!

ـ أحلى حرَّاس هم الأطفال. اتخيل كده لو حاول مجتمع أنه يعالج مشكلة غياب الآباء عن بيوتهم؟!

ـ نعم.. يعمل إيه المجتمع؟!

ـ علشان يضمن بقاء كل أب داخل البيت في الأوقات المخصصة للأسرة، يعني بعد أوقات العمل.. يقوم المجتمع يعيِّن حراس من الأطفال يوقفهم على باب البيت، ويمنع خروج الأب في وقت الأسرة المخصص!

ـ ما شاء الله.. أفكارك ديكتاتورية!

ـ ليه.. هو فيه أحلى من الأطفال؟!

ـ لأ.. لكن، لما نخلي الطفل في شكل حارس، أو في وظيفته..

يتحوَّل الطفل إلى سجَّان. والأطفال أبرياء. . ليه نعقِّد الأطفال بهذه المهنة؟!

ـ يعني الأطفال ماراح يتعقَّدوا في الوضع ده؟!

ـ أي وضع؟. . أنت بتتخيلي أشياء خطيرة!

ـ خطيرة صح، إنما أتخيل لأ. . بدليل: إنه بالفعل هناك آباء بدأوا يهملوا بيوتهم، لا يسألوا عن أطفالهم، ويمكن ما يشوفوا أطفالهم بالأيام. . لأنهم إما مشغولين بـ «البزنس»، أو مشغولين بالسَّفر للصفقات والأعمال، أو مشغولين في داخل البلد بالسَّهر!

ـ حلو. . . طيب والأمهات؟ ما هو هناك أمهات أيضاً وصل التسيُّب عندهن لدرجة الإهمال لأطفالهن!

ـ كيف. . فسر لي النقطة دي؟!

ـ أفسر. . إن شاء الله لما تجي عندك الخادمة أذكرك. وحيث إن الخادمة لم تصل إليك حتى الآن، فعليك أن تتذكري من صاحباتك. . من اللي عندهن خادمات، وكيف أن الأم تترك طفلها أو أطفالها للخدم.

ـ لكن أنا أختلف.

ـ الآن بتختلفي. . لكن لما تشوفي الراحة، تبدئي ترمي كل حاجة على الخادمة. . حتى أطفالك!

ـ يا ساتر. . أنت حاقد!

ـ لأ. . أنا واقعي، باعطيك شريحة من المجتمع.

ـ أعطيك شريحة من الخبز!

ـ معليش أنت بتسخري.. بس أنا شبعت خبز وكلام، ولازم أسرع إلى عملي.

ـ لا تنسى تعقِّب على معاملة الخادمة!

ـ أيوه.. فاكرة الموضوع هذا بالضبط، إنما كيف نمت أنا البارح، وكيف بردت، ما هو مهم للسيدة الجميلة!

ـ يا سيدي آسفة.. أنا كنت أظن أنك تفرح لما تشوف ابنك نايم جنبك.

ـ معلوم أفرح.. لأنه كان نايم على شكل كيس رمال في جبهة حربية!

ـ يا باي عليك.. دا ابنك؟

ـ والله العظيم أحبه، إنما مكان نومه في سريره، وأنا غلس.. ما أحب أحد يشاركني في سرير نومي.

ـ بس أنا بأشاركك؟!

ـ أكبر إنسانة تجيد الجدل أنت، لأنك تعرفين أن الزوجين شخص واحد.

ـ أحبك يا غلس!

ـ أحبك يا... يا جنتي اللي حارسها طفل!؟

ـ وايه؟.. أجمل طفل!

ـ لما نشوف اللي في بطنك طلع إيه كمان!؟

ـ اللي في بطني بنت حسب أمنيتك!

ـ بس البنات ما هم حلوين في شكل شرطيات!

ـ نشوف لما تجي تطلع إيه؟!

ـ لأ . . البنت شكل تاني.

ـ روح يا شيخ اشتغل . . قال شكل تاني.

ـ شوفي نفسك . . تعرفي الشكل تاني!

* * *

الرحلة

* إتكأ «خالد» على الوسادة بعد أن تناول مع زوجته وجبة «السحور»، وقد بدا عليه الشرود بعيداً عن «إلهام» وعن «فارس» الذي نام في بداية الليل، واستيقظ بعد منتصفه، يشاركهما «السحور» وما تبقى من الليل.

لمست «إلهام» فنجان الشاي الذي وضعته أمام زوجها من فترة طويلة، دون أن يرشف منه رشفة واحدة، فوجدته قد برد، حدَّقت في وجه زوجها، ورأته لا يعي بما حوله.

إنها تعرف شروده «الأحياني».. لا بد أنه يفكر في العمل، أو في أمور الدنيا، كما يحلو أن يقول لها دائماً. حادثت نفسها قائلة:

ـ هل هذا الشرود من أمور الدنيا أيضاً؟!

هزته برفق، وهي تشد انتباهه، وتقول له:

ـ فنجان الشاي برد، وأبدلته بفنجان ساخن.. لا يبرد التاني. أنت سارح في إيه؟!

التفت نحوها، بعد أن تنبَّه. ابتسم في وجهها. قالت له:

ـ إيه.. مدفع الإمساك ما ضرب علشان تصوم عن الكلام كمان.

عاود الابتسامة الفاترة. وبعد. صمت.. سألها:

ـ ها . . إيه رأيك، نروح المدينة في الأيام الأخيرة من رمضان؟!

ـ يا ليت . . إنت عودتنا من يوم ما . . . . . .

ـ (قاطعها): يوم إيه . . إحنا رحنا مع بعض رمضان واحد، وهذا الثاني؟

ـ صح . . لكني بجد أحس أني عايشه معاك عمري كله.

ـ وبعد ما نرجع من المدينة؟!

ـ يعني . . إذا كان عندك إجازة، نروح برَّة!

ـ برَّة فين . . ما عندي فلوس كتير.

ـ خلاص . . نروح تونس، أهو أنت بتحبها، وأنا ما عمري رحت لها. فرصة.

ـ والخادمة اللي جاية بعد العيد؟!

ـ يا أخي . . حبكت يعني بعد العيد؟!

ـ هذا موعد قدومها زي ما أخبرني المكتب.

ـ طيب . . ناخدها معانا!

ـ ناخدها فين . . إنت قلتي إيه؟!

ـ يعني التذكرة غالية قد كده؟!

ـ التذكرة، والغرفة في الفندق، و . . . .

ـ خلاص . . نخلِّيها عند أمي، حتى نرجع.

ـ أيوه . . قولي كده.

ـ ولا كده ولا تطلع فيها حاجة. . خليها عند أمك.

ـ ما أقصد كده. . لكن دي جديدة، ولازم تدخل من البداية على الشغل اللي مستقدمينها علشانه. بعدين تفتكر. . . .

ـ يا أخي إحنا راح نغيب سنة يعني، كلها زي ما تقول كده شهر!

ـ لأ. . نص شهر، لأني لازم أرجع وأخلص أعمال خاصة بي، ما تخص عمل الشركة.

ـ على كيفك. . المهم الخادمة تجي، وأرتاح شوية.

ـ بس حاسبي. . أهم شيء الولد، لا تهمليه وتتركيه لها.

ـ لأ يا شيخ، أنا مجنونة، بعدين ما شاء الله «فارس» كبر، وفتح عينه، ويعرف!

ـ يعرف إيه. . هذا طفل، ممكن يتشرَّب من الخادمة أشياء كثيرة.

ـ ما هو أنت تقول إنها مسلمة من أندونيسيا؟!

ـ ما هو المسلمين كتير. . إنما المعاملة تختلف، والعادات تختلف، والنفسيات تختلف. الدين المعاملة!

ـ يوه. . إنت عملتها مشكلة عويصة.

ـ فعلاً عويصة. . إذا أهملت ولدك. . أنت ما تسمعي عن حكايات الخادمات؟!

ـ هيا لا تخوفني!

ـ أنا أنبِّهك، وبس.

ـ الشاي برد مرة ثانية.

ـ إشربيه أنت!

* * *

في الطائرة المتجهة بهم إلى «المدينة المنورة». . كانت «إلهام» تحكي لزوجها حكاية «فارس» والموقف الذكي حدث منه في مساء يوم أمس.

كانت تقف في المطبخ، تعد طعام «السحور»، وقد استيقظ «فارس» من نومه، وجاء إليها بنظرات لم تستطع أن تفهم منها أي معنى. كان «فارس» يبتسم، ثم سألها عن والده أخبرته أنه سيعود بعد قليل، وغاب عن عينيها بعض الوقت. . ثم عاد إليها عارياً تماماً. فوجئت بمنظره. . سألته وهي تضحك مندهشة:

ـ أنت ليه عملت كده؟!

كان يضحك سعيداً، وأمسك بيدها، وسحبها معه إلى دولاب ملابسه!

هناك. . اكتشفت «الكارثة». . فقد أخرج كل ملابسه من الدولاب، ونثرها في أرجاء الغرفة.

ـ سألته: إيه ده. . إنت مجنون؟!

ـ قال لها وهو مستمر في ضحكه: العيد. . العيد.

ـ قالت له: العيد ما هو الليلة!

جرى إلى أرضية دولاب الملابس، وأخرج حذاءه الجديد، وحاول أن يدخل فيه قدميه. ووجد «عقالاً» قديماً لأبيه، رمته «إلهام» في قاع الدولاب. . أخذه ووضعه على رأسه!

أمسكت به، وضربته على يديه حانقة، قائلة:

ـ أنا أمس رتَّبت دولابك.. حرام عليك يا معذبني.

ركض «فارس» إلى غرفة المعيشة يبكي، وهو يصيح: بابا.. بابا.

ـ قال لها خالد: حرام عليكي.. فرحان.

ـ قالت: هو يفرح، وأنا أتعذب بترتيب الملابس دايماً.. أنت إيه على بالك، بتتعب؟!

ـ قال: ناوية نتخانق في الطائرة كمان.. أنت بتحكي لي علشان نتخانق؟!

ـ قالت: لأ.. أنا بأحكي لك، وتقول لي الخادمة ومسؤوليتي نحو ابني معاها.

ـ قال: أنا على حق.. لما تحضر الخادمة ترتاحي من أشياء كثيرة، وتركزي اهتمامك على ابنك، وعل اللي جاي في الطريق!

ـ قالت: أسكت يا خالد.. أنا خايفة أولد في تونس!

ـ قالت: وفيها إيه.. إذا جاء ولد نسميه «هانيبعل»!

ـ قالت بغيظ: هاني إيه.. ليه خلصت الأسماء؟!

ـ قال: دا اسم تاريخي!

ـ قالت: إنما تعرف يا خالد.. أمي متشوشة كتير من سفرنا لتونس؟

ـ قال: ليه.. رايحين واق الواق إحنا؟!

ـ قالت: ما أقصد.. لكن رغبتها إني أولد عندها.. قدَّامها يعني، وبعد

الولادة نسافر؟ وتكون هي مطمئنة علينا.

ـ خلاص. . بلاش سفر بالمرة. . علشان لا تتعبي من الرحلة، وأمك لا تقلق!

ـ أنت ما صدقت يا سيد؟!

ـ بالعكس. . أنا بدي أسافر وأغير جو، وأرتاح. . إنما يعني. . ظروفك صعبة!

ـ يعني أنا جبت اللي في بطني من بيت أبويا؟

ـ وبعدين في الغلط. . إحنا داخلين على المدينة المنورة. أدعي وانشرحي.

ـ لكن السفر مهم. . نروح تونس. يعني نروح.

ـ على فكرة. . «هيَّا» أختك مسافرة فين؟!

ـ يا خبيث. . عارفة خلفية سؤالك.

ـ بريء والله. . يعني خطر على بالي.

ـ أختي مسافرة مع زوجها إلى أمريكا.

ـ ول. . حته واحدة كده؟!

ـ ليه. . زوجها مبسوط، وعاش في أمريكا سنوات الدراسة.

ـ وأنا برضى مبسوط. . بس مبسوط لأني اتجوزتك. . أنت ثروتي.

ـ خالد. . . لا توسعها كتير، واسعة دي!

ـ والله العظيم أحبك. . إيه، ما عندك خبر؟!

ـ ولما أنا ثروتك.. تزعلني ليه؟

ـ أنا أقدر أزعلك؟ أنت أحياناً تستفزيني، وأحياناً تختبري حبي لك؟

ـ يمكن... أصدقك. إنما الأغنياء اللي عندهم ثروة، يعدّو ثروتهم دايماً والا لأ؟!

ـ تقصدي إيه يا حبيبتي؟!

ـ أقصد أن الرجل لما يعتبر زوجته ثروة.. يحرص إنه يزيد ثروته بالحب لها.

ـ ونسيتي أن الزوجة لما تحب زوجها وتعتبره ثروتها.. تحاول تزيد رصيد الحب بالأولاد!

ـ يا خبيث.. تحسبها بالقروش!

ـ تعرفي؟.. أثمن ثروة في حياتنا الاثنين: الولد الشقي ده «فارس»!

ـ بتحبه أكتر مني؟!

ـ أحياناً.. لسبب واحد، وهو إنه منك أنت!

ـ لأ شاطر.. أربط الحزام، وصلنا!

ـ الواحد لما يوصل يفك الحزام!

ـ أربط الحزام يا فيلسوف.. إحنا في المدينة المنورة، لازم تكون متوضِّي!!

* * *

خصام الحب!

* تعود «خالد» أن يغفو قليلاً بعد الإفطار في رمضان. حاولت «إلهام» أن تثنيه عن هذه العادة. استفزته مازحة وهي تخبره أنها عادة الكبار في السن! سلَّطت عليه «فارس» يدخل عليه غرفة النوم ويشده من يده، ويدغدغه في قدمه!

لم تفلح كل المحاولات. خضعت «إلهام» أخيراً، وأصبحت تضع ابنها بجانبها وتتابع برامج التلفاز.

فجأة قرع جرس الباب، وتطلعت «إلهام» إلى ساعة الحائط. وجدت الوقت مبكراً، إذ لم تبلغ الساعة الثامنة مساء بعد. ترى من يأتي في هذا الوقت؟!

أسرعت إلى باب «الشقة» تفتحه. . ففوجئت «بأم خالد» تقف أمامها في حالة من التوتر. سألتها:

ـ خير إن شاء الله. . مالك يا ماما؟!

ـ أجابتها: خليني أدخل الأول.

أفسحت لها الطريق، وعلى وجهها علامات الدهشة. رمت «أم خالد» عباءتها على الأرض، وبدأت حركات الجلوس البطيئة، نظراً لترهل جسمها

وتخنه، ثم فتحت حقيبة يدها وأخرجت سجائرها وأشعلت لنفسها واحدة، ويدها ترتعش.. وإلهام، تنظر إليها قلقة، تتساءل في صمتها عن حالة حماتها.

وانطلق «فارس» إلى جدته، فارتمى في حضنها، يتساءل هو الآخر:

ـ أنت بتبكي ليه يا ستو؟

احتضنته بدموعها تنزلق. أجابته:

ـ أبكي حظي المايل.. ربنا يحسن حظك يا ولدي!!.

انسحبت «إلهام» في هدوء إلى غرفة النوم توقظ زوجها. فتح في وجهها عيناً واحدة ليرى زوجته في ظلال ضوء «الأباجورة». سألها: ما الخبر؟!

ـ قالت: أمك متوترة وبتبكي.. قوم شوف إيه الحكاية!

ـ قال: معليش.. هدئي من انفعالها.

ـ قالت: يا برودك يا أخي.. أمك بتبكي.. اتحرك، أنت قلبك إيه؟

ـ قال: حالاً.. الحكاية معروفة، لازم اتخانقت مع أبويا مثل العادة!

ـ قالت مندهشة: ليه.. في السن ده وبيتخانقوا؟!

ـ قال مبتسماً: يعني إيه السن ده، أنا الولد البكر لأمي وأبويا، وأنا صغير، و.......

وضعت يدها على فمه، حتى لا يستطرد. قالت له:

ـ ما هو وقت تحديد السن.. أنا راضية بك. المهم.. قوم شوف أمك.

* * *

عادت «إلهام» إلى حماتها. رأت «فارس» يتعلَّق في صدرها. نهرته قائلة:

ـ تعال هنا يا ولد. . ستو تعبانة شوية. خليها ترتاح.

ـ قالت أم خالد: أتركيه. . «فارس» هذا عيوني المركَّبة، والسبب الوحيد اللي أحب الحياة علشانه.

ـ قالت إلهام: تلاقيكي ما شربت شاي. . أقوم أعمله.

ـ هوّ أنا اتسممت شيء؟. . كفاية أبو خالد سمَّمني من الكلام اللي يوجع.

ـ خير يا ماما. . إهدئي الآن، وإنت عارفة المعدة بتتخانق مع بعضها.

ـ أقول عليه إيه بس؟. . الله يسامحه.

ـ كده إنت عظيمة، المسامح كريم، واحنا في رمضان. . بعدين عمي «أبو خالد» برضه راجل طيب، لكنه عصبي شوية، وتلاقي الموضوع بسيط!

ـ دايماً ينكد عليَّ، وإيه. . في السن ده. أقول له: إحنا كبرنا يا «بو خالد»، ولدنا الكبير جاب ولد، أنت أصبحت جد، لكنه. . . راجل مجنون وأناني.

دخل «خالد» إلى غرفة المعيشة، وهو يضحك بصوت مرتفع ويخاطب أمه:

ـ مين المجنون هادا يا أمي؟!

ـ قالت له: أبوك. . هوّ فيه غيره، مُورِّيني نجوم الظهر!

أقبل عليها. أخذها في حضنه وهي جالسة، ووجدت دموعها جاهزة من

جديد.. بكت، و «خالد» يربت على ظهرها، ويهدئ من انفعالها ويبتسم. التفتت إليه قائلة:

ـ إنت بتضحك؟.. كلكم رجال زي بعض!

ـ يا ماما.. لازم الموضوع زي العادة بسيط.

ـ طبعاً.. بسيط في رأيك كرجل، ويمكن تقول عليه تافه بعد شوية.

ـ يا ماما.. خلاص إنت وأبويا كبرتو. كل واحد صار جد، والعشرة اللي بينكم طويلة.. تصوري إنك وبابا زوجين من ستة وعشرين سنة.. يعني عمر. ولازم تحتملوا بعض!

ـ لكن أبوك ما يحتملني.. ما يطيق كلمة واحدة مني.

ـ معليش.. خليكي إنت المتسامحة. لكن... حصل إيه تاني، ما هو إنتوا اتصالحتوا من شهر؟!

ـ معجون التمري يا ولدي.. قال إيه؟ هو صائم وما يحتمل كلمة، وأنا يعني اللي فاطرة؟!

ـ معليش.. احكي لي حصل إيه؟

ـ والله ماني عارفه، لخبطني وقلب مزاجي.

ـ شايفه إن الموضوع تافه؟

ـ برضك تقول تافه؟!

ـ إذا كان إنتو الكبار في السن وفي التجربة، وفي العقل تعملوا كده.. أجل إحنا الصغار نعمل إيه؟.. أهو عندك «إلهام» مثلاً بتحتملني لما انفعل!

ـ قالت إلهام: أيوه اعترف.. سامعة يا ماما، من فمه أدينه.

ـ قالت أم خالد: ربنا ما يغيِّر عليكم. . الزوجة يا بنتي ستر وغطا على زوجها.

ـ قال خالد: بس. . . إنت قلتيها. يعني يمكن بابا منرفز من الشغل، متضايق في نفسه.

ـ قالت أمه: والله يا ولدي أحرص إني أريحه في البيت، إنما أبوك. . أف منه!

ـ قال خالد: طيب هدي نفسك بس. . نعرف حصل إيه؟

وحكت «أم خالد» الموقف الذي أثار الخلاف مع زوجها. . فقد عاد من عمله. وصلى العصر، يدخل إلى غرفته لينام، ولم تمر ساعة حتى قام، وأخذ يدور في أرجاء البيت. . دخل المطبخ وسأل عن الأكل. خرج إلى الشرفة، وعاد. سألته زوجته عن الذي يقلقه، ولماذا استيقظ بعد ساعة. صرخ فيها: وانت مالك؟!

وتشعب الكلام بينهما. واستطردت «أم خالد» تروي الحكاية وهي تبكي:

ـ بس يا ولدي. . كلمة منه، كلمة مني. . حتى قال: إنت عيشتك زفت. رديت عليه، أيوه أنا أعترف. قلت له: وأنا ما شفت معاك يوم طيب!

ـ سألها خالد: شفت إن الكلام عادي؟

ـ قالت: صحيح. . لكن أبوك طوّل لسانه علي. عمره ما قال لي في حياتنا مع بعض: إنت عيشتك زفت!

ـ ضحك «خالد» واحتضنها. قال لها:

ـ خلاص. أتركيه يعيش لوحده كم يوم ويعرف قيمتك. اجلسي عندنا معززة.

نظرت إليه باستغراب. قالت:

ـ وي.. يفطر كيف في رمضان. مين يجهِّز له الفطار والسحور؟!

ـ قال خالد: حنّينا يا ست الحبايب.. ما هو ده بابا اللي ماشفت معاه يوم طيب!

ـ قالت: أنا عارفة.. العشرة ما تهون يا ولدي.

ـ قال: خلاص.. ما وحشك «فارس».. له كم يوم ينادي على ستو!

ارتدى «خالد» ملابسه، وخرج بعد أن طلب من زوجته أن تعد سحوراً جيداً.

ذهب إلى والده في البيت. قال له.

ـ وبعدين في انفعال الشيوخ؟!

ابتسم والده وهو يقول له:

ـ كنت عارف إنها راحت لك في البيت. أمك عصبية جداً، وأنا كنت زعلان من شغلة كده، وما احتملتش. بسيطة، إنت عارف أمك وتصرفاتها، إنما المفروض تعقل خلاص!

طلب منه «خالد» أن يذهب معه إلى البيت لتناول السحور معاً. و«خالد» يضحك مع أبيه، وهو يحدثه عن طبيعة البشر، وعن تصرفات المرأة في بيتها. قال له أيضاً:

ـ كنت أعتقد أن زوجتي نظراً لصغر سنها تعمد إلى المناكفة، كنت أظن

أيضاً أن المرأة حين ترزق بأطفال تتريَّث، وتفكِّر. . لكننا كرجال لا بد أن ندلِّع نساءنا حتى لو بلغن من العمر سن الشيخوخة!

ـ قال والده: بس يا ولد. . أمك ما هي كبيرة، دي جابتك وعمرها سبعة عشر عاماً!

ـ قال خالد: إنت راح تقول لي. . وإنت صغير السن أيضاً. فرحت بمولدي وعمرك تسعة عشر عاماً.

ـ قال والده: أنت بتسخر يا ولد؟!

ضحكا من أعماقهما. وارتدى والده ملابسه، يذهب مع «خالد» إلى البيت، هناك رأى زوجته «أم خالد»، قال لها:

ـ أهلاً بالمجنونة الظريفة!

ـ قالت: والله ما مجنون إلا أنت. . بعد العمر ده كله، تقول لي: عيشتي زفت!

ـ قال: على أي حال. . أنا وحشني «فارس» وجئت أشوفه.

وارتمى «فارس» في حضن جده، وأخذ يعبث بذقنه ضاحكاً، ويضربه على خده!

ولم تكن تلك الليلة هي الأخيرة في «موال» الخصام بين زوجين كبرا وأصبحا يفرحان بحفيد. . ولكن «خالد» وزوجته «إلهام» بعد أن خرج الجد والجدة. . . جلسا يتحدثان عن الحياة الزوجية، بفلسفة الحب كلما امتد الوفاق والعشرة في حياة الزوجين!

وأراحت «إلهام» رأسها على صدر زوجها، وأغمضت عينيها للحظات، ثم قالت له:

ـ تفتكر لما نكبر... تتكرّر الصورة نفسها معنا!

ـ قال: إذا استمر حبك لي!

رفعت رأسها من فوق صدره، قائلة:

ـ ليه.. هو الخصام حب برضه؟!

ـ قال: الخصام ملح الحياة الزوجية.. بشرط أن لا يتحول إلى مقايضة ومناظرة بين الزوجين، وطبيعة الحياة تقوم على السالب والموجب.. على الخصام والعتاب والصلح.

ـ قالت: أهم شيء أن لا نزرع الكراهية، لأن الكراهية تدمير!

أخذ رأسها مرة أخرى، وأراحه على صدره.. ولفهما الصمت الذي يتحدث بدقات القلب!

❊ ❊ ❊

فارس . . «يرطن» !

❊ كان «خالد» يراقب المراحل التي ينتقل فيها ابنه «فارس» سنة بعد أخرى!

إنه في بعض اللحظات يتأمل ابنه، ويشرد بتفكيره بعيداً، وهو يطرح سؤالاً يفترض أن ابنه سيسمعه:

ـ ترى . . كيف سيجيء عصرك يا بني عندما تدخل المعركة الحقيقية مع الحياة وتصبح رجلاً . . هل سيكون مثل عصر أبيك . . هل سيكون أكثر سوءاً . . هل سيأتي أفضل؟!

وفي لحظات أخرى كان يرقب ابنه «فارس» وهو يتقافز أمامه كفراشة تحوم حول النار. إن الإنسان مثل الفراشة في بدء طموحاته، والمغريات نيران تجذبه ليسقط فيها.

ويهمس في نفسه كأنه يخاطب ابنه:

ـ إلعب، واقفز . . هذا وقت المرح والصفاء، فلن تجد هذه النفس النقيَّة عندما تكبر، وتعرف، وتكتشف، وتصطدم، وتتحدى . . إلعب، فأجمل عمر الإنسان في طفولته!

وفي وقت آخر . . كان يرى «فارس» وهو يتسلل إلى مهد أخته الوليدة

في شهورها الأولى: «عهد».. كأنه يريد أن يقرصها، أو يشد أنفها، ولعله أحس أن حنان أمه أخذ يتحول إلى أخته الأصغر، وأن رعايتها تركزت باهتمام شديد نحو «عهد»!

يسترجع «خالد» الآن.. جانباً من أيام لم تبعد كثيراً:

لقد ولدت «إلهام» طفلة جميلة بعد «فارس» الذي أخذ يتكلم، ويرفض، ويحتد، ويركض.

يومها.. وقف «فارس» أمام أمه، وعلى مسمع من أبيه، يفجر سؤاله المفاجئ مخاطباً أمه:

ـ ماما.. ماما.. أنا بدي أم ثانية غيرك!

دهشت «إلهام» من هذا المطلب، والتفتت إلى ابنها تسأله باهتمام:

ـ ليه يا حبيبي.. ما هو أنا أمك؟!

ـ قال وهو مقطب حاجبيه: لأ.. إنت كنت أمي. لكنك دحين أنت أم «عهد» بس!

وتبادل «خالد» وزوجته النظرات، وكأن «خالد» يلومها، وينبِّهها إلى خطأ خطر وقعت فيه دون أن تقصد. ولكن «خالد» بادر ابنه، يجيبه قائلاً:

ـ ماما يا حبيبي.. هي أمك وأم «عهد»، وإنت وعهد أخوان.

ـ رد فارس يومها بعفوية: دا كلام ما هو صحيح.

ـ قالت أمه بغضب: عيب يا «فارس» تقول لبابا كده.

ـ قال خالد: أتركيه يتكلم!

وجذب إليه ابنه بحنان، ووضعه في حجره، وسأله:

ـ ليه كلامي ما هو صحيح؟!

ـ قال فارس: لأن ماما بتنوِّم «عهد» جنبها على السرير، وأنا تشخط فيَّ وتقول لي: روح نام في سريرك وإلا أضربك.

ـ قال خالد: تحب تنام جنبي؟ ما عندي مانع، لكن إنت صرت راجل كبير، ولك سرير خاص، وبعدين «عهد» لسة طفلة صغيرة بترضع وإنت بتاكل بالملعقة!

ضحك «فارس» وخبط بيده على ذقن أبيه، وقال له:

ـ يعني أنا راجل زيك كده.. وراح تطلع لي ذقن؟!

ـ قال والده: بالضبط.. بس لما تكبر راح تحلقها!

ـ قال فارس: طيب.. ليه ماما ما تطلع لها ذقن زيك يا بابا؟

ـ أجابته أمه: الرجال بس هم اللي تطلع لهم ذقن، لكن ماما يا حبيبي ست، والستات غير الرجال!

ـ قال والده ضاحكاً: يمكن الذقن يا حبيبي من أهم الحاجات اللي تميز الرجال من الستات في عمرنا.. بس بعض النساء عندهن ذقون!

ـ قالت إلهام: خالد!.. وبعدين معاك. الحمام يلقط الحب. الواد يفهم.. ده جيل كمبيوتر يا حبيبي!

ـ قال فارس: طيب.. ليه يا بابا ما تربي أنت شعر طويل كده زي ماما؟!

ـ قالت إلهام: وبعدين في الأسئلة اللي ما راح تخلص؟

ـ أجابه خالد مبتسماً: فيه يا حبيبي رجال عندهم شعر طويل زي ماما.. بس ما يعترفوا برجولتهم، وما هم قادرين يصيروا ستَّات!

ـ قالت إلهام: وبعدين يا خالد؟

ـ قال خالد: ولا قبلين.. لما يوصل «فارس» لسن المراهقة يا عالم راح يلاقي إيه، وأصناف إيه من البشر. على أيامنا شفنا الهيبيز، والجنس الثالث، والرجل يتحوَّل إلى امرأة بعملية جراحية بسيطة، والمرأة تتشبَّه بالرجل بدون عملية!.. يعني عمر العجائب!

❊ ❊ ❊

ابتسم «خالد» وهو يستطرد في تذكر بعض المواقف مع ابنه وزوجته، وفجأة ارتفع صوته مقهقهاً كما مجنون، وهو يقتعد كرسياً هزازاً في شرفة البيت.. فقد تذكر ذلك اليوم الذي اغتاظت فيه «إلهام» من ابنهما «فارس»!

كانوا قد انتقلوا منذ عشرة أيام إلى هذه «الفيلا» الواسعة، بعد أن تركا تلك «الشقة» الصغيرة، وبعد مولد ابنتهما «عهد».. وقد حرص «خالد» على السكنى في هذه «الفيلا» ليفسح مجالاً أرحب لابنهما «فارس».. يجد فيه هذا الفناء الكبير الذي يلعب فيه الكرة، ويركب دراجته ذات العجلات الثلاث.

وحين كان «فارس» يلعب في فناء «الفيلا» شاهد سيارة والده تقف أمام الباب، ومع والده رأى امرأة شابة في يدها حقيبة ملابس.. فقذف بدراجته بعيداً، وأخذ يركض إلى داخل «الفيلا» منادياً على أمه:

ـ ماما.. ماما. بابا جاء. بابا معاه ماما تانية علشاني!

وأسرعت «إلهام» إلى مدخل «الفيلا» لتجد زوجها «خالد» وخلفه الخادمة الأندونيسية التي أحضرها من المطار. ابتسمت، ولعلها لم تكبت فرحتها بقدوم الخادمة حتى ترتاح من أشياء كثيرة ترهقها. وجذبت إليها «فارس» سعيدة، وهي تقول له:

ـ دي ما هي ماما يا حبيبي. دي الخادمة اللي راح تساعدني في شغل البيت.

ـ قال فارس: راح أنام معاها في غرفتها.

ـ قالت تزجره بغير عنف: لأ يا حبيبي. . أنت تنام في غرفتك وسريرك.

ـ قال: بس أنا بدي ماما.

ـ قالت: وأنا يا حبيبي رحت فين؟. . أنا ماما!

ـ قال: لأ. . إنت مامت «عهد»!

وحمله والده بين ذراعيه، وقبَّله، وهو يقول. له:

ـ لا تخاف. . دحين ماما تتفرغ لك أنت وعهد، والخادمة دي تغسل ملابسك، وتطبخ لك الأكل، وتنظِّف غرفتك. بعدين «ماما» تزعل لما تقول مرة تانية كدة.

ـ قال فارس: يعني ماما تجلس معايا؟!

ـ قال والده: أيوه يا حبيبي، وتلعب معاك كمان. . بعدين الإنسان ماله غير واحده ماما وبس. فهمت؟!

ـ قال فارس: بس دي قد ماما. . صغيرة وحلوة!

ـ قال والده: يا ولد.. خلاص عيب كده!

ـ قالت إلهام وكأنها تنبَّهت: والله صحيح.. إنت اخترتها صغيرة ليه يا خالد؟!

تطلع إليها زوجها مغتاظاً، وقال:

ـ أنا اللي اخترتها، والا المكتب؟. بعدين دي المواصفات اللي حضرتك طلبتها.. ما بدي واحدة عجوزة «كركوبة» بدي شابة علشان تخدم زي الساعة الجديدة.

ـ قالت إلهام: خلاص: ما هو إنت أجوبتك جاهزة ما شاء الله.

ـ قال خالد: إذا ما هي عاجبتك نرجعها. ما هي المكاتب على حسابنا، وحلني على ما يختاروا لك واحدة تانية نص عمر!

❊ ❊ ❊

اقتربت «إلهام» من الشرفة.. حيث يجلس زوجها في شروده وتذكره، ووقفت تتأمله متعجبة لشروده، ومن ضحكاته التي انطلقت قبل قليل. هزته من كتفه وهي تقول:

ـ لابأس.. عندك بوادر جنون لما تضحك لوحدك مع نفسك؟.. ضحكنا معاك يا سيد!

ـ قال لها: تذكرت بعض مواقف «فارس» لما جاءت الخادمة.

ـ قالت: على فكرة.. «فارس» أصبح يحب «عائشة» بشكل عجيب.

ـ قال: عائشة مين.. بنت الجيران؟!

ـ قالت: جيران إيه يا أبو عين زائغة إنت.. نسيت؟ عائشة الخادمة.

ـ قال: أوه. . صح، طيب عال. . علشان تهتم به، وهي عندها ولد وبنت في بلدها، يمكن «فارس» يعوِّضها شوية عن فراقها لهم.

ـ قالت: يا خالد. . ده «فارس» بدأ يتكلم أندونيسي!

قفز من داخل مقعده، ونظر إلى زوجته كملدوغ. وهو يقول لها:

ـ يتكلم إيه؟. . دي لسه ما لها شهر، أنا كنت فاكر أننا نعلمها العربي!

ـ قالت: اللغة العربية صعبة. . لأنها لغة أصيلة!

ـ قال: يوه. . اعملي محامي عن اللغة. نحن في ولدنا، يعني بعد سنة يرطن أندونيسي ويكسّر في العربي؟!

ـ قالت: طيب نعمل إيه؟

ـ قال: نعمل إيه؟. . أنت المسؤولة، ما صدقتي الخادمة وصلت، رميتي الولد عليها، وتخلَّيتي عن مسؤوليتك. ده حتى ألعابه كلها في غرفتها. . ويأكل عندها. وينام عندها، ويتفرج على التليفزيون معاها. . وإنت كنت فين يا ست هانم؟!

ـ قالت: اسمع عاد. . . أنا في إيه والا إيه. . مشغولة يا أخي في «عهد»!

ـ قال: ويضيع فارس يعني؟

ـ قالت: يضيع ليه. . إنت مكبِّر الموضوع كده بدون لزوم!

ـ قال: مكبِّر إيه. . الموضوع فعلاً خطير، شوفي علَّمته إيه، وفهَّمته إيه؟!

ـ قالت: تكون علمته إيه يعني.. دي مسلمة، ومن مجتمع قريب!

ـ قال: إنت عمرك شفتيها تصلي؟!

ـ قالت: والله ما أدري.. يمكن في غرفتها.

وجرى «خالد» نحو غرفة الخادمة، وهو ينادي على «فارس».. يردد بصوت مرتفع:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.. أمهات إيه في هذا الزمن؟!

* * *

جيل إلكتروني!

وقف «خالد» بالقرب من مدخل غرفة «الخادمة» وقد هاله منظر ولده «فارس».

كان «فارس» يضحك مع الخادمة، وهي تؤدي أمامه حركات ضاحكة، وتشاركه اللعب وهو يتقافز أمامها، ويشد لها شعرها تارة، وتارة أخرى يمتطي ظهرها وتمثل تحته حركة الحصان.

ولم تكن هذه المشاهد تثير حنق والد «فارس». . فأطال التلصص، حتى رأى الخادمة تجلس «فارس» في حضنها، ثم تناولت كأساً مملوءاً منتصفه بالماء، وأشارت إلى الماء وقالت لـ «فارس»:

ـ آير!

وردد «فارس» وراءها نفس الكلمة باللغة الجاوية، ومعناها: الماء، ثم ضمت أصابع يدها وقربتها من شفتيها بحركة تدل على الأكل، وقالت له:

ـ «ممكن»!

وضحك «فارس» وأجابها باللغة العربية:

ـ أنا شبعان، ما بدي آكل. . تعالي نلعب.

انسحب «خالد» إلى غرفة المعيشة مع زوجته، دون أن يلحظه ابنه، ولا الخادمة، وما لبث «فارس» أن جاء إلى والده يركض ضاحكاً، وهو يقول:

ـ مكن.. مكن.. عائشة تبغي تاكل!

واحتواه والده في حضنه، وهو يقول له:

ـ هي عائشة علَّمتك كلام بلغتها؟!

ـ قال فارس: بابا.. قوم نروخ الـ «بَسَر»!

ـ سأله: «بَسَر» إيه يا ابني؟

ـ أجابه: عائشة قالت لي بالإشارة.. بدها تروح الـ «بَسَر»، وكانت تشير بيدها إلى الباب!

ـ قال خالد: بدها تروح السوق يا حبيبي.. بس إنت لا تردد كلامها.. إنت لازم تعلِّمها العربي، علشان هي جات من بلدها إلى هنا تتعلم العربي.

ـ قال فارس: بابا... عائشة فتحت الراديو ووقفت ترقص، ومسكت إيدي وخلتني أرقص معاها!

ـ عال.. قلبناها ديسكو.. شيء حلو!

ـ قال فارس: يعني إيه ديسكو يا بابا؟

ـ يعني مكان الرقص.

ـ تعالى يا بابا.. قوم.

ـ تروح فين يا فارس؟

وسحب «فارس» والده من يده إلى «الفيديو».. وأخرج فيلماً من

مجموعة كبيرة من الأفلام. كان يعرف الفيلم، ومكانه، وقال لوالده:

ـ حط الفيلم.

ـ فيلم إيه ده. . أشوف!

ذهل «خالد» عندما قرأ اسم «الفيلم»، واختلط ذهوله بضحكة زوجته، وهي تقول من آخر الغرفة:

ـ جيل تليفزيونجي يا سيد!

ـ قال: لأ. . اتخطى المرحلة دي ما شاء الله. . ده جيل إلكتروني، جيل كمبيوتر، يفهم بالتغذية السريعة. كفاية «سندوتش» رقص، ويرقص أحسن من «ترافولتا»!

ـ قالت إلهام: لازم اختار فيلم «مايكل جاكسون»؟!

التفت «فارس» نحو أمه في مكانها البعيد آخر الغرفة، وصرخ. . وطوَّح بقدميه في الهواء، وأخذ يرقص، ويردد كلمات أغنية مشهورة لمايكل جاكسون!

استغرق «خالد» في ذهوله، وارتمى فوق أرض الغرفة ضاحكاً، ثم اتكأ على ذراعه، وهو يتأمل «فارس» في رقصة المتر الواحد.

ولم ينتظر «فارس» أن يلملم والده نفسه، فتناول الفيلم، ووضعه في جهاز الفيديو، وظهرت صورة «مايكل جاكسون» وارتفع صوته. . بينما وقف «فارس» في وسط الغرفة يقلد الرقصة، ويشد والده من يده ليقف ويشاركه الرقص، ولما يئس من والده. . جرى نحو أمه، وأخذ يشدها بقوته المحدودة لترقص معه!

وما زال «خالد» في ذهوله الذي تضاعف وهو يرى زوجته تجاري ابنهما وتقف، وتشاركه نفس الرقصة التي يعرضها الفيلم.

ـ قال لزوجته: ما شاء الله.. ولا «أوليفيا نيوتن» مع ترافولتا؟!

ـ قالت وهي مستمرة مع ابنها: ترافولتا مين يا سيد.. الموضة الآن هو «مايكل»!

ـ قال: وليه ما عمري شفتك ترقصي قدامي، والا معايا..ها؟

ـ قالت: أنكسف

ـ قال ضاحكاً: تنكسفي؟.. ما هو باين!

انتهت الرقصة.. فسقطت «إلهام» بجانب زوجها تلهث، وهي تضحك قائلة:

ـ تصور.. ما عندي حيل بعد ما حملت مرتين؟

ـ قال خالد: لأ؟.. عيني عليكي باردة.. ما تروحي تصحّي «عهد» وتجيبيها ترقص؟

ـ قالت: وي.. أنت اتجننت.. دي ما تقدرش تمشي حتى الآن!

ـ قال: يمكن لما تشوف المستر «مايكل» تنفخ الموسيقى في سيقانها وتمشي وترقص، ما هو جيل كمبيوتري!

وجرى «فارس» إلى الفيديو، وأعاد الفيلم من بدايته، ليعيد الرقصة نفسها.. ووالده يتطلع إليه مندهشاً، والتفت إلى زوجته متسائلاً:

ـ بدي أعرف.. متى اتعلم «فارس» يشغِّل الفيديو، ويعيد الفيلم؟!

ـ قالت إلهام: أنا إيه عرفني.. تلاقيه شاف واحد مننا.

وشرد «خالد» بأفكاره لعدة دقائق، وهو يحدق في وجه زوجته ثم استوى في جلسته، وسألها:

ـ إلهام. . جاوبيني بصراحة!

ـ قالت: باسم الله عليك، كأنك تنوي التحقيق معايا؟

ـ قال: ريِّحيني. . إنت بتخرجي وبتتركي الولد مع الخادمة. . مضبوط؟

ـ قالت: مضبوط. . إنما ما هو دائماً، يمكن لما أروح عند الجيران.

ـ قال: فعلاً. . لما تروحي عند الجيران، تتركي «فارس» مع الخادمة، ولما ما تلاقي الخادمة أحد معاها في البيت إلاَّ «فارس» تفتح الفيديو. . محتمل، ها؟

ـ قالت: محتمل. . لكن كيف تجرؤ «عائشة» على فتح الفيديو؟!

ـ قال: أنت ما لاحظتي أنها كانت ترقص مع «فارس» لما شفناهم في الغرفة؟

ـ قالت: لاحظت. . لكن، تلاقي عائشة متعلمة من بلدها. . ما هي بنت شابة، وهذا رأيي من يوم ما شفتها، وحضرتك زعلت يومها!

ـ قال: ما هو هذا الموضوع. . لا توجهي البوصلة إلى ناحية تانية. الخادمة علَّمت «فارس» كيف يفتح الفيديو، وعلمته على الرقص. . دا بيرقص زي «جاكسون» بالضبط، وهو حتى الآن ما طلع من البيضة يا هانم. . شايفة إهمالك عمل إيه؟!

ـ قالت: الله. . رميت المشكلة كلها على كتفي؟. . ما هي كل البيوت فيها. خادمات وأطفال وفيديو؟!

ـ قال: صحيح.. ومين اللي قال إننا وحدنا نعاني من هذه الظاهرة؟!

ـ قالت: طيب.. بيع الفيديو، وحط «عائشة» في طائرة، ورجِّعها إلى أهلها، وخلاص.. تتحل المشكلة!

ـ قال: بتسخري يا مدام؟!

ـ قالت: ما بأسخر.. الحلول ما تجي بالانفعال، أو الغضب!!

ـ قال: تجي كيف.. إذا كانت الأم تترك طفلها للخادمة توجهه حسب ما تريد.

ـ قالت: رجعنا للغلط.. ما هو معقول أسمّر نفسي قدام «فارس» طول الوقت!

وارتفع صوتا «خالد» و«إلهام».. كل منهما يلقي اللوم على الآخر، وكل منهما يحمل الآخر مسؤولية التوجيه، وامتد النقاش الساخن بينهما إلى أساليب التربية، وواجبات الأم والأب!

التفت «خالد» بعد دقائق بعصبية يبحث عن «فارس»، فاكتشف غيابه عن الغرفة.. وشد انتباهه أكثر ذلك المنظر القادم إليه من غرفة النوم!

فقد رأى «عهد» تطل برأسها من باب غرفة النوم، ثم تحبو على ركبتيها. ويديها. وهي تهز رأسها يميناً وشمالاً!

قال خالد إلهام شوفي بنتك بتعمل إيه؟!

التفتت »إلهام« نحو ابنتها وأطلقت ضحكة عالية بعد ذلك الصراخ والخناق.

ـ قال خالد: بتضحكي على إيه.. عاجبك منظرها؟!

ـ قالت إلهام: أنا عارفة؟.. يمكن بترقص وهي في مرحلة الحبو..

كل شيء ممكن يا خلدون!

ـ قال خالد: بترقص براسها؟ حلو.. شيء جميل، كملت، نفتح البيت ديسكو!

اقتربت ابنتهما «عهد» من أمها، واستقرَّت في حضنها، ثم رفعت يديها وأخذت تصفق، وهي تضحك!

تطلع «خالد» إلى زوجته. أطال التحديق فيها. قالت له:

ـ إيه.. دي كمان الخادمة علَّمتها؟!

ـ قال خالد: لأ.. لسة بدري، إنما يعني افتكري كده، يمكن......

ـ قاطعته إلهام: خالد.. فوق لما تتكلم، بلاش تلبِّخ.. أنا عارفتك!

جذبها «خالد» من يدها لتمشي معه، وهي تمانع، متسائلة:

ـ على فين.. راح تضربني يعني؟.. احنا الاتنين مشتركين في مسؤولية التربية، بعدين، دي طفلة، بتقلد!

ـ قال: ما هو أنا عارف إنها بتقلد.. أنا بدي أشوف الأصل في غرفة مقفلة!

دخل «فارس» وهما يتجادلان، ونظر إليهما، ثم قال:

ـ ما خلصت الخناقة؟.. عيب يا كبار.. تعالوا نرقص!

* * *

شعرها الطويل

استغرق جلوس «إلهام» أمام المرآة أكثر من ساعة.. كانت أثناء ذلك تتزين، وتفرد شعرها. نظرت إلى شعرها وقد لاحظت أنه قد طال. ابتسمت سعيدة وهي ترى شعرها يطول، وقد فردته فوق ظهرها وعلى كتفيها. سيأتي «خالد» الآن وتدهشه المفاجأة.

إنها تبدو كعروس في ليلة جلوتها، وقد حرمت زوجها من رؤية شعرها وملاحظته فترة طويلة.. كانت تتهرب أثناءها من إطلاق سراح هذا الشعر أمام زوجها ليراه الليلة قد طال كما يحب.

احتملت وقتاً طويلاً كلمات زوجها الدبابيس. وهو يراها دائماً ترفع هذا الشعر، وتخفيه، أو تلفه، وكان يغمزها في بعض الأحيان قائلاً:

ـ إنتو كده يا ستات.. ما تتزيَّنوا للزوج، وإنما للسهرة وللمناسبات، والغريبة إنكم ستات مع بعض!

ـ كانت ترد عليه: الستات ينتقدوا بعض.. دي شعرها خشن، دي تسريحتها وحشة. دي تصبغ شعرها بلون الفستان والا «المانكير»!

ابتسمت «إلهام» وهي تستعيد المواقف الاستفزازية منها لزوجها، ووقفت.. شدت حزام الفستان على وسطها، ووضعت عطرها. دخل عليها

«فارس» في غرفتها . . ورأى شعر أمه المسدل الطويل، وأناقتها. سألها:

ماما . . إنت رايحة فين؟

قالت: ولا مكان يا حبيبي . . روح ألعب.

وعـاد «خـالـد» . . وجذب انتباهه تغيير ملـحوظ في ترتيب البيت، . وفاحت رائحة العطر، و «العود» في أرجاء الدور كله. وفي ذهنه سؤال:

ـ ترى . . هل سيأتي إلينا ضيوف؟!

حين توسط غرفة النوم، وكان يهم بتبديل ملابسه . . أحس بحركة خلفه، وقبل أن يستدير، أحاطته يدا «إلهام» وقد أسندت رأسها على ظهره، وقالت:

ـ تحبني؟!

استدار نحوها، وفغر الفاه اندهاشاً، ثم صفَّر بشفتيه مبتسماً، يقول:

ـ إيه ده كله . . مين العروسة دي؟!

ـ قالت: حبيبتك . . زوجتك . كل سنة وأنت طيب!.

استقرت الكلمة بين ضلوعه، ثم ما لبث أن شعر برجفة هذه الضلوع. قال لها:

ـ وانت طيبة ياحبيبتي . . إيه المناسبة، اللهم؟!

ـ قالت: دايماً تنسى ذكرى ميلادك!

قال: ياه . . . والله كنت ناسي. و . . . . . .

تطلع إلى وجهها، وإلى أناقتها وزينتها، وتوقف أمام شعرها المسدل، وقال:

ـ أنت فعلاً عروسة.. ده كله لي أنا، وفين كان الشعر الطويل ده اللي على الخدود يهفهف؟!

ـ قالت: كان مستخبِّي.. علشان تشوفه طويل فجأة. أنا كم «خالد» عندي؟!

ودفع «فارس» باب الغرفة راكضاً.. ينادي: بابا... بابا!

ـ قال خالد: ودا وقته يا سيد فارس.. نعم يا حبيبي؟!

ـ قال فارس وهو يشير إلى أمه: شايف المدام دي.. رايحة تتزوج الليلة!

ـ قالت إلهام: بس يا ولد.. عيب!

ـ قال فارس: أنا مالي.. أنا بدي عروسة زي ماما كده أتزوجها، وأبوسها كمان!

ضحكا معاً من قلبيهما، و «خالد» يقول لزوجته:

ـ ما قلت لك.. جيل إلكتروني، طالع من الأرض السابعة.. جن يعني!

ـ قالت: قول ما شاء الله.. الولد ذكي!

ـ قال: لأ.. العصر هو اللي سريع، ما يحتمل المراحل اللي كنا نسميها: الطفولة، والفتوة، والشباب، والنضج!!

ـ قالت: يمكن المراحل امتزجت، وأحياناً. بيصير فيها «لخبطة».. يعني طفولة على شباب، على رجولة. أنت مثلاً.. تصير طفلاً في بعض الأحيان!

ـ قال خالد: العاطفة يا حبيبتي هي طفولة الإنسان، والطفل الصغير يصير رجلاً في بعض المواقف الصعبة والقاسية!

ومشى «فارس» أمامهما إلى الغرفة الأخرى، وقد حاول أن يقلِّد «الزغاريد» بفمه، ويتقافز مردداً:

ـ عروسة وعريس. . عروسة وعريس. ماما. . . متى تجيبي لي أخ ولد، ما بدي بنت. «عهد» ما هي راضية توقف وتمشي وتجري معايا. . الولد يمشي بسرعة!

ـ قالت أمه ضاحكة: الولد مستعجل دائماً. . زي أبوك كده!

ـ قال فارس يخاطب والده: ياللا يا بابا. . لبس ماما الشبكة!

ـ قال والده مذهولاً: وانت من فين عرفت حكاية الشبكة؟!

ـ قال فارس: من الأفلام العربي طبعاً ياسي بابا!

قفزت «إلهام» فجأة وهي تتجه نحو غرفة النوم، قائلة:

ـ يوه. . نسيتني يا فارس لما دخلت الغرفة. . الله يسامحك.

وعادت تحمل في يدها علبة صغيرة مخبأة في ورق ملوَّن، وقدمتها إلى زوجها قائلة:

ـ كل سنة وأنت طيب يا أبو فارس!

ـ قال خالد: وإنت طيبة يا حبيبتي. لكن. . هذا ما هو جواب الهدية. . إنما أعمل أيه و «فارس» واقف قدامنا كده زي الجندي؟!

خطف «فارس» العلبة من يد والده، وقال وهو يضحك:

ـ أنا أتفرج على الهدية يا بابا. . وإنت اتفرج على ماما!

ـ نهرته أمه قائلة: عيب يا ولد.!

فتح «فارس» العلبة، وهو يصفِّر، قائلاً:

ـ ياه.. هادا خاتم يجنن يا بابا!

ورمى العلبة بمحتواها في حضن أبيه، وانطلق يجري ويتقافز، مردداً:

ـ ويه.. ويه. أبويا اتزوج أمي.. أمي أعطت أبويا شبكة.. ويه، ويه!

أطفأ «خالد» ضوء الأباجورة، واستلقى على الوسادة، يضع رأسه على كفيه.. همست «إلهام» مع نثار الضوء المتسرب من خلال الستارة، قائلة:

ـ فارس بدأ يكبر يا خالد.. صار جنِّي من بدري!

ـ وكل ما يكبر.. أحسّ إني أكبر معاه.

ـ لكن أنا ما راح أكبر.. طالما بقيت جنبي يا خالد.

ـ أنا جنبك بس يا إلهام؟!

ـ لأ.. أنت في قلبي، لكن أقصد أننا نبقى كده مع بعض في حب يكبر وما يبرد!

ـ وإنت كمان يا إلهام.. كل ما أعطيتني من حبك، زاد حبي لك.

ـ أنا عارفة إنك تحبني، ولكن يقولوا دائماً: إن الرجل يمل بعد سنة، بعد اثنين.

ـ وهل شعرت بملل مني، بعد أربع سنين؟!

ـ لأ يا حبيبي.. لكن أنت تغضب بسرعة. الشيء الوحيد اللي عجزت إني أعالجه فيك سرعة غضبك، وهذا له تأثير، وإنت عارف!

ـ صحيح. . بس إنت زوجتي وتحتمليني، ودي طبيعتي، ما أقدر أمسك أعصابي.

ـ أنا أحتمل علشانك كل شيء. . لكن إحنا كبرنا شوية، خلاص طيش! الشباب صار مكانه مسؤولية، وبناء حياة.

ـ تقصدي إيه. . أنا مقصر معاكي؟!

ـ لا تغضب. . شفت، كلمة واحدة أثارتك.

ـ ما أقصد الغضب. . وإنت لا تستفزِّيني.

ـ أنت عارف أن الحياة بتتطور، والظروف بتتغير، وسريعة في التغيير، يعني لازم نلتفت لبناء الحياة، عندنا ولد وبنت، كفاية الآن. الفيلا دي وحدها ما تكفي. الاعتماد على مرتبك ما هو نهاية المطاف.

ـ أعمل إيه يعني. . انتحر؟!

ـ لأ. . تفكِّر، نفكِّر مع بعض.

ـ قولي. . أسرق يعني، أرتشي؟!

ـ يا حبيبي ما طلبت منك كده. . الرجل الشريف ما ينحرف، وأنا كمان ما أرضى أعيش عمري مع رجل غير نظيف.

ـ طيب. . أعمل إيه؟!

ـ تجرِّب. . تحاول. أدخل في تجارة، زاحم!

ـ أنا ما خلقت تاجراً. . ما اللهم فيها.

ـ وتستمر موظف في شركة وبس. . ويا رب أرزقني؟!

ـ أنا بأحاول أشتغل فوق طاقتي، وغير كده ما عندي.

ـ شفت الناس اللي هبطت عليهم فلوس زي الرز في ظرف سنة واحدة؟!

ـ أرزاق.. وفرص.

ـ وشطارة، ومحاولة!

ـ يعني كان المفروض في رأيك أتاجر في الأراضي مثلاً؟

ـ وليه لأ. اللي عملوا كده كسبوا!

ـ قلت لك فرص وأرزاق، وبعدين دي كانت طفرة مؤقتة وانتهت. شوفي الأراضي الآن نازلة الأرض.

ـ شوف محاولة ثانية.

ـ يا إلهام.. ياحبيبتي. نحن مستورين والا لأ. أولادنا ناقص عليهم شيء؟!

ـ لأ. إنما الحياة فرص، والإنسان ما يكره إنه يحسِّن معيشته!

ـ يا شيخه قولي الحمد لله.. فيه ناس الله يعلم بحالهم!

ـ أنا قصدي إننا نؤمِّن مستقبل الولد والبنت!

ـ الولد والبنت.. كل واحد يؤمِّن مستقبله بالتعليم.. بمقدار ما يتعلَّم ويتفوَّق. الأب ما يصرف على أولاده طول العمر.. لازم يعتمدوا على أنفسهم، والأب يراقب وما يتخلى!

ـ طيب والبنت؟!

ـ ما لها البنت. . بتتعلم هي أيضاً، وبتاخد فرصتها بالتعليم وبالزواج برجل يسعدها.

ـ وإذا جاء الرجل خسيس. . يذلها، أو يهينها أو يستغلها؟!

ـ أصابعك ما هي زي بعض. . أولاد الناس المتربيين كتير، وهذه الأمور قسمة ونصيب!

ـ يا خالد. . فكِّر شوية!

ـ إلهام. . لا تفسدي الليلة الجميلة دي. . تعالي أقول لك!

ـ تقول إيه؟!

ـ لازم أقول لك. . . باحبك، ولازم ننام يا ذات الشعر الطويل المضيء بالأحلام!

* * *

من أين جئت؟!

دخل «فارس» راكضاً إلى الصالة وهو يبحث عن والديه.. يقتحم الغرف منادياً:

ـ بابا... ماما.

كان يلهث من الجري، وما إن رأى أمه تقف في المطبخ حتى انطلق إليها، وضربها على مؤخرتها بعصبية ملحوظة، وهو يقول:

ـ لولو.. لولو، جابت فارس!

ابتسمت أمه، وأشارت له نحو غرفة النوم، قائلة:

ـ روح لبابا وبشِّره.. يمكن يقوم معاك ويعمل «قابلة»!

وانطلق «فارس» إلى والده يسحبه من يده مهتماً، وهو يقول:

ـ قوم معايا.. لولو جابت فارس. ماما تقول لك تعال معايا!

ـ ماما هي اللي قالت لك.. أعمل «داية» قطط على آخر الزمان؟!

ـ قوم يا بابا.. دي لولو مسكينة!

مر «خالد» من أمام باب المطبخ ينظر شزراً نحو زوجته، ولم يتخطّها

كثيراً حتى عاد إليها وهي تضحك، وسحبها من يدها. لتحضر معه ومع ولدهما «فارس» حفل ميلاد ابن لولو!

وشاهدوا قطَّتهم البيضاء الرومية مستلقية، وبجانبها فرخها الصغير تلحسه وتحنو عليه و «فارس» يجلس على ركبتيه الصغيرتين مندهشاً ومتأملاً هذا المشهد الذى يراه للمرة الأولى. . ثم التفت نحو أمه قائلاً:

ـ أنا كنت كده يا ماما. . قد هادا القط الصغير؟!

ـ قالت له: لأ يا حبيبي. . كنت أكبر منه بكتير. الأطفال من البشر غير الحيوانات!

ـ قال: وعملت معايا كده زي لولو. . كنت تلحسيني؟!

ـ قالت: لا دي كمان. البني آدمين ما يلحسوا أطفالهم.

نظر «فارس» إلى والده، وهزه من يده بسؤال آخر:

ـ بابا. . فين أبوه؟!

ـ أبوه؟!. . أبوه آه، لازم راح يجيب أكل لزوجته!

ـ قالت أمه: لا تكذب على «فارس» يا خالد. . هادا يفهم أحسن مني ومنك!

ـ قال: ما فيش لزوم. . الولد صغير.

ـ قال فارس: ليه يا ماما. . هو أبوه مات؟!

شعرت «إلهام» بالإحراج. . فما تدري كيف تجيب، والتفت نحوها «خالد» قائلاً:

ـ يا الله. . خلصي نفسك من المطب!

ـ قالت: القطط ياحبيبي يختلفوا عن البشر.. يعني كيف؟ أقول لك.. الأب ما يسكن مع الأم، إنما يلتقي معاها مرة واحدة، أو اثنين، وبعدين خلاص.

ـ قال فارس: بابا.. أنا من فين جيت؟

ـ من بطن ماما يا حبيبي.

ـ كيف دخلت بطن ماما؟!

ـ قالت أمه: إنت ما دخلت بحجمك هادا.. أنت بدأت بذرة صغيرة، كبرت، وكبرت. حتى صرت في شكل إنسان.

ـ قال فارس: ومين اللي حط البذرة الصغيرة في بطنك يا ماما؟!

ـ قال والده: أنا يا حبيبي.

ـ قالت إلهام بفزع: خالد.. إنت اتجننت؟!

ـ قال خالد لولده: أنا يا حبيبي اتزوجت ماما، وبعدين....

ـ قاطعه فارس: بس.. فهمت!

ـ قالت أمه: فهمت إيه؟!

ـ قال فارس: لما أكبر.. آخذ بذرة من الزرع، وأحطها في فم أختي عهد!

ـ قالت أمه: لأ يا «فارس».. تحطها في فم زوجتك.

ـ قال: طيب مين هي زوجتي؟!

نظرت «إلهام» إلى «خالد»... وكل منهما يتطلع في وجه الآخر. وقام

«خالد» واقفاً، وحمل ابنه بين ذراعيه، وهو يقول:

ـ ندخل الفيلا، ونشرب الشاهي، ونلعب مع بعض. . هيا.

ـ قال فارس مصمماً: أنا بدي أتزوج بنت خالتي.

ـ سأله والده: ليه بنت خالتك بالذات؟!

ـ قال فارس: أصلها حلوة، وتضحك دايماً!

جلس «خالد» أمام التلفاز، وبجانبه زوجته. . بينما انطلق «فارس» من جديد إلى فناء «الفيلا» مشدوداً إلى القطة التي ولدت «قطاً» وهو يصر أن يسميه باسمه!

التفت «خالد» يتساءل. . يفتش عن ابنتهما «عهد». . عرف أنها نائمة.

ـ سألته إلهام: بتسأل عنها ليه. . ناقصين أسئلة من «عهد» كمان؟!

ـ قال: دي لسه ما اتكلمت!

ـ قالت: راح تتكلم، ونوقف نفس الموقف. . أنا اتصببت عرق، في حياتي مامر علي موقف زي ده!

ـ قال: :كله منك. . إنت السبب.

ـ قالت: ولله الأمهات مظلومات مع الآباء. مسؤوليتك أنك تفهم الولد بأدب، ما هو بالطريقة المباشرة.

ـ قال: أنا ما كلمته مباشرة، ولازم يفهم. والموقف ذكرني بقصة فيلم أجنبي عن طفلة واجهت أمها ووالدها بأسئلة شبيهة، وما صدقت الأم مع طفلتها وأفهمتها أنهم وجدوها تحت شجرة، ولما كبرت البنت بعد عشر سنوات كادت تحدث كارثة مع ولد في سنها!

ـ قالت: يعني الأم مسؤولة.. مصمم؟!

ـ قال: الفائدة الرئيسية المباشرة من تعليم المرأة.. إنها لما تصبح أم تعرف كيف تتعامل مع أطفالها، وكيف تجيب عن الأسئلة الحرجة.. تقرأ لهم القصص قبل النوم، وتفتح مداركهم.. وأنا قرأت مرة خبراً عن نقابة مديري وأساتذة المدارس في بريطانيا.. النقابة صرحت أن أمهات اليوم ما عندهم الرغبة ولا الصبر للحديث مع الأطفال، وقالت النقابة: إن علاقة الأم بأطفالها انحصرت في اللقاء حول مائدة الطعام، أو ساعة النوم، وطبعاً.. النتيجة انعكست على الأطفال.. صار عندهم خجل من مواجهة الآخرين، والكبار بالذات، وصار عندهم فقدان للاعتماد على النفس لأن الأطفال لم يجدوا من يوجههم!

ـ قالت: ما شاء الله.. وهذه الأشياء كلها من مسؤولية الأم، وفين دور الأب؟!

ـ قال: الأب له دور بلا شك.. لكن مرحلة الطفولة الأولى من مسؤوليات الأمهات. الأم ما عادت تتكلم مع طفلها كثيراً.

ـ قالت: طيب ما هو إحنا كبرنا، وأمهاتنا ما قرأوا لنا، بعض الأمهات غير متعلمات، كيف عرفنا وطلعنا كده؟!

ـ قال: التعليم صهرنا وشذبنا.. إنما لا تنسي إن كل واحد لا بد في داخله نقص، أو عقدة.. شيء من آثار التربية القديمة، إما من الضرب أو العنف، وإما من الجهل!

ـ قالت: ومشكلتنا اليوم؟!

ـ قال: هي مشكلة أطفالنا. . إنهم يعانوا من تسيُّب الأم، وانشغال الأب.

عاد «فارس» إلى والديه وهو يضحك، ويتقافز، ويخاطب والده:

ـ بابا. . لولو اختفت، وولدها «فارس» القط، نايم لوحده.

ـ لازم راحت تاكل يا حبيبي. . لا تخاف، الأم ما تترك طفلها أبداً.

ـ لكن ماما بتتركني في البيت مع «عائشة» وتخرج.

ـ لأنك كبرت شوية، لكن لما كنت طفل قد ولد «لولو» ما كانت تتركك أبداً، دايما أنت في حضنها. . لما أنا ملّيت!

ـ قالت إلهام: ملّيت إيه كمان؟. . كفاية مع الولد. . نجلس مع أطفالنا تقولوا مقصرين في حق الطفل. . نحن احترنا!

ـ قال خالد: لما تتركي طفلك، ما بتروحي للأب، إنما تخرجي!!

ـ قالت: يعني ما اشم نفسي. . أنحبس في البيت؟!

ـ قال: لأ. . . التنظيم مهم.

تصاعد بكاء «عهد» من غرفة النوم المجاورة. قفزت «إلهام» ركضاً نحوها، وهي تقول لزوجها:

ـ اتفضل. . أنا صرت داده!

احتضن «خالد» ابنه وهو يبتسم لانفعال زوجته، وقبَّله، ثم طلب منه أن يذهب إلى غرفته ويلعب، وينام، واتجه «خالد» نحو غرفة النوم. . ليجد «إلهام» تهدهد ابنتهما لتعود إلى نومها. . بعد أن سقتها من عطشها.

أحاط «خالد» زوجته بذراعيه، وهو يهمس لها:

ـ قدمت لك خدمة عظيمة.. اقنعت «فارس» يروح ينام علشان نجلس مع بعض وحدنا ونتكلم!

ـ قالت: أنا تعبانة من ولدك وبنتك، والنوم في عيني.. نام إنت كمان، ما تعبت؟!

ـ قال: لسه.. نفسي أتعب شويه!

ـ قالت:. اجلس اقرأ كلمتين تفيدك.. يمكن تعرف تجاوب على أسئلة فارس. وبعدين «عهد».. بدل التَّلبيخ في أجوبتك.

ـ قال: عهد.. إنت اللي تجاوبي على أسئلتها لأنها زيك.

ـ قالت: خلاص.. اتفقنا. روح نام.

ـ قال: وأنت؟!

ـ قالت: تحب إني أهدهدك وأنومك زي أطفالك؟!

ـ قال: يا ريت.. اتعود شعر راسي على جولة ليلية لأصابع يدك!

ـ قالت: الشعر في الليل بس.. إنما في النهار تطلق قذائف. يا ساتر!

ـ قال: الليل وعاء الشعر والموسيقى والحب.. والليل من غيرك يصبح غابة موحشة وكئيبة!!

ـ قالت: أنا ما عندي طفلين.. عندي ثلاثة أطفال، إنما الثالث متعب بشكل!

* * *

«فارس» في صاروخ!؟

حين فتح «خالد» باب الفيلا الداخلي. . تناهى إلى سمعه صوت «فارس» وهو يبكي، مختلطاً بصوت أخته «عهد». . كأنهما اتفقا على «وصلة» بكاء تم توقيتها مع دخوله إلى بيته.

هرع إلى الداخل يتساءل. . باحثاً عن زوجته، حتى وجدها تحضن «فارس» وتمسح شعر رأسه وتقبِّله. . بينما كانت «عهد» محمولة فوق كتف الخادمة التي تطوف بها أرجاء البيت.

وأوجس أن شيئاً غير عادي يحدث الآن. . فقد تعود من ابنهما «فارس» أنه حين تكون أخته «عهد» تصرخ باكية. . ينظر إليها. ويقترب منها مربتاً عليها، ولو كان يبكي. . فإنه يكف عن البكاء.

سأل زوجته عن هذا الأمر. قالت:

ـ تعطل التيَّار الكهربائي لمدة ساعة، ولا بد أن «عهد» افتقدت هواء التكييف البارد. . تقول إحنا ولدناها في سيبيريا. . بس، راحت تبكي.

ـ سألها: وفارس. . بيبكي ليه؟!

ـ قالت: من بعد الظهر بعد ما خرجت وهو لازم كلمة واحدة. . أبغى

المراجيح.. أبغى البحر، ولما شاف أخته تبكي، اتضامن معاها.. وأنا اللي أعاني لوحدي!.

احتضن ابنه، ومسح على شعر رأسه، قائلاً:

ـ خلاص لا تبكي.. الآن نروح المراجيح أما البحر ما أحد يروح عنده في الليل.. يوم الخميس نروح البحر. قوم مع أمك علشان تلبس.

وانطلق «فارس» يتقافز، وهو يقود أمه خلفه لتبدِّل له ملابسه.

في السيارة.. التفت «خالد» يسأل زوجته:

ـ نروح فين؟!

ـ بتسألني؟.. المراجيح، وفيه غيرها؟!

ـ أخاف عليه من السقوط، أو من خبطة؟

ـ إحنا معاه نتتبه له.. يعني نروح فين؟

ـ الترفيه للطفل مهم جداً.. في اليابان بيقفلوا شوارع علشان ينطلقوا الأطفال فيها بحريتهم، ويختلطوا، ويشاركوا بعض في اللعب. شوفي مساحة الرقعة اللي فيها المراجيح صغيرة كيف.. وزحام شديد، بينما الأطفال يحتاجوا لمساحات كبيرة للترفيه.

ـ يعني.. عدد السيارات في الدول العربية يمكن أكتر من عدد الناس!

ـ والأطفال ما يلاقوا أماكن يجروا فيها ويلعبوا.

ـ برضه نحمد الله.. في أماكن تانية، الأطفال بيموتوا. أنا قرأت أمس أن خمسة ملايين طفل أفريقي راح يموتوا في هادا العام ٨٦، وعدد زيهم يصابوا بعاهات دائمة نتيجة سوء التغذية والجوع والأمراض.

ـ هذا بالاضافة إلى الأطفال اللي بتحصدهم الحرب والكوارث. . يعني. قالوا: إنه ريع صفقة واحدة من صفقات السلاح اللي بتبرم على جثث الأطفال تكفي لإطعام بضعة آلاف من أطفال العالم الجياع!

ـ بس ياشيخ من السيرة دي. . ربنا يتولاهم بعنايته. نحن صحيح في خير، إنما الإنسان يطمع في مناخ أحسن وإمكانيات متوافرة لترفيه الأطفال.

ـ نحن وصلنا إلى «اللونابارك». . يا الله يا فارس. . تركب المرجيحة؟

ـ قال فارس: لأ. . ما بدي!

ارتسمت الدهشة على وجهي الأم والأب. . سألاه بصوت واحد:

ـ ليه. . إنت طلعتنا من البيت علشان المراجيح؟!

ـ قال: جوه فيه حرب!

ـ قال والده: حرب إيه. . شوف الأطفال بيتمرجحوا؟

ـ قال فارس: إنت وماما بتقولوا كده.

ـ قالت أمه: لأ يا حبيبي. . الكلام اللي سمعته ما هو في بلدنا، وكمان بعيد كتير.

ـ قال فارس: طيب. . أركب السيارات علشان أصدم الأولاد التانيين.

ـ قال والده: وليه العدوانية المبكرة دي. . المراجيح حلوة؟

أصر «فارس» على ركوب السيارات، وكان يبدو سعيداً، وهو يصدم بعربته العربات الأخرى، وصوته يتعالى ضاحكاً.

ـ قالت إلهام: شوف «عهد» بتشاور بإيدها. . بدها تركب المراجيح، خلِّيني أطلعها المراجيح مع عائشة.

ـ قال خالد: حتى المراجيح مع عائشة؟.. ما تطلعي إنت معاها؟

ـ قالت: وي.. أتمرجح؟!

ـ قال: وفيها إيه.. تلاقيكي نفسك تعملي زي الأطفال.. حتى أنا أتمرجح.

ـ قالت: وفارس.. نخليه لوحده؟

ـ قال: خلاص.. أنا مع فارس، وأنت مع عهد.. بس لاحظي، لا يقولوا لي بعد قليل إنك سقطت من المرجيحة!

ضربته على يده وهي تضحك، وحملت ابنتها إلى المراجيح.

وبقي «خالد» يراقب ابنه السعيد بنزهته، وبألعابه.. وفي سرحته وحده كان يتذكر ما نشرته إحدى المجلات الأجنبية عن «أطفال الفضاء».. فقد خدمت المجلة في ريبورتاجها فكرة تعود الأطفال في وقت مبكر على الفضاء، وضرورة توجيه الدعوة إلى أطفال في سن الرابعة والخامسة للصعود إلى مركبة فضاء ومشاهدتها من أجل التجربة الفعلية!

حدث «خالد» نفسه:

ـ لقد انتهى العالم الغربي المتحضر من مشكلات أماكن الترفيه ووسائل التربية، حتى بلغوا فكرة إنضاج ذهنية الطفل في وقت مبكِّر!

جاءت «إلهام» تحمل طفلتها، وهي تتصبب عرقاً، وتلهث. و «خالد» ينظر إليها وهو يبتسم:

ـ يظهر عليك التعب. ياه.. مرجيحة تتعبك؟.. شباب إيه، وكلام إيه؟

ـ يا خالد.. أنا ما تعودت.

ـ والمرجيحة فيها تعود كمان؟. . إلاّ قولي شباب آخر زمن هفتان. شوفي أمريكا تفكِّر تطلع الأطفال إلى الفضاء، وطلعت امرأة إلى الفضاء، خليكم في الملوخية والكعب العالي!

ـ بلاش تريقة. . فين فارس؟!

ـ فارس نزل من السيارات، وجاءني يجري. . تصوري طلب إيه؟!

ـ يمكن طلب يركب طائرة؟

ـ لأ. . قال لي بابا. . بدي صاروخ علشان أصادم به!

ـ خلاص. . أرسله أمريكا. .

ـ إنت حتقولي؟ إن شاء الله أرسله يدرس علم الفضاء.

ـ بس خليه يكبر في الأول، ويدخل المدرسة. قوم بنا نرجع البيت، أنا تعبت.

في العربة المتجهة بهم إلى المنزل. . قال «خالد» لزوجته:

ـ تذكري أسئلة الأسبوع الماضي؟!

ـ أسئلة إيه؟!

ـ نسيتي؟. . اللي أحرجنا بها الأخ الجالس في المقعد الخلفي!

ـ آه. . . خلاص قفّل، الأخ اللي ورا بيفهم والحمام بيلقط الحب!

ـ حب إيه، وحمام إيه. . دا سألني سؤال يعرق قبل شوية!

ـ سؤال إيه؟

ـ المهم.. شيء كده عن الأطفال برضه. قال لي هو فيه آباء بيبيعوا أطفالهم؟!

ـ وقلت له إيه؟

ـ قلت له: لأ يا حبيبي.. مين قال لك؟!

ـ ورد عليك بإيه؟!

ـ رد وقال: في الفيديو شفت فيلم عن واحد «بابا» باع ولده، وأنا أبغاك تبيعني!

ـ وطبعاً.. إنت عرقت؟!

ـ لأ.. قلت له: اللي يبيعوا أولادهم ما يحبوهم، وأنا أحبك، فكيف أبيعك؟ قال لي: بيعني لـ «بابا» تاني عنده مسبح، وعنده صاروخ يركبني فيه.

انطلقت قهقهات «فارس» من المقعد الخلفي في العربة، وقفز إلى المقدمة، وهو يقول لأمه ضاحكاً:

ـ وآخد ماما معايا أعطيها لـ «بابا» التاني!

ـ قالت له أمه: بس أنا ما يمكن أترك بابا خالد.. أنا باحبه، أنت ما بتحبه؟!

ـ قال: إلاّ باحبه علشان بيودِّيني المراجيح.. بس أنا بدي صاروخ!

ـ قال خالد: الصاروخ لما تكبر.. في زمنك يا ولدي، من المحتمل أن الأب يهدي لولده بمناسبة النجاح طائرة، بدلاً من السيارة الآن!

استلقت «إلهام» فوق سريرها، ورمت بشعرها الغزير على الوسادة، وأغمضت عينيها وهي تقول لزوجها:

ـ كان يوم صعب.. صواريخ، ومراجيح، والله الولد «فارس» صحيح من جيل إلكتروني!

ـ قال زوجها: أروي لك نكتة؟!

ـ قالت وما زالت مغمضة العينين: قول.. يمكن أنام!

ـ قال: سأل طفل أمه.. كيف جئت إلى الدنيا؟ فأجابته: لقيناك في وسط «كرنبة» في الحديقة، فسألها: وكيف جاء بابا؟ قالت: جاء به طائر أبيض كبير. سألها: وكيف جاء جدي؟ قالت: اشتروه من السوق.. فرد الطفل قائلاً: مدهش.. بذلك لم يولد واحد من أسرتنا بالطريقة الطبيعية منذ ثلاثة أجيال!

استغرقت «إلهام» في ضحكة متواصلة.. ثم قالت لزوجها:

ـ علشان كده.. فارس بيطالب بصاروخ!

ـ وأنا عندي الآن طلب واحد... فقط لا غير!

ـ إنت تهمد، وتغمض عينك.. حرام عليك إنت وأولادك!

ـ بعدين أتزوج رائدة فضاء؟!

ـ يا سيدي.. علشان تشوف القمر على حقيقته، وتنجب منها أطفال بالإلكترون!

* * *

أمومة الأنابيب!

وقف «خالد» وقتاً طويلاً عند باب غرفة النوم، وهو يتأمل زوجته دون أن تشعر بقدومه.. فكان شرودها يضع علامة استفهام في نظرات «خالد»، فهي عندما تراه تخف مسرعة إليه، تستقبله وتبتسم في وجهه.. حتى عندما تكون مختلفة معه، أو كان الخصام قد اشتعل بينهما قبل تركه المنزل.. فإنه حينما يعود يجدها في انتظاره تتطلع إليه بعتاب وحب!

أما في هذه الحالة.. فلعله يراها للمرة الأولى، فانزعج!

اقترب منها يحدث حركة لكي تلتفت وتراه.. وما زالت ساهمة. قال ضاحكاً:

ـ إيه.. خبروك بطلاق جدتك؟!

ـ أهلاً يا خالد!

ـ أهلاً يا خالد؟!.. وليه البرود، حصل إيه؟!

ـ بس يا خالد.. اختصر «الإيه» حقتك دي.

ـ فهميني.. شوّشتيني؟

ـ ما حصل شيء.. متضايقة وخلاص.

جلس بجانبها، واحتواها بذراعه، وقد جذبها إلى صدره قائلاً:

ـ كم مرة قلت لك شكلك يبقى وحش لما تكوني عابسة، و. . . الله على شكلك لما تضحكي. . يجنن، قمر!

ـ والله ما فايقة لك. . قوم بدِّل ملابسك.

ـ أقوم كده حاف من غير ما يتلطخ وجهي بمكياجك؟

ـ باقول لك أنت فايق ورايق.

ـ طيب حصل إيه؟ وبعدين لاتنْحلي قلبي، أحسن الشغل أخذ مني كل نشاط.

ـ قلت لك ما حصل شيء. . متضايقة وبس، إنت ما بتقول إنك أحياناً تنكبس من غير مناسبة؟

ـ صح. . لكني أبلم، وما يصير شكلي كده كأنها مصيبة نزلت يا حفيظ!

ـ أمري لله. أحكي لك. عندي مشكلة مع «فارس»!

ـ فارس؟. . وعى يكون جلاب للمشكلات؟

ـ المشكلة مني. . صرت ألاحظ إني دائماً أصرخ في وجهه وما أحتمله، والولد بدأ يكبر ويفهم، وألاحظ أنه بيتأثر من تغيير معاملتي له!

ـ طيب ما سألت نفسك: ليه اتغيرت معاملتك لفارس؟!

ـ سألت نفسي، وما زلت أسألها، ومحتارة.

ـ إذن. . ابعثي بمشكلتك يا سيدتي إلى بريد المشكلات في مجلة للمرأة؟!

ـ إنت بتسخر، ولا حاسس بمعاناتي؟!

ـ لازم أسخر.. واحدة متعلمة زيِّك، لازم تدرس الأسباب. مثلاً: هل زوجك العزيز ـ اللي هو أنا ـ يضايقك يا سيدتي. وأن قبلاته لزوجته أصبحت باردة؟!

ـ دمك تقيل.. ما عندك إلا الكلام في «المبوسة»!

ـ أيوه.. إضحكي كده. وحيث أنني زوج عظيم وملتزم وفاهم، فلا بد أن يكون هناك سبب آخر.

ـ يا معذبني إنت.. قوم بدل ملابسك ولا تزيد عذابي!

ـ اسمعي.. نتكلم جد. أقول لك ولا تزعلي؟!

ـ قول يا قاضي.. الله يصبرني على أحكامك؟!

ـ بصراحة.. أنا لاحظت شيء، يمكن يكون هو السبب في تغير معاملتك لابننا الوسيم «فارس» الفرسان!

ـ قول.. كلي آذان صاغية يا سيدي!

ـ لما رزقنا الله بابنتنا «عهد»، وبحكم أنها الأصغر، والتي تحتاج إلى رعاية أكثر، فإن اهتمامك بها قد زاد، أو على الأصح.. إن اهتمامك انحصر فيها ولها، وأهملت «فارس» والولد شعر بذلك، وأصبح يلح عليك أكثر، ويلفت نظرك إليه، وإنت اعتبرت هذا الموضوع إلحاحاً منه، وهو يشعر بإهمالك له. وأن «عهد» أخذت كل حقوقه... فهمت يا ست الحسن والجمال؟!

ـ تفتكر ده هو السبب؟!

ـ ولا شيء غيره.

ـ لكن يا «خالد» إنت بتعتني بـ «فارس» وبتلعب معاه وبتفسحه؟

ـ هذا لا يكفي أيتها الأم. . الأمومة شيء كبير لا تعوضها الأبوة مهما تضاعفت!

ـ عجيب؟!

ـ أصابتك عدوى السخرية؟!

ـ لأ. . بجد أنا مندهشة!

ـ أنت متحيزة!

ـ بتقول إيه؟!

ـ اللي سمعتيه. ولازم تراجعي نفسك. . خاصة وإن «عهد» بدأت تمشي وتتكلم.

ـ لكنها صغيرة. . طفلة لا يمكن تعتمد على نفسها؟!

ـ و «فارس» برضه طفل، وإن كان بدأ يعتمد على نفسه. . حنان الأمومة لا يقدر بثمن!

دفع «فارس» باب غرفة النوم، ودخل بضوضائه يرتمي في حضن أبيه، ويحضنه. ثم نظر إلى أمه باهتمام. ولمس وجه والده قائلاً:

ـ شوف ماما ساكته يا بابا. . يا لطيف لما تصرخ عليّ!

سحبته «إلهام» من حضن أبيه، واحتضنته، وقبَّلته، وقالت له:

ـ أنا باحبك يا «فارس». أنا ماما. . فيه أم بتكره ولدها؟!

ـ يمكن.. ما هو احنا في عصر الأنابيب!

دفعته في مواجهة وجهها، وحدَّقت في وجهه تخفي إبتسامة، وقالت:

ـ إنت قلت إيه؟!

ـ قال فارس: أنا شفت في الفيلم إنهم في الخارج بيجيبوا أطفال من داخل الأنابيب!

ـ قال والده: بس أنت من داخل أنبوبة أمك.. أنبوبة طبيعية ياحبيبي!

ـ قالت إلهام: إيه الكلام هادا يا خالد؟!

ـ قال فارس: خليه يفهمني يا ماما.. العلم «نور»!..

ـ ها يا بابا، وكيف يصنعوا في الأنابيب الأطفال؟!

ـ قالت إلهام تخاطب زوجها: خليك تستاهل.. جبتها لنفسك!

ـ قال خالد لولده: لأ.. دا كلام علمي، بعدين لما تكبر شوية تقرأه في الكتب!

ـ قال فارس: كتب إيه ياسي بابا.. أنا سألت «عائشة» لما شفت الفيلم.

ـ سأله والده: وقالت لك إيه؟!

ـ أجاب فارس: ما قالت شيء في الأول. وجهها أحمرّ وانكسفت.

ـ قالت أمه: ها... وبعدين؟!

ـ قال فارس: ولا قبلين.. لما أكبر ما بدي أتزوج!

ـ سأله والده: ليه ياحبيبي؟!

ـ أجاب فارس: بلا زواج، بلا هم ياعم. . أتصاحب على وحده، وأروح للمستشفى وأطلب منهم يعملو لي طفل في أنبوب، وخلاص!

صرخت أمه مولولة:

ـ يامصيبتي. . شوف الولد بيتعلم إيه؟!

ـ قال والده: لازم «عائشة» عندها ثقافة زايدة في الأمور دي!

ـ قال فارس: إيه؟. . إحنا عكينا وإلا إيه؟!

وأخذ يقلِّد حركات الممثلين في مسلسلة عربية. تطلَّع إليه والده، وجذبه إليه قائلاً:

ـ أفهّمك ياحبيبي. . لما تروح للمستشفى وتطلب من الأطباء طفل في الأنبوب ما يمكن يعملوه لك إلا إذا كان فيه امرأة!

ـ قال فارس: خلاص. . يعطوني واحدة من الممرضات. ويدخلوا الأنبوب فيها!

قفزت «إلهام» من مجلسها وهي تحوقل، طالبة من زوجها أن يبدل ملابسه ليتناولوا طعام الغداء!

على مائدة الغداء. . قال «خالد» لابنه:

ـ أمّا لك عندي مفاجأة يا «فارس» راح تعجبك!

ـ قال فارس: إيه يا بابا. . راح تزوجني؟!

تطلع «خالد» إلى زوجته كأنما أسقط في يده، ثم قال لابنه:

ـ لأ ياحبيبي. . العروسة بدري عليها، لما تكبر أنت اللي راح تجيبها!

ـ قالت إلهام: شفت الجيل العربي الصاعد.. ما قلت لك من زمان إن أكبر هَمْ عند الرجل العربي هي المرأة!

ـ قال خالد بخبث: المرأة ككل؟!.. أعرف رأيك.

ـ قالت: لأ.. المرأة كأنثى. مشكلة الرجل العربي شيئين: الفلوس والجنس!

ـ قال خالد: ده إتهام خطر، وفيه تجني!

ـ قالت: والله ما اتجنيت؟. وإلا نوِّرني. احكي لي عن رجل عربي اختراع اختراعاً، أو توصل إلى نظرية، أو حتى دق مسمار في حائط بيته؟!

ـ قال: برضك متجنية.. ففي العالم العربي يوجد علماء ومفكرين وباحثين، وحاصلين على درجة الدكتوراه. إنت ما سمعت عن امرأة أخذت الدكتوراه في الملوخية؟! تلاقيها ما تعرف تطبخ!

ـ قالت: أيوه.. خدوهم بالصوت لا يغلبوكم. إنت بتغالط نفسك. درجة الدكتوراه صارت العشرة بقرش، لكن هنا (وأشارت إلى الرأس) مشكوك فيه يا حبيبي

ـ قال: لا... أنت زودتيها جداً!

ـ قالت: وزعلت ليه.. إنت حصلت على الدكتوراه علشان تزعل؟!

ـ قال: وإنت يعني اللي أخذت دكتوراه ولو في الملوخية؟!

ـ قالت: بدأنا نلبخ. على العموم.. اللي أخذت الدكتوراه في الملوخية ما بعدت عن تخصصها اللي بدكم تحبسونا فيه.

ـ قال: لو ما اتزوجتك كنت اتحصلت على الدكتوراه. . على الأقل في علم النفس علشان أعالجك!

تدخل «فارس» في هذه الخناقة التي حمي وطيسها. وقال لأبيه:

ـ بابا. . . أنا بدي عروستي تكون آخده دكتوراه في الرقص!

ـ قال والده: ليه يا ترافولتا؟!

ـ قال فارس: علشان بدل ما نتخانق زيك أنت وماما. .

نرقص!

التفت «خالد» إلى زوجته ضاحكاً:

ـ عاجبك كده. . قومي نرقص؟!

ـ رقصت معاك أم قويق!

ـ طيب. . ما هو أنا بأدعوك للرقص!

قامت «إلهام» مسرعة، وقذفت «خالد» بوسادة من المجلس. . بينما استغرق «فارس» يضحك بصوت عال، ويصفق قائلاً:

ـ بعد شوية يا بابا تبوس ماما. . بعد شويه يا بابا!

وأطلت «عهد» وهي تفرك عينيها من النوم، وقالت لأخيها وهي تتمايل:

الرازل ده حيجنني. . حيجنني!!

❊ ❊ ❊

شنب الست!

حمل «خالد» ابنته «عهد» بين ذراعيه، وأخذ يدور بها، ويقذفها إلى أعلى وهي تقهقه، ثم سقطت على صدره متشبثة برقبته. ضمها إليه وهو يقبِّلها، و «عهد» متذمرة تحاول الخلاص من ذراعيه، تقول له:

ـ كفاية يا بابا. . كفاية.

ـ قال لها والدها: إشمعنى ماما لما تبوسك تدخلي في حضنها أكثر يا شقية؟!

ـ قالت: أصل ماما ما عندها ذقن زيك. . ذقنك بتشوكني، وشنبك فظيع. قصه يا بابا. . أحلق ذقنك يا بابا.

ـ بس أنا راجل، وكل رجل عنده شنب وذقن!

ـ لكن ماما ما عندها. . خليك زي ماما!

ـ الستات ما يطلع شعر في وجههم.

ـ قالت عهد: ليه يا بابا؟!

ـ قال: علشان يستمر شكلهم حلو!!

ـ قالت: بس أنت شكلك حلو. . إنما شعرك فضيع يا ساتر. تطلع

«خالد» إلى زوجته، واستغرق يضحك بقهقهة عالية، و «إلهام» مندهشة من حركة زوجها. سألته:

ـ إنت بتضحك ليه؟!

ـ أبداً . . باتصورك لو كنت بذقن وشنب!

ياسم . . دمك تقيل.

ـ تعرفي لوحة «الجيوكنده»، ؟ . . مرة واحد زاد عليها شنب مفتول يوقف عليه الصقر. وكان منظرها يهلك من الضحك، ولو شافها «دافنشي» الرسام اللي رسمها كان اعتذر عن رسمها!!

ـ قالت: لازم رجل حاقد اللي أضاف الشنب!

انفلتت «عهد» من ذراعي والدها، واختفت في غرفة نوم والديها، و«فارس» كان يصغي إلى حديث أمه مع أبيه، فقال:

ـ يعني يا بابا . . لازم الشنب والذقن؟

ـ قال والده: ضروري يا حبيبي.

ـ سأل والده: ومين اللي قال «ضروري يا حبيبي»؟!

ـ أجابه والده: الإسلام علمنا كده، والنبي (ص.ع.س.) قال: (حفوا الشوارب واعفوا اللحى)!

ـ قال فارس: يعني إيه . . ما هو عمي ما عنده لا ذقن ولا شنب؟!

ـ معنى العبارة . . احلقوا الشوارب، وربوا اللحية.

ـ قال فارس: طيب خلاص . . احلق شنبك!

ـ قال خالد: وبعدين؟.. إنت أسئلتك كتيرة وبايخة يا «فارس»!

قام «فارس» عاتباً على أبيه، واتجه نحو غرفته. قالت إلهام:

ـ كده زعّلت الولد؟!

ـ أقول له إيه.. مايبطّل أسئلة.

ـ طيب ومالو؟.. ما هو أنت قلت إن الطفل اللي يسأل كتير ذكي.. تزعل ليه؟!

ـ طبعاً.. فرصة تقطّمي.. فين «عهد»؟.. يا عهد.

دخلت «عهد» وقد ارتدت شماغ والدها على رأسها وعقاله، نظر خالد وإلهام إلى وجهها وقهقها معاً. قالت إلهام:

ـ إيه ده إللي عملتيه في نفسك؟!

ـ قالت عهد: دا شنب، ودي ذقن.. شوفي شكلي حلو يا ماما؟!

ـ قالت إلهام: إنت أخذت قلم الحواجب واشتغلت في نفسك؟!

عاد «فارس» يتقافز ضاحكاً وهو يردد:

ـ عهد صارت ولد.. عهد ولد!

هدأت حركة البيت، وكاد الليل أن ينتصف.

دخلت «إلهام» إلى غرفة النوم، لتجد زوجها وقد عقد كفيه خلف رأسه يبحلق في سقف الغرفة شارداً.

ـ قالت إلهام: بتستوحي قصيدة شعر؟!

ـ معقول.. وإنت بعيدة عني؟

ـ يا بكَّاش. . سرحان في إيه؟!

ـ نام فارس، ونامت عهد؟!

ـ في سابع نومه. . يا الله، أنا اتهديت!

ـ ليه «عائشة» راحت فين؟!

ـ يا أخي حرام. . عائشة طول النهار كانت تغسل، وبعدين نظَّفت المطبخ والصحون، لازم نكون رحماء.

ـ ما شاء الله. . ربنا يديم الرحمة!

ـ قصدك إيه؟ أنا ما كنت في يوم من النوع اللي يذل الخادمات ويقسو عليهم.

ـ ما قصدت. خلاص لا تضيعي لي سرحاني.

ـ أيوه قول. . سرحان في إيه؟! اصح تقول فيكي، والأولاد، والعمل.

ـ لأ. . . . افتكرت طفولتي!

ـ ياستو!. . ما هو إنت ما زلت طفل.

ـ أحياناً. . لما أكون معاكي، لكني بجد سرحت في أيام زمان زمان.

ـ ليه. . إنت عمرك كم، لا تفجعني؟!

ـ والدي كان يحكي لي وأنا حصلت شيء من ملامح طفولة زمان. . يعني أنا جيت في الجيل اللي يسموه: جيل الانتقال من عصر إلى عصر، ومن البساطة إلى تعقيد الحياة.

ـ وإيه اللي ذكرك؟!

ـ أسئلة «فارس» و «عهد» والمماحكة، والإصرار على معرفة كل شيء. تعرفي.. في طفولتنا، لما كان الطفل مننا يسأل أهله أقل من أسئلة «فارس» يصرخوا في وجهه، وغيرسوه. مرة يقولوا له: عيب، ومرة ما يخلوه يكمل السؤال، ومرة يضربوه لأنه سأل مثلاً: أنا من فين جيت؟!

ـ صحيح.. إنما الدنيا اتغيرت، والوعي انتشر.

ـ كنت أنزل ألعب في الحارة، ولكن لازم أرجع إلى البيت قبل أذان المغرب، ولو اتأخرت لازم آكل علقة يسمعوا فيها صوتي الجيران. أرجع وثيابي وسخة والتراب في شعري، وفي جيوبي «الكبوش»!

ـ كبوش إيه؟!

ـ طبعاً.. إنت زغنونه ومن باريس. دي عظام من الحروف نجمعها ونلعب بها. وبعد صلاة المغرب.. خلاص لازم ندخل الحمام ونتنظف، ونبدل ملابسنا، ونتعشى، وننام.

ـ إنما إنت يعني ما حصلت كل ده؟!

ـ بعضه، أو آخره. كان والدي يحكي لي، لما كان ينام مع إخوانه.. يرصوهم بجانب بعض على لحاف واحد، ويغطوهم بغطاء واحد، ويتعانق الأخوان سعداء!

ـ وي.. ينام الأولاد مع البنات؟!

ـ أيوه.. بالنية، والعيون المغمضة.. ما هو مثل الآن، ولد مفعوص يعرف رقصات «مايكل جاكسون» وطفل الأنابيب!

ـ والزوجة!... كيف كانت في عصر الحريم؟!

ـ الزوجة كانت عظيمة!

ـ نعم. . يعني إحنا إيه؟!

ـ العفو. . تاج راسنا، بلاش نغلط، تعالي ننام!

ـ لأ. . احكي لي.

ـ طبعاً ما كان عند الزوجة الوسائل الحديثة والأدوات العصرية. . لا ثلاجة، ولا غسالة بالكهرباء، ولا مطحنة، ولا مكنسة. . كله باليد. وما كانت الزوجة تحدِّد النسل، بل كان الزواج سباقاً. . مين ينجب أكثر وهو الشاطر!

ـ تفريخ يعني؟!

ـ يمكن. . إنما النيات طيبة، والنفوس مرتاحة في البساطة والقناعة. كانت المرأة: زوجة، وأم، ومربية، ومديرة منزل، وطباخة وخادمة، وقبل أذان المغرب تبدل ملابس العمل، وتتزين وتتعطر!

ـ عطر باريسي؟!

ـ لأ. . عطر عربي، حتى أنفاسها عربية.

ـ ليه. . أنا أنفاسي يهودية؟!

ـ إنت بدك خناق بأي طريقة؟!

ـ ما هو كلامك؟

ـ يا ستي لا تدقي. . ده كان عصر جدتي، يمكن أمي كمان ما حصلته. . لكن تشعري فيه بالصدق، وبالنقاء!

ـ معناه إيه الكلام ده؟. . بدك نرجع للعصر القديم، يعني للتأخر،

وللفقر، ولتسلط الرجل على المرأة، ولأخطاء تربية الأطفال؟!

ـ ما قصدت العودة إلى السلبيات، إنما كان في عصرهم إيجابيات أجمل من إيجابيات عصرنا: التماسك. التراحم. التوادد. الطيبة. البساطة. الحب. عارفة يا «إلهام»...

لم ترد عليه، التفت نحوها متسائلاً:

ـ إنت نمت والا إيه.. إلهام؟!

ـ أجابت: لأ يا خالد، ما نمت، إنما سرحت معاك شوية!

ـ غريبة.. من دقيقة كنت من حزب المعارضة؟

ـ معارضة التأخر والأخطاء، والفقر والجهل.. لكني سرحت في كلامك عن الحب والتماسك والتراحم، والطيبة، والبساطة.. تعرف إن عصرنا المادي ده سلب مننا أعظم الكنوز الإنسانية.. يمكن أقلها: البساطة، كل شيء أصبحنا نغالي فيه، والأشياء اتعقدت أكثر.. يعني عصر «اللوغرتمات» المعقدَّة.

ـ وما تبغيني أخاف على الأطفال بكره؟!

ـ كل جيل يتجانس مع زمنه وعصره.

ـ أنا أتخيَّل أيضاً أطفال نزحوا من ديارهم بسبب الحروب، والتشرد.

ـ ألمانيا في فترة يا «خالد» كانت أمام كارثة.. أطفال بلا آباء، ونساء بلا أزواج، ومع ذلك صنعوا الغد، وطلعوا من تحت الركام!

ـ عالم الغرب يختلف على سبيل المثال عن عالم أطفال لبنان، أو فلسطين.

ـ يوه. . دخلنا في السياسة. . الشعوب تعاني، ولكن الإرادة تنتصر.

ـ ياه. . دخلنا في الفلسفة.

ـ وبعدين معاك؟. . جاني النوم.

ـ وأنا طل القمر على وجهي. . فكيف ينام «قيس» يا ليلى؟!

ـ قيس الصحراوي، والا ربيب المكيف. والمخدة النعام؟!

ـ مهما كانت نعومة المخدة. . بدون ليلى يبقى قيس هو الصحراوي.

ـ وليلى بجانبك. . ما وراء قيس؟!

ـ أمامي وليس ورائي. . ما في بيتنا نار!

ـ إتخمد. . والا أصحي لك «فارس» ينازلك!

* * *

الدخول إلى الملل!

الوقت يملؤها. ولا تستطيع هي أن تملأه!

كانت في جلستها المسائية تحدِّق في قرص الشمس القاني الذي أخذ يميل إلى الغروب.. ولا تدري ماذا تقول لنفسها!؟

في نفسها أسئلة تلوب وتتكاثر.. بينما شعرت أن قلقاً يساورها!

منذ عدة أيام، وهي تعاني من مزاجها المتعكِّر.. إنها تعرف الأسباب، ولا تعرفها أيضاً!

لم تكن حالتها «سرية» بينها وبين نفسها.. الملل يطفح بعض الوقت من ثنايا ملامحها.

كانت تعرف الأسباب التي قلبت مزاجها.. فسَّرت ذلك باكتشاف أنها تحولت من أنثى متعلمة، وجميلة، ولها أفكار كانت تمور في داخلها قبل أن تتزوج.. إلى مجرد زوجة تطبخ، وتدير أعمال المنزل. وتنتظر عودة «شهريار» من عمله، وإلى مجرد «أم».. ولدت طفلاً وسيماً، وحيوياً، كان فرحة عش الزوجية هذا، ثم أردفته بطفلة جميلة أخذت تكبر مع الأيام.. تمشي، وتتكلم، وتقلِّد أمها، وتعاند حين الإصرار على أخذ ما تريده!

وتساءلت ذلك اليوم وهي تسترجع موقفاً لابنتها «عهد»:

ـ لماذا لا أكون مثلها. . أعاند، وأصر على أخذ ما أريده؟!

عندما كانت طفلة. . تبلورت من شخصيتها طباع بارزة. روت لها أمها أنها في طفولتها غضبت يوماً. لأن والديها لم يحضرا لها فستاناً شبيهاً بفستان صاحبتها، وعاندت، وبكت، وامتنعت عن الطعام، وفي اليوم التالي أحضر لها والدها فستاناً آخر، أجمل من فستان صاحبتها، فما قنعت. . بل احتدت أكثر، ومزقت الفستان الجديد!

يومها. . ضربها أبوها، وخاصمها بعد ذلك عدة أيام لا يكلمها!

تذكَّرت «إلهام» هذا الموقف من طفولتها.

تذكَّرت أيضاً كلمة زوجها «خالد» قبل عدة ليال:

ـ ابنتنا «عهد» تبدو عنيدة، وأكاد ألاحظ أنها تصر على ما تريد مهما حدث!

ـ أجابته: لقد اختلف الزمن، أو لعله اختلاف الأجيال، وطابع الحدة والتوتر في عصرنا.

لم يجبها زوجها، ولكنه في تعالي بكاء «عهد» التي كانت تصر على طلب خاص بها. . قال لزوجته:

ـ خليها تنفلق. . ما عندي استعداد ألبي لها كل شيء تطلبه، وإلا. . فإنها تتعوَّد على ذلك، ويتضخم هذا الطبع حين تكبر!

ابتسمت «إلهام» وهي تسترجع ما حدث، وتمزجه في داخلها لحظة تأملها في هذه الاسترخاءة، وتتذكر طفولتها. وطرحت سؤالاً من أعماقها إلى أعماقها:

ـ هل كان آباؤنا يدلِّلوننا.. أم أنهم كانوا قساة علينا، باعتبارهم كانوا من جيل يربط التربية ومفاهيمها بالضرب، وبالزجر، وبالقسوة أحياناً؟!

جيل أبنائنا يختلف عن جيلنا، لأننا نحن الآباء والأمهات نختلف في مفاهيمنا ووعينا عن جيل آبائنا وأمهاتنا.. ورغم الوعي والنضج والعلم، فهناك اتهام موجه إلى آباء وأمهات الجيل الجديد.. بأنهم يتهاونون في التربية، ويوظِّفون مقولة الوعي والنضج بأكثر من معطياتهما وحدودهما.. إلى درجة التسيُّب أحياناً، والإهمال وعدم الرعاية أحياناً أخرى!

لذلك.. فإن صفة «الاصرار» قد اختلفت وتفاقمت، فأصبحت تعني التمرد، والعصيان، والخروج عن طاعة الوالدين، ثم الخروج عن العرف والتقاليد.. وتكبر أكثر لتكون في حالات متطوِّرة وفاجعة: خروجاً عن السلوك المنضبط!

الآباء مشغولون بركضهم في مشوار الحياة، والماديات، والإثراء.. والقلة منهم بات يعاني من انشغال الأبناء أنفسهم بصرعات العصر، وبالنوافذ الجديدة التي تهب منها رياح متلاحقة. حتى الأب الذي التزم برعاية أبنائه وبناته، والإشراف على استذكارهم.. يكتشف في حصيلة العام الدراسي أن ابنه قد رسب في مادة أو اثنتين، برغم عنايته الفائقة ومتابعته لدراسته.. فالانشغال هو واقع عصري، ولكنه انشغال يتسم بالمبالغة، أو الضياع.. سواء في تفكير الأب، أو في تفكير الابن!

والأمهات منشغلات بالعمل، أو الترف والأزياء، أو بالفقر وطموحات البشر، أو بغياب الأب عن البيت، والخوف من التحول عن استقرار الأسرة إلى عبث الفحولة!

واضطربت الأفكار في ذهن «إلهام» بعد تكثف هذه الصور، وتداعي الأمثلة، والمواقف والمخاوف، وقالت لنفسها في حوارها الداخلي المتواصل:

ـ والغريب. . أن هناك من الأزواج من ينجب أربعة وستة أطفال، وتصديرهم بعد ذلك لمدرسة الحياة، وللتجارب، وللصدمات المتلاحقة!؟

ـ ولكن. . . ما الذي يقلقها بالتحديد؟!

في الشق الأول. . عرفت أن أسباب قلقها ترجع إلى هذا الملل الذي أخذ يصبغ حياتها الرتيبة. . فهي لا تبرح البيت، تؤدي وظيفتها كزوجة وكأم وكمديرة منزل، وإن تخلل ذلك بعض اللقاءات مع صديقاتها وأهلها. . ليكون الحديث ممعناً في الملل عن مواضيع معادة وسمجة. . مما يلاك في مجتمعات مغلقة، محددة بنظام لا يتغير!

وفي الشق الآخر. . لم تكن تعرف أسباب توالد هذا الملل، وكيف تخرج عن طوقه وتجتازه!؟

البارحة. . فتحت النار على زوجها «خالد». كان يبدو على ملامح وجهه الاندهاش. سألها:

ـ لماذا تتحدثين بحدَّة وبتوتر؟!

ـ قالت: لا أعرف. . أشياء كثيرة بت لا أعرفها في حياتي.

ـ سألها: ومن تلك الأشياء. . أريد أمثلة؟!

ـ أجابت: أيضاً لا أعرف. . روتين قاتل رهيب. حتى وجهك أصبح روتيناً في أيامي.

ـ قال غاضباً: ماذا تقصدين.. هل تودين أن تغيِّري وجهي، أو تغيِّري حياتك؟!

ـ قالت: أيضاً لا أعرف.. أنت لا تتجدد، وأنا مثل المدجنة.. مثل دجاجة تجلس فوق بيضها حتى يفقس، ثم تراعي ما فقسته البيضة. أريد أن أشعر بآدميتي، بإنسانيتي.

ـ قال: حسناً.. ماذا تريدين بالضبط؟!

ـ قالت: أيضاً لا أعرف.. قد أريد أن أعمل.. يكون لي عمل، والتزام، ومسؤولية، وإنتاج، وإبداع، وابتكار.

ـ قال: أنت تفعلين ذلك كله في بيتك ومع أولادك!

ـ قالت وهي تصرخ: أنت متخلف.

ـ قال ببرود مفتعل: شكراً.. ولكن، لماذا؟!

ـ قالت: ليست وظيفتي أن أنجب لك الأطفال، وأطبخ، وأغسل فقط. أنا متعلمة، وكنت متفوقة في دراستي. أشعرني من فضلك بآدميتي. خذني من داخل هذا القمقم، واجعلني أنطلق..

ـ أعيش الحياة.

ـ قال: حسناً.. وما هو العمل؟!

ـ قالت: درست الديكور والرسم.. في إمكاني أن أفتتح مكتباً للديكور.

ـ قال: هنا.. كيف؟!

ـ قالت: نعم.. هنا. أما كيف؟.. فالمسألة ببساطة أن تستأجر شقة ونجعل منها مكتباً للديكور!

ـ قال: أليست عندك فكرة أحسن؟!

ـ قالت: فكر معي.. طرحت فكرتي، فما هو البديل عندك؟

ـ قال: أنت متوترة الآن.. لنؤجل مناقشة هذا الموضوع إلى وقت آخر.

ـ قالت: بل الآن.. إنني أختنق.

ـ قال بحدة: ولكن ما تفكرين فيه جنون، أو على الأقل غير منطقي.

ـ قالت: إذن.. عليك أن تتخلى عن مساعدتي.

ـ قال: كيف؟!.

ـ قالت: سأقترض من أبي مبلغاً، وأنفذ فكرتي.

ـ قال: ولكن ذلك يتطلب موافقتي، وأنا غير موافق.

ـ قالت: تريدني إذن خادمة في منزلك؟.. لقد سئمت هذا الركود والملل.. سئمت!

ـ قال: افعلي ما تشائين.. ولكن، ليس في منزلي.

في الصباح.. جمعت ملابسها في حقيبة واحدة، واصطحبت ابنها وابنتها، وذهبت إلى بيت أبيها!

كان الأب والأم في حالة ذهول. لم تفهم أمها ما قالته ابنتها، بل ردَّت عليها تقول:

ـ عمل إيه، ومكتب إيه يا بنتي؟ والله زوجك سُكَّرة وابن حلال ويحبك.

ـ قالت: كل اللي قلتيه لا يكفي.

ـ سألها والدها: وما هو الذي يكفيك؟

ـ قالت: أن أنفذ رغبتي.

ـ قال والدها: حتى لو وافقتك على فكرتك، وساعدتك على الخروج عن طوع زوجك.. هل يقول الناس عني إنني عاقل.. هل أخدمك أم أجني عليك، وعلى طفليك؟!

ـ قالت: سأنفذ رغبتي.

ـ قالت أمها: تذكري يا بنتي حكاية الفستان اللي مزقتيه وانت طفلة؟.. ما في فايده منك!

طلب منها والدها أن تهدأ الآن، وتفكِّر بهدوء مع نفسها، ولكل حادث حديث!

ولكن «إلهام» لم تهدأ، وإن كانت قد غرقت طوال النهار في موجة حزن غامر. كانت تفكِّر حتى أحست أن رأسها سينفجر. كانت تسمع أسئلة «فارس» و «عهد» عن أبيهما:

ـ بابا متى يجي علشان ياخدنا البيت؟!

لا ترد عليهما. كفكفت دمعة حائرة بجبروت قاس منها لئلا تبكي.

ولماذا تبكي وهي التي اختارت تفجير الموقف بهذه الحدَّة؟!

لم تتناول طعام الغداء. لم تشعر بالهدوء في أعماقها.. ولكنها ظلَّت

تدور في أرجاء البيت بشعور الحبيس المختنق. حتى بيت أهلها يبدو غريباً، ومملاً، وخانقاً!

قالت لنفسها: ترى. . هل صعَّدت الموضوع أكثر مما يحتمل؟!

لم تجد إجابة. . لأنها لا تريد أن تعترف لنفسها بأنها فعلت ذلك التصعيد!

واستهواها منظر الغروب في نهاية النهار. . حين تكثف الشعور عندها بأن الوقت يملؤها، وهي عاجزة أن تملأ الوقت!

كان قرص الشمس القاني الذى ينحدر بطيئاً ليسقط خلف البحر، هو التعبير الملاصق لحالتها النفسية، ولشتى الأسئلة، ولزحام القلق والحزن معاً في صدرها!

تساءلت بعد مرور وقت طويل وهي في جلستها تلك:

ـ ترى. . ألا يأتي «خالد» ليعيدها إلى البيت؟!

ليته يأتي. . فيحتضنها، ويكفكف دمعتها، ويحتويها لتنام!

إنها تريد أن تنام. . بعد هذا التعب الشاق!

❊ ❊ ❊

الشرخ!

أربعة أيام مرَّت، و «خالد» لم يطرق باب أهل زوجته «إلهام».. وطفلاه يلحان في السؤال عنه. «فارس» يتوتَّر مع كل سؤال يطرحه. وهو يقول:

ـ يسافر كيف وما يقول لنا.. ما يسألني عن الهدية اللي أبغاها؟!

«عهد» تسأل عملياً بواسطة دموعها.. فهي امرأة صغيرة تتدرب على ما تفعله أمها دائماً، وكل النساء.. فلم تكف عن البكاء احتجاجاً، ومناداة لأبيها.

ضاقت الساعات والدقائق في وجه «إلهام». لم تعد تدري ماذا تصنع، لكنها تحاور نفسها بعتاب غاضب لزوجها الذي لا يسمعها:

ـ كده يا خالد.. ما صدَّقت أخرج من البيت وما سألت ولا حتى بالتليفون؟!

ويضيع سؤالها العاتب في صمت الليل، ويتلاشى في حرارة النهار وزحامه، وينقضي يوم آخر.. دون أن يأتي «خالد».

اتصلت به هاتفياً في عمله لمجرد أن تسمع صوته ولا تحادثه، فلم يرد، وحتى في بيته أيضاً لا يرد!

ـ ترى.. أين ذهب، هل سافر؟!

أشركت والدها في السؤال، فلم تجد عنده ما يطفىء غلتها. . . بل أجابها أبوها قائلاً:

ـ قلت لك من يوم ما خرجت من بيتك: عودي. . أنت المخطئة، وما سمعت كلامي!

ـ قالت لأبيها: هادا ما هو وقت التقريع والعتاب. . يكون جرى له شيء؟!

ـ قالت أمها: يمكن سافر لعمل، ما هو دائم السفر؟!

ـ قالت لنفسها هامسة: هل هان عليه «فارس» و «عهد». . لا يسأل عنهما، ولا حتى يسمع صوتيهما؟!

جاءها «فارس» يركض لاهثاً. ارتمى في حضنها، وهو يردِّد:

بابا. . بابا!

انتفضت فرحاً وهي تسأله: فين. . جاء؟

ـ لا يا ماما. . أنا شفته. بابا ما هو مسافر، لكن إنت وهو إتنين متعبين لنا.

ـ ليه يا حبيبي تقول كده؟

ـ خلاص. . أنا كبرت. . عندي الآن خمس سنوات. الله الغني عنكم، أروح اشتغل أحسن من نقاركم إنت وأبويا اللي ما يخلص.

ـ أبوك فين شفته، وبلاش لماضه؟

ـ وحشك يعني؟. . خارجه من البيت ليه. . تتعبونا وبس؟!

ـ قالت له: إنت مسحوب من لسانك زي أبوك. . عيب، أنا ماما!

نظر إليها متأملاً. وضع يده على خده، وصمت. قالت له أمه:

ـ إنت سكت ليه.. فين شفت. أبوك؟

ـ في السفر، ما هو إنت قلت أن بابا مسافر.. شاور لي من الطيارة!

ـ يا واد.. عيب كده!

ـ بابا طلعت له ذقن كبيرة على وجهه.

ابتسمت «إلهام».. بما يعني أن زوجها قلق، ويفكِّر فيها. وأهمل حلاقة ذقنه. ولكن... إنها تخاف لو أهمل عمله أيضاً، خاصة وأنه لا يرد على الهاتف في مكتبه.

ـ سألت ابنها: إنت كيف شفت بابا، وفين؟!

ـ رحت له البيت.

ـ لوحدك يا جني؟!

ـ أخذت فلوس من جدي من غير ما أقول له، وركبت تاكسي ورحت لبابا البيت علشان أضربه!

ـ ومين اللي قال لك إن «أبوك» في البيت

ـ ما حد قال لي. سعتك تتكلمي مع جدي وجدتي. عرفت إنك بتكذبي عليَّ.

ـ عيب يا «فارس» تقول عن ماما كذابه!

ـ وليه عيب.. ما هو إنت كذبت عليَّ. بس يا ست ماما.. أخدت من الشارع اللي قدام بيتنا عصا كبيرة. وضربت جرس البيت.. فتح بابا.

ـ ها. . وبعدين؟!

ـ رفعت العصا علشان أضربه وأنا أقول له: إنت طردت ماما من البيت ليه. . إنت زعَّلتها ليه. أخدني في حضنه وباسني بقوة، وشفت دموع في عيونه.

ـ سألك عني؟

ـ لأ. . سألني عن «عهد»!

ـ يا ولد؟!

ـ هو قال لي بعدين لا تقول لماما إني سألتك عنها. لكن هو سألني. . أنا ما أحب الكذب زيك!

ـ المهم. . ليه ما جبته معاك؟

ـ أما كانت عصا كبيرة يا ماما. . كنت رايح أخرج الدم من راس بابا علشانك، وكنت رايح أظلمه.

ـ وإنت كمان تعرف الظلم؟!

ـ الظلم في كل مكان. . ما شفتي الأطفال في لبنان؟

ـ يا ولد يا سياسي؟!

ـ إيوه. . الدم رجع في وجهك لما قلت لك بابا هنا في البلد.

بس يا ماما إنت ليه دايماً تزعِّلي بابا؟!

ـ هو قال لك كده؟

ـ تعرفي يا ماما. . إنت وبابا زي الأطفال!

ـ يا فارس.. إنت لسانك طويل، بعدين أضربك!

ـ لما تزعلي إنت مع بابا.. دا أكتر من الضرب.. كأني أنا وأختي مسافرين.

ـ طيب.. خلاص. ما قلت لي ليه ما جبت بابا؟!

ـ بابا راجل ما يجي.. إنت لازم تروحي له.

ـ إشمعنى.. هو اللي زعَّلْني؟

ـ وإنت تركت البيت.. هو ما قال لك أخرجي!

ـ ما شاء الله.. درّسك ولقّنك وإنت كده مفعوص؟

ـ مفعوص إيه.. وتلقين إيه؟ حرام عليكم. قومي نروح بيتنا.

ـ وإذا ما قمت؟!

أجيب لك العصا!

كيف؟.. ولد قليل الأدب!

دخل والدها وهو يستمع إلى نهاية الحوار بين «إلهام» و «فارس».. يقهقه سعيداً

ـ قالت إلهام لوالدها: أنت كمان مبسوط من تهزيء ابني لي؟!

ـ دا ما هو تهزيء.. ما شاء الله على فارس، ذكي، ولبلب. أنا مبسوط منك يا فارس.

ـ قال فارس: يعني ما إنت زعلان يا جدو علشان ركبت تاكسي ورحت لبابا؟

ـ لا. . إنما المفروض تعطيني خبر. . على الأقل كان رحت معاك.

ـ وليه ما رحت قبلي، والا كان أخدت بنتك ورجعتها لبيتها؟!

صرخت «إلهام» في وجه ابنها مؤنبة: أنت فعلاً قليل أدب!

ـ قال والدها: بالعكس. . فارس معاه حق.

قرع جرس الباب في هذه اللحظة. قام «فارس» يركض وخلفه «عهد» تردِّد:

ـ بابا جا. . بابا جا!

انزلقت دمعة من عيني «إلهام» وهي ترى ابنها وابنتها يتشوقان لرؤية والدهما.

عاد «فارس» يقول لجده ووالدته:

ـ دا السواق معاه أكل!

جاءت «عهد» ووقفت في مواجهة أمها. ثم وضعت يدها في خصرها تتوعد:

ـ أنا قال لي فارس عن مكان بابا. . أنا وهو رايحين عنده، وإنت على كيفك.

نظرت «إلهام» نحو أبيها، ووالدها ما بين حالة الابتسام والتأنيب لابنته. قامت «إلهام» من مجلسها إلى غرفة أخرى.

ـ سألها فارس: أنا وعهد رايحين لبابا مع جدو.

ـ قالت بحدة: روحوا. . أنا لا يمكن أرجع له، إلا إذا جاني بنفسه، واعتذر، ووافق على طلبي.

اختفت «إلهام» في غرفة أخرى تنتحب. لحقت بها أمها تهوِّن عليها، وتقنعها بالعودة إلى بيتها دون أن تفلح. قالت لها أخيراً.

ـ إحنا عملنا اللي يرضي ضميرنا، اللي بتعمليه غلط، ورايحة تتحملي نتيجة وخيمة بعدين!

ومضى النهار كله.. دون أن يعود إليها فارس، وعهد، وحتى والدها لم تره.. فهي لم تبارح غرفتها، حتى خيَّم الليل.. فشعرت بالقلق. خرجت تسأل أمها. قالت لها:

ـ أبوك اتكلم بالتلفون، وبعد شوية راجع مع فارس وعهد.

ـ قالت: أحسن.. بس أنا بدي ورقتي.. لازم يطلقني.

خبطت أمها على صدرها فزعة، وبكت، وهي تقول:

ـ يا بنتي اتعوذي من الشيطان.. فين يروحوا الأولاد من غير أبوهم؟

ـ قالت: مكلَّف إنه يصرف عليهم.

ـ قالت أمها: وإنت؟.. تتزوجي الديكور أفندي؟!

ـ قالت: بلاش سخرية يا ماما.. لو كان «خالد» يحبني.. ما رفض طلبي.

ـ قالت أمها: وهو عمره ولد الناس رفض لك طلب؟.. لكن طلب مجنون زي هادا لازم يكون مرفوض.

ـ قالت: ما هو طلب مجنون.. من حقي إني أعمل.. أجل أخدت الشهادة ليه؟

ـ قالت أمها: يا بنتي ما قلنا حاجة.. إنما بالتفاهم، لو كان مرتب

زوجك ما يكفي معليش. . بعدين، فين يروحوا أولادك. . عند مين. . الخادمة؟!

ـ قالت: أنا ملِّيت يا ماما من قعدة البيت. و«خالد» طاير طول النهار.

ـ قالت أمها: عجيب والله. . ما هي طبيعة الرجل وعمله. . من فين تاكلوا؟ ويجلس معاك يعمل إيه؟!

كان الحوار يرتطم دائماً بين الأم وابنتها بجدار صلب من التشبث والعناد والإصرار.

ودخل «فارس» وخلفه «عهد». . دون أن يكلما أمهما. توجست منهما شيئاً. صرخت في وجه «فارس».

ـ إيه. . مبلِّم كده ليه؟

ـ قال فارس: إنتوا تجيبونا، ونحن اللي نتعذب. . تجيبونا ليه؟!

رفعت «إلهام» كفها، وصفعت «فارس» على وجهه قائلة:

ـ أنت زوَّدتها. . لسانك طول ولازم تتربىَّ.

تلقفت «فارس» جدته. . بينما أخرجت «عهد» لسانها لأمها، وركضت تجري إلى جدها، خوفاً من صفعة تلحق وجهها مثل أخيها. وانخرط «فارس» في البكاء.

لأول مرة تصفع «إلهام» ابنها بهذه العصبية والقسوة. تحدَّرت الدموع من عينيها ندماً. . فهرعت إلى ابنها تحتضنه وتبكي، وهو يرفض أن تلمسه، وقد اختلط صوته بنحيبه قائلاً:

ـ ابعدي عني. . ما أحبك، وكمان ما أحب بابا. . إنتو الاثنين مجانين. أنا بدي أسكن هنا مع جدو!!

خوف الحب!

أسبوع كامل تصرَّم.. دون أن يطرق «خالد» باب أهل زوجته!

كانت معاناة «إلهام» طوال هذا الأسبوع قاسية على احتمالها، وفي معايشتها لابنها «فارس»، ولابنتها «عهد».

«فارس» خاصمها.. لا يتكلَّم معها، وإن كلمته لا يجيب.

و«عهد» غرقت في حزن يتضاعف كل يوم.. أصبحت تبكي بدون سبب.

التجربة مريرة في أيام «إلهام».. ولكن عنادها لم يهدأ، وإصرارها لم يتزحزح.

حاولت مع والدها مرات عديدة أن تقنعه بمنحها مالاً.. تستأجر به «شقة» لتجعلها مكتباً.. تستقبل فيه الزبائن، وتمارس عمل مهندسة الديكور.

تحدَّث معها والدها عن خطوات عديدة مطلوبة لتتمكن بها من فتح ذلك المكتب، ومن أهمها: السجل التجاري، والعثور على امرأة أخرى معها تساعدها.

تحدث معها عن صعوبة تعامل المرأة في السوق.. مع الرجال الزبائن، ومع العمال الذين ينفذون الديكور.

في كل يوم يتضاعف الإحباط عندها. . فالتجربة شاقة.

وفي كل مساء يتكثَّف الحنين في صدرها لبيتها. اشتاقت إلى «خالد» ودفئه.

تتطلع إلى «فارس» و«عهد». . فتجدهما كغريبين، يغمرهما حزن شديد. ويلفت «فارس» انتباهها دون أن يشعر. . فتلاحظ عليه أنه فقد حيويته، وشقاوته، وحتى «لماضة» لسانه المحببة إليها، وإلى أبيه، اختفت. . فهو يبدو مثل الطفل اليتيم.

ـ قال له جده: تعال نروح نشوف بابا!

رفض «فارس» بإصرار، وقال:

ـ بابا ما يحبنا. . لما رحت له أنا وعهد، ما كان اللي بيتكلم معانا هو بابا. . ما يحبنا، ما يحبنا!

فاضت الدموع من عيني «إلهام» وهي تستعيد تعبيرات «فارس» حين كان يتكلم عن أبيه.

هكذا يزرع الآباء والأمهات كراهية أطفالهم لهم!

ـ ألم تكن المشكلة في أساسها تافهة؟!

سألت «إلهام» نفسها هذا السؤال. أجابت:

ـ لعلها تافهة في مقابل هذا الحصاد المر. . لكني كنت أطالب بالاعتراف بشخصيتي!

ـ شخصية الأم تتحقق، وتكبر في دفق أمومتها، وأداء دورها كزوجة ناجحة!

ردَّت على نفسها بهذه الإجابة. صمتت قليلاً، ولكن الحوار الداخلي مع نفسها لم ينته. واصلته قائلة:

ـ ولكننا في عصر العلم والتقدم. المرأة المتعلمة مثل الرجل المتعلم، سواسية في العلم، والفكر، والإنتاج، والإبداع..

فلماذا يحرم الرجل على المرأة أن تشاركه مسؤولية العمل؟!

شعرت أن إجابة عالية تزاحمت في رأسها من خلال هذه الأصداء:

ـ هل تعملين في وسط مجموعة من الرجال؟!

ـ وماذا يضير.. إذا كنت مستقيمة، وناضجة، وقوية؟!

ـ ولكن.. قوة المرأة قبل نظرة الرجل الأولى إليها، وبعد ذلك تتلاشى تلك القوة!

ـ خطأ.. ليست نظرة كل الرجال.. فهناك رجل واحد تحبه المرأة.

ـ ولو مللت هذا الرجل، ووجدت أمامك شخصية جذَّابة، أو حتى نظرة حانية دافئة؟!

ـ أوه... المرأة ليست حيواناً، ولكنها إنسان.

ـ صحيح.. لذلك تجدين الرجال عندما يلتقون بامرأة معهم في العمل يتحلقون حولها، خاصة لو كانت جميلة مثلك، والرجل أيضاً ليس حيواناً، بل هو إنسان.. ولكنها غريزة البشر!

ـ ولكني لم أطلب أن أعمل في وسط الرجال؟!

ـ أي عمل.. لا بد أن يتصل بمجتمع الرجال.

ـ فكيف عملت المرأة العربية في أماكن كثيرة؟!

ـ لها تجربتها. . وكانت البداية صعبة.

ـ كل بداية، لا بد أن تكون صعبة!

ـ وهل توافقين أن تكوني من الضحايا؟. . البدايات تحتاج إلى ضحايا!

ـ يا إلهي. . رأسي يكاد ينفجر. أين أنت يا «خالد»؟!

ويتكرر هذا «المونولوج» الداخلي في أعماق «إلهام» كل ليلة. . يتطوَّر حيناً، ويرتطم حيناً آخر.

تتبعثر «إلهام» في خطورة الأسئلة التي تطرحها على نفسها من عقلها. . فالقضية التي أشعلت عذاباتها وحزنها لا يمكن أن تعالج بغضب يحدث الشروخ في بيتها الحياتي الذي بدأت تعميره بطفلين، وأخذت الرياح تهدِّده.

كانت كل طموحاتها وهي تقتحم أجواء الدراسة الجامعية في خارج بلدها. . أن تحقِّق نجاحاً متفوقاً، وأن تنفذ أفكارها عبر تجسيد أحلامها منذ نضج بها العلم، وصقلتها الدراسة.

وعندما تحصَّلت على الشهادة الجامعية في الفنون الجميلة. . سخر منها زميلاتها وصديقاتها.

كن يقلن لها:

ـ أنت تحلمين. . إلا إذا رضيت أن تصبحي فنانة ترسم اللوحات، وتقيم المعارض فقط، ولكن. . أن تعملي، وترتدي البنطلون، وتنتقلي من بيت إلى مكتب، إلى شركة، إلى معرض لعمل ديكورات فيها، فذلك صعب جداً على مجتمعك. . لا بد أن تكون هناك حدود ملتزمة بالعادات والتقاليد!

لم تأبه لسخريتهن، ولا لمنطق حوارهن. وبمجرد عودتها من الخارج

بعد حصولها على الشهادة الجامعية.. اعترضها والدها بعريس.. لم تكن تعرف شيئاً عنه إلا معرفة صديقات وجارات أمها، وسمعة أسرته وبيته.

حاولت أن ترفض لتحقق أحلامها. لم يكن هناك وقت وهي ترى إصرار والدها على «خالد». وعندما رأت «خالد» لم ترفضه.. تحدَّثت إليه، ورضيت بأفكاره.

يومها.. استفتت نفسها:

ـ الحظ.. لا يأتي إلا مرة واحدة!

وهي ترى في شخصية «خالد» حظَّها الذي يتبلور أمامها. وقبلت الزواج بعد تفكير. لم يرغمها أبوها.. لكنه أشعرها باستحسانه لهذا الشاب.

في ليلة زفافها.. كانت تسمع تعليقات صديقاتها بتشفي:

ـ لازم حبيتيه!

ـ يمكن يفتح لك مؤسسة ديكور!

ـ وإلا.. يمكن يلاقي لها عمل معه في الشركة!

أجابت صديقاتها في أصداء الدفوف:

ـ خالد.. متطور في أفكاره.. وأيضاً.. لقد شعرت أنني أحببته!

ـ هذا هو المهم.. الحب يا «إلهام».. الحب يا سنيوره!

حقاً... هل هو الحب؟!

أفاقت «إلهام» من. استغراقها في تلك الأصداء، واستعادة شريط لم يطل به الزمن كثيراً.

إنها ـ بالفعل ـ تحب زوجها، وقبلت به بقناعة تامة.

وإذن. . . أين تكمن المشكلة الآن. . هل هي في شخص وأفكار «خالد»، أم تراها في طبيعة الحياة، والظروف؟!

سمعت جرس الباب يدق متواصلاً. نهضت من سريرها متثاقلة، متسائلة:

ـ أليس هناك من يفتح الباب؟!

وعندما شرعت الباب، كادت أن تشهق!

كان «خالد» يقف أمامها بوجه تنكره. . ليس هذا هو وجه «خالد» الوسيم، ولا هذا هو هندامه الأنيق.

ـ خالد؟!. . اتفضل.

ـ فين فارس وعهد؟!

ـ ما أدري. . يمكن في غرفة من الغرف مع ماما. . أدخل.

ـ أعملي لي شاي.

ـ حاضر. . إنت مريض يا خالد؟!

ـ أرجوك. . أنا ميِّت

ـ بعد الشر. . إن شاء الله عدوك.

ابتسم «خالد» ساخراً، ومشى إلى غرفة الجلوس متهالكاً، مهدوداً. . بينما «إلهام» تتطلع إليه في ذهول وحزن. . فرت من عينيها دمعة تختلف عن كل دموعها التي أهرقتها.

ركضت في البيت تفتح أبواب الغرف.. بحثاً عن «فارس» و«عهد». وجدتهما يحتضنان جدتهما في نوم عميق. أيقظتهما بفرح. فتحت أمها عينيها فزعة، متسائلة:

ـ حصل إيه.. مالك مضطربة كدة؟!

ـ خالد يا ماما.. خالد في غرفة الجلوس.

ـ قالت أمها: خالد؟!.. هادي البشارة والله.. قوم يا «فارس». قومي يا «عهد»!

ركض الطفلان إلى أبيهما.. يفركان عيونهما فرحاً.

تلقفهما، ليستقرا في حضنه. «عهد» أخذت تبكي وتقبِّله.

و«فارس» يضربه على خده محتجاً، قائلاً له:

ـ أنت وحش.. أنت الرجل الأخضر!

جفت الدموع في تعالي الضحكات. و«إلهام» تحدق في وجه زوجها في حالة مضطربة من القلق عليه، ومن الاستفسار، ومن الحب المتدفق. قالت له:

ـ كده يا خالد.. هانوا عليك أولادك وزوجتك؟!

ـ قال: وليه ما تقولي لنفسك؟.. ليه ما رجعت بيتك، والا العناد بس؟!

ـ قالت أمها: خلاص يا أولاد.. الحمد لله. خالد أصيل وبيحبك، والا ما كان جاء!

ـ قال فارس: إنت جيت ليه يا بابا؟!

وقبل أن يجيب. . ردَّت «عهد» قائلة:

ـ خاف من ماما. . علشان بيحبها!

ـ قال فارس: لو عملتها مرة ثانية. . أضربك بالعصايه. خد بالك أنا حمش!

ضم «خالد» طفليه إلى صدره، وتطلَّع إلى زوجته مشيراً إليها بطرف عينه أن تلبس ملابسها.

ـ قال فارس: أنا ما بدي أروح معاكم البيت.

ـ سأله والده: ليه يا حبيبي. . البيت من غيركم ظلام.

ـ أجابه: لأ يا سي بابا. . كيف جلست في الظلام كل المدة دي؟. . أنا جالس عند جدو، وجدتي. بعدين تتخاصموا تاني، والله. . . . والله أضربك!

عادت الضحكات ثانية، وحمل «خالد» ابنته «عهد» و«فارس» يمسك بيده.

أطلت «إلهام» من باب الغرفة، متَّشحة بعباءتها:

ـ أنا جاهزة يا خالد. . هيا.

مسحت أمها دمعة انزلقت من عينيها، ورددت:

ـ إلهي يهدِّي سركم، ويوفقكم. . مع السلامة.

* * *

المفاجأة

عادت الحياة والحركة إلى هذا العش الذي أخذ يتسع بوجود طفلين يملآنه حيوية، وضجيجاً، وحباً.

كان «خالد» يتلفَّت بعد أن عاد بأسرته، واحتوت نظراته أرجاء البيت، والجدار والأثاث. خيل إليه أن الجماد يتحرك. ابتسم.. فقد كان عليه أن يفعل هذه الخطوة بعد يومين إثنين من خروج زوجته وطفليه من البيت، لكن العناد، وعدم تنازل طرف للطرف الآخر، والمكابرة.. كلها أسباب كادت أن تقوِّض هذا العش، وأن تعصف بالمحبة داخله.

استبطأ «خالد» زوجته. فكَّر أنها ـ كعادتها ـ لا بد أن تعيد ترتيب البيت الذي أحاله إلى فوضى طوال بقائه وحيداً فيه.

لكن الوقت متأخر في هذا الليل. لعلها تهيّىء طفليها للنوم.

قام إلى الحمام، وحلق ذقنه التي طالت وغيَّرت ملامح وجهه. حدَّق في المرآة.. وجهه ممتقع يميل إلى الصفرة، تماماً مثلما قالت له زوجته وهي تراه بأول نظرة بعد فراقهما.

ـ ترى.. هل هو مريض بالفعل؟ كما توجَّست «إلهام» فسألته؟! أم هو الشوق لها، ولطفليه.. أم السبب يرجع إلى وحدته داخل البيت وانشغاله بالتفكير؟!

أنهى حلاقة ذقنه، ومعها الأسئلة المزعجة هذه.

دفع باب غرفة النوم بهدوء كأنه يتسلَّل . . فاكتشف المنظر الذي فاجأه!

لقد كانت «إلهام» تغط في نوم عميق، كأنها لم تذق طعم النوم من فترة طويلة!

ـ قال لنفسه: لعلها مثلي . . أنا أيضاً لم أهنأ بنوم عميق مستريح، بل كنت أتقلَّب في نار الحيرة، والوحدة، والشوق.

ترك غرفة نومه، واتجه إلى غرفة «فارس» فرآه هو الآخر نائماً، ومثله كانت «عهد».

حتى الأطفال . . شعروا بالأمان والاستقرار في البيت، فناما قريرين.

أخذ «خالد» يطوف أرجاء البيت . . ما بين مشاعر الفرح والشوق. كان يريد أن يحتضن طفليه وقتاً أطول، ويضم إليه زوجته فيعيد إليها السكينة، ويغتسل هو بقربهم إليه.

واستلقى بعد ذلك فوق سريره بجانب زوجته، وسرقه النوم العميق.

في الصباح . . عادت الحركة إلى العش الصغير . . واستيقظ على صوت «إلهام» يوقظه للفطار، استعداداً للذهاب إلى العمل.

ابتسم في وجه زوجته وهي توقظه . . أمسك بيدها وأخذها إليه، ثم هدأت بجانبه مثل طير. همس في أذنها:

ـ وحشتيني. شعرت أنك غبت عني عاماً كاملاً.

غيبت وجهها في صدره، وتشبثت به وهي تهمس:

ـ لا تفعل. ذلك مرة أخرى. صدقني لا أحتمل غيابك عني.. حتى لو أخطأت عليك أن لا تتركني!

دفع «فارس» باب الغرفة، وهو ينادي على أبيه بضجيجه:

ـ بابا.. اصحى يا كسلان.. بعدين يفصلوك من العمل!

ضمه «خالد» إليه، وقبَّله. سأله عن أخته «عهد»، فأخبره أنها ما تزال نائمة. معلقاً على ذلك:

ـ البنات يناموا أكتر من الأولاد!

طفرت دمعتان من عيني «خالد» و«إلهام». وقاما مع ابنهما إلى خارج الغرفة.

أخذ «خالد» طريقه إلى غرفة «عهد» التي كانت نائمة في سبات طويل. زغزغها في قدميها. تطلَّعت إليه. مبتسمة، وألقت بنفسها على صدره، تقبِّله.

كان «خالد» يحيا هذه الفرحة، وهذه الحياة التي عادت إلى بيته.

جمع زوجته وطفليه حول مائدة الفطار. سأله «فارس»:

ـ إنت ما لبست ليه.. ناوي تزوِّغ من العمل؟!

ضحك «خالد» سعيداً. أجاب ابنه:

ـ لا.. اليوم عيد.

ـ قال فارس: عيد إيه يا بابا.. العيد راح.

ـ لأ يا حبيبي.. كل لحظة نجلس فيها مع بعض هي عيد.

لم يفهم «فارس» مغزى إجابة والده. قام. يركض إلى غرفته ليلعب،

ودلق كوب الشاي في طريقه، فهو لا يمشي ثابتاً أبداً، ولكنه يتقافز دائماً، ويصدر حركات مثل لاعبي الجمباز، ورأي أمه فيه أنه سيكون من أمهر لاعبي الجمباز، فهو نحيل، وخفيف الحركة، ومطواع الجسم.

نظرت «إلهام» إلى زوجها بحنان. أمسكت يده تضغط عليها برفق. سألته:

ـ صحيح عندك إجازة؟!

ـ صحيح. . أخذت إجازة إضطرارية لمدة أسبوع، ابتداء من يوم أمس.

ـ يعني بعد ما قرَّرت إنك تصالحني؟!

ـ هذا سبب، والسبب الآخر مفاجأة!

ـ مفاجأة إيه. . أنا ما أقدر أصبر، با الله قول.

ـ بعدين. . بعد الظهر، أما الآن. . فأنا رايح مشوار مهم.

ـ على فين. . ما هو أنت في إجازة، والثلاجة مليانة. . إنت ملأتها أمس؟!

ـ صحيح. . إنما خليني أروح مشواري، ولما أرجع أقول لك التفاصيل.

قامت «إلهام» إلى أعمال بيتها، بعد أن ودَّعت زوجها، ولكن «المفاجأة» التي ألمح إليها زوجها تشغلها.

كانت تتساءل في نفسها وهي تنظِّف بيتها:

ـ هل اقتنع بطلبها، وذهب يستأجر شقة؟!

إنها لا تظن صحة هذا التوقع، فهي تعرف «خالد» عندما يصر على رأيه برغم حبه الشديد لها.

إذن.. ما هي المفاجأة؟!

رن جرس الهاتف، فأسرعت تجيب. كانت «أمها» على الطرف الآخر تطمئن، استغرقت المحادثة أكثر من نصف ساعة.. حكت لها أمها في خلالها أخبار الجيران، لم تترك شيئاً مما سمعته.

وما كادت «إلهام» تضع سماعة الهاتف، حتى رنَّ جرسه من جديد.. هذه المرة صديقتها «سامية». عرفت من أم «إلهام» خبر عودتها إلى بيتها، وقالت لها:

ـ المفروض أن أزورك، وأهنئك بعودتك إلى بيتك.. أصله يا أختي مفيش أحسن من بيت المرأة مع زوجها، ولا حتى بيت أبوها.. إسأليني أنا، تركني أبو عصام مرة مدة نص سنة في بيت أهلي بعد ما اتخانقنا.. راح موديني لبيت أهلي، وسافر. تعرفي يا أم «فارس» عمل إيه؟ درس لغة إنجليزية في لندن طول الستة شهور، وقال بعد ما رجع: فرصة.. فراقكم يا ستات فيه فايدة.. أهو، اتعلمت إنجليزي. إنما برضه أبو فارس أرحم.. يعني تركك كم يوم وما طول.. وبعدين يا أختي....!

ـ قاطعتها إلهام قائلة: كفاية يا سامية، أعرف بقية الأسطوانة!

ـ أسطوانة إيه، وي؟!

ـ أقصد أني أعرف الحكاية دي منك، وبعدين «خالد» ما سافر، ويعرف لغة إنجليزية، و... بس!

ـ وي.. باين زعلتي يا إلهام.. المهم الله يوفق الحال.

وضعت «إلهام» سماعة الهاتف متذمِّرة تزفر بضيق، وهي تخاطب نفسها:

ـ ده اللي بنستفيده من التلفون . . ما عندنا غير الرغي، والوقت ماله حساب!

قرع جرس الباب. تقدمت الخادمة «عائشة» تفتحه، وإذا بوالد «إلهام» أمامها يبتسم، ويسأل عن «فارس» و«عهد».

ـ قالت إلهام: لحقوا يوحشوك يا بابا؟

ـ لحقوا إيه . . دول خلّوا البيت فاضي وموحش.

ـ زعلان يا بابا؟

ـ بالعكس يا بنتي . . الله يوفق حالكم. أنا جيت أقول كلمتين بيني وبينك الآن تسمعيها وأعصابك هادئة، والحب يملا قلبك لزوجك ولبيتك. ترى حياة المرأة يا بنتي في بيت زوجها، خصوصاً إذا نجحت في نشر الوئام والمحبة. أنا ماراح أبقى لك طول العمر. وزوجك يحبك وبرهن على كده لما جاء وصالحك . . خلاص لازم نعقل، وإنت عندك طفلين حلوين ولمضين!

اندفع «فارس» إلى حضن جده، يعبث بذقنه، ويقول:

ـ أجلس اتغدى معانا يا جدو.

ـ وجدَّتك . . أخليها لوحدها في البيت؟

ـ نروح نجيبها.

ـ معليش . . مرة تانية يا حبيبي. المهم لا تزعِّل أمك.

ـ أزعلها ليه . . المهم بابا ما يزعِّلها.

ـ بابا يحب ماما.

ـ خلاص.. ياخدها معاه الشغل.

ـ وإنت إيه اللي عرفك بالكلام ده؟!

ـ سمعت يوم الخناقة.. بس ماما ما هي رجل علشان تشتغل.

ـ قالت إلهام متدخلة في الحوار: وبعدين يا «فارس»؟!

ـ قال فارس: سكتنا.. لما ندافع عنكم تزعلوا، ولما ندافع عن بابا تزعلوا.. احترنا معاكم.

ـ قال له جده: هذا كلام الكبار.. إيه أخبار «مايكل جاكسون»؟!

ـ ما عرفت يا جدو؟ حرقوا له شعره!

ـ أحسن.. أنت لي بداية العام تدخل المدرسة، ولازم تصير شاطر:

ـ مدرسة بالعربي؟!

ـ ليه نحن في أمريكا.. طبعاً يا حبيبي بالعربي، نحن عرب ومسلمين.

ـ بس أنا بدي أتعلم كلام الأفلام!

ـ كلام الكتب أحسن.

ركض «فارس» إلى خارج الغرفة يتقافز كعادته. والتفت والد «إلهام» إليها قائلاً:

ـ ها.. خلاص؟!

ـ خلاص يا بابا. إنما «خالد» وعدني بمفاجأة ما أعرف عنها شيء.

ـ أنا أعرف، لكن أترك إعلانها لخالد.

ـ طمني يا بابا.

ـ اطمئني. . يمكن تفرحي. المهم أنك مع زوجك وأولادك.

ـ أنا منتظرة عودة «خالد». . وعدني إنه يخبرني بعد الظهر!

* * *

شيء آخر!

تعبير مزدوج لمحته «إلهام» على وجه زوجها!

لم تستطع أن تحدِّد من ملامحه، حين عاد إليها بعد الظهر، إن كان هذا الوجه يفيض رضا، وحبوراً، وهو يدخل إليها بهذه الابتسامة.. أم أن هذا الوجه يكثِّف أحزان النفس، ولكنه يداريها بابتسامة.. يكاد لونها يبدو باهتاً إلى حد ما!؟

احتارت «إلهام» وهي تستقبل زوجها عائداً من عمله.. هل تسأله عن «المفاجأة» التي وعدها بها.. هل تفهمه أنها تلاحظ تموج تعبير وجهه.. هل تبدأ الكلام، أم تدعه هو الذي يبدأ؟!

تركته يبدِّل ملابسه، ومعه ابنتهما «عهد» تحاول أن تدخل يدها إلى جيوب ثوب أبيها تبحث عن شيء!

دخلت إلى المطبخ، وأعدَّت الغداء، وعلى المائدة لم يترك «فارس» لهما فرصة الكلام.. إنه يلح هذا اليوم كثيراً على المدرسة. إنه لا يريد أن يبقى في مدرسته الحالية. وحين سأله والده: لماذا ترفض البقاء فيها؟

ـ أجابه: عندنا أستاذ هلكني كل يوم، وهو يطلب مني أن أتوسط له عندك لتشغله في الشركة بعد الظهر. لما تأكد من عدم النتيجة أصبح يضطهدني.

ـ طيب. . روح لمدير المدرسة واشتكي المدرِّس!

ـ رحت. . مدير المدرسة غائب. . يحضر ساعة واحدة وبعدين فص ملح وداب.

ـ بيروح فين؟

ـ يقول هو إنه يروح لإدارة التعليم، والمدرسين يقولوا عنه إنه مقاول!

ضحكت الأسرة كلها حول مائدة الطعام، ماعدا «عهد». . كانت تبدو شاردة البال، تضع خدَّها على كف يدها. هزتها أمها متسائلة:

ـ هيه. . إنت، مالك. . سرحانة في إيه، لسه بدري على العريس؟!

التفتت «عهد» إلى أسرتها. ابتسمت، ثم قالت لأمها:

ـ نظام إيه ده. . مدرسة، وكتب، والبابا مدير، وإنت ماما، كل يوم ماما، وبابا كل يوم هو بابا.

ـ سألها والدها: وإنت رأيك إيه. . بتطالبي بإيه؟!

ـ أجابت عهد: يعني. . . بلاش مدرسة. بلاش تروح العمل إنت يا بابا. كمان ماما بتعاملني زي طفلة، مع إني عندي أربع سنوات!

ـ قال لها والدها: لما ما أحد يروح المدرسة، ما فيش حد يتعلم ويفهم، ولما ما أروح العمل ما فيش فلوس، ولما. . . .

تدخل «فارس» في النِّقاش، قافزاً أمام والده، وهو يقول:

ـ بنات آخر زمن. . بدها كل يوم فستان وعشرين مراية!

جرت «عهد» نحو أخيها بقامتها الصغيرة، وهو يركض أمامها ضاحكاً،

وتفرقت الأسرة الصغيرة. بعد انتهاء تناول الغداء. «فارس» أدخل شريط «فيديو» في الجهاز، وانبطح على صدره ورفع قدميه خلفه إلى الأعلى، واندمج في مشاهدة الفيلم.. بينما اتخذت «عهد» ركناً محبباً إليها في غرفتها وقد وضعت في حجرها عروستها اللعبة تمشط لها شعرها. وهدأت حركة البيت الصغير إلاَّ من أصوات أطباق الأكل المنبعثة من. المطبخ، وقد استغرقت الخادمة في غسلها وتنظيف أدوات المطبخ.

استلقت «إلهام» فوق السرير بجانب زوجها، صامتة، تنتظره أن يبدأ الكلام ليعلن عن المفاجأة وهي تشعره أنها لا تهتم كثيراً بمعرفتها، ولكنها في داخلها قلقة.

وطال الصمت.. و«خالد» يمسك بصحيفة يومية يتصفحها بلا مبالاة. لم تحتمل «إلهام» مرور الدقائق، ولا حتى الثواني. سألته في الصمت المنتشر:

ـ يعني لازم أسألك، والا أنت أجَّلت موعد إعلان المفاجأة؟!

ـ لا كده ولا كده.. الموضوع باختصار....

صمت قليلاً وهي ترتقب بأعصابها، ثم ابتسم قائلاً:

ـ في الأول.. ما رأيك لو تركنا بلدنا، وسافرنا إلى بلد آخر لنعيش فيه؟

تلقت السؤال كالرمح المفاجىء. أخذت تتطلع إلى وجه زوجها، ثم سألته:

ـ تقصد إيه بالضبط؟.. بلاش ألغاز!

ـ جاوبي على سؤالي في الأول.

ـ يعني. . . أعرف الأسباب. اقتنع بمعقوليتها، أو على الأقل بضرورتها!

ـ إيه رأيك لو نعيش في باريس؟!

ـ باريس دفعة واحدة. . ليه، نزلت عليك ثروة؟!

ـ لا. . ظروف!

ـ طيب. . قول في «كان» أو في «نيس» إسمنا بنقلد الكبار!

ـ أنا ما بأمزح من فضلك. . باتكلم جد.

ـ طيب ليه. . السبب. . التفاصيل. . الدواعي؟!

ـ باختصار. . شركتنا قرَّرت افتتاح فرع في باريس، واختاروني مديراً للفرع!

مفاجأة. . . دار لها رأس «إلهام»، ولم تعد تدري ما تقول!

خيل إليها أن نفس التعبير المزدوج الذي لمحته على وجه زوجها حين دخوله إلى البيت، قد انتقل إلى ملامح وجهها. ليت مرآة كانت أمامها لترى وجهها المتموه ما بين الرضا والحزن.

جاءها صوت زوجها. . كأنه يصعد إلى سمعها من قرارة بئر، وهو يسألها:

ـ رأيك إيه. . مبسوطة، والا عندك كلام تاني؟!

ـ قالت: ما أدري. . يمكن أكون مبسوطة، لأننا ننطلق إلى حياة مفتوحة، وإلى بلد حضاري. . لكني لازم أشعر بالحزن.

ـ سألها: ليه الحزن؟!

ـ قالت: لا بد أن يحزن الواحد لما يفارق بلده، وأهله، وذكرياته!

ـ قال: لكن إنت كنت متضايقة، وبتشتكي من الملل والوحدة والحبس في البيت.. جاتك الفرصة الآن، فكيف تحزني؟!

ـ قالت: لا أدري.. خايفة أفقدك هناك.

ـ قال ضاحكاً: لأ.. دي إطمئني فيها.. أبصم لك بالعشرة إني باحبك وما أستغني عنك!

ـ قالت: أعرف.. حب البيت غير، وعبث الحرية شيء آخر.

ـ قال مندهشاً: لأول مرة أعرف أن في الحرية عبثاً!

ـ قالت: الحرية إذا ما رشَّدناها، والزمناها بالسلوك وبالعرف وبالمبادىء، تتحول إلى عبث!

ـ قال: أحب الفلسفة الحريمي!

ـ قالت: مفيش فلسفة حريمي، ورجالي.. بلاش السخرية، أنا بأتكلم بجد.

ـ قال: طيب، ومالك حزينة كده، كنت متوقع إنك تفرحي وترقصي.. خصوصاً وأنت امرأة تحب الانطلاق!!

ـ قالت: أنا أحب الانطلاق، لا العبث!

ـ قال: ومين قال عبث؟!

ـ قالت: أفهم ما ترمي إليه. على أي حال، مبروك!

ـ قال: وليه بتقوليها بحزن؟.. يمكن تلاقي وظيفة هناك!!

ـ قالت: أعرف أنك تهزأ بي. . أنا أردت أن أعمل في بلدي.

ـ قال: تعملي إيه. . مهندسة ديكور، دا منطق والا فاصوليا؟!

ـ قالت: خلاص يا خالد. . يبدو إننا مختلفين في فهم النقطة دي بالذات. على أي حال. . هناك نقطة أهم الآن في خط حياتك الجديد.

ـ قال بتوجس: إيه. . ناوية على إيه؟!

ـ قالت: أبداً. . لا تخاف. بس خلِّينا نتناقش بموضوعية. .

ـ قال: نتناقش. . من فين نبدأ؟!

ـ قالت: ما هي مبارزة يا خالد، ولكن. . أولاً، أنت فكرت في دراسة «فارس» و«عهد»؟!

ـ قال: يا ستي. . «عهد» لسه صغيرة، ويمكن ندخِّلها هناك روضة.

ـ قالت: روضة بالفرنساوي؟. . طيب و «فارس»؟!

ـ قال: توجد مدرسة لأبناء الجالية العربية، وبرضه يتعلم فرنسي.

لفهما صمت طويل. . كل واحد منهما يتطلع إلى وجه الآخر. أغمضت «إلهام» عينيها لكنها متيقظة.

ـ سألها خالد: بتفكري في إيه؟!

ـ أنت يا خالد ما بتتكلم فرنسي. . كيف تشتغل إذن في باريس؟!

ـ بسيطة. . أنا أتكلم اللغة الإنجليزية، ووجودي في فرنسا يمكنني خلال شهور من تعلم اللغة الفرنسية. . لا تخافي، زوجك لبلب!

ـ وأنا يا خالد؟!

ـ أنت تدرسي اللغة الفرنسية، وإن أردت تتعاوني مع مؤسسة للديكور!

ـ إنت بتمزح أكيد!.. بعدين الديكور هناك في كل مكان، يمكن حياتهم مليئة بالديكور، أو بالمظاهر، لكن....

ـ لكن إيه؟!

ـ الأعماق.. داخل الإنسان؟!

ـ سؤالك، ولا بد تضعي إجابه عنه، لكن «الإنسان» الطبيعي موجود في كل مكان، حتى في أدغال أفريقيا.. سلوك الخير والشر.. عاطفة الحب والكراهية. بعدين إحنا رايحين بلد الثقافة والفنون!

ـ كنت أفضل لو كلفوك بإدارة فرع في بلد عربي.. علشان ما يصير الاختلاف شاسع.

ـ إنت متشائمة ليه؟!

ـ لا أدري.. يمكن ما هو تشاؤم، بقدر ما هو خوف!

ـ خوف ليه، ومن إيه؟!

ـ برضه ما أدري. المهم.. الله يستر.

ـ تحبي تجلسي؟ هنا في بلدنا، وأنا أتردد عليكم؟!

ـ أيوه.. علشان ما عاد نشوفك أبداً.

ـ بدي أعرف.. ليه المرأة في غيرتها على الرجل اللي بتحبه تصبح محدودة، أو أسيرة لهاجس خيانة الرجل لها؟!

ـ دا يا حبيبي ما هو هاجس، ولا أسر.. دي حقيقة، فالرجل ضعيف أمام المرأة الجميلة، وانزلاقه سهل جداً!

ـ خطأ. . الرجل إذا أحب امرأة بعينها. . يخلص لها، المهم أن يحبها وتحبه.

ـ (ضاحكة): وتحب ناقتها بعيري!. . دي عهود قديمة، ومنقرضة. . خصوصاً بعد أن أصبحت المرأة في العالم الغربي مباحة!

ـ لكن. . أنا شخصياً باحبك فعلاً، ليه ـ إذن ـ أعبث. . خصوصاً إنك بتعطيني الحب والحنان وحتى الجنون أيضاً!

ـ حبي لك. . يخليني أخاف. أعذرني!

ـ وحبي لك. . ما يخليكي تثقي؟!

ـ خلاص. . اللي ربنا مقدره علينا يصير!

ـ طيب. . أحتاج الآن إلى جرعة حنان.

ـ والله «فارس» أعقل منك بكل جنونه!

ـ إنما لو عقلت أنا. . بعدين تتهميني بشيء آخر!

ـ إنت من الجن!

ـ وإنت حورية من أعماق البحر. . أحب أمواجك جداً!

* * *

بداية الغرابة!

المرة الأولى في حياة «إلهام».. تأتي فيها إلى باريس بكل حقائبها. تعوَّدت قبل هذه المرة أن تحمل معها إلى أي مكان في العالم حقيبة واحدة، ولكنها حينما تعود إلى بلدها تصطحب معها عدة حقائب!

وعندما انتهت إجراءات ختم «جوازات السفر»، وتأبَّطت ذراع زوجها، وأمسكت بطفليها.. واجهها الزِّحام الشديد حين خروجهم من صالة المطار. كانت تتلفت مشتتة النظر في كل اتجاه.. كأنها تدخل إلى «باريس» للمرة الأولى، برغم أنها جاءت إلى هذه المدينة عدة مرات!

لكن شعورها هذه المرة يختلف.. فقد كانت تجيء للفسحة، ولتغيير الجوّ، وها هي الآن تأتي للإقامة الدائمة!

ـ لا شيء مثل الوطن.. حتى لو كان على رأس جبل، أو في صحراء. للوطن جذور متعمقة في قرارة النفس.. حافلة بالجذب، وبالانتماء، وبالذكريات!

ـ قال لها زوجها: ألست تحلمين بهذا الزحام؟.. إذن، جربي!

ـ قالت: الأجمل أن يزاحم المرء فوق أرضه.. لأن صوته مسموع، ووجهه مألوف، وخفقه يغني!

ـ قال خالد: لا بأس من التجربة. . المهم أن لا ننزلق!

ـ قالت: انظر. . الجميع هنا يتساوى: المرأة والرجل. . الإنسان والحيوان. . . العواطف والماديات. . الهمسة والآلة. ذلك شيء فظيع!

ـ قال: الذي ينظم ذلك كله هما: العلم، والوعي.

ـ قالت: والفوضى؟!

ـ قال: الفوضى أصبحت في الحرية!

وتوقف بهم «التاكسي» أمام بوابة الفندق. ولم ينتظر «فارس» أكثر من فتح باب السيارة. . حتى ركض إلى بهو الفندق مندهشاً، متلفتاً، ولحقت به أخته «عهد» تمشي بتأنٍ واستطلاع، كأنها في مشيتها تشبه «طائر البطريق» الذى يحاول المشي على الأرض!

قال فارس لحظة وقوفهم في انتظار المصعد. يخاطب والده:

ـ انبسط يا سي بابا!!

ـ سأله والده باستغراب: انبسط من إيه؟!

ـ قال فارس: شوف. . . انظر حولك!

ابتسمت «إلهام» لأول تعليق «شقي» من ابنها. وتطلع «خالد» خلفه وحوله، فرأى مجموعة نساء يرتدين «المايوه»، لعلهن عائدات من المسبح إلى غرفهن. التفت إلى ولده قائلاً:

ـ عيب يا حبيبي. . بلاش شقاوة يا عفريت!

ـ قالت عهد فجأة: ماما. . أنا بدي مايوه!

ـ قالت إلهام: أهلاً. . أول البداية!

في المصعد.. قال «خالد» لابنته «عهد»، وقد أخذت تبكي مطالبة بـ «المايوه»:

ـ نستريح شوية، وننزل السوق نشتري لك مايوه، وآخذك لمسبح الفندق.. خلاص اسكتي يا عابرة المانش!

استغرقت جولتهم على السوق أكثر من ساعتين بعد الظهر. شعر «خالد» بعدها أن قدميه ستسقطان منه. حظر على «إلهام» أن تشتري شيئاً، ما عدا «مايوه» الطفلة عهد، وبنطلون «جينز».. أصر «فارس» على شرائه ليصبح مثل «مايكل جاكسون»!

نهاية مطاف الجولة.. كانت جلسة طويلة في «كافتيريا» الفندق.. استرخى فيها «خالد» وزوجته، بينما انطلق «فارس» وأخته «عهد» يتجولان في أنحاء بهو الفندق، ومعارض البيع الصغيرة بداخله.

وعاد «فارس» مسرعاً نحو أبيه. جلس بجانبه قليلاً، وهو يهم أن يقول شيئاً!

ـ سألته أمه: فيه إيه.. اتكلم؟

ـ قال فارس: اتصاحبت مع واحدة بنت أمريكية.

ـ قال خالد: يا مرحبا!.. أمريكا هنا، وبدها إيه.. تاخدك معاها للقمر؟!

ـ قال فارس: طلبت مني أطلع معاها لغرفتها علشان تعرفني على أمها وباباها!

ـ قالت إلهام: كمان؟. . واتفاهمت معاها بأي لغة يا فالح. . والا يمكن تعرف عربي؟!

ـ قال فارس: بالإشارة. قالت لي: ماما، فهمت، وقالت لي: دادي. . فهمت إنه أبوها!

ـ قال خالد: جدع يا ولد. . إنت عارف رقم غرفتنا وغرفتك أنت وأختك؟

ـ قال فارس: طبعاً يا بابا.

وانطلق «فارس» يجذب معه أخته. قالت «إلهام» لزوجها:

ـ هذه بداية الولد. . يا عالم كيف تكون بداية الوالد؟!

ـ يا شيخة لاتسيئي بي الظن للدرجة دي. أنا حضرت لباريس للعمل، ولاتنسي إني وافقت علشان أغير الجو لك. . شفتك متضايقة، وطالع في دماغك الشغل.

ـ قالت: ده ما هو سبب. . يعني راح أشتغل هنا؟ أ

ـ قال: لأ طبعاً. . المهم تستغلي وقتك. تخرجي وتتفسحي، وترسمي!

ـ قالت: على الله. . يا خوفي إني أشعر بالملل، على الأقل في بلدنا كان عندي صاحبات.

ـ قال: والله احترت. ابحثي لك عن شغل.

ـ قالت: إنت بتقول فيها. . انتظرني شوية إتعلم فرنساوي وتشوف!

ـ قال: قومي نطلع الغرفة.

في طريقهما إلى غرفتهما. . قالت «إلهام»:

ـ أنا قلقة على فارس وعهد.. إنت ما صدقت؟!

ـ يعني يصير فيهم إيه؟!

ـ أنا عارفه.. يمكن البنت تاخد الولد للديسكو!

ارتفعت قهقهات «خالد» داخل المصعد الذي حملهما إلى طابق غرفتهما، وقال:

ـ للدرجة دي؟.. دول الأجانب حريصين عل أولادهم في هذه السن، بعدين.. البنت طفلة في سن «فارس»، ويمكن في سن «عهد».

ـ . أنا اتلخبطت من اليوم الأول، ولما الأجانب بيحرصوا على أولادهم.. البنت بتطلع عن طوعهم، وتسكن لوحدها ليه؟

ـ لما تكبر.. يعتبروا إنها أصبحت راشدة، وتجاربها هي تحتملها!

ـ يا سلام... ونعم التربية!

ـ نحن مالنا.. شوية ويرجعوا الأولاد.

انقضت ساعة على عودتهما إلى غرفتهما، ولم يعد «فارس» وأخته. قلقت «إلهام» وبدأت تتوتَّر وتلوم زوجها. قالت:

ـ المصيبة إننا ما نعرف غرفة البنت، ولا اسم والدها.

سمعت «إلهام» خبطاً على الباب، فركضت تفتحه، وكادت أن تضرب «فارس» وهو يدخل عليهما مع أخته. قالت له:

ـ كده تجننا عليك إنت وأختك؟!

لم يجبها «فارس». اقترب من والده، يقول له:

ـ لقيت عند البنت الأمريكية صاروخ!

ـ قالت إلهام فزعة: إيه. . في غرفتها؟!

قهقه «خالد» واستغرق في الضحك. قال لزوجته:

ـ مالك فزعت كده؟!

ـ قال فارس لأمه: إيوه صاروخ يا ماما. . صاروخ لعبة، وقالت لي إنها راح تصبح رائدة فضاء.

ـ قال خالد: طموح. . شوفي بيوجِّهوا أولادهم لإيه؟!

ـ قالت إلهام: لإيه. . لاستعمار القمر والكواكب الأخرى؟!

ـ قال فارس: مامتها باستني، على فكرة هي حلوة بشكل. . وبعدين يا سي بابا. . . . . .

ـ قاطعته أمه: ما عندهم إلاّ البوس. . في أفلامهم، ومجلاتهم، وحفلاتهم!

ضحك «خالد» أمام توتر زوجته، وسأل ابنه:

ـ ها. . وبعدين عملتوا إيه؟!

ـ قال فارس: أعطتنا كيك، وجلست تلعب مع «عهد» وسمعتها تقول لها: ماما.

ـ قالت إلهام: وإنت يا مدموازيل «عهد» ما شفت أخ للبنت؟!

ـ قالت عهد: باباهم حلو. . لكن بابا أحلى.

طلب «خالد» العشاء في الغرفة، واستقرت «عهد» في حضن أبيها، ونامت.

ـ قالت إلهام: خلي فارس وعهد يناموا عندنا.. أنا ما أطمئن عليهم في غرفة لوحدهم.

ـ قال خالد: ليه.. ما هم كانوا يناموا لوحدهم في بيتنا؟

ـ قالت: هناك غير.. هنا فندق، وما في أمان.

واستلقت «إلهام» بجانب زوجها تتابع برامج التلفزيون، صامتة. سألها خالد:

ـ ملاحظ إنك متوتِّرة؟!

ـ ردت: أبداً.. تعبانة من السفر، ومن جولة السوق.

ـ بجد؟!

ـ بجد.. واسمح لي أنام.

ـ بكره إن شاء الله نروح نشوف شقة، ونستقر، وتتعوِّدي.

ـ والله ما أعرف.. قدامي مجهول خايفة منه!

ـ مجهول إيه.. إنت ليه متخوفة كده؟!

ـ معلش، احتملني حتى أتأقلم.

أخذ رأسها على صدره، وأصابعه تتخلل شعرها. قال:

ـ لي صاحب في سفارتنا هنا.. يفوت علينا في الصباح، ونشوف «الشقة».

ـ ليه ما استقبلك في المطار؟!

ـ كان عنده مهمة، وأنا طلبت منه ما يجي للمطار. وبعدين. . نروح معاه مدرسة تتعلمي فيها اللغة الفرنسية، وتشغلي وقتك. مفاجأة. . ها؟!

ـ يعني إنت رتَّبت الموضوع مع صاحبك؟!

ـ صح يا عيوني. . بس ما تزعلي.

ـ وإنت ما راح تتعلم لغة؟

ـ أنا كمان معاكي. . لكن يمكن بعدين تختلف مواعيدنا علشان عملي.

والأولاد؟!

ـ والأولاد رتَّبت موضوعهم. . المهم اهدئي، معقول أول ليلة لنا في باريس ننام متخانقين؟!

غمرت وجهها في صدره، وتشبَّثت به، قائلة:

ـ إطفي التلفزيون بالجهاز من جنبك، وخلينا ننام كده أحلى!

* * *

الصغار. . . يسبقون الزمن!

دخل «فارس» إلى غرفة الجلوس. . حيث أمه ووالده، والعبوس يطفح على وجهه.

كان يبدو أيضاً مكتئباً. . لا يرغب في الكلام مع أحد، وهو الذي يملأ البيت دوماً بضجيجه، وبتعليقاته، وباستفزازاته أحياناً. تطلعت «إلهام» إلى وجه زوجها، كأنها تسأله عن تبدل حال «فارس»؟!

نظر «خالد» إلى زوجته، وهو يمط شفتيه. . يجيبها بصمت:

لا أعرف.

ـ سألت إلهام إبنها: مالك مبوِّز؟!

ـ قال فارس: خلاص. . أنا طقيت من باريس، بدي أرجع لبلدي، أروح عند جدتي وجدو.

ـ سأله والده: ليه. . حصل إيه؟!

ـ أجاب فارس: كده. . علشان وحشوني كلهم.

دخلت «عهد» تتراقص، وتتقافز، وهي تشير إلى أخيها «فارس» وتضحك.

ـ قالت إلهام لزوجها: عجيب!. . واحد مكشر، والثانية تضحك. . لازم هناك سر!

سأل «خالد» ابنته التي واصلت الضحك، بينما «فارس» يرمقها شزراً.

ـ قالت «عهد»: أصل «فارس» يا بابا. . . . . .

ـ قاطعها فارس قائلاً: والله أضربك.

ـ سألت «إلهام» ابنتها عن الحكاية. روت «عهد» لأمها ما حدث. قالت:

ـ فارس يا ماما ما بيذاكر. بس. . ضربوه اليوم في المدرسة.

انفجر «فارس» يبكي.

تساءلت «إلهام» بدهشة موجهة إلى زوجها:

ـ غريبة!. . همّ في فرنسا بيضربوا الأطفال كمان؟

ردت «عهد» قبل أن يجيب والدها:

ـ إيوه يا ماما. . عندنا مدرّسة تعلّمنا الفرنساوي، ولمّا ما عرف «فارس» ينطق ضربته.

ـ سأله والده: وليه يا فارس ما تذاكر؟!

ـ قال فارس: الأبله دي يا بابا بتكره العرب!

ـ سأله خالد: أولاً. . دي مدرسة لأبناء العرب، والعرب هم اللي شغلوا «الأبله» دي، فكيف تكرهك؟!

ـ أجاب فارس: كل الأطفال اللي في المدرسة عرب، لكن هادي «الابله» تدخل منرفزة دايماً، وتتكلم بالفرنساوي، والله أعلم كأنها تشتمنا.

ـ قالت إلهام: هيا بلا كذب.. دكي الإنسانية واحدة، والأبله أم قبل كل حاجة، ولا بد أنها خائفة على مستقبلك!

ـ قال فارس: دي بتتكلم عربي مكسركمان، وتقول: الطفل العربي اتعود على الضرب، ولازم أعلمكم بالضرب!

صمت الجميع برهة، ثم كسر جدار الصمت هذا صوت «إلهام» يسأل زوجها:

ـ إنت ساكت ليه.. مالك رأي؟!

ـ ساكت لأني لازم أسمع كلام الطرف الآخر.

ـ يعني تروح للمدرسة، وتفهم اللي حصل؟

ـ أروح.. إنما لو كان «فارس» ما بيستوعب دروسه، ولا يذاكر.. تبقى مشكلة «فارس».

ـ قال فارس: والله بانتبه للدرس، وبأذاكر.. إنما «الأبله» دي قاصدتني أنا بالذات. ليه؟.. ما أعرف، حتى أسألوا اللي معايا في الفصل.

التفتت «إلهام» نحو زوجها، وقالت:

ـ اتفضل.. المشكلة الأولى.

ـ ولا مشكلة ولا حاجة.. يعني في المدارس العربية بنسمع إن المدرس العربي يضرب الطالب، والطفل بالذات بالعصا وبالمسطرة بشدة، مع أن النظام في المدارس يمنع الضرب.

ـ الغريبة إننا في فرنسا، ولازم «الأبله» دي تعرف أصول التربية الحديثة، لأنها في بلد متقدم جداً!

ـ يمكن «الأبله» معقدة من شيء. . ولا تنسي إن الطفل العربي عفريت، وكثير الحركة، و. . . . . . .

ـ قاطعته: قول كمان. . ومشاغب، لكن المشكلة ماهي هنا، المشكلة إننا نشهد موجة من الكراهية والحقد على العرب في كل مكان نروح له في الغرب. يعني على سبيل المثال: قبل يومين، وأنا خارجة من المعهد اللي باتعلم فيه اللغة الفرنسية. . كنت ماشية مع شاب عربي، زميلي في الفصل، و. . . . . . .

ـ قاطعها: إنت قلت إيه؟!

ـ زي ما سمعت. . إيه، فيه غلط؟!

ـ مين الشاب العربي اللي كنت ماشية معاه؟!

ـ قاسم. . . شاب جاء من الخليج علشان يدرس الفرنسية، ومقعده بجانب مقعدي في الفصل.

ـ ماشاء الله. . صداقة يعني. . والا راح يصبح قاسم مشترك أعظم؟!

ـ صداقة. . زمالة. الشاب مؤدب، وأخلاقه عالية. خليني أكمل لك الحكاية، وبعدين يا سيدي. . .

وشرد ذهن «خالد» بعيداً، وهو يضغط على شفتيه، دون أن يستمع إلى الحكاية التي استمرت زوجته في سرد تفاصيلها، لتؤكِّد وجود موجة عداء ضد العرب!

فاض وجه «خالد» بالتوتر والانفعال. قام من مجلسه وما زالت زوجته تحكي.

لاحظت «إلهام» تبدل وجه زوجها. لحقت به إلى غرفة النوم، تسأله:

ـ إنت اتغيرت فجأة ليه؟

ـ اسألي روحك!

ـ أنا قلت حاجة غلط؟

ـ إنت ما قلت وبس.. ومن متى ما شاء الله بدأت صداقتك مع السيد قاسم؟!

نظرت «إلهام» إلى زوجها بعتب، وقد فهمت سبب ثورته وحدته. قالت:

ـ من يوم ما دخلت المعهد. الشَّاب ما عمل حاجة غلط، مجرد زميل على مقعد الدراسة بجانبي.

ـ والخروج من المعهد، ولا بد تتمشوا شوية، ويمكن رحتوا كافيتريا، أو فندق.

ـ خالد.. ليه بتتكلم بالطريقة دي؟

ـ أجل أتكلم بأية طريقة.. أصفِّق لك، وأقول: برافو؟

ـ بس أنا ما عملت حاجة غلط؟

ـ انتظر يعني حتى يحدث الغلط؟.. وأقول بتتأخري ليه أحياناً!

ـ لكن أنا ما عمري اتأخرت إلاَّ مرة واحدة، وبعدين إنت ما تعرف لأنك في عملك، والاَّ موظف جواسيس عليَّ؟!

ـ طبعاً. . راح تقلبي الموضوع لصالحك، وأطلع أنا الغلطان في النهاية.

ـ أنا يا «خالد» عمري ما اتمشيت مع الشاب، ولا رحت معاه مكان. عيب. أنا متزوجة وأم. . وبعدين. . أنا متربية، وديني يمنعني من الغلط، وفوق كل الأشياء دي أنا باحبك إنت لوحدك.

ـ إذن. . إيه حكاية سي «قاسم»؟

ـ أبداً. . مفيش حكاية ولا رواية. بعدين إحنا في فرنسا، وأسلوبك هذا بيجعل الحياة جحيم إذا استمرينا كده.

ـ عجيب. . معنى إننا في فرنسا يعطيكي الحق إنك تتمشي مع شاب غريب، وتحكي له، ويحكي لك. وبعد شوية يصير استلطاف، وما نعرف إيه النهاية!؟

ـ يعني إنت يا منضبط اللي ماشي على الصراط. أنا ما أعرف إنت بتعمل إيه، ما هو البنات هنا زي الرز، أكتر من الهم على القلب، وأكتر من عدد الرجال. حاسبتك أنا؟!

ـ والله عال. . ولو افترضنا إني عملت اللي بتفكري فيه. . هل تقارنيه بنفس العمل من الزوجة؟!

ـ سبحان الله. . ليه إنتو يا رجال تعطوا نفسكم الحق لإباحة أشياء كثيرة تحرموها على المرأة؟!

ـ لأن المرأة كنز. . لأنها شرف، وقيمة؟

ـ لكن هذا اضطهاد، وأنانية.

ـ إضطهاد لأني أخاف عليكي؟.. المرأة عاطفية أكثر من الرجل ومن الممكن أن تنخدع بكلام معسول منمّق من رجل لا يريد منها سوى لحظة متعة وبس!

ـ لكن أنا ما عملت كده. إيه.. جريمة إني أتكلم مع شاب يا راجل يا متعلِّم، ياللي عايش في باريس؟

ـ أنا حتى لو كنت عايش في جزيرة عراة.. عندي قيم وأخلاق ودين. خلاص كفاية كلام.

قفز «خالد» إلى ملابسه، وارتداها بسرعة، وخرج يصفق باب البيت هائجاً.

دخل «فارس» إلى أمه في غرفتها، وقد رآها تبكي. جلس بجانبها يربت عليها.

احتضنته، وصوت نحيبها يعلو أكثر.

سألها «فارس» وهي تمسح دموعها:

ـ إنت صحيح يا ماما بتعرفي راجل تاني غير بابا؟!

كان سؤاله مباشراً بلا تنمق، وعفوياً بلا ضوابط، فهو قد استمع إلى جدال أبيه مع أمه من وراء الباب، بعد أن ارتفع صوتاهما إلى أرجاء البيت كله.

ـ قالت أمه: لأ يا حبيبي.. والله حتى لقبه ما أعرفه.

ـ قال فارس: انتو بتتخانقوا حتى في باريس؟

ـ قالت: قول لوالدك. بخون، متهور.

ـ قال فارس: طيب ولما تزعلي هنا تروحي على فين. . بيت جدو بعيد جداً، يحتاج طائرة!

ـ قالت: ربنا معانا. أبوك طيب، إنما عصبي وأحمق.

ـ قال فارس: أحمق يعني إيه؟!

جاءت «عهد» تتسلل من باب الغرفة، وهي تخاطب «فارس» بحركات لا تريد أن تراها أمها. و«فارس» يسألها بحركة يده عن ما تريده.

لم يفهم «فارس» شيئاً من حركات رأس ويد أخته «عهد».

قام باتجاهها، وسحبها إلى خارج الغرفة. . يسألها عن الخبر.

ـ قالت عهد هامسة: بابا في غرفتنا.

ـ قال لها فارس بحدة: أنا عارف هم بيخلفونا ليه؟!

ذهبا معاً إلى والدهما. كان يجلس على حافة سرير «فارس» وهو يدخِّن بعصبية. اقترب منه «فارس» وطوق رأسه بذراعيه الصغيرتين. قال له:

ـ روق يا سيد. آخر زمن. . الأطفال يحلوا مشاكل الكبار!

ابتسم «خالد» لطول لسان ابنه، احتضنه، وسأله هامساً:

أمك فين؟!

ـ قال فارس: تركتها تنشِّف الدمعة الأخيرة. قوم صالحها.

ـ قال خالد: بالبساطة دي؟!

ـ قال فارس: معليش. . نحن الرجال نتحمل، وإنت المخطىء.

ـ قال خالد لابنه النصف شبر: أنا المخطىء؟!

ـ قال فارس ضاحكاً: خلاص يا سيد، مفيش هنا لا جدو ولا «تيزه». صلي على النبي وقوم!

إنطلق «فارس» نحو غرفة النوم يسبقه صوته وضجيجه.. ينادي على أمه:

ـ ماما.. ماما. الرجال يعتذرون.

نظرت «إلهام» إلى ابنها «فارس» مندهشة من ضجيجه، وقد تركها قبل لحظات على وجهه تعبيرات الحزن.

ـ قال لها: خلاص.. لما يعتذر الرجال، لازم النساء تسامح!

ـ إنت قصدك إيه.. بتتكلم عن إيه؟!

ـ قصدي أخلصك من البكاء. وجايب معايا راجل طويل عريض يمسح دموعك.

ـ أنا ما بدي أشوف أحد. إنت كمان إطلع بره.. بره.

خرج «فارس» إلى ما وراء باب الغرفة، حيث كان والده يقف منتظراً. تطلّع إلى أبيه قائلاً:

ـ عاجبك كده.. لازم تهزأونا يعني؟

سحبه والده من يده إلى غرفته. قال له:

ـ إنت معجب بشخصية «عادل إمام» ليه؟

ـ نحن في شخصية عادل إمام، والا في أزمة الشرق الأوسط..

ما هو إنت وماما، كأنكم أكبر من هادي الأزمة اللي دوشنا التلفزيون بها، ودوشتنا الصحف والمجلات.

ـ إنت بتشوف وبتقرا يا مفعوص كمان والسياسة؟

ـ سياسة إيه ياسي بابا. . ده العالم العربي كله يفطر سياسة، ويتغدَّى ويتعشّى سياسة. . لما هلكونا.

ـ وإنت محتج على إيه يا أستاذ فارس؟!

ـ أنا محتج على إهمالكم للأطفال. الأب والأم بيهملوا أطفالهم في البيت. . إما مشغولين، وإما متخاصمين. والدول بتهمل أطفال شعوبها، لأنها مشغولة بالسياسة، وبإسرائيل، وبالسلاح!

ـ وإنت إيه اللي عرفك كل الأشياء دي؟!

ـ قصدك إني طفل صغير ما أفهم؟!

ـ بالضبط يا حصيف!

ـ أنا صحيح هنا في فرنسا ما أعرف اللغة الفرنسية، لكني أفهم من التلفزيون، من الصور يعني.

ـ تفهم إيه!. . هنا ما يتكلموا عن العرب أبداً، ولا عن اليهود، ولو اتكلموا إيه اللي يفهمك؟

ـ شفت أنا أخدتك لموضوع تاني كيف؟!

ـ تقصد إيه؟!

ـ أقصد إننا في المدرسة، مع زملائي العرب يعني، بنتكلم عن بلادنا.

ـ بيقولوا إيه؟!

ـ فيه أولاد لهم فترة هنا، وبيعرفوا فرنساوي، ومع معاشرتهم لأهل البلد هنا عرفوا أشياء كثيرة!

ـ ما شاء الله.. أنا اللي اسمي كبير، ما عملت كل العلاقات دي!

ـ لأنك مشغول في عملك، والأطفال أجرأ من الكبار، ويمكن مشغول في حاجة تانية!

ـ تانية يعني إيه؟!

ـ افهموها يا آباء!.. وكمان تزعِّل ماما؟!

ـ يا ولد... والله لأربيك.

جرى «فارس» بعيداً عن متناول يد أبيه وهو يضحك، وأقفل الباب عليه، وذهب إلى حيث تجلس أمه مهمومة.

ـ قال لأمه: خلاص يا ماما.. لقد نجح ابنك فجعل «الجبلاوي» يضحك!

ـ سألته أمه: مين الجبلاوي ده؟!

ـ قال: السيد المحترم بابا.. لما يزعل يتحول إلى «جبلاوي»!

ـ قالت: جبلاوي إيه.. من فين أخذت الاسم؟!

ـ قال: من فيلم.. شفت البطل فيه راجل طويل عريض، يشخط في مراته، وفي الناس اللي حواليه. سموه: «الجبلاوي».

ـ قالت: طيب تعرف سموه الجبلاوي ليه؟!

ـ قال: أنا عارف... يمكن من الجبل، لأنه قاسي وما ينهز!

ـ قالت: برافو.. والجبلاوي ما خرج من البيت؟!

ـ قال: خرج نص ساعة ورجع. ما قدر على فراقك يا حسرة!

ـ قالت: يا ولد يا لمض. . وجالس فين؟!

ـ قال: جبناه إلى هنا. . رفضت شهرزاد!

ـ قالت: مين شهرزاد؟!

قال: حضرتك.

ـ قالت: هو أبوك جاء إلى هنا؟!

ـ قال: نعم. . وكان بدو يدخل يصالحك. سمعك تصرخي وترفضي، ثارت رجولته. رجع إلى قواعده رجلاً!

ـ طيب روح جيبه!

ـ يحنِّن!

ـ إيه؟. . أما قليل أدب.

ـ المرة الأولى وافق. المرة الثانية أنا ما أوافق.

ـ ليه يا حبيبي؟!

ـ كده. غلاسه. تضامن رجالي!

ـ امشي اطلع بره. . قليل الأدب!

أخذ «فارس» أخته إلى غرفة ثالثة. طلب منها أن يلعبا معاً، ويتركا أمهما في غرفتها، ووالدهما في الغرفة الأخرى.

ـ قالت عهد: لمتى يجلسوا متخاصمين؟!

ـ قال فارس: ما أدري. . يمكن إلى الليل.

ـ ومين يعشينا؟!

ـ نروح المطبخ، وناكل.

ـ أنا جوعانه. وإنت يا فارس؟

ـ وأنا نفسي مسدودة.. بيت غم، أعوذ بالله!

ـ ما تجي نصالحهم علشان يعشونا؟

ـ لا.. الموضوع معقد.

ـ معقد يعني إيه.. بابا ضرب ماما؟!

ـ يا عبيطة.. أكتر. إنت إيه اللي يعرفك؟

ـ ليه؟.. أنا بافهم أحسن منك.. أنا كبرت.

ـ ما هو كل ما كبر الإنسان يصير ما يفهم!

ـ يعني الصغار بيفهموا أكتر وأحسن؟

ـ يعني لو كان الكبار بيفهموا يختلفوا دائماً ليه؟!

ـ لا يا سيدي.. خلِّيني صغيرة أحسن!

دخل عليهما والدهما، متسائلاً:

ـ إنتو بتعملوا إيه؟

ـ أجابه فارس: نحن مخاصمينك!

ـ قال والده: طيب قوم صالحني على أمك.

ـ قالت عهد: مالنا دخل.. روح صالحها إنت.

ـ قال والدها: حتى إنت يا زهرة يا جميلة؟

ـ وعاد «خالد» إلى غرفة «العزل» وحده. . يفكِّر: هل أخطأ مع زوجته، أم كان محقاً في ثورته؟!

ستكون الحياة صعبة في هذه الأجواء. . لكنه رضي بهذه الوظيفة من أجل زوجته ليخرجها من مللها، ويمنحها فرصة تنشغل فيها عن التفكير في الوظيفة والعمل. وها هو يصطدم هنا بمشكلة أكثر صعوبة وإحراجاً.

. ـ سأل نفسه: ألا تثق بزوجتك؟!

ـ أجاب: كل الثقة. ولكن. . . من يدري ماذا تحمل الأيام؟. . إن عاطفة المرأة رقيقة، خاصة الشرقية، والتي لم تختلط كثيراً بمثل هذه المجتمعات المنفتحة على كل شيء. . المعيار الوحيد فيها لقدرة النفس على الصمود.

كان لا بد أن يثور إذن في هذا الموقف، بل ويصعِّد غضبه ليمنع تجاوزات قادمة قد تحدث عفوية، ثم تسقط زوجته في براثنها.

ـ إذن؟!

إنه لن يذهب إليها ليصالحها. . فلا بد أن تشعر أنها أخطأت.

ـ ولكنها لم ترتكب شيئاً مشيناً. . مجرد حديث عابر.

حدث نفسه بهذه الخواطر والتصورات. أشعل سيجارة عاشرة وهو يحس أن صدره أصبح يؤلمه من كثافة هذا «النيكوتين» الذي يحرق جوفه.

لقد هدأ، ولكن هذا الموقف لا ينبغي له أن يهدأ ببساطة.

تطلع إلى مرآة الحائط. تذكَّر أنه لم يخلع ملابسه، فقام إلى الباب، وخرج مرة ثانية.

سمعت «إلهام» صوت باب الشقة يقفل. قامت من مكانها تفتِّش عن «خالد» وعن طفليها. سمعتهما يضحكان من وراء باب الغرفة. أطلَّت عليهما متسائلة:

ـ راخ فين أبوكم؟!

ـ قال فارس: يبحث عن شقراء!

زجرته أمه. سألت «عهد» من جديد. أجابتها:

ـ زعلان من السمراء!

ـ قالت: إنتو كلكم ضدي. روحوا كلكم في ستين داهية! صفقت «إلهام» باب غرفتها، اتجهت إلى المطبخ لتحضر طعام العشاء حتى ينام فارس وعهد.

اقترب «فارس» من أمه حين وقوفها وسط المطبخ. قال لها:

ـ نحن اتخاصمنا مع بابا علشانك.. تزعلي ليه؟!

ـ لأنه عيب.. الأطفال ما يخاصموا أبوهم ولا أمهم.

ـ لكنه زعلك؟

ـ ده شيء بيني وبينه. فين النص شبر الثانية اللي قالت إنها جوعانة؟

ـ في الغرفة... مضربة عن الطعام!

ـ إنت بتقول إيه.. ألاقيها من السيد والدكم، والا منكم؟!

ـ خلاص.. ننتظر الجبلاوي لما يرجع، و«عهد» تنهي إضرابها عن الطعام.

ـ وإنت يا مخطِّط؟

ـ شرحه!

ـ شرحه يعني إيه؟

ـ يعني متضامن مع حزب المعارضة.

ـ الله. . الله، والله لأضربك إنت واللي ما تتسمى!

ـ لأ. . دي اسمها ديكتاتورية، وحكم القوي!

ـ يا ولد. . تعال هنا، أنا بدي أعرف اتعلمت هادا كله فين، وكيف؟!

ـ اتعلمناه وخلاص. . الصغار يسبقون الزمن يا ست ماما!

ـ حتى دي كبيرة عليك. . تكون من الأقزام وعمرك في بطنك؟!

ـ ايش عرفني إسألي نفسك؟!

وركض من أمامها يضحك، بعد أن أثارها. . بينما واصلت تحضيرها لطعام العشاء في انتظار عودة زوجها!

* * *

إتفاق مثمر!

عاد «خالد» إلى منزله، بعد غياب ساعات أمضاها عند صديق له يعمل في باريس أكثر من خمس سنوات.

فتَّش عن «فارس» و«عهد».. فوجدهما قد استغرقا في النوم.

سمع صوت التلفاز في غرفة الجلوس، ورأى زوجته «إلهام» في نهاية الغرفة، وقد مال رأسها على كتفها.

أطفأ جهاز التلفاز، وأيقظ زوجته التي فزعت حين لمس يدها لينبهها. تطلعت إليه بفزع في النظرة الأولى. وجاءه صوتها غارقاً في النوم، وقلقاً بسبب يقظتها المفاجئة.

قالت له: لقد أفزعتني.

آسف.. إنت نائمة داخل الكنبة.

اتأخرت كتير.. فين كنت؟

عند واحد صاحبي.

اتعشيت؟

مالي نفس.

بس أنا جوعانة.

قومي المطبخ وحضِّري لك أكل.

وإنت؟

قلت لك مالي نفس.

ـ إنت برضك زعلان؟

ـ الموضوع ده خليه لبعدين.

ـ موضوع إيه. . إنت ما زلت تعتقد إني بالسهولة دي أقيم علاقة مع شخص آخر؟!

ـ المرأة عاطفية.

ـ عاطفية. . عاطفية، فلقتني. . اتحضَّر يا أخي شويه!

ـ الله يسامحك. . يعني أنا بدائي، من الغابة جاي؟

ـ ما أقصد. . لكني أحبك إنت، ومن المستحيل إن المرأة العاطفية دي اللي بتقول عليها. . تحب رجلاً آخر. افهمني يا خالد. . . أرجوك.

ـ طيب واللي انزلق. به لسانك؟!

ـ مفيش انزلاق يا حبيبي. أنا كان لازم أحكي لك كل حاجة.

ـ وليه ما حكيتي من يوم ما عدت؟!

ـ نسيت. . لأن الموضوع كله لا قيمة له عندي، شيء عادي. بعدين صارحني بالله عليك. . إنت زعلت لما قلت لك اتكلمت مع شاب زميلي في دراسة اللغة الفرنسية. . يا ترى ما يحق لي أزعل أنا ـ في المقابل يعني ـ

وأنا أعرف إنك في اليوم الواحد بتتكلم مع نساء كثيرات معك في العمل. إيه.. حرام عليَّ، وحلال عليك؟!

ـ لكن... النساء اللي بتقولي عليهم زميلات في العمل، والعمل يفرض كده.

ـ خلاص.. والشاب اللي فالقك زميل لي في الدراسة، والزمالة تفرض كده.

ـ إحنا في مناظرة؟

ـ لأ.. إحنا في غيرة سمجة، مالها لزوم. بعدين النساء اللي بتقول عليهم لا بد واحدة فيهم حلوة.. اتنين.. تلاتة. نحن في باريس، أيها الرجل الشرقي!

ـ بأي طريقة ترغبي إنك تهزميني!

ـ لأ.. أرغب إني أقنعك، وأغسل الأوهام، وأثبت لك حبي.

ـ صحيح بتحبيني يا إلهام؟!

ـ لأ... أنا باموت فيك. قل لي يا أستاذ.. مين صاحبك اللي رحت عنده، والا يكون الصاحب... مؤنَّث؟!

ـ يا شيخة.. أنا رجل مستقيم!

ـ ونِعِمْ!.. نحن النساء لما نحب رجل ما نلتفت لغيره، الباقي عليكم يا رجال.. تلاقي الواحد حتى لو كان بيحب المرأة اللي اختارها بصحيح.. إنما برضه يبصبص!

ـ لأ.. دي تهمة ظالمة.. دي أشياء شاذة!

ـ شاذة؟!

ـ نعم. . بدليل إني أنا في كل هذا الزحام من الفاتنات الكاسيات. . لا تلفت نظري إلا أنثى واحدة!

ـ الله يعين الصادق.

ـ أثبت لك كيف؟

ـ أعرف إنك تحبني، إنما لا أعرف بكره تعمل إيه؟

ـ أيوه. . براعة خبيثة منك، قلبت الموضوع لصالحك، كالعادة!

ـ تعال نتعشى.

ـ إيه رأيك لو نخرج نتعشى بره؟!

ـ يا مجنون. . والأولاد نخليهم عند مين؟

ـ ناموا. . شفتهم لما جيت، وغطيتهم كمان.

ـ ما هو كفاية. . بالذات «عهد» تصحى وتبحث عني، بعدين تخاف.

ـ لا تعقِّدي الأمور.

ـ معليش. . أعمل لك العشاء إللي تشتهيه، وبكره نروح وناخد فارس وعهد.

ـ أمري لله. . أصلي ماني أم!

ـ خالد!

ـ نعم. . رجعتي في كلامك؟

ـ لأ. . بدي أسألك: خلاص صالحتني؟

ـ ما أقدر!

ـ ما تقدر تصالحني؟

ـ لأ.. ما أقدر على زعلك. شفت باحبك قد إيه؟

ـ لأ ما شفت.. سمعت!

ـ طيب تعالي.. أثبت لك.

ـ يا مجنون.. أنا جوعانة، خليني أحضر العشا.

أعاد «خالد» فتح جهاز التلفاز، بينما زوجته انشغلت بتحضير العشاء، واندمج هو في مشاهدة حلقة بوليسية.. فلم يشعر بعودة زوجته من المطبخ، وبمائدة الطعام.

ـ سألته إلهام: مشوقة الحلقة؟

ـ كالعادة.. إثارة، وبعدين يمسكوا القاتل.

ـ يخيل لي أن الجريمة أصبحت في دم العالم ده.. إلى درجة أن أفلام الرعب والمسلسلات البوليسية في رأيهم من أنواع التسلية.. حتى الأطفال يشاهدوها!

ـ صحيح.. وحكاية «القفلة» الدائمة بالقبض على المجرم في نهاية الحلقة أو الفيلم.. شيء في الأفلام، لكن في الواقع.. غالباً ما يعجز بوليسهم الذكي جداً عن معرفة المجرم.

ـ والله أنا خايفة على فارس بالذات، وعلى عهد كمان.. يعني نحن كنا في بلدنا نخاف على أولادنا من الفيديو.. هنا كل شيء متوفِّر على شاشة التلفزيون، وخلف الباب كمان!

ـ لا تخافي. . التربية توجه، المهم لا نهملهم، وفلوس ما عندنا لإغراء المجرمين.

ـ صحيح. . لكن همي أكبر من كده!

ـ تقصدي إيه؟!

ـ أقصد أن الجريمة هنا ما هي تمثيل. ومن هنا خوفي ينبع!

ـ طيب نعمل إيه. . نرجع بلدنا يعني، ومالنا إلاَّ شهور؟

ـ والله شيء يحير ويقلق يا خالد.

ـ وبعدين. . كيف نسافر، ونترك «قاسم» بيه؟

ـ أيها الاستفزازي؟

ـ أمزح!

ـ لأ. . راح تعملها حكاية، وكل شوية تنط بالحكاية، والله أزعل بجد.

ـ خلاص. . لكن حكاية العودة لبلدنا صعبة الآن، بعدين إنت بتستفيدي من تعلم اللغة الفرنسية. سمعتك أمس بتتكلمي مع جارتك في الممر.

ـ يعني. . مثل الخواجه اللي يتكلم عربي.

ـ إنما نطقك للفرنسية حلو.

ـ طبعاً يا أستاذ. . إنها لغة الحضارة والثقافة، وأنا مثقفة، حضارية!

ـ بس بيقولوا إنها لغة البنات أيضاً!

ـ ومالو؟. . كل كلام البنات حلو.

ـ كده ضيعت متابعتي لأحداث الحلقة؟

ـ يا سيدي.. المهم إن ولدك «فارس» بدأ يتكلم فرنساوي!

ـ جني الولد ده!

ـ باسم الله عليه.. ما تقول كده، ما يحسد الأنسان إلا أهله!

ـ بتتكلمي مثل ستي يا فرنسية اللغة!

ـ عارف يا خالد.. جارتنا الفرنسية اللي شفتها بتتكلم معايا، طلبت مني أعلمها اللغة العربية، وهي تساعدني بالمحادثة على تقوية لغتي الفرنسية.

ـ عال.. أول إتفاق مثمر يتم بين أوروبا والعرب!

ـ اتفاق إيه.. أوروبا لازم تاخد في المقابل، والفرنسية دي بتاخد تعليم لغة عربية.

ـ ـ معليش.. إنت أيضاً بتقوِّي لغتك معاها.

ـ على رأيك.. لكن ما حكيت لي إنت كنت فين من يوم ما خرجت من البيت؟

ـ قلت لك يا ستي كنت عند واحد صاحبي!

ـ أيوه.. مين. فرنساوي والا عربي؟

ـ ليه؟!

ـ ليه إيه؟.. أنا زوجتك ولازم أعرف كنت فين!

ـ دكتاتورية دي. وما هو من المفروض على الرجل إنه يقول لزوجته كل حاجة!

ـ بس نحن ما بيننا أسرار يا حبيبي!

ـ أيوه. . لقد رقت كلماتك. ثم إني كنت زعلان منك، وهذا كان في الوقت الضائع.

ـ الوقت الضائع عند الرجل. . يعني «خلبصة»!

ـ هيا محاكمة والا إيه؟

ـ لأ. . إثبات البراءة!

ـ كنت عند صديقي «عمرو». . إنت تعرفيه، اللي بيعمل في السفارة.

ـ في البيت؟!

ـ أجل في البار؟!

ـ طيب. . لا تحمق كده، وطبعاً شكيت له مني، وزوجته سمعت، والا ما سمعت، هو راح يعطيها التفاصيل.

ـ أولاً: أنا يا سيدتي لست من هذا النوع، وما أطلع أسرار بيتي للخارج، هذه شؤون داخلية!

ـ وصاحبك شؤون خارجية، والاَّ ثقافية فنية؟!

ـ المهم إني لا أسمح لنفسي بنشر غسيلنا في بلكونة الآخرين!

ـ أحبك!

ـ لوحدها ما تكفي. قومي ننام، أنا تعبان.

ـ إن شاء الله تستمر تعبان حتى تستغرق في النوم!

ـ ما هو من قلبك.

ـ يا انتهازي!!

فارس. . اقتصادي!

لاحظ «خالد» أن ابنه «فارس» وابنته «عهد» لا يتناولان طعام العشاء، وقد ران على وجه كل واحد منهما صمت، ووجوم.

سأل زوجته بنظرة إليها وحركة من رأسه عن خلفية هذا المنظر. أجابته «إلهام» بنفس طريقته، وهي تمد شفتها السفلى.

لم يرد «خالد» أن يطرح السؤال مباشرة، كان قد حاول أن يثير «فارس» بالذات ليتكلم، ولكن «فارس» واصل صمته، وهو يعبث بالسكين وبالشوكة.

لكز «خالد» زوجته برفق في يدها مشيراً إلى الممتنعين عن الطعام، يريد منها أن تسأل هي.

ـ سألت إلهام ابنها: إنت ما بتاكل ليه؟

ـ شبعان.

ـ سأل خالد ابنته: وأنت يا عهد. . طبعاً متضامنة معاه كالعادة!

ـ أنا زعلانة.

ـ سألها والدها مبتسماً: وزعلان القمر من إيه. . مين اللِّي زعله؟

ـ إسأل فارس يا بابا.

رد «فارس» بعد أن سأله والده، وهو يضخم صوته:

ـ عهد زعلانة من السوق الأوروبية المشتركة!

فوجىء «خالد» وزوجته بالإجابة. . فقالا بصوت واحد: إيه؟

ـ قال فارس: طبعاً. . نحن الاثنين، أقصد أنا وعهد، لنا قضية مع السوق إياها.

ـ وقضيتك إنت وأختك إيه؟

ـ قالت عهد: الفلوس. . قال مذيع التلفزيون لما كنا في بلدنا: أوروبا في عصر المادة.

ـ قالت إلهام: والله وعرفت تتكلمي ياشبر ونص انت. . أصابك فارس بالعدوى واللي كان كان!

ـ قال خالد: وإيه دخل عصر المادة بالسوق المشتركة، وأوروبا. . ما هو كل العالم في عصر المادة؟

ـ نظرت «عهد» إلى والدها بتأمل مضحك، ثم قالت له:

ـ الحتة دي مش فاهماها. . أعد من فضلك.

قهقه الوالدان لطريقة ابنتهما في الحديث، لكن «فارس» بتر تلك القهقهة بنبرة جادة، وخبط على طاولة الأكل مثل رجل مهاب، وقال:

ـ من فضلكم. . لحظة سكوت، نحن العرب من عيوبنا إننا نتكلم بصوت مرتفع وما نفعل شيء!

ـ ذهل «خالد» من حركة وعبارة ابنه. أخذ يحدِّق فيه طويلاً، ثم سأل ابنه:

ـ إنت يا ولد في أي سن؟

ـ قال فارس: ليه حضرتك بتسأل؟

ـ لأن الكلام ده ما يقولوه إلاَّ الكبار. لأ.. إلا بعض الكبار.

ـ خلاص.. أنا كبار، يعني بأغش في عمري؟.. وبعدين دا كلام جرائد وأفلام!

ـ قالت إلهام: يا قليل الأدب.. كده تتكلم مع بابا؟

ـ من فضلك يا ماما.. خلي الرجال يتفاهموا!

ـ قال خالد: أتركيه.. أكمل يا حضرة المثقف اللوذعي.

ـ قال فارس: الموضوع باختصار.. إن السوق الأوروبية المشتركة هي اللي جابتنا باريس!

ـ عجيب. معلومة قيمة. كيف.. نوِّرني؟

ـ يا بابا.. أنت مدير فرع شركة عربية في باريس، والشركة فتحت فرع هنا ليه.. ما هو علشان المصالح الاقتصادية. وفرنسا ما هي عضو في السوق الأوروبية المشتركة؟.. خلاص، افهموها.

وضع «خالد» خده على راحة يده يتأمل ابنه للحظات، ثم التفت إلى زوجته باندهاش:

ـ إنتي جبت هادا الجني من فين؟

ـ قالت: أنا عارفة؟.. منك طبعاً، والا يكون من خارج الزمن.. سبق عمره يعني.

ـ قال فارس: أنا ما كملت موضوعي.

ـ اتفضل أيها السيد الفهامة.

ـ شوف يا بابا. . نحن سئمنا من باريس.

ـ أحد يشعر بالملل في باريس يا غبي؟

ـ أنا وعهد خلاص، وصلت معانا، إنت يا بابا يمكن تحب باريس لأنك رجل.

ـ ما هو إنت ما شاء الله زي ما هو واضح. . رجل والرجال قليل.

ـ بس الدراسة هنا فظيعة. الناس. الكلام. . حتى الليل والنهار هنا ما نحبهم. بلدنا أحلى. هناك أصحابنا وأهلنا، والناس بيحبونا، والحر حلو جداً.

ـ وهنا فيه أحد بيكرهكم؟

ـ أيوه. . السوق الأوروبية المشتركة.

ـ يا دي السوق. . إنت من فين اتعلمت العبارة دي؟

ـ واحد عربي زميلي في المدرسة فهمني، وسمعتها من زمان في تلفزيون بلدنا.

ـ قال لك إيه زميلك؟

ـ قال: إن السوق الأوروبية المشتركة تاخذ فلوس العرب.

ـ كلام ما هو صحيح. . لأن السوق دي تعبانة بنفسها وبمشكلاتها.

ـ المهم.. المدرسة العربي اللي بنتعلم فيها.. بتعلمنا فرنسي، وكمان ما تخلينا نحب بلدنا، بس نحب فرنسا.

ـ وإيه كمان.. قول؟

ـ عهد بيعلِّمونا الرقص.. حصتين رقص في الأسبوع.

ـ قالت عهد: أرقص لك يا بابا.

ـ قال خالد: لأ يا حبيبتي.. أرقصي لأمك، والا بالمرة علميها.

ـ قالت إلهام: وأنا مالي لما تلمزني.. قلت لهم علِّموها الرقص؟!

ـ قال خالد: وإنت يا فارس زعلان علشان تطالب بالمساواة.. لازم يعلِّموك إنت كمان الرقص، والا إيه؟

ـ قال فارس: لأ يا بابا.. أنا أعرف أرقص!

انزوى «خالد» فوق الكرسي، داخل الصالة، يفكِّر.. شعر أنه مهموم جداً بعد الحوار الغريب والمثير مع طفليه.

لقد تعاقبت الأيام، وتكاد هذه الأسرة الصغيرة أن تكمل عاماً في باريس. مشوار.

أخذت «إلهام» مقعداً آخر وجلست بجانب زوجها، تسأله:

ـ بتفكر في إيه؟

ـ في انطباع الولد والبنت.

ـ تعرف يا خالد.. قبل يومين، جات «عهد» تبكي. ظنيت إنهم ضربوها في المدرسة، سألتها، وبعد ما تعبتني.. حكت لي سبب بكائها. قالت: لها زميلة عربية في المدرسة من لبنان. كل يوم تشوفها «عهد»

وتلاحظ عليها أنها تبكي. عقدت صداقة مع البنت. سألتها عهد في يوم: إنت تبكي علشان ما عندك فلوس؟ ردَّت عليها البنت وقالت: لأ. . ما هو علشان هيك. سألتها عهد: طيب. . بتبكي كل يوم الصباح ليه؟ قالت لها البنت: علشان بابا وماما ماتوا في حرب لبنان.

ـ قال خالد: طيب والبنت جالسة مع مين في باريس؟

ـ قالت لعهد: إن خالها أساساً عايش في باريس، ولما ماتوا أهلها، وعرف خالها سأل عن بنت أخته، وبعد ما تعب. . لقيها عند الصليب الأحمر، وسلموه البنت.

ـ قال خالد: علشان كده رجعت عهد تبكي؟

ـ علشان البنت اللبنانية حكت لعهد كيف قتلوا أمها وأبيها قدام عينها، وكيف اتشردت، وكانت تمشي تحت الرصاص والموت.

ـ يا ساتر. . مآساة.

يمكن المأساة تنتهي بالنسبة للكبار، حتى بالنسبة للناس اللي فقدوا بيوتهم، أو حتى أهلهم وثروتهم. . إنما الكارثة الأكبر لما طفلة صغيرة زي دي تفقد أمها وأبوها في لحظة واحدة، وتشوفهم يقتلوا قدامها.

ـ بس يا «إلهام». . كفاية أرجوك.

ـ لكن اللي مجنني. . كيف الولد فارس عرف إيه السوق الأوروبية المشتركة؟

ـ لما كنت آخذه إلى غرفته علشان ينام، أعدت السؤال عليه. تعرفي جاوب بإيه؟. . قال: السوق الأوروبية المشتركة بتدفع لإسرائيل

ـ ضحكت «إلهام». قالت لزوجها:

ـ ولا أكبر المحلِّلين السياسيين اللي ما هم فاهمين يقولوا الكلام ده!

ـ قال خالد: أعرف أن اللي في سن «فارس» يهتموا بأشياء أخرى كل قد سنهم، لكن الولد ده.. طير برج من عقلي. ما شاء الله.

ـ قالت: أيوه قول ما شاء الله.. حتى لو كان بيقول معلومات خطأ، أو مضحكة، إنما كونه يفكر في السوق المشتركة مثلاً.. هذا لوحده شيء مثير!

ـ قرأت مرة لعالم اجتماع ونفس عربي، بيقول في بحثه: إن الطفل القادم.. طفل ذكي، لأن وسائل المعرفة والإعلام منتشرة، ولأن مستوى الآباء والأمهات التعليمي والثقافي ارتفع في كل المنطقة برغم أن العالم المتحضر بيعتبرنا شعوب نامية.

ـ لكن هناك ضرائب أخرى، أو يمكن أسميها «التسيب».. لأن الآباء والأمهات، خاصة في مجتمعاتنا، أخذوا يهملون رعاية أطفالهم، وتوجيههم، والمشكلة في حد ذاتها خطيرة.

ـ صحيح.. لكن الطفل بينطلق مع وسائل المعرفة والإعلام.. أي بيت الآن فيه تلفزيون، وكثير من البيوت فيها فيديو، ومجلات.

ـ هذا لا يكفي.. من الممكن أن يحدث العكس. لكن.. الأهم هو التوجيه الأسري.

ـ طيب.. قولي لنفسك؟

ـ رجعنا للاستفزاز؟.. أنا ما قصرت مع فارس ولا مع عهد. هناك أيضاً

المجتمع المفتوح: المدرسة، الرحلات أو السفر، اختلاف البيئة للأصدقاء وزملاء الدراسة.

ـ إنت درست «الفنون الجميلة» والا درست علم الاجتماع؟!

ـ لازم الأم تقرأ، وعلى فكرة.. الأم لا تقرأ من أجل تربية أطفالها فقط، لا.. وإنما من أجل...

ـ قاطعها: عارف.. من أجل تربية زوجها أيضاً!

ـ أحبك يا انتهازي!

ـ تحبيني في «الصالة» أو في الصالون فقط.. ها؟!

ـ في الصالة، وفي الصالون، وفي العمل، وفي السيارة، و....... آه، فهمت قصدك! تصبح على خير يا سيدي الفايق.. رايحة أنام وتعبانة، فأنا ورايا مدرسة في الصباح وتعلم لغة فرنسية. خليك في الصالة.. تتأمَّل اللوحات الجميلة اللي على الجدار!

ـ معقول؟.. أتأمل لوحة صماء على الجدار، ومعي لوحة متحركة، دافئة، كلها حيوية؟!

ـ معقول جداً.. حتى إشعار آخر!

ـ وفي باريس كمان؟

ـ قصدك إيه؟

ـ لأ.. ولا حاجة. معقول جداً، حتى إشعار آخر.. بعد لحظات!

أنا أحيا. . بك!

حط رأس «إلهام» على كتف زوجها. . مثل عصفور جميل يبحث عن الأمان.

أغمضت عينيها حين هدأ رأسها الصغير فوق هذا العش. . فكأنها تريد أن تنام بعد لهاث طويل ومضن، وكأنها تريد أن تغني بهمس.

طوَّقت خصرها يد زوجها. . تود لو تبقى هذه اليد تشدها للأبد إلى هذا الحضن الذي انعكس عليه ظلها، ولاذت إليه قامتها، واحتوى عمرها.

ـ وسألها زوجها خالد: سعيدة لأنك حصلت اليوم على شهادة في اللغة الفرنسية؟!

ـ أجابته: السعادة ثمرة عمل مفيد بلا شك. . لكني أكثر سعادة لأنك بقربي. . لأنك حصني العتيد.

ـ قال ضاحكاً: يا دلع. . يا «بكَشْ»!

ـ قالت: المرأة تحب أن يدلِّعها الرجل الذى تحب، لكني صادقة. . وفي نفس الوقت سعيدة لأني حققت شيئاً حرصت أن أنفذه وأنجح فيه.

ـ قال: كسبت لغة أخرى. . يمكنك أن تقرئي بها الآن، ولا تنسي أن الأدب الفرنسي يعتبر من أرقى الآداب الحديثة.

ـ قالت: على مهلك.. الخطوة الأولى إنني استطعت قراءة الصحف.

ـ قال: البداية قاعدة.. المهم أن لا تتوقفي أو تهملي. الحمد لله.. يعني ارتحنا من الإصرار على الديكور، وفتح المحل.

ـ قالت: تقصد إنك انتصرت يعني؟!

ـ قال: ها.. انتبهي، نحن سعداء ومبسوطين، لا تقلبيها خصام!

ـ قالت: بالعكس يا «خالد».. فكرتي كانت لا تقوم على العناد لمجرد العناد، أبداً.. كنت أصر على العمل من أجل العمل.. لم أتشبث بالديكور لذاته، بل بالفكرة.

ـ سألها: وما هي أبعاد وأهداف الفكرة يا سيدتي؟!

ـ أجابت: أهدافها يا سيدي الساخر إشغال المرأة في مجتمعنا بشيء مفيد لها.. لماذا؟ لأن المرأة تعاني من الفراغ، والفراغ يولّد الملل من البيت والزوج والأطفال ويؤثّر في نفسية المرأة التي تستمر حياتها بين أربعة جدران. .كما أن الفراغ يسبب «تخريج» نساء ثرثارات، ينحصر اهتمامهن في الرغي، و«الحش» والكلام في الناس، أو يوجه ذلك الاهتمام إلى الإنشغال بأمور تافهة. وأنت تعرف أن الانشغال بالفراغ وحده يعكس نتائج وخيمة، أو سلبية على الأقل!

ـ قال: أنا لا أختلف معك في كل ذلك.. لكن الأهم هو: كيف تعمل المرأة، وماذا تعمل؟ بما يعني التحرك في حدود قاعدة المجتمع، وإمكاناته، وقدرات المرأة أيضاً.. لذلك، لم أعترض من البداية على «فكرة» العمل، بل كان كل اعتراضي ينصب على الممارسة ذاتها.. على نوع العمل الذي ينبغي أن يكون منسجماً مع قاعدة المجتمع، وعاداته، وإمكاناته، ومع قدرتك

كزوجة مسؤولة عن بيت، وزوج وأطفال!

ـ قالت: أعرف أننا لم نختلف على المبدأ وإنما على التفاصيل.. لكن كان عليك أن تقدر كيف كنت أعاني من الفراغ وأنا سيدة متعلمة، وجامعية، وقدراتي لا تحد.. ومن المفروض أن تكون هناك منافذ للمشاركة باعتبار أن المجتمع وحدة متعاونة متكاملة.

ـ قال: صحيح.. ولكن، في إمكانك أن تعتبري مسؤولية البيت ومن فيه مشاركة في هذه الوحدة، أو التعاونية.. لأن الرجل لا يقدر أن يتولى مسؤولية تربية الأسرة الصغيرة وإدارة البيت من الداخل، ولا أدري.. لماذا تعتقد المرأة أن هذه المسؤولية ثانوية، ولا أعرف لماذا تنظر المرأة إلى هذا العمل باستخفاف.. بينما هو في أبعاده يشكّل أهمية تكبر أحياناً إلى درجة الخطورة!

ـ قالت: اشرح لي ذلك مفصلاً!

ـ قال: أرجو في البداية أن لا تحكمي علي بأني رجل متخلف أو رجعي.. حتى أتكلم بحرية!

ـ قالت مبتسمة: أنت حبيبي.. سواء كنت رجعياً، أو تقدمياً، أو طباشيرياً!

ـ قال: حسناً.. فهل تعرفين يا سيدتي أن أطفالنا باتوا يعانون اليوم من غياب الحنان، وباتوا يفتقدون الرعاية والعناية والاهتمام؟.. فكأن الأسرة الواحدة تحت سقف البيت الواحد تعيش مرحلة الانفصام!

ـ قالت: على مهلك يا عمنا.. ليس إلى هذه الدرجة، فمازلنا بخير والحمد لله.

ـ قال: صحيح. . ولكنها المؤشرات التي تدفعنا إلى الانتباه وإلى المبادرة. . فهناك الأب الذي قد لا يرى أبناءه لعدة أيام، وفي النتيجة الأحسن. . فلعله يراهم مرة واحدة في اليوم على مائدة الغداء، وهناك الأم التي انشغلت ـ كما قلت أنت ـ بالتوافه. . إلا ذلك العدد القليل من اللواتي ملأن الوقت بالعمل وبالإنتاج وبمناقشة مشكلات الأسرة، وهذا العمل منهن أيضاً أنساهن أولادهن، أو العناية بهم.

ـ قالت: ول. ول. . إنت حامي وساخن جداً.

ـ قال: أنا منظم. . أبحث عن تنظيم الحياة. لك حقوق. . لا بأس، ولكن كيف تستفيدين منها،. وفي مقابلها عليك واجبات. . فكيف تفيدين بها؟ هذه هي القضية!

ـ قالت: هذا موضوع له عدة جوانب، والجدال فيه لا يجعل أحد طرفي النقاش منتصراً!

ـ قال: لا نبحث هنا عن انتصار فريق على آخر. . بل الأهم هو انتصار قضية المسؤولية، والاقتناع بدور عظيم وضخم يخص تربية نشء، وتوجيههم، والاستفادة منهم حينما يكبرون!

ـ قالت: حلو. . جميل جداً!

ـ قال: عدنا للسخرية عندما رأيت أن الموضوع بالغ الحساسية ومليء بالمنطق!

ـ قالت: لست أسخر، ولكنك انفعلت كأنك تحارب. . وأنا مالي. . قالوا لك إني وزيرة الشؤون الاجتماعية، والا مسؤولة عن شؤون الأسرة؟!

ـ قال: لم أنفعل. . ولكني أتكلم بجدية، والموضوع ليس مناظرة بين

رجل وامرأة، ولكنه تخطيط لحياة.. الرجل والمرأة مسؤولان عنها في الدرجة الأولى.. أجل نحن علّمناكم علشان تناكفوننا وبس؟!

ـ قالت: نعم نعم يا سي خالد.. إيه علمناكم دي؟ التعليم للرجل وللمرأة، وبعدين المرأة مسكينة.. عمر الرجل ما نصفها. لما كانت أمية وجاهلة.. قلتم: الرجل المتعلم لا بد أن يقترن بامرأة متعلمة. ولما اتعلمنا وأخذنا شهادات.. قلتم: المرأة المتعلمة لما تاخد شهادة كبيرة تتعالى على الرجل ويصيبها الغرور، وبدأ الرجل الجامعي يبحث عن زوجة نص تعليم! وبعدين؟.. احترنا معاكم.

ـ قال: ولكن هذه نماذج محدودة، ويمكن شاذة، ولا تحكمي على الرجال من حكاية أو حكايتين، بدليل إني أنا أتزوجت واحدة جامعية مجنونة بالديكور!

ـ قالت: رجعنا لمعجون التمري؟

ـ قال: وبعدين.. رغم أنك جامعية ومثقَّفة.. ألاحظ في بعض تعبيراتك نفس المعاني التي ترددها أمي وجدتك!

ـ قالت: لا.. أنت زودتها، بلاش استفزاز أحسن لك يا خالد!

ـ قال: ولا استفزاز ولا بطيخ.

ـ قالت محتدة: أنا بطيخ؟!

ـ قال: بطيخة حمراء.. خلاص، انبسطي.

انهالت «إلهام» بقبضتها الرقيقة على كتف «خالد» تضربه، وتطوِّح بساعديها أمام وجهه، وهو يضحك قائلاً:

ـ قبل شوية. . كان رأسك فوق كتفي. الآن قبضتك!

ـ أعمل لك إيه. . إنت تنرفز الضب!

ـ أنت غزال جميل ولست ضباً. . الأولاد فين؟

ـ وإنت فاكر الأولاد؟ يا دوبك في الاستفزاز ومناوأة المرأة يا عدو الجنس اللطيف!

ـ أنا عدو الجنس اللطيف. . وقبل شوية. . . . .

ـ خالد. . كفاية تدور الأسطوانة إياها!

ـ حاضر يا عيوني. . قومي شوفي الأولاد فين، وخلينا نملأ المعدة.

ـ طبعاً. . بعد ما ملأت رأسي بضجيجك!

ـ اللي بتسميه ضجيج. . يسموه الناس الواعيين: حوار، نقاش!

ـ خلاص. . ضع يا سيدي أي تعريف. المهم إني باعبر عن رأيي.

وخلاصة رأيك؟!

ـ خلاصة رأيي: أن الرجل أناني مع المرأة. . هدفه إنها تخدمه، وتحبه، وترضي غروره.

ـ لكن هذا إجحاف وتجني على الرجل لسبب بسيط جداً.

ـ وما هو يا سيدي؟!

ـ لأن الرجل بيتعب، وبيشقى، وبيكافح من أجل المرأة. . يختار النساء كلهن في امرأة واحدة يعطيها حياته وعمره، وفلوسه، وشبابه.

ـ وبعدين يندم؟

ـ لأ.. الندم لا وجود له.. طالما أنه يعطي بحب.

ـ يعني ما يعطي إلا للمرأة التي أحبها.. وهذه أنانية أيضاً!

ـ يا إلهام.. يا حبيبتي. الحب هو نظام الحياة وقانونها.. بدون الحب نصبح في غابة، لأ.. حتى الغابة فيها حب، حتى المرأة!!

ـ قاطعته: قول.. المرأة غابة أيضاً!

ـ قال: ما أقصد.. لكن حتى المرأة لا تعطي إلا حينما تحب، والمرأة في هذه النقطة بالذات أكثر أنانية من الرجل، لو اعتبرت الحب أنانية، مع أن الحب في رأيي عطاء، وأثرة على النفس وتضحية أحياناً.

ـ وإنت ضحّيت بإيه؟!

ـ ضحيت بشبابي!

ـ وبتقول حب؟!

ـ نعم.. لأني ضحيت راضياً.. ضحيت بقناعة. والتضحية هنا لها مذاق آخر ومحبب.

ـ بترشيني يا خالد؟!

ـ باعقلك!

ـ مجنونة يعني؟!

ـ أحب جنونك، وأحب وعيك في نفس الوقت.

ـ لكن الحب في الزواج ليس فيه الجنون!

ـ واللي بتعمليه اسمه إيه؟!

ـ اسمه حب فقط. . اسمه إصرار على الاحتفاظ بك.

ـ خلاص. . وأنا راضي، لكنها أنانية!

ـ فلتكن. . المهم إننا في الأنانية دي بنفهم بعض، وبنحب بعض، ونتمسك ببعض. . ما يكفي كل ده؟!

ـ أرجوك. . كفاية جداً، بعدين نموت في بعض!

ـ أموت فيك!

ـ وأنا أحيا بك!

* * *

بعاد كنتم. . . !؟

لاحظ «خالد» أن زوجته شاردة الذهن منذ جلسا أمام التلفاز، وذهب «فارس» و«عهد» للنوم. كان يراقبها من مجلسه وهي صامتة. . يفيض وجهها بتعبير الحزن.

كان كل منهما يحاول أن يشعر الآخر أنه يتابع برامج التلفاز. . وفي الرأس زحام من الأفكار والخواطر.

«إلهام». . تعتقد أن زوجها مندمج مع البرامج، ومنشغل عنها. .

فلا يلحظ شرودها.

و«خالد» يراقبها متلصص النظرات. . حائر الأجوبة عن أسباب انشغال زوجته.

ومر وقت طويل. . يغرق في هذا الصمت ويغرقهما.

وكأن «إلهام» تنبَّهت بعد سرحتها الطويلة، فقامت من مقعدها. . تقول لزوجها:

ـ عن إذنك. . أنا متعبة وأريد أن أنام.

ـ لكن الوقت بدري. . خلِّينا نسهر مع بعض.

ـ معليش يا خالد. . تعبانة.

ـ تعبانة من إيه؟

ـ من إيه يعني؟. . ما إنت عارف.

ـ لأ ما أعرف. . اللي ظاهر على وجهك انه تعب نفسي.

ـ طبيب نفساني حضرتك؟!

ـ باتكلم بجد. . مالك يا «إلهام» من ساعة وأنا أراقبك. . سرحانة في إيه؟!

ـ بأحب!

ـ والشخص ده موجود هنا؟!

ـ بالطبع لأ؟

ـ عارف.

ـ عارف إيه. . ما هو أنا أعرف أفكارك

ـ لأ. . أنا أثق فيك، إنما عارف أسباب تعبك النفسي.

ـ طيب من فضلك. . خليني أروح أنام.

ـ حتى الكلام معايا أصبح ثقيل عليكي؟!

ـ ليه تقول كده يا خالد. . إنما الواحد أحياناً بيكون متضايق حتى من نفسه. حالة يعني وتعدي.

ـ طيب صارحيني. . أنا زوجك حبيبك.

ـ باحب راجل كبير في السن. . شعره أبيض وعجوز، ووحشني جداً.

ـ وأنا كمان باحبه، ووحشني.. تعرفي إني أعتبره والدي وله فضل عليَّ. على الأقل وافق إنه يزوجك لي. بذمتك ما ينحب؟!

انخرطت «إلهام» في البكاء فجأة بنشيج.

أخذها إلى صدره واحتضنها، ويده تمسح على شعرها.. يحاول تهدئتها.

جاءه صوتها المختلط بالدموع والنشيج:

ـ أبويا وحشني يا خالد.. وأمي وحشتني، وعيلتي، وحارتنا، وبلدنا، وصديقاتي.

ـ هدئي نفسك.. امسحي دموعك، والا أنا اللي أمسحها.. دي من وظائف الزوج!

رفعت رأسها إلى وجهه. ابتسمت من خلال لمعان الدموع المنسابة فوق خديها. جذبته إلى صدرها بقوة، وبالنبرة الباكية قالت:

ـ أنا أحبك يا خالد. أنت تعرف. أحب حنانك.. لكني أشعر بإني أتهاوى في الغربة.

ـ يا حبيبتي.. نحن بنكلم بابا وماما في الأسبوع كم مرة؟

ـ ما هو كفاية يا«خالد».. وحشني حضن بابا، وحشني حنان أمي.. حتى الأولاد يا «خالد» زي الأيتام.. كل يوم يسألوني: متى نرجع؟

مسح «خالد» دموع زوجته. استكانت «إلهام» على صدر زوجها مثل قطة أليفة، ودموعها تبلل صدره، وقد خفت نشيجها، وهي تحوطه بذراعيها ورأسها يحفر ضلوعه من فوق الصدر.

ـ قال لها: لاحظت عليك تعبك النفسي من أيام طويلة. ترددت أن أسألك خوفاً من دموعك هذه. تعرفي إني لا أطيق رؤية دموعك.

ـ قالت: يا حبيبي. .

ـ قال: ما رضيت أخبرك عملت إيه. . حتى أتلقى الأجابة.

ـ قالت: إجابة إيه. . وعملت إيه؟!

ـ قال: كتبت للشركة في جدة. قلت لهم في رسالتي: كفاية غربة لمدة عامين. . إما أن تعيدوني، أو تقبلوا استقالتي.

ـ قالت: لأ يا «خالد» بلاش الاستقالة.

ـ قال: ونجلس هنا سنة ثانية أو سنتين؟!

ـ قالت: أنا عارفة؟!. . يا رب يرجعوك.

ـ قال: ما هي مشكلة. شهادتي معي، والعمل في كل مكان لمن يبحث.

ـ قالت: يعني أنا السبب؟!

ـ قال: بالعكس. . أنا أشعر بالملل وبالغربة، وشايفك وشايف فارس وعهد. خلاص كفاية.

انقضى نهار اليوم التالي سريعاً. . فقد خرجت «إلهام» إلى السوق تشتري هدايا لأمها وأبيها وصديقاتها. قال لها زوجها ليلة البارحة:

ـ من بكرة. . انزلي السوق وابدئي في شراء هداياك، وسأرتب سفرك مع الأولاد خلال هذا الأسبوع. وأنا سألحق بكم بمجرد أن أنهي أعمالي، وأسلِّم فرع الشركة للقادم الجديد!

كانت سعادتها تشق صدرها الصغير. . دخلت كل المعارض والمحلات، ومشت طوال اليوم حتى شعرت أن قدميها يئنَّان من التعب. لم تعد إلا آخر النهار. جلست في كافتيريا وتناولت سندويتشاً وكوب عصير، وواصلت جولتها.

كان الفرح يدفعها، والتعب مؤجل إلى حين عودتها إلى البيت. وثقلت عليها. الأحمال من الأكياس. وقررت أن تعود وتستأنف شراء ما تبقى في اليوم التالي.

سألها «خالد» بعد التئام شملهما في البيت:

ـ هل أنهيت شراء كل شيء؟!

ـ أجابت: الهدايا فقط!

ـ قال: وإيه تاني؟!

ـ قالت: باقي يا حبيبي اشتري ملابس للأولاد، وكم فستان آخر صيحة، دي باريس يا خلدون!

ـ قال: آه. . . . . والميزانية طارت؟

ـ قالت: ولازم تاخد كم بدلة يا حبيبي لك؟!

ـ قال: افتكرت يعني؟

ـ قالت: أنا كم خالد عندي؟. . إنما تعرف أن «باريس» نار في الأسعار، يا لطيف. . لازم يرصد لها الواحد ميزانية مستقلة.

ـ قال: علشان كده بأسأل. . كم باقي؟!

ـ قالت: ولا يهمك. . راح تلاقي كم فرنك للمطار!

ـ قال صائحاً: آه يا راسي . . ـ آه يا جيبي.

ومع ارتفاع صوت «خالد» صائحاً. . تراكض «فارس» و«عهد» إليهما. و«فارس» يسأل والده فزعاً:

ـ إيه. . مالك يا بابا. . راسك بيوجعك؟!

ـ لأ يا حبيبي. . جيبي.

ـ هو الجيب. يجيله صداع؟!

ـ نعم يا حبيبي. . صداع نسواني!

ـ قالت عهد: طيب يا بابا قول للخيَّاط ما يعمل لك جيب !!

ـ قال فارس: يا عبيطة. . افهمي كلام الرجال!

ـ سألت عهد: كلام الرجال بجيب؟!

ـ قال والدها: لأ يا نص شبر. . كلام الرجال يروح في جيب النساء!

ـ سألت عهد أمها: وإنت جيبك فين. يا ماما؟!

ـ أجاب والدها: في السوق يا حبيبتي!

ـ قال فارس: هيه. . ماما اشترت لنا ملابس!

وصمت «فارس» قليلاً. . ثم التفت إلى أمه يستفسر:

ـ لكن إيه المناسبة. . رايحين حفلة، وإيه الملابس دي كلها. . إنتو فكرتو تفتحوا محل؟!

ـ قال خالد لزوجته: الحمد لله. . اسمعي يا ست الحسن ولدك بيقول إيه؟

ـ قالت إلهام لفارس: دي يا حبيبي هدايا لجدو ولستو ولخالتك، و. . . . .

ـ قاطعها فارس: رايحين ترسلوها مع مين. . والا جايين عندنا؟

ـ قالت إلهام: لأ. . نحن اللي رايحين لهم!

وتقافز «فارس» و«عهد» في وسط الغرفة يرددان بصوت واحد:

ـ هيه. . هيه. . رايحين بلدنا.

ـ سألهما خالد: إنتو فرحانين لهادي الدرجة؟!

ـ قال فارس: يا شيخ بلا باريس بلا غم. . دا حتى قرص العيش حقهم طويل وناشف زي العصايا.

ـ قالت عهد: دول بياكلوا لحم خنزير.

ـ قال فارس: بابا. . . إنت زعلان؟!

ـ سأله والده: وأزعل من إيه. . فيه أحد يرجع لبلده ويزعل؟!

ـ رد فارس: ظنيت. . علشان في الشركة اللي في بلدنا ما في سكرتيرات!

نهره والده وهو يبتسم. ابتسمت «إلهام» وعلقت:

ـ ولدك عارفك.

ـ قال فارس: لكن بابا مؤدَّب. . أنا رحت معاه الشركة وشفته يضحك بس!

ـ قالت عهد: ماما. . حتكلمي جدو بالفرنساوي علشان يعرف إنك نجحت وأخدت شهادة؟!

التقت نظرات «إلهام» و«خالد» من خلال هذا الحوار العفوي مع «فارس» و«عهد».

ابتسما سعيدين بفرحة ابنيهما . . وانطلق «فارس» و«عهد» إلى غرفتهما يتقافزان ويغنيان بصوت مرتفع «أبعاد كنتو والا قريبين»؟!

انزلقت دمعة من عيني «إلهام» مع اتساع ابتسامتها. اقتربت من زوجها وأحاطته بذراعها:

ـ شكراً لك يا خالد!

ـ على إيه . . على الصحيح؟!

ـ متى حجزت لنا . . ما قلت لي؟

ـ بعد يومين.

ـ وساكت يا أبو الهول؟!

ـ قلت أخليها مفاجأة.

ـ وإنت . . متى ترجع؟!

ـ الشركة بعثت لي جواب اليوم. وافقت على إعادتي للمركز الرئيسي وتعيين زميل آخر!

ـ يا برودك يا أخي . . وساكت؟!

ـ إنما راح أتأخر شوية حتى يحضر زميلي ويستلم مني المكتب.

ـ فرصة يا عم . . لوحدك في باريس من غير الحكومة!

ـ بالعكس . . راح توحشوني. البيت ده اللي مليان بعد يومين يتحول إلى بيت عنكبوت.

ـ طيب نجلس معاك حتى تخلص شغلك.

ـ لأ.. الأولاد فرحوا.. شفت السعادة على وجههم كيف كانت؟!

ـ أكلمك كل يوم، واطمئن عليك.

ـ أنا أكلمكم من الشركة. المهم.. أوراق المدارس لا تنسيها، ومع بداية العام الدراسي ينتظم الأولاد في المدرسة.

ـ يعني إنت تغيب كتير، ونحن في العطلة المدرسية.

ـ خلي بالك من فارس وعهد.

ـ أنا أخلي بالي حتى منك رغم إني هناك، لكني معاك هنا بقلبي.

ـ والديكور.. والمكتب؟!

ـ الحياة حلوة يا «خالد» في نظر اثنين بيحبوا بعض.

ـ هو أنا بأحبك بعقل؟!

ـ أجل.. بتحبني كيف؟!

ـ أنا أحياك.. شفت زوج يحيا في زوجته؟!

ـ معقول ياللي إنت زي كل الرجال؟!

ـ ها.. وبعدين؟!

ـ معقول يا حبيبي.. نحن خلينا الزواج شوق وحب، و.....

ـ قاطعها: ومناكفة.. يسموها ملح الطعام!

ـ يا ملحي إنت!

ـ إلهام... العشرة الطيبة احترام للحياة.

ـ يا فيلسوف الاحترام إنت! إنما العشرة بدون حب زي الحديقة اللي كل زهورها بدون رائحة.

ـ سمعت آخر نكتة يا إلهام؟!

ـ قول.

ـ بيقولك. . واحد «حب» طحنوه!

* * *

عريس الشهادة

أضيئت واجهة «فيلا» الوجيه، ورجل الأعمال «خالد السعيد»، وتناثرت الأضواء الملوَّنة تغمر الشارع العريض، وشرعت بوابة «الفيلا» لاستقبال المدعوين، بينما تراصت السيارات أمام سور البيت.

الليلة يحتفل «خالد السعيد» بنجاح ابنه «فارس» وحصوله على الثانوية العامة، وقد وقف في ردهة «الفيلا» يستقبل مع ابنه أصدقاءهما الذين توافدوا للاحتفال بهذه المناسبة، والفرحة تغمر وجه الأب.. مغتبطاً بالمرحلة الطويلة التي قطعها ابنه «فارس» في سنوات الدراسة التي تلاحقت، دون أن يرسب ابنه عاماً واحداً.. بينما أخذت من عمره في طيَّات المعاناة والقلق، ومنحت عمر ابنه نضارةً وشباباً.

وحين وقوفهما معاً في انتظار الأصدقاء.. وضع يده على كتف ابنه، وقال له:

ـ لقد رفعت رأسي عالياً، وأنت تواصل دراستك بجد وتفوق، وها أنت قد حصلت على الثانوية بنسبة ٨٥ ٪، وأريدك أن تستمر بهذا المستوى، الجامعة ليست أصعب، ولكنها بوابتك إلى المستقبل، وإلى الاستقرار والأمان.

ـ قال فارس: أرجو أن أكون عند حسن ظنك يا أبي، كل ما أتمناه أن لا تقلق، بل تثق في تصميم ابنك.

ـ قال خالد: الأيام تجري يا ولدي، وأتطلع إلى اليوم الذي. أراك فيه قادراً على احتمال مسؤولية الحياة، والأيام تتبدَّل، ولن تستمر على حال واحد. . إيقاعها يتغيَّر. . ظروفها أيضاً تتغيَّر، وهذا الإيقاع السريع يدفعنا أن نلاحق العمر، ونلاحق الظروف والفرص كذلك.

ـ قال فارس: لقد تعلَّمت منك الكثير، فاطمئن يا أغلى أب. . المهم أن لا تتزوج امرأة أخرى تأتي بها «ضرة» لأمي ! !

ـ قال خالد ضاحكاً ومندهشاً في نفس الوقت: ومن أين جاءك هذا الحدس؟ !

ـ قال فارس: من أمي. . من خوفها عليك، وعلى بيتنا، إنها في قلق دائم كما ألاحظ من تعبيرات وجهها، ومن بعض كلماتها، التي تفلت منها أحياناً.

ـ سأله والده: ماذا تقول أمك؟ !

ـ أجاب فارس: إنها تردد مقولة ان الرجل إذا كثرت عنده الفلوس. . أول ما يفعله هو الزواج. . من ملامح التغيير والتجدُّد!

ـ قال خالد: صحيح. . لقد أنعم الله علينا بمكاسب من عائدات هذه الشركة التي أنشأتها للمقاولات بعد استقالتي من الوظيفة، وفتح الله عليَّ رزقاً من عنده، جعلنا نعيش في بحبوحة. . لكن قلق أمك غريب.

ـ قال فارس يمازح والده: لكن. . قل لي يا أبي، ألم تخطر على بالك

فكرة مثل هذه التي تقلق أمي.. خاصة وأن سفرك كثير، ورحلاتك متلاحقة؟!

ـ قال خالد: ستكبر أكثر، وستجرِّب، وستعرف أن الزواج ليس لعبة، ولا مزاحاً، ولا عبثاً، ولكنه مسؤولية، والتزام، ولعله عبء في بعض الأحيان.

ـ قال فارس: وهل أمي ثقيلة يا أبي؟!

ـ أجاب خالد: يا ولد.. أمك في وزن الريشة! وقد رضيت بالعيش معها، ورضيت هي أيضاً، واحتمل كل منا الآخر في عيوبه.. فأي إنسان لا يخلو من العيوب، ولكنها رحلة طويلة.. أثمرت شبابك هذا، وشباب أختك «عهد» الذي أخذ يتفتَّح، أسكت.. لقد أخذ الضيوف في التوافد.

امتلأ الصالون الطويل بأصدقاء الأب والابن، وتعالت الضحكات، وتحلق البعض حول لعبة «البلوت»، وامتدت على الأرض «ليَّات» الشيشة التي تبدو مثل الخراطيم، وتجمَّع نفر آخر في ركن الصالون يتحدثون، وينتقلون بأحاديثهم وحوارهم من موضوع إلى آخر.

بينما اتخذ أصدقاء «فارس» غرفة أخرى مجاورة للصالون.. حتى لا يحسوا بحرج أمام والد «فارس» وأصدقائه ممن هم في أعمار آبائهم.. يتبادلون الأحاديث التي تتفق وأعمارهم.

و «فارس» يتجول ما بين الصالون والغرفة الأخرى.. ويصدر تعليماته إلى خادم «فلبيني» ليأتي بالشاي. ويبدِّل رؤوس «الشيش».. بعد أن تعلَّم هذا الخادم الفلبيني وأتقن تجهيز «الشيشة»!

وارتفع صوت الشيخ «عبد الحق» صديق «خالد» الحميم ينادي على «فارس». . فلما رآه أمامه، سأله:

ـ ما هو التخصص الذي ستختاره يا فارس؟!

ـ قال فارس: دعنا ننتهي من زحمة التسجيل في الجامعة يا عم عبد الحق.

ـ ألم تسجل إلى الآن؟!

ـ أه. . . خليها على الله. كل يوم أذهب إلى الجامعة منذ السابعة صباحاً، سجّلت بعض المواد القليلة، وما زال الكثير يلفني في دوامة.

ـ ولكن يا ولدي. . . . .

ـ إنه جو جديد علينا نحن الذين تخرجنا من الثانوي، ولا نعرف ماذا نفعل، هناك موظف هندي يشخط في الطلبة، بل ويعاقبهم لو رفعوا أصواتهم، وموظف آخر من بلد عربي. . يمنحنا المادة التي يختارها حسب الكلية.

ـ معليش يا ولدي. . هذه بداية المتاعب في الحياة. . لا بد لكي تحتكَّ بالناس أن تواجه الكثير.

ـ الله معنا. . . كله يهون في سبيل المستقبل.

ـ فارس. . فارس.

هذا صوت صديقه المشاكس «همَّام»، هرول إليه في الغرفة الأخرى، وجد أصدقاءه يضحكون.

ـ ماذا هناك، لماذا تصرخ هكذا يا من يحمل أسفاراً؟!

ـ اسمع يا سيدي.. الأخ المحترم «مروان» يريد أن يتزوج!

قهقه الجميع ثانية، قال «مروان» لهم:

ـ ومالو؟!.. الجامعة تريد الاستقرار، خلاص «صياعة» الثانوي انتهت. بدي أنجح بتفوق.

ـ قال فارس: يا شيخ اتلهي. والا علشان ناوي تتخصص في الديكور.. بدك زوجة «ديكور» للبيت؟!

ـ قال مروان: ديكور إيه يا متخلِّف.. ابنة عمي فتاة مثقَّفة، وخايف يلطشها واحد غيري.

ـ قال فارس: يا سلام! ليه هي سيارة في فترينة، والا.....

ـ قاطعه مروان: خلاص... كلكم متخلفين، كل واحد فيكم يفكِّر بانحراف. طبعاً « الصياعة» ما خلصت.

ـ قال ثالث: يا عمي خلينا «نهيِّص»، الزواج بدري عليه في أعمارنا هذه، لذة الهوى في التنقل، روح اتفرج لما توقف أمام بوابة البنات في الجامعة.

ـ قال فارس: والله سخافة، كيف ترضي على نفسك كده، تشوف واحد يعاكس أختك بنفس طريقتك؟!

ـ قال آخر: آه.. دخلنا في الجد، «فارس» خلاَّها دراما.

ـ قال مروان: ولا دراما، ولا حاجة، «فارس» معاه حق، بيتكلم بالمنطق.

ـ قال صديق رابع وهو يسخر: تعرف إيه عن المنطق؟!

ـ قال فارس. اتفضلوا على العشاء. . علشان تنكتموا يا عيال «صُيَّع»!

أطفأ حارس «الفيلا» الإضاءة، وأقفل الباب بعد أن ودع «خالد» وابنه آخر الضيوف.

واسترخى «فارس» فوق سريره يحملق في الجدار تارة، وفي السقف تارة أخرى. . يسترجع حوار أصدقائه، وحوار صديق والده، ويحلم بحفلة أروع من هذه حين يحصل على البكالوريوس.

واستعاد انتباهه على صوت قرع باب غرفته، وأطلَّ وجه اخته «عهد» مبتسماً كعادتها، وهي تقول له.

ـ هاي، العريس مبسوط؟!

ـ عريس إيه؟. . بدري جداً.

ـ على فكرة. . أصحابك مؤدبين جداً.

ـ وإيه عرفك بأصحابي يا «لمضة»؟!

ـ ما شاء الله. . أصواتهم واصلة لفوق هنا عندنا، وشفتهم لما خرجوا «مزغودين» من الضحك!

ـ وكمان شفتيهم؟!

ـ من البلكونة في الظلام، لازم أشوف أصحاب أخويا.

ـ عال. . وإيه كمان؟!

ـ اعطيني شريطي اللي أخذته علشان تسجِّله.

ـ ما سجلته. روحي نامي.

ـ لازم تكون فرحان، إنت مكشّر وعابس ليه؟!

ـ تعبان. تصبحي على خير.

* * *

الليل. . يصحو!

جلس «خالد» يتأمل زوجته «إلهام» وهي تسرِّح شعرها.

كانت تبدو بسيطة وهي ترتدي قميصاً أبيض، وقد مال جسدها إلى الاكتناز قليلاً. وجمعت شعرها الأسود الكثيف بعد أن صفَّفته، وحزمته من الخلف. . ليبدو وجهها متألقاً ببياضه، بدون أن يضفي عليه الشعر الأسود إطاراً يبرزه.

فجأة. . . قهقه «خالد» وهو يتأمل زوجته حين اقتربت منه، لتسترخي بجانبه على السرير، وتتهيأ للنوم.

حدقت في وجهه مندهشة، تقول:

ـ باسم الله علينا. . فيه أحد يزغزغك؟!

استمر «خالد» يضحك، وهو ينظر إلى مقدمة شعرها، ويشير بأصبعه.

ـ قالت له: وجهي يضحك، والا إيه؟!

ـ قال: أضحك على أول شعرة بيضاء تتوِّج رأسك يا حبيبتي.

ـ قالت: يا سم!. . ما هو رأسك مليان شعر أبيض. . يا راجل يا عجوز!

ـ قال مستمراً في الضحك: ذكريني.. اشتري لك «حناء» من الأصلي، والا أجيب لك صبغة شعر!

ـ قالت: شكراً.. شايلتك للعوزة. دمك ثقيل، نام أحسن.

ألقت برأسها على الوسادة.. وهي تهمهم قائلة له:

ـ إذا ما هو عاجبك.. روح اتجوز صبية عندها سبع عشرة سنة، ترد لك شبابك، ويكون شعرها أسود صافي.

وضع يده على شعرها، وتخلَّلت أصابعه في كثافته وسواده، وقد اتكأ بساعده الآخر على الوسادة، وهو يتأمَّل صفاء وجهها الذي عكَّره الغيظ من ضحكاته.

ـ همس في أذنها: إنت في نظري تلك الصبية، الحب.. هو الذي يجعل كل واحد منا في عين الآخر شباباً، وحيوية، أنت رفيقة عمري.. فلا تقولي مثل هذا الكلام أرجوك.

ـ يمكن تزوغ عينك، الرجال كده.. دائماً عينهم فارغة.

ـ شفوي والله، لكن «التحريري» بالنسبة لي هو أنت، وبعدين.. لا داعي لأن يسمع «فارس» أو تسمع «عهد» مثل هذا الكلام.

ـ تقصد إيه؟!

ـ أقصد أن «فارس» حكى لي الليلة عن مخاوفك أن أتزوج..

لأن فلوسي كترت!

ـ لكن إنت اتغيَّرت يا «خالد» كثير!

ـ لازم اتغيَّر، وإنت كمان اتغيَّرتِ، لا تنسي أننا نكبر في العمر، أنتِ اهتمامك أصبح للولد والبنت، وللبيت.

ـ ما شاء الله. . تبغاني أجلس عروسة طول العمر. . أقابلك، وابتسم لك؟!

ـ هذا فهم خاطىء للرجل. . أنا لا أطالبك بمرح الشباب، وشقاوة البنات، وأوقات كلها غزل. . بالعكس، أطالبك بشيء من الرِّقة. . من الحنان. . من الابتسامة النقيَّة. . من الاهتمام بالرجل في كياني.

ـ لكني لم أهملك. . كل طلباتك، وشؤونك. . أقوم بها على أكمل وجه.

ـ صحيح. . إنت ست بيت ممتازة، لكنك نسيت أنوثتك، المقولة القديمة التي تقول: مفتاح قلب الرجل في معدته. . مقولة قديمة يا سيدتي، لأن الرجل في هذا العصر لم يعد يهتم كثيراً بمعدته، نحن في عصر «الساندوتش»، ولكن الرجل يبحث عن المرأة التي تستقبله في بيته، وتنسيه همومه خارج البيت. . تستقبله بابتسامة، بعطرها الجاذب، بكلمة رقيقة، بلمسة دفء وحنان!

ـ تصفيق، رائع، المفروض أن تعمل محامياً، فأنت طليق اللسان ما شاء الله.

ـ تسخرين من مطالبي البسيطة؟!

ـ أنا لا أسخر، ولكن هذه الأشياء كلها أقوم بها، وأنت لا تلاحظها، طبعاً. . صرت امرأة قديمة، مليت مني، وترغب في التجديد. . تحلم بفتاة مثل «لوليتا» علشان تصبغ لك شعر رأسك الأبيض.

ـ اللهم طوِّلك يا روح، إلى متى سيستمر هذا الموَّال.. ألا ننام؟!

ـ نام.. خلاص صعت من الأذن اليمين، وأخرجت الكلام من الأذن اليسار!

ـ تصبحي على خير.

ـ وننام متخاصمين كده؟!

ـ اعملك لك إيه.. يعني لازم الموشَّح ده فوق السرير؟! ما كان فيه موشَّح أحلى!

ـ حضرتك تعبان.. يا عيني مهلوك من الشغل!

ـ تعالي.. أوريكي شغلك!

وتعالت ضحكاتهما «تصحي الليل»!

صحت «إلهام» على قرع باب الحمَّام بجانب غرفة نومهما. كانت «عهد» تخبط على الباب، وهي تستعجل «فارس» أن ينتهي بسرعة.

ـ قالت لها أمها: ما هو الحمَّام الثاني فاضي.. روحي هناك.

ـ قالت عهد: لا.. دا حمَّامي، أقصد أنني أرتاح فيه.

ـ قالت أمها ضاحكة: ترتاحي في الحمَّام؟!

ـ قالت عهد: طبعاً.. الحمَّام مثل غرفة النوم، بعدين فرشة أسناني هنا، وروبي هنا، قلة أدب أولاد يدخلوا حمام ستات

ـ قالت أمها: طيب.. وأشياء «فارس» هنا أيضاً، خذي حاجاتك إلى الحمَّام الثاني، وبلاش صراخ في الصبح.

واستمرَّت «عهد» تقرع باب الحمَّام، حتى أطلَّ عليها وجه فارس مغتاظاً، وهو يقول:

ـ يعني ما استحمى. . ما أحلق ذقني؟!

ـ لا. . قول ما أشرب سيجارة على الرِّيق.

ـ بس يا بنت. . أكسر فمك.

ـ طيب أمي تعرف. . اشمعنى ما تخاف من أمي وتشرب قدَّامها. . أبويا يعني اللي بعبع؟!

ـ والله لأقول لأمي على التليفونات.

ـ ما بأعمل حاجة غلط. . باتكلم مع صاحباتي، ما هو مع. . . . .

ـ تقصدي إيه؟!

ـ إنت عارف. . لما ينام بابا وماما بتعمل إيه بالتليفون اللي تاخده لغرفتك

ـ أنا راجل. . والله!

ـ وأنا ست!

ـ عيب يا بنت. . دي التربية والأخلاق؟!

ـ والله أنا متربية أحسن منك، وأرجوك ما تلبِّخ ولا تتهمني في سلوكي.

ـ يا ماما. . تعالي شوفي بنتك!

وفوجئا ـ معاً ـ بوالدهما يقف أمامهما عابساً:

ـ وبعدين في نقاركم الصباحي. . كل يوم صوتكم يرتفع.

ـ قالا معاً: يا بابا.. ما هو......

ـ يا الله.. كل واحد يروح يلبس علشان نفطر مع بعض.

نظر كل منهما إلى الآخر بغيظ، واتجها إلى غرفتيهما.

كان «فارس» قلقاً جداً على إكمال تسجيل بقية المواد، تناول فنجان شاي، واستأذن في الذهاب إلى الجامعة.

وهناك... وقف في الطابور المعتاد، تصك سمعه أصوات الطلبة المنادية على موظف التسجيل.

رأس الموظف يتراجع قليلاً عن الفتحة التي أعدت ليقف أمامها الطلبة من أجل استلام استمارات يملؤونها، ويذهب كل واحد منهما إلى رائد المادة التي يرغب في تسجيلها.

واستلم «فارس» الاستمارة الجديدة لمادة يريد تثبيتها، وأخذ يركض في الممرات نحو حجرة المشرف، أو الرائد.

سأل عنه، فلم يجده، قالوا له:

ـ انتظر.. سيأتي بعد قليل.

طال انتظاره، ذهب إلى «الكافتيريا» وتناول قدحاً من الشاي، وعاد إلى غرفة «الأستاذ»، وطرح عليه عدة أسئلة، قال له بعد ذلك:

ـ آسف، لقد انتهى العدد!

ـ ولكن.. ماذا أفعل، ستكون هذه المادة من رئيسيات تخصصي.

ـ ما هو شغلي، اتصرَّف، سجل مادة أخرى.

ـ ولكنك رائد، وموجه، قل لي ماذا أفعل.. ما زلت جديداً!؟

لم يظفر بنتيجة تعينه.

قذف الاستمارة في المقعد الخلفي للسيارة، واتجه إلى منزله. حاولت أمه أن تعرف سبب عبوسه، تلاحقت أسئلتها، صرخ.

انزلقت دمعة من عيني الأم، وهي تقول:

ـ أنا قلقة من أجلك، أريد أن أطمئن ماذا فعلت في الجامعة، وتصرخ في وجهي يا فارس. . أنا أمك؟!

عانقها، وهو يقبلها معتذراً، والدموع في عينيه.

روى لها حكاية التسجيل، والدوَّامة التي يعيشها.

ـ قالت له: احتمل. . هذه بداية المشوار. . كيف بدك تصير راجل؟!

ـ قالت عهد: يا وعدي. . يا وعدي، أجل أنا البنت راح أعمل إيه لما أنجح، وانتقل للجامعة، وأروح أسجل؟!

ـ قال فارس: أروح معاكي

ـ قالت عهد: ده بُعْدك. . ليه، علشان تشوف البنات؟! ممنوع دخول الرجال، آسفة. . وممنوع دخول الأولاد كمان.

ـ قال فارس: أنا راجل. . عيب كده.

ـ قالت إلهام: إنتظر لما يرجع أبوك وأحكي له.

ـ قال فارس: والسيد الوالد حيعمل إيه يعني؟!

ـ قالت أمه: يمكن يعرف أحد كبير. . يعطيك خطاب توجيه تمشِّي أمورك!

ـ قال فارس: أنا أرفض هذه الطريقة.

ـ قالت أمه: وتخسر المادة يعني؟!

ـ قال: لازم أتصرف... لازم.

ـ قالت: تعمل إيه يعني؟!

ـ قال: بعدين تعرفي يا أمي.. بعدين!

* * *

ما هي القضية؟!

طالت وقفة «عهد» أمام المرآة، وصوت أمها من خارج الغرفة يلح في النداء عليها.

كبرت «عهد». . كل من رآها من أهلها، وصديقات أمها يردد:

ـ ما شاء الله. . . أصبحت عروسة جميلة!

ترى نفسها الآن في المرآة، وتبتسم زهواً وخيلاء. قامتها ممشوقة. عيناها واسعتان، شعرها طويل يغطي، ظهرها.

يضايقها هذا الشعر المسدل أحياناً، وتتمنَّى لو تقصره. أمها ترفض بشدة. . تعيد على مسامعها كلمة والدها:

ـ شعر المرأة زينتها وثروتها، والغريب أن النساء يقصصن شعورهن، ثم يلبسن «باروكة»، أو يضعن ما يسمونه «البوستيج» بشعر طويل. . . عجبي!!

ومع امتداد قامة «عهد»، وطول شعرها، وتخطيها لأعتاب الخامسة عشرة. . أخذ نضجها في الامتداد، وأخذت أفكارها تطول. وتتفرع!

أحياناً. . تستغرق في تلك الأفكار. . إلى درجة القلق، وربما الخوف.

تأخذها الأفكار إلى البعيد. . إلى نوافذ المستقبل. . إلى معترك الحياة.

تبتسم، وهي حائرة... هل ابتسامتها ساخرة، أم متسائلة حزينة؟!

أي معترك للحياة؟!

ـ قالت لنفسها: لا بد أن تكون لكل إنسان قضية.. فما هي قضية المرأة؟!

أوه... هذا موضوع شائك، ومتداخل، ومرهق..

هناك رأي عام، وشامل يقول: إن قضية المرأة واحدة.. في كل زمان ومكان.. حتى لو تغيَّر الزمان!

ورأي آخر يؤكِّد خطأ الرأي الأول المطلق.. فكل زمان يحمل معه همومه وطموحاته، ومستوى الوعي فيه.. وكل مكان يعج بالمشكلات، وبالعادات، وتختلف نفسيات الناس من مجتمع لآخر.

لكن «المرأة» كطبيعة، وكوظيفة إجتماعية، وكنفسية.. تتشابه في كل زمان ومكان..

تبقى المرأة عاطفية، ورومانسية في كثير من الأوقات، وهاجسها الدائم: أن تنتصر على الرجل، وأن تستميله، وأن ينسى كلمة «لا» أمامها.. لكنها في النهاية تحتاج إلى الرجل: حماية، ودفئاً، وظلاً، وغطاءً، ولباساً!

ـ ألم أقل لك يا بنت يا «عهد» إن الموضوع شائك؟!

خاطبت نفسها من الداخل، وابتسامتها تتموَّه بين الظهور والاختفاء.

ولكنها ناقشت جانباً من هذا الموضوع مرة مع والدها.. فقال لها يومها:

ـ أنصحك الآن أن لا تشغلي بالك بهذا الحوار الداخلي. أمامك وقت

تكبرين فيه أكثر، وتنضج فيه أفكارك. . وتستطيعين أن تعثري على أجوبة مقنعة أمام أسئلتك المتلاحقة!

لم تقتنع بهذه الراحة التي أرادها لها والدها. تريد أن تعرف، وتسأل، وتستوضح. . فالغد ما زال ضبابياً، والتجارب التي سمعت عنها من أمها، ومن قريباتها تعصف بقلبها الصغير، وتعصر عقلها المشرئب إلى الرؤية والوعي!

هناك حياة صعبة بلا شك. . تزداد صعوبتها كلما كبر الإنسان في السِّن!

ولكن ـ أيضاً ـ هناك حياة جميلة، مغرية. . لو أحسن الإنسان التصرف، وتوصل إلى رؤية واضحة. . ليعيش حياته بالعقل وبالعاطفة جنباً إلى جنب!

صحيح. . لماذا ترهق عقلها من الآن بهذه الزلازل والصواعق من الاسئلة؟!

وعاد إليها صوت أمها هذه المرة. . . كأنها تصرخ بعد أن نفد صبرها:

ـ يا عهد. . . الناس على وصول. . بنات إيه دول يا اخواتي؟!

ويمر الوقت بطيئاً وسمجاً.

كانت تتابع حديث صديقات أمها اللواتي جئن للزيارة، وتزجية الوقت.

ضغطت على نفسها. . . حتى تستمر في متابعتها لأحاديثهن، فشعرت بغثيان، وبملل.

الأولى من صديقات أمها: كانت تتحدث طول الوقت عن الخادمات

الأجنبيات «الأعجميات»، وتروي مواقف وحكايات مع خادمتين عندها ـ قالت:

ـ ووروني النجوم في عز الضهر. ما يشتغلوا يا أختي. واحدة اسم الله عليها تحب ترقص. أي موسيقى تسمعها ولو من بعيد.. على طول وسطها بيشتغل. وتلبس قصير، والبنت صغيرة، وشكلها مش بطال!

ـ قاطعتها صديقة أخرى: ما هي عاجبتك... والا خايفة على زوجك؟!

ـ التفتت نحوها تقول: لا مالك حق.. زوجي في حاله، بعدين أنا حلوة، وأقدر أخلِّيه يستغني عن أي امرأة. نحن ما كبرنا يا أختي.. لكن زوجونا صغار، علشان كده أولادنا صاروا طولنا!

ـ قالت ثالثة: أنا عندي خدامة واحدة، لكن.. خلاص شوية واتجنن. لازم تخرج كل أسبوع. قال إيه.. علشان ترقص في نادي السفارة. واكتشفنا أنها تتكلم بالتليفون مع واحد، ومواعيد، وغرام.. يا عيني. بس أنا محتاجة لها. أعمل إيه.. شغل البيت كثير وما يرحم، وأنا ما عاد عندي عافية.

ـ قالت رابعة: الله يرحم جداتنا، وبعض أمهاتنا.... كانوا يغسلوا في الطشت، ويشعلوا النار و «الدافور»، ويطبخوا قدام النار بالفحم، ويكنسوا وهم يزحفوا. يقولوا إيه لو سمعونا الآن؟!

ـ قالت الأولى: يا شيخة... ذلك زمان ولَّى وانقضى!

ـ قالت الرابعة: بتقوليها بالفصحى. زمان ما كان فيه أجهزة تكييف تكسر الظهر. ولا مصاعد، وكانوا يمشوا.

ـ قالت أم عهد: إيه.. نحن حنقلبها مناظرة ومقارنة بين الأمس واليوم؟!

ـ قالت الثالثة: سمعتوا عن «أم صالح»؟!

ـ قلن جميعاً بصوت واحد: لأ... إيه؟!

ـ شفتوا المرة «الكركوبة» عملت إيه في ولدها.. خلَّته يطلِّق زوجته!

ـ صحيح إنها «أم صالح».. حرام عليها.

ـ ما قدرت يا أختي... ولدها كان آخر العنقود، أصغر أخواته... غارت لمَّا تجوز وفتح بيت، وما صار يروح لها ولا يشوفها. قالت: والله انتقم من مراته، وأطلقها.

ـ وذنبها إيه بنت الناس؟!

ـ مجنونة بعيد عنك.. لازم تشقي ولدها.

ـ خلّيها ترضعه الآن.. يمكن ما فطمته.

ـ قالت الثانية: على فكرة.. كنت في فرح الأسبوع الماضي، وشفت «هند» صاحبتنا هناك زي القمر. فستان إيه اللي لابساه.. يجنِّن، يجنِّن.

ـ الله يهنيها... زوجها صاحب شركة، وكل شوية مسافر.

ـ صحيح.. قالت إنها اشترته من باريس بثلاثين ألف فرنك.

ـ الفرنك هبط.. والفستان شفته ما يسوى. دي أم لمعة.

ـ يا ناس حرام عليكم.. والله الفستان يهوس ومكلف.

ـ يا ستي... أنا زوجي موظف. أسرق يعني.

ـ ومين قال؟.. كل واحد يمد رجله على قد لحافه.

وتعالت الضحكات.. وأخذن في الانصراف، تشيعهن نظرات «عهد» المغتاظة، وهي تمسك بظهرها من التعب.

ـ قالت لها أمها: أتعبتك يا حبيبتي.. إنما قضينا وقت، أحسن من الملل.

ـ قالت عهد: أعوذ بالله من ألسنتهم.. دول إيه، محشّات؟!

ـ يعني يتكلموا في إيه؟.. بس شفت «صفية» ظريفة جداً، وتضحّك!

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.. كان من الأفضل يتكلموا في موضوع مفيد.

ـ طبعاً.. إنتو الجيل الجديد ما يعجبكم كلامنا، لكن نحن قلوبنا عليكم. إن شاء الله يكون زمانكم أحسن!

حملت «عهد» معها كلمة أمها، أو دعاءها الأخير، وعادت إلى غرفتها تردد كلمة أمها لها:

ـ إن شاء الله يكون زمانكم أحسن!

عاودتها من جديد أفكارها التي تركتها في غرفتها حين نادتها أمها:

ـ ما هي قضية المرأة.. قضيتي الآن، وقضيتي حينما أكبر، وأصبح امرأة مكتملة؟!

الآن... لا بد أن. أواصل تعليمي، وأحصل على شهادة الجامعة. لا... أريد الدكتوراه!

ـ ويمر العمر يا بنت يا «عهد»؟!

لن يمر العمر. . . سأختصر الطريق والوقت. . وقتي مليء بالفراغ، ولا بد أن أملأه بالمذاكرة، وبالمطالعة.

البعض يقول كلاماً يحسبه نكتة، والبعض الآخر يسخر، حين يقول:

البنت أصبحت مثقفة. . والولد «مصفق» للكرة، وللركض. الأولاد لم يعودوا يقرؤون. والبنات ـ بحكم بقائهن أطول وقت في البيت ـ أصبحن قارئات جيدات، وواعيات!

ليست مشكلة الأولاد. . إنها مشكلة المجتمع كله.

مشكلة البنت في هذه السن. . إنها تريد أن تذاكر لتنجح، وتريد أن تلبس أحسن وأحدث «الموديلات»، وتريد أن تملأ فراغ وقتها. . وتخاف من هذه السن: فترة المراهقة!

ولكنها ـ كأنثى ـ تفكِّر في المستقبل: الزوج، والبيت، والأطفال، والاستقرار، وأن تكون امرأة مستقلَّة. . لها دنيتها، وكيانها.

ـ فأين المشكلة إذن؟!

مرة أخرى. . طرحت «عهد» هذا السؤال على نفسها. . صرخت من أعماقها.

ـ أضافت بقلق: هل أنا خائفة من شيء؟!

ربما. . . لقد سمعت كلام صديقات أمي عن الفتاة العروس التي طلَّقها زوجها الشاب. . وهذه الحكاية أخذت تتكرَّر كثيراً الآن. عشرات المطلَّقات، والأسباب تافهة، وعشرات الحكايات المؤلمة!!

أين الخطأ. . . ما هو السبب. . . لماذا يحدث هذا التراكم في الطلاق؟!

هذه قضية خطيرة.. إنها أكبر من احتسابها مشكلة، لكنها شروخ وشقوق في بنية المجتمع الذي تتلاحق فيه مثل هذه التجارب والحكايات

صداع... صداع في رأسي!

أمسكت «عهد» رأسها بيدها، وقامت متثاقلة تبحث عن حبَّة مسكِّن.

ـ سألتها أمها: متى جاءك الصداع.. من أين جاءك!

ـ قالت: بعد خروج صديقاتك.. من حكاياتهن!!

* * *

إذا كبر إبنك. . . !

تأخر «فارس» عن العودة إلى البيت، وقد انتصف الليل، ونشر السكون وشاحه الليلي الداكن على الشوارع، ونوافذ البيوت وأبوابها.

كانت «إلهام» تكبح قلقها على ولدها، تعصر أصابع يدها تارة، وتتأفَّف تارة أخرى، وهي تهمس لنفسها، وتريد من زوجها أن يسمعها:

ـ يا ترى. . إيه اللي أخّرك يا «فارس»؟!

ينظر إليها زوجها «خالد» وليس لديه إجابة. . هو أيضاً يكبت قلقاً في أعماقه، ويحاول أن يهدىء من روعها:

ـ وبعدين. . خيلتيني وإنت رايحة وجاية. . يعني جراله إيه، ما هو مع أصحابه في البحر؟!

ـ لكنه قال ما راح يتأخر. طلع للبحر مع أصحابه من الصباح، خلاص. . لزومه إيه يجلسوا إلى أنصاص الليالي؟!

ـ يا بنت الناس إهدئي. «فارس» أصبح رجلاً، ولا يتحمل المسؤولية.

ـ رجل إيه يا شيخ. . ده لسه في نظري ولد، أنا عارفه طينة أصحابه إيه، وبيعملوا إيه، وإلا. . . . . لا حول ولا قوة إلا بالله، لا يكون جرى لهم حادث في البحر، والا في السيارة وهم نازلين؟!

ـ (صرخ خالد في وجهها): خلاص جننتيني، لو كان فيه حادث لا سمح الله بينعرف، خبر السوء يوصل بسرعة، وحِّدي الله.

ـ لا تصرخ في وجهي من فضلك.. كفاية حالتي، أنا خارجة البلكونة أنتظره.

وبقي الأب في مكانه لا يتحرك بأمر الطبيب، بعد أن ثارت آلام ساقه اليسرى بمرض الأعصاب، أو كما يسمونه: عرق النسا!

لا حول له ولا طول الآن.. وقلقه يتزايد على ابنه، ولكن... أين يذهب للبحث عنه؟!

إنه لا يعرف المكان الذي ذهب إليه «فارس» مع أصدقائه على شاطىء البحر.

مشكلات الأبناء لا تنتهي.. بل لعلها تكبر أكثر وأضخم، كلما كبروا في السّن.. فتصبح مشكلات خطيرة.

زوجته معها حق.. إنهما لا يعرفان طينة أصدقاء «فارس»، وكيف تربيتهم، وسلوكهم، لكنه يثق في اختيار ابنه.. لقد أحسن تربيته، ولا بد أنه سيحسن اختيار أصدقائه.

ـ الشباب بلا رقابة من البيت!

أثارته هذه العبارة التي تحرَّكت في ذاكرته، إنه يسترجعها الآن من حوار طال ذات ليلة بينه وبين بعض أصدقائه الذين يأتون إلى بيته مرة في الأسبوع للعب الورق، والسهر.

كان يرفض عبارتهم هذه التي أجمعوا عليها، وقال لهم يومها:

ـ بالعكس. . آباؤنا أحسنوا تربيتنا، وبالتالي. . فإن تربيتنا لأبنائنا متأثرة بما نشأنا عليه، والرقابة موجودة. . إلا من بعض الآباء الذين انشغلوا بأعمالهم، وبرحلاتهم، وبسهرهم. . فتركوا أمور البيت والأطفال للأمهات، وفقدوا التحكُّم في رقابة أبنائهم. ولكن هؤلاء قلة. . أنتم ـ مثلاً ـ أكثر من عشرة آباء. . كل واحد منكم يفخر بتربيته لأبنائه!

ـ قال أحدهم: لكن. . لا تنس حكاية ابن زميلنا في العمل «حسين» الذي أهمل رقابة ابنه، فأدَّى به الحال المنفلت إلى دخول الابن للسجن، بعد أن ضبطوه مع شلة شباب صايع في جلسة مخلّة؟!

ـ قال آخر: في رأيي. . إن الأم هي المسؤولة، وليس الأب ضحكوا جميعاً، وهم يقولون لصديقهم:

ـ طبعاً. . تريد أن تتنصل من المسؤولية، إنت عندك ولد واحد. . يا ترى يقول إيه اللي عنده ثلاثة، وأربعة، والا اللي عنده بنت؟!

ـ قال خالد: هذه نظرة جاهلية. . البنت مثل الولد، المهم التربية، وبعدين. . لازم تسألوا أنفسكم سؤالاً مهماً. وهو: أين يذهب الشباب. . ماذا يفعلون؟!

ـ قال أحدهم: هل هذا سؤال بالله عليك؟!. . يعني لازم نوفِّر له أماكن التسلية، أو ينحرف؟!

ـ قال خالد: ما أقصد اللي فهمته، أماكن التسلية متوفِّرة حتى في البيوت: فيديو، وأفلام، وحفلات، لكني أقصد إنها مسؤولية الأب ليقول لابنه أين يذهب، ويرشده ماذا يفعل، ويراقبه. . المراقبة مفقودة!

ـ قال الثالث: يعني إنت بتراقب ابنك يا أخي؟!

ـ قال خالد: بالطبع.. وبأناقشه، وأتحاور معه، وأتباسط، والمثل بيقول «إذا كبر ابنك خاويه»، والمشكلة أن بعض الآباء يعامل ابنه بعد أن يكبر كأنه طفل.. بينما المطلوب هنا: الإقناع، والمكاشفة.

ـ قال رابع: يعني مثلاً.. هل تسمح لابنك يحكي لك مغامراته؟!

ـ أجاب خالد: هذه فكرة ضرورية.. أفضل أن أسمع منه لأرشده، وأوجهه، بدلاً من أن أسمع عنه بطريقة يلوك فيها الناس اسم ابني، واسمي.

ـ قال الأول: هذه «مودرنية» نحن فين.. في باريس؟!

ـ قال خالد: نحن في عصر العلم، والتربية على أصول، والدراسة النفسية.. وأنت يا أخ دارس علم نفس، وسمعت إنك بتضرب ابنك بالقلم أمام الناس!

ـ عندما يخطىء... لازم أضربه.

ـ ولكن... هل جرَّبت في الأول أن تناقشه في خطئه.. أن ترشده؟!

ألم تفكِّر في رد الفعل عنده عندما تضربه أمام الآخرين. وطوله يوازي طولك؟

ـ إنت خرجت عن الموضوع!

ـ الموضوع متواصل، ومتلازم.. كل موقف هو حلقة في سلسلة طويلة مترابطة.

ـ لماذا تلقي باللوم عل الآباء وحدهم.. هناك أمهات يفسدن أولادهن، إما بالدلع أو بالتَّرف، أو بالمداراة عليهم.. و «من الحب ما قتل».

ـ إنني لا ألغي دور الأم، فهو مهم هنا.. لكن أرى أن دور الأب هو

المطلوب، لمثل هذه السِّن، حين يشارف الولد أو البنت على مرحلة المراهقة لتخطِّيها بعد ذلك!

أفاق «خالد» من سرحته وهو يسترجع أصداء الحوار مع أصدقائه. . حينما سمع صوت زوجته «إلهام» يهرول قبل ساقيها من البلكونة إلى الغرفة، وهي تردد فرحة:

«فارس» وصل. . وصل. الحمد لله، أرجوك يا «خالد» ما تكلمه ولا كلمة. خلِّيه ينام الآن، لا بد إنه تعبان، وفي الصباح يحلها الحلال!

ابتسم «خالد» وهو يسمع رجاء زوجته.

ترى. . هل هذا هو التَّدليل الذي قصده أحد أصدقائه في حوارهم؟!

ودخل «فارس» طويلاً، فارعاً. . لكنه يبدو متعباً جداً، ومرهقاً، وسمعته أمه يلقي التحية:

ـ السلام عليكم.

ـ قالت له مبادرة: كنت فين يا ولدي. . قلقنا عليك؟!

نظر «خالد» إلى زوجته كأنَّه يزجرها، ويذكرها برجائها أن لا يُسأل ابنهما عن سبب تأخيره.

وجلس «فارس» أمامهما. . كأنه يتهاوى. قال له والده:

ـ إذهب إلى غرفتك، وبدل ملابسك. . لتنام، وتصبح على خير.

ولكن «إلهام» بقيت متوتِّرة، تتساءل في حيرة: ما الذي أخَّر ابنها طول هذا الليل. . فالساعة قد شارفت على الواحدة بعد منتصف الليل؟!

ـ قالت لزوجها: يا برودك يا أخي. . طيب بس أسأله: كان فين؟!

ـ أما أمرك عجيب.. ألم تطلبي مني أن لا أكلِّمه، ولا أسأله؟!

ـ صحيح... ولكن الولد كان حيتكلم.

ـ في الصباح... سيقول كل شيء، المهم إنه عاد سليماً، واطمئنينا عليه، دعيه ينام، لأن شكله مرهق.

ـ يا خوفي.. لا يكون عمل مصيبة، الولد وجهه بارد.. كأنه عامل عملة.

ـ طبعاً مكسوف لأنه اتأخر، وعارف إننا سنقلق عليه، يمكن عنده عذر!

ـ عذر؟!.. عذر إيه، أخ، كان نفسي أضربه قلم مقابل الإزعاج اللي سبّبه لنا.

ـ إنت متناقضة، أقوم وأروح غرفته، وأضربه.. يعجبك كده؟!

ـ ها... لا.. لا، خلِّيه يرتاح، على رأيك.. المهم رجع بالسلامة.

ولم تنم «إلهام» أمضت بقية ليلها تفكِّر في شيء واحد فقط، هو: ما الذي جعل ابنها يتأخر إلى ما بعد منتصف الليل؟!

إنها تتطلع إلى وجه زوجها الذي يغط في نومه قريراً، وهي حانقة، تتميز من الغيظ، وتقول له في سرها:

ـ يا بختك.... نايم ولا على بالك، بس كان سألته، وارتحت أنا!

حاولت أن تنام دون جدوى، ذهبت إلى غرفة ابنها، رأته هو الآخر مستغرفاً في نوم عميق، والتعب باد على ملامح وجهه، اقتربت من ملابسه المعلَّقة على المشجب، تردَّدت أن تمد يدها إلى جيوب ملابس ابنها، قالت لنفسها:

ـ لا. . . هذا لا يصح، يعني حيكون إيه في جيبه؟!

تعرف أن ابنها «فارس» يدخِّن، لم تحاول أن تسأله، أو حتى تلمح له.

إقتربت من وجه ابنها. . تحاول أن تشم فمه.

ـ من يدري. . . ربما. . . . . . . !!

ـ لا. . لا. أعرف ولدي، ولكن لا أعرف أصدقاءه!!

ـ لا. . . أعرف تربيته، لا يفعل مثل هذا الأمر.

كأنها ارتاحت قليلاً، وأقفلت باب حجرة ابنها، ودخلت غرفتها لتنام، أصبحت أكثر أرهاقاً من ابنها. . كأنها كانت طوال اليوم في داخل البحر بأمواجه العنيفة!!

❊ ❊ ❊

عريس «الغفلة»!

* هل تقول لأمها: لا.. لا؟!

ذات مساء.. خيل إليها أنها كانت تصرخ في وجه أمها.. لأول مرة يعلو صوتها على صوت أمها!

ذهلت «أم عهد» من تصرف ابنتها. كانت تحدِّق فيها بدهشة، وهي تردد:

ـ يا خسارة يا «عهد».. ترفعين صوتك في وجهي، أنا أمك؟!

بكت «عهد» في تلك الليلة بحرقة، وألقت بجسمها النحيل في حضن أمها تجهش، وهي تصرخ:

ـ لا أريد.. أرجوكم دعوني أدرس في الجامعة.

ـ قالت أمها: ومن الذي سيمنعك من الدراسة؟.. سنشترط أن تكملي تعليمك الجامعي.

ـ ردت عهد: كلام.. سيوافقكم ونحن على البر، وبعد ذلك.. سيرفض، سيقفل عليَّ باب الشقة، تماماً مثل خادمة تطبخ له، وتكنس، وتغسل ملابسه.

ـ قالت أمها: ومن قال لك. . من أدخل هذه الأفكار في رأسك الصغير يا ابنتي؟!

غير صحيح ما تتوقعينه. . ومع ذلك، سنكتب هذا الشرط في عقد الزواج.

ـ قالت عهد: ومن الذي التزم بالشروط المكتوبة في أكثر قصص الزواج؟

ـ ردت أمها: يا ابنتي تفاءلي. . دعي حظك يخدمك!

ـ قالت عهد: كيف أتفاءل. . وحكايات البنات كثيرة. قريباتنا. صديقاتنا. أرجوك يا أمي. . لنؤجل هذا الموضوع!

* * *

مضى عام على هذا الحوار الذي تسترجعه «عهد» هذه اللحظة. . كأن أهلها كانوا ينتظرون نجاحها وانتقالها من المرحلة الثانوية إلى الجامعة.

وهذا المساء. . دخلت عليها أمها قلقة. شعرت من ملامح وجهها أنها ستقول لها كلاماً، لكنها لا تعرف من أين تبدأ. .

ـ قالت لأمها: في وجهك كلام يا ماما. . قولي.

ـ والله محتارة. . كيف ابتدي، ولكن. . . من الأفضل الدخول في الموضوع. أبوك ـ الله يسامحه ـ رمى هذه المهمة علي، وقال: الأم أقرب إلى البنت من الأب، ونحن ستات نعرف بعض، ونقدر نقنع بعض.

ـ تقنعيني بإيه يا أمي؟!

ـ شوفي.. خليكي هادئة واسمعيني علشان نتفاهم. البارح.. جاء لك عريس.

ـ أوه.. تاني؟ هذا سادس عريس. يا ناس.. أتركوني أدرس وأكمل الجامعة.

ـ يا بنتي.. نرجع نعيد كل ما قلناه قبل سنة؟ لازم تتزوجي.. كل البنات يتزوجوا. وهذه سنة الحياة.

ـ عارفة.. لكن الزواج ما هو لعبة كلمات متقاطعة، وحظ. لا.. الزواج مسؤولية، وبيت، وأبناء، وعشرة طيبة، وتكافؤ، وتفاهم.

ـ الله.. الله. تلقي محاضرة على أمك في الزواج؟!

ـ صحيح.. لكن زمنكم يختلف. طبيعة الحياة وظروفها اختلفت.. حتى الناس تغيّروا. الرجل اختلف عن الرجل من جيل بابا، والمرأة اختلفت عن المرأة من جيلك.

ـ إذا كان كل بنت تخاف من الزواج مثل خوفك.. ما كان أحد تزوج!

ـ لا يا ماما.. ظروف الحياة فرضت أشياء كثيرة.. غيَّرت حتى نفوس الناس ومفاهيمهم، وحتى أعصابهم.. هذا ما هو خوف يا ماما.. هذا حرص، وتفكير، ورؤية بعيدة للمستقبل. البنت تتطلع إلى الزواج بدافع الاستقرار، وبناء بيت، وإنجاب أطفال يعيشوا بعيداً عن التهديد بالانفصال، والشقاق.

ـ كلام جميل.. والرجل بنفس التفكير: يتطلع ـ على رأيك ـ إلى الاستقرار، وتكوين الأسرة.

ـ اسمحي لي أختلف معك يا أمي. . بعض الرجال، ممكن يفكر أن يجعل الزواج تجربة، وتجربتين، وثلاث، بمعنى أنه في هذه التجارب يختار، وينقِّي، ولا مانع عنده أن يتزوج واحدة، واثنتين، وثلاث. . حتى يجد من ترضى به، وبعاداته، وبطريقته في الحياة.

ـ بالله عليك. . هل هذا كلام أو تمحيك؟! هناك رجال كثير تزوَّجوا وأسعدوا زوجاتهم.

ـ صحيح. . لا أنكر، وفي مجتمعنا رجال كثيرون من الملتزمين والممتازين، لذلك. . لا بد للبنت أن تختار بدون استعجال، وبدون أن تفرح لمجرد أن العريس طرق بابها.

ـ لكن هذا الشاب من أسرة طيبة، وعريقة، وجامعي، ومتعلم.

ـ ما اختلفنا. . لكن أنا سأتزوجه هو، لا أسرته وعراقته. ما هي أخلاقه. صفاته. أفكاره. نفسيته. يمكن يعاني من حالة نفسية، ولا دخل لأهله في مرضه. . يمكن. . . . . .

ـ قاطعتها أمها: كفاية. . إنت بتقفلي كل الأبواب حتى نعجز أمامك، لكن. . ليه؟!

ـ لا بد أن نتريَّث، ونختار. . وما نندم بعد ذلك.

ـ طيب. . قابليه، ويقابلك، كلميه ويكلمك. وبعدين قرري.

ـ أشوفه مرة. . وبعدين؟ بمعنى أنني أشوف السطح، الغلاف، القشور. . لكن ما هي أعماقه؟!

ـ يا ابنتي. . الزواج حظ، وربنا يجعل حظك على قدر نيتك.

ـ لأ يا ماما.. أختلف معكم. الزواج فهم، وتفاهم، وانسجام، وتقارب فكري.

ـ نعم يا أختي؟!.. نحن ما عندنا بنات تتصاحب، وبعدين تتزوج!

ـ ما قصدت هذا الذي خطر على بالك.. أقصد أننا لا بد نعرف عنه كل شيء، وقبل رؤيته لي، ورؤيتي له.

ـ ما هو نحن راح نسأل عنه.

ـ السؤال لا يكفي في خلال أيام.

ـ خلاص.. نطول فترة الخطوبة..

ـ وبعد ذلك.. يقول الناس: ما هو سبب فسخ الخطوبة؟!

ـ حيرتيني يا ابنتي.

ـ يا ماما.. قلت لك من حيث المبدأ، أنا أرفض الزواج الآن. لازم أكمل تعليمي.

ـ لكن والدك رافض. لا بد تتزوجي. أنت زودتيها، خلاص.. استعدي. الليلة سيحضر الولد مع والده، ويشوفك وتشوفيه، وكل ما عندك تقوليه بعدين.

ـ يعني.. المهم تعرضوني على الناس، وتقلّبوني!

ـ تفكير خطأ.. إنت أيضاً ستقابليه، وتقولي رأيك.

ـ ولو قلت رأي بعكس ما تتوقعوا.. هل تسمعوا كلامي؟!

ـ نحن لا نضغط عليك.. هذه حياتك، وأنت حرة.

ـ يا سلام عليك يا ماما. . كلامك حلو، فاسمعوا كلامي من الأول وبدون تعب.

ـ اسمعي يا عهد. . صارحيني، أنت في حياتك شخص آخر؟!

ـ ياه. . هذا السؤال المعتاد، والمكرر حتى في الأفلام العربية الهابطة. شخص تاني. . يعني إيه؟ أنا دائماً في البيت، والجامعة. . والتليفون ما اعتبره وسيلة صحيحة ونظيفة لهذه الأمور.

ـ يعني. . لا فائدة معك؟!

ـ لا فائدة يا ماما.

ـ لكن أنت راح تقابلي الولد الليلة، وتسمعي كلام والدك. . وهذا قرار وخلاص!

* * *

اعتزلت «عهد» في غرفتها. . تبكي، وتفكِّر في هذا القسر الذي يفعله معها والدها.

فكرت طويلاً حتى شعرت بالإعياء. إنها لا تصدق ما يحدث، لأنها تعرف مفاهيم والدها المتطورة، وهي البنت الوحيدة لوالديها. . يدلِّلانها، ويتمنيان رضاها.

ـ تساءلت: لماذا هذا الإصرار؟!

لم تجد إجابة شافية. فكرت أن تحادث صديقتها الحميمة إليها. أخذت الهاتف، وحكت لها ما حدث بالتفصيل، وهي تبكي.

ـ قالت لها صديقتها: راح تخسري إيه؟ نفِّذي طلبهم. . قابليه،

واتكلمي معه. يمكن تكون له صفات تجذبك.. يمكن يكون «عريس الغفلة» اللي بتحلمي به!

ـ قالت لصديقتها: لكن.. تعرفي مبدئي، لا زواج قبل التخرج من الجامعة. وأقفلت الهاتف.. وقد شرد بها تفكيرها بعيداً.

* * *

السؤال الصعب!!

* استرخى «فارس» على سريره، وقد انتصف الليل.

أفكاره تتجاذبه. . وهو يحدِّق في سقف الغرفة، كأنه يحاول أن يتخلص من تلك الرعشة الخفيفة التي انتابته. . أفكاره تتكثف في رأسه.

لقد بدأ مرحلة جديدة من العمر، لا يعرفها. . ولكنه ـ في البدء ـ يفرح بها، وهي تدخله إلى قدرة الرجولة والنضوج.

هذا هو العام الدراسي الأول له في الجامعة. .

زهو الشباب في شرايينه يدفعه إلى تجارب جديدة، وإلى انطلاقات يريد أن يؤكِّد بها قدراته ورغباته. . يفكر كثيراً في هذه البوابة المغايرة التي يدخلها بعمره الفتي.

أشياؤه الصغرى ستكبر وتتسع، وربما تحوَّلت ـ فيما بعد ـ إلى قضايا! وحاصره السؤال المفاجئ، والمنبعث من كثافة أفكاره:

ـ كيف تبدأ القضايا. . صغيرة؟!

حتى النظرة إلى المستقبل. . تبدأ من تلك النقطة الصغيرة. . والمستقبل يشغله كثيراً من الآن. . . لقد نضج، وأصبح شاباً. . مشكلات عديدة ستنشأ في هذه المرحلة من العمر!

ليست لقمة العيش ـ وحدها ـ هي التي تلح على تفكيره، فقد كانت أفكاره تأخذه إلى تأمل «حالة» الغد.. عندما يكبر أكثر، ويتخرج من الجامعة، ويخوض معترك الحياة!

«حالة» الغد بالنسبة له.. لا بد أن تتبلور في سؤال آخر، يأتي مرادفاً للسؤال الذي سبقه:

ـ كيف ستكون فرص العمل أمامه، وأمام جيله كله؟!

يسأل هذا السؤال من الآن.. لأنه يتلفت حوله، فيجد أعداداً من الخريجين الجامعيين الذين درسوا في الكليات النظرية.. يكادون لا يجدون أعمالاً، وإذا وجدوها.. فلا بد أن يخضعوا لتخفيض الدخل الشهري العائد لهم من أعمالهم.

إنها الوقفة الأصعب التي تلوح الآن في شكل صدمة، أو إفاقة.. بعد سنوات قليلة، أطلق عليها المجتمع والمنظِّرون اسم «فترة الطَّفرة».. حين كانت الفلوس تتمتع بسيولة مغرية، ودفعت الكثير من الناس إلى الجري والتسابق، ودفعت الكثير من الموظفين في الإدارات الحكومية إلى تقديم استقالاتهم والاتجاه إلى الشركات التي كانت تمنح مرتبات عالية، أو دفعتهم إلى المتاجرة في بيع الأراضي للإثراء السريع وإنشاء شركات صغيرة.. لعل «الطَّفرة» أغرتهم بأن هذه الشركات ستكبر مع الربح والدخولات السريعة!

كأن تلك «الطَّفرة» كانت حلماً.. لم يستمر طويلاً، فأفاق منه الناس بمبررات مختلطة.. أهمها: ما حدث من خلخلة في سوق بيع النفط، ولعبة الدولار ما بين صعود وهبوط!

ثم . . . ما كان من تدفق هائل لأعداد «العمالة» التي تجمعت من أنحاء العالم، وبالتخصيص من جنوب شرقي آسيا . . حتى انعكس ذلك التدفق داخل البيوت، وفي كيان الأسر!

وأوغل الليل بـ «فارس» . . يسرع به إلى انبلاجة الفجر . . ومازال النوم يجافيه، والقلق يعتوره ويجذبه إلى الحيرة، والأسئلة!

واسترجع حواراً مع صديقه الحميم «ماجد» الذي صاحبه في هذا المشوار من العمر . . فقد تصاحبا وتزاملا في المدرسة الابتدائية، وتواصلا في المرحلتين: الإعدادية، والثانوية . . دون أن يعثر صداقتهما غبار الأيام والخلافات.

لقد سأله صديقه قبل أيام، وبشكل مفاجئ وجاد:

ـ قل لي يا «فارس» . . ما هي قضيتك؟!

يعترف الآن أن السؤال كان صدامياً له، ولعله يقفز به فوق سنه، الغض، فهو سؤال ضخم.

اضطرب في اللحظة الأولى. حذق في وجه صديقه. سأله بعد لحظة صمت:

ـ لماذا تسألني الآن؟!

ـ خطر السؤال على بالي.

ـ فقط؟!!

ـ لا أدري . . أحسست بدوافعه، ربما لأننا لم نحاول مرة أن نستفتي أنفسنا في شيء. ترانا هذا الشباب الناهد الذي يعدو نحو الشمس، والبهجة،

والضحكات.. ولعلنا نتسابق، ولكن... لم نسأل أنفسنا: إلى أين، أو ما الذي نتسابق عليه، ومن أجله؟!

ـ كأنك تثير مواجعي الآن!

ـ لماذا... وكيف؟!

ـ تذكرت زميلنا في الثانوية: «أحمد الواسعي» الذي كان يمتلئ شباباً وجنوناً بالحياة.. حتى إنه لم يكن يذاكر كثيراً، لكنه في نهاية العام الدراسي يفاجئنا بتفوقه.

كانت الدنيا في نظره: فرصة، وكانت الفرصة: لحظة لا ينبغي أن يتركها، ولم يكن يحدثنا عن طموحاته وأحلامه في المستقبل، ولا ماذا يريد أن يعمل.

ـ سألته مرة: كيف تفكِّر في عطاء علمك ورجولتك يا أحمد؟!

أجابني يومها: لم أفكِّر.. بل لا بد أن أحيا يومي. أيام الشباب لا تعود ولا تتكرر، فإذا كبرنا.. أخذتنا عجلة الحياة ودوامة الانشغال بالعمل والمال وبالمركز.. فلا نجد الوقت لننطلق أو لنضحك!

سألته: ولماذا تقول هذا الكلام؟!

قال: ربما لأنني أرى والدي اليوم أكثر من منشغل.. إنه ينسى نفسه، وراحته، بل وينسانا نحن أبناؤه وبناته. ولو سألته عن السنة الدراسية التي أدرس بها.. لما عرف!

لقد سرقه العمل، والمال، والسفر، والقيمة الاجتماعية.

سألته بعد ذلك: ولكن يا أحمد.. ألا تحلم بشيء؟!

قال ساخراً أو لا مبالياً: أحلم؟!. . إنني لا أعلم ماذا يحدث غداً، فلماذا أحلم؟!

قلت له: تحلم بالمستقبل!

قال: المستقبل يا صديقي بظهر الغيب. حلمي هو لحظتي التي أحياها فقط. . إنها لا تتعوض ولا تعود، كما قلت لك!

ولم أخرج منه بنتيجة، ولكن الفاجعة لنا. . كانت يوم سمعنا خبر «أحمد»، عندما كان يقود سيارته «السبور» وهو عائد من البحر في نهاية عطلة الأسبوع، وكان مسرعاً، وربما كان يغني ويتقافز أمام مقود السيارة كعادته، وانفجر دولاب السيارة الأمامي، وانقلبت به عدة مرات، وودع الحياة في لحظة كان يحياها. . بعد أن عاش عمره الذي مضى بحساب اللحظة فقط!

ـ قال ماجد: ذلك قدره، وقد بكيناه كثيراً، وافتقدنا مرحه وانطلاقته، ولكن سؤالي يخصنا كأحياء. . لم يفقدنا الألم نظرة الأمل إلى الغد.

ـ قال فارس: ماذا تريدني أن أجيب؟. . إننا نتسابق على التفوق والنجاح. . . لنخوض معاناة الحياة بعد ذلك.

ـ صحيح. . بشكل محدود. ربما في المدرسة، والآن في الجامعة، وبعد غد لي شؤون الحياة وهمومها، ولكن. . . ما هي قضيتنا؟!

ـ قضيتنا الآن. . تكمن في التفوق.

ـ فقط؟!. . وبماذا نتفوَّق؟!

ـ نتفوَّق بالعلم، ثم بالعمل، من خلال تخصصات علمية نخدم بها بلدنا، وأهلنا.

ـ هذا جميل.. ولكن ـ أيضاً ـ ما نوع الخدمة؟!

ـ ماذا تقصد؟!

ـ فكِّر في سؤالي.. وأجبني بعد ذلك!

* * *

لقد خلخله السؤال، وأقض مضجعه.. إنه يفكر في بلده.. في منطقته التي أطلقوا عليها «الخليج» بكل خلفيات هذه التسمية.. يفكر في عالمه العربي، وعالمه الإسلامي.. يفكر في العالم كله، باعتباره وحدة مترابطة بالمصالح، وبالحضارة، وبالتقدم.. بلاده تشهد قفزات التنمية، وطموحاتها تصعد باستمرار.. وهناك عراقيل، وأخطاء.. ولكن العجلة تدور، والتطور يفرض نفسه، وأحلام الشعوب واسعة.

«خليجه» يتعرَّض لتحديات شرسة وضخمة.. ثروات الخليج تتعرض لأطماع وأحقاد.. ربما امتدت مع طول التاريخ.

العالم العربي ممزَّق.. مازال مطحوناً في عجلة الخلافات، والمؤامرات، ولعبة القوى الكبرى.

العالم الإسلامي.. يناضل للتمسك بعقيدته، وتحقيق حلم التضامن القديم.

العالم كله فوق بركان.. صنعته لعبة القوة.

فأين هي «القضية».. في هذا التدافع والزحام؟!

ما هي نقطة الارتكاز لتفكير الشباب؟!

هل هي في المحافظة على الثروة، وتنميتها، وصيانتها، وحراستها. . . أم بعزة هذه الثروة في اللهو، والرفاه، والتبذير؟!

أم هي في حماية الاستقرار الداخلي، وتحصين الأرض والثروة من الطامعين خارجياً، ومن المبذرين والسفهاء داخلياً؟!

أم هي في صد ومجابهة الحرب الخفية والخطيرة التي تستهدف الشباب، والعمل على تجنيب هؤلاء الشباب مزالق الانحراف، وإبعادهم عن المخدرات واللهو القاتل؟!

أم هي في نشر مظلة حرية الحوار والكلمة. . لتكون هنالك رؤية صحيحة؟!

أضنته هذه الأسئلة، وأحسَّ رأسه قد تحوَّل إلى كرة حديدية، ثقيلة!!

* * *

كان جنوناً!!

* وقفت «إلهام» أمام دولاب ملابسها في غرفة النوم.. تصلح من وضع فساتينها، وتعلِّق فستان السهرة التي حضرتها، وما زالت تثرثر في سمع زوجها «خالد».. تحكي له عن ليلة العرس التي امتدَّت إلى هذا الوقت المتأخر.

كانت تستطرد في وصف ما رأته.. تبدي استحسانها حيناً، وتنتقد أكثر الأحيان.

ـ قالت لزوجها: تصور... أم العريس جالسة طول السهرة ما اتحركت، وأم العروس وأهلها ما جلسوا يا عيني عليهم، وقال إيه.. العائلتين مشتركين في دفع تكاليف الزواج، وفي الترحيب بالضيوف.

ـ قال خالد بصوت منخفض: يا الله... قضية خطيرة، ولا مشكلة الحرب الخليجية!

ـ التفتت إليه وقد استفزها: من يوم ما اتزوجنا.. وهذا طبعك: السخرية!

ابتسم «خالد» دون أن يجيب.. وهو يتأمل زوجته، وقد اكتنزت قليلاً، لكنها استطاعت أن تحتفظ بحرارة شبابها بعد تلك السنوات التي رحلت،

وأخذت معها جنون الشباب وحيويته. . وها هما ـ خالد وإلهام ـ يصارعان الزَّمن، والمشيب يزحف إلى مفرقيهما، وإن كانت «إلهام» تبدو كأنها تستسلم رويداً لهذا الزحف. . بعد أن أنجبت «فارس»، و «عهد»، وأصبحت الحياة مع زوجها هي حقيقة عمرها ودنياها. . فاطمأنت، واسترخت، وتأكَّدت أن «خالد» لا يفكر في تجديد شبابه مع امرأة أخرى يتزوجها، وقد كانت تسمع أمها وجدتها يقولان عن الرجل الذي يتزوج عدة مرات: أنه يجدِّد فريق بيته!!

واتسعت ابتسامة «خالد» وهو يسترجع، ويتأمل. . وعادته عبارة قالتها له زوجته «إلهام» قبل عام:

ـ لقد أصبحت الفلوس لديك كثيرة، وأمسك الخشب، والمرأة تقول دائماً: إذا كثرت فلوس الرجل تزوَّج! لكني أثق فيك أولاً، وأعرف أنك تعشق عملك، حتى خفت عليك من الإرهاق، ومن إغراء الفلوس!

الآن وهو يضطجع. . يتذكر عبارتها، وهي أمامه تقف لترتب دولاب ملابسها، ويتأمل بياض جسدها الذي يواجه خطر تسرب التجاعيد إليه!

وطال صمت «خالد». . دون أن يعلق على عبارة زوجته. . واستدارت نحوه، وقد أغاظها إهماله لكلامها. قالت:

ـ أنا بأكلمك. . ليه ما ترد؟!

ـ قال: كلامك لا يحتاج إلى تعليق، لأن ما حدث هو من طبائع الناس وسلوكياتهم المتفاوتة.

ـ قالت: جوابك حاضر معك. إلا على فكرة. . غريبة إنك صاحي إلى هذا الوقت المتأخر من الليل. ليست عادتك. . فأنت تنام ـ إذا سهرت ـ

بعد منتصف الليل. خير إن شاء الله؟!

ـ قال: لا أدري.. قلقت.

ـ قالت ضاحكة: يمكن بتحب!

ـ قال: باحبك إنت.

ـ قالت: أنا؟!.. لا، صرت دقة قديمة.

ـ قال: يا إلهام.. إنت فائقة وراجعة من عرس، وتلاقيكي كنت ترقصي وتضحكي!

ـ قالت: صحيح.. وإنت مالك حزين ومكتئب؟!

لم يجبها. غطى رأسه بالوسادة الأخرى، وقال:

ـ من فضلك.. اطفئي النور، أنا تعبان.

ـ قالت: لا.. أنا كده قلقت. فيه حاجة.. مشكلة؟!

جلست بجانبه على حافة السرير، ووضعت يدها على رأسه بعد أن قذفت بالوسادة بعيداً.

استدار ثانية يحدِّق في وجهها المتلهف عليه، والقلق.. هذا وجهها الذي صاحب عينيه كل تلك السنوات الطويلة الراحلة، وشاركه طموحاته وهمومه، وأحلامه، وتعبه، وفرحه، وقفزاته واصطداماته.

امتدت أصابع يده إلى شعرها الأسود المبعثر فوق كتفيها وجبينها، وتخلَّلت هذا الشعر بحنان، وقد لاحت ابتسامة على شفتيه وهو يتطلع إلى وجهها.

ـ قالت منزعجة: لا تخيفني يا حبيبي.. ماذا بك أرجوك؟!

ـ قال: في الحقيقة لا شيء جديد. . وفي الحقيقة كل شيء بي.

ـ قالت: فزورة؟!

ـ قال: أبداً. . لا بد أن أطوّع كل الأشياء، وأروض نفسي.

ـ قالت: دائماً نفعل ذلك أمام الأشياء التي تقفز فوقنا، حتى نجد الحل، أو الانتصار. إحكي لي يا خالد. . هل هي مشكلات الديون، وانعدام السيولة المالية في السوق؟!

ـ قال: المشكلة مترابطة. . دائن ومدين، وانعدام السيولة. أنا أطالب الآخرين بمبالغ كبيرة، ولا يقدرون الآن على تسديدها لي، وهناك من يطالبني بمبالغ مماثلة، أو أكثر، وأعجز عن تسديدها. . . كأن فترة «الطَّفْرة» التي مرت، تشبه عربة جديدة كانت تنطلق بأقصى سرعتها، وفجأة تسرب الهواء من دواليبها، أو انفجرت تلك الدواليب، فتوقفت السيارة بنفس تلك الفجأة، ووقعت حوادث كثيرة، وموتى، وجرحى!

ـ قالت: ولكن. . . هناك أيضاً من استفاد من تلك «الطَّفْرة»، وارتفعوا من الحضيض، وكانت الفلوس تتدفق مثل السيل.

ـ قال: كان جنون. البعض كان يقتنص الفرصة، والبعض الآخر أخفق في تقدير كل حساباته.

ـ قالت: وأنت. . . ألا تقوم كل شهر بتسديد البنك؟!

ـ قال: بلى. . ولكني أكاد أتوقَّف. . فليس هنالك دخل يساعد على إيفائي بهذا الالتزام، وتسديد البنك.

ـ سألته: وإلى أين بلغ تفكيرك؟

ـ أجابها: إنني محبط.. أفكِّر أن أبيع العمارة، وأسدد من ثمنها، أو أقدِّمها للبنك.

ـ قالت: وهل ستفي قيمة العمارة.. خاصة وأن أسعار البيع هبطت، والناس قد عرفوا احتياجاتك؟!

ـ قال: أعرف ذلك.. ولكني أضحي.

قالت: أحمد ربك أن ما عليك أقل بكثير من أولئك الذين أدخلوا السجن، لعجزهم عن تسديد ملايين مذهلة، لتذهب العمارة، وحتى هذه الفيلا لو أردت بيعها أيضاً. لا عليك.. سنبدأ من جديد.

ـ قال: تقولينها بمنتهى البساطة.. ومن أين نبدأ ذلك الجديد؟!

ـ قالت: كما بدأنا ذلك القديم.. فلا تقنط من رحمة الله وفرجه. نام الآن... اغمض عينيك حتى تراني، كما تقول أم كلثوم.

واحتوت رأسه المثقل بالأفكار والأجراس في صدرها.. ضمَّته بشدة، وأطفأت الضوء، واستلقت بجانبه.

* * *

لكنها لم يغمض لها جفن.

لعلها استطاعت أن تبدع كلاماً مريحاً في أذن زوجها ليهدأ بعده، وينام بعد ساعات التفكير الممض والإرهاق.

وبقيت بجواره على السرير يقظى.. تحملق في ظلام الغرفة، وتسترجع الأحلى من شريط العمر.. وانزلقت دمعة دافئة من عينيها.. كأنها حملت من

فوق كتف زوجها صخرة الهم. وقذفت بها فوق صدرها. إنها تفكِّر في الغد أيضاً. . وتتساءل:

ـ ما هو المصير. . بعد هذا المشوار؟!

ترى. . هل يكون في قدر زوجها أن يُزج به في السجن مثل الآخرين الذين كسرهم السوق. . أم أن شريط ـ الكفاح في الحياة سيتقهقر بهم من جديد إلى نقطة البداية، وقد كان زوجها في حيوية شبابه. . غيره الآن، وهو يدخل إلى العقد الخامس، ويعاني من الضغط المرتفع؟!

في مرات كثيرة. . رأته يصرخ من الصداع الشديد عندما يرتفع ضغطه، ورأته وهو ينفعل ويغضب من أجل مكاسبه وتجارته. . فيرتفع ضغطه.

حذرته كثيراً أن لا يغضب، ولكنه لا يتحكم في أعصابه! مثل إنسان عادي، وفي عصر طبيعته التوتر، والانفعال، والمواجهات العنيفة أحياناً!

عندما ذهب إلى المستشفى في العام الماضي، ليضبطوا له ضغطه. . قال لها الطبيب:

ـ لا تنزعجي كثيراً بهذه الصورة القلقة التي أراك عليها. . فقد أصبح الضغط من أمراض العصر، ويحتاج فقط إلى رقابة ومعاشرة دائمة مع حبة ضبط الضغط:

تنهدت، واستدارت تضع وجهها في عنق زوجها، وتحتضنه. . أصبحت شديدة الخوف الآن. . إنها لا تريد أن تفقده بهذه السرعة، وفي هذه المرحلة من العمر. . بعد أن تخطيا معاً مرحلة التسابق مع الزمن، ومحاولة اللحاق بالثروة، وبالاستقرار المعيشي. . إنهما يبلغان الآن مرحلة النضوج التام.

هي في مطلع الأربعينات، وهو في مطلع الخمسينات.. وهي مرحلة شباب أقوى وأكثر وعياً، وتدبراً، وتصرفاً.

أمامها ـ مع زوجها ـ مهمة أكثر صعوبة من جمع المال، والمحافظة عليه.. هناك.. في الغرفة الأخرى: فتاة جميلة.. يتكاثر عليها الخطاب، وهي ترفض.. لأنها مصممة على إنهاء دراستها الجامعية والشهادة التي تعتبرها سلاحاً في يدها.. مثل أية فتاة اليوم لم تعد تثق كثيراً بشباب هذه الأيام.

وهناك في الغرفة الثالثة: شاب يدخل الجامعة في السنة الأولى، ولا تقل مشكلاته عن أخته البنت!

إنه الخوف على هذه الفلذات.. خوف من العصر، ومن الزمن، ومن أفكارهم وأحلامهم.

لقد تبخَّرت ضحكات سهرة العرس.. ولم تعد «إلهام» تجد في عينيها سوى تلك الدمعة الدافئة.. مسحتها بكم قميصها، وازدادت التصاقاً بزوجها.. لتنام!

* * *

العدل. . فقط!!

* لم يحضر العريس في الموعد الذي حدَّده أهله لخطبة «عهد» أو رؤيتها. وتعلق سمع ونظرات «خالد» وزوجته «إلهام» بالباب، وبالجرس.

كل البيت كان في حالة طوارئ. . حتى «فارس» اكتشف أنه حبيس البيت، ليستقبل مع أبيه: العريس ووالده وأهله.

عقارب الساعة تزحف ببطء. . وقد شارفت على التاسعة، دون أن يقرع الجرس، أو يحضر حتى من يعتذر!

تمتمت «إلهام» بكلمات. . كأنها تصبِّر زوجها ونفسها، فقالت:

ـ الغائب حجته معه. . سبحان الله، مين يدري!

«خالد» ظل صامتاً بهدوء عجيب، وهو مندهش في داخله. .

فقد كان متحمساً للعريس، ولعائلته الكبيرة، وكان ينظر في عيني ابنته. . فيستشف عدم الرضا، وشعورها بالإرغام على تقبل الأمر!

كأنه يقول لنفسه الآن: لقد انتصرت «عهد» علينا.

ولكن. . . ما الذي منع العريس وأهله عن الحضور، وحتى عن الاعتذار؟!

و «عهد».. بقيت في غرفتها، لا تطيق أن تشمت بوالديها، وقد حدثاها طويلاً عن العريس: عراقة أسرته، وجامعيته، وتعليمه، وحتى وسامته!

تريد أن تضحك الآن.. ولكن ليس على أبيها وأمها.

إنها تضحك من هذه العادات التي لم تتطور وتتبدَّل.. فإذا كانت «العائلة» كبيرة، وذات صدى في المجتمع، فإنها تصبح مطمعاً، وشرفاً، وفرصة!

غير أن القلق أصاب «عهد» هي الأخرى، ورددت نفس السؤال:

ـ لماذا، تأخَّروا؟!

إنها تخاف على مشاعر أمها وأبيها، وأيضاً.. تخاف من ذلك الرذاذ الذي سيتطاير فيما بعد.. فقد عرف الأقرباء، والجيران، والأصدقاء.. أن «العريس» سيزورهم الليلة لخطبتها.. بل وعرف أولئك كل شيء عن عائلة «العريس» وعن صفاته، وعمله.

تُرى... كيف سيكون شكله؟!

هل يبدو أملس، ناعم النظرة، بارعاً في الكلام؟!

أم سيكون جريئاً، مقتحماً، وربما وقحاً في النظرة والحوار؟!

إنها لا تميل إلى الصفات الأولى، ولا إلى الصفات الأخرى.. ولكنها تريده رجلاً وسطاً: ليس أملس ولا ناعماً.. بل صلباً وقوياً في كلامه وشخصيته، ولا تريده وقحاً ومقتحماً.. بل شجاعاً، وكريماً، وصادقاً بكل الوضوح.

ـ قالت لنفسها بغيظ: «فصِّليه» إذن!

وسمعت طرقاً على باب غرفتها، وانفرج الباب عن وجه أخيها، وهو يجذّ على أسنانه، متوتِّراً، مغتاظاً!

ـ سألته: ما بك؟!

قال: لا شيء. . البركة في حضرتك!

ـ قالت: آه. . عرفت. لا بد عندك نفس الموعد المهم، ولكن. . . من هي هذه المرة؟!

ـ قال: من فضلك. . أنا ناقصك؟. . أعرف أن العريس يكون متلهفاً على رؤية المرأة التي ستشاركه حياته، وموعدهم معنا الساعة الثامنة، وها هي الساعة العاشرة. . فسِّري لي ما يحدث؟!

ـ قالت: هل أنا التي أفسِّر. . كنت معاهم يعني؟!

ـ قال: حضراتهم جايين للكشف والمعاينة. . أجل كيف لو كان زواج؟ يمكن يشرِّفوا في الصباح!

ـ قالت: أرجوك يا «فارس» بدون تجريح. أنا إنسانة ولي كيان، وأختك. . عيب لما تقول: الكشف والمعاينة، لأنني ماني سلعة، أو نعجة!

حضنها «فارس»، وقبِّل رأسها، وهو يضحك قائلاً:

ـ الله. . الجميل زعل. نحن بنمزح. . بعدين على إيه كل هذه الاستعدادات، والانتظار، مادام في الآخر ستقول «السنيورة»: لا. . . غير موافقة

ـ قالت: ومين قال لك إني ماراح أوافق. . . يمكن أوافق!؟

ـ قال: الله. . . رجعنا في كلامنا. . إذن ليه التعصيب والنرفزة مع

السِّت الوالدة، والإصرار على الرفض، وإلا. . . يكون السيِّد القادم، هو. . . فتى الأحلام؟!

ـ قاطعته صارخة: فارس. . . كفاية كده، لا أسمح لك، وإنت تعرف سلوك أختك، ولا يمكن أن أتصرف في الخفاء، وبطريقة غير مسؤولة.

* * *

ربت «فارس» على كتف أخته، وأقفل الباب وراءه، وخرج إلى الصالون. . حيث يجلس والده وهو ينظر إلى «إلهام» صامتاً.

ـ وبعدين في هذا التوتر، وهذا السجن؟!

خاطب نفسه، وهو يرى أمه تكاد لا تستقر في مقعدها.

وتبادل النظرات مع أبيه دون حوار. . إلا أسئلة تلك النظرات القلقة. والدقائق تمر كسلى.

وتكلم والده. . يسأله عن أخته «عهد» ماذا تفعل في غرفتها؟!

ـ أجابه: جالسة. . تقرأ في كتاب!

ـ قال: ما شاء الله. فرحانة طبعاً!؟

وقرر «فارس» أن يفجِّر هذه القنبلة غير الموقوتة، فتكلم قائلاً لوالديه:

ـ يا جماعة حصل إيه يعني. . . خيرة!

ـ قالت أمه: خيرة إيه، والناس، والكلام؟!

ـ تكلم خالد بهدوء: فارس معه حق. صحيح «خيرة». .

لعل الله أراد لنا الخير، من يدري. روح يا «فارس» غرفتك، أو إذا أردت الخروج . . فلا بأس.

ـ قالت إلهام: يا كسوفي من الناس. . أقول لهم إيه؟!

ـ قال خالد: الناس. . الناس. دي حياتنا، بعدين أنا أعرف السبب!

قفزت «إلهام» من مقعدها ثائرة. . تكاد تمسك بتلابيب زوجها.

ـ قالت: إنت إيه؟ عارف السبب، وساكت كل هذا الوقت؟!

ـ قال: بدون انفعال. . . ممكن تسترجعي كلامنا في آخر ليلة أمس؟!

صمتت «إلهام» وشردت كأنها تتذكَّر، أو تتألَّم، وحدَّقت في وجه زوجها، وسألته:

ـ تقصد. . . . . . ؟!!

ـ قال: محتمل. . . في الأول، كنت صاحب ثروة لا بأس بها، أما الآن. . . فأنا مهدد بالإفلاس، وربما السجن. . فلا بد أن يعيدوا حساباتهم.

ـ قالت: صحيح. . . محتمل، والعمل؟!

ـ قال: هدئي من روعك. أنت الآن في كامل زينتك، ولا بد أن «عهد» مثلك. . وإذن، لنخرج ونتفسَّح، ونخلص البنت من أفكارها. . لقد ضغطنا عليها كثيراً، ولم نكن نعلم أننا نسقطها في الوهم.

ـ قالت: وهم إيه؟. . ألف من يتمناها، ولا تنسَ أن البنت مصمِّمة على دخول الجامعة، والحصول على الشَّهادة، والمستقبل أمامها.

ابتسم «خالد» وهو يهم بالقيام، وقال لزوجته ساخراً:

ـ عجيب... !! اقتنعت الآن؟!

* * *

وقفوا ثلاثتهم أمام البحر.. يتأمَّلون بياض الموج الهادئ الذي يرتطم برمال الشاطئ في وداعة لا يتصف بها البحر دائماً!

خالد: يحدِّق في الظلام الكثيف الذي يغطي زرقة البحر في مداه البعيد.. حيث الأسرار، والأعماق، والمجهول، وثورة الموج وارتداده بعد ذلك.. كأن البحر أمامه الآن: بشر يتحرك ويتصرَّف!

إلهام: تحتوي بيدها كتفي ابنتها، وتضمها إليها في حنان بالغ.. وهما ينظران إلى الأضواء التي تلوح من الجانب الآخر، مثل نقاط متناثرة على صفحة الماء! ودمعة.. تكفكفها الأم بسرعة، قبل أن تلحظها ابنتها.

عهد: ترسم ابتسامة على شفتيها البكر.. فمازال «الحلم» بعيداً يتبلور، ويتشكل في رحم الغد... لكنها تلملم حزناً عفوياً، وهي ترى والدها شارد الذهن، منقبض النفس، تائه النظرات.. كأنه يركض بذلك كله خلف أمل جديد، أو يهرب من لهب المشكلات والهموم.

حاولت أن تفعل شيئاً يكسر رتابة هذا الجو.. ركضت إلى أبيها تحتضنه، وتدلِّله.. وهي تقول ضاحكة:

ـ إيه.. سكتم بكتم. نحن بنتفسَّح يا أمم. خلوها على الله.

ـ قال والدها: ونعم بالله.. أريدك أسعد إنسانة على وجه الدنيا.

ـ قالت عهد: معك، ومع أمي وأخي. . تأكد أننا نصنع السعادة. . فهل تناقشني أيها السيد الكبير «بابا»؟!

ـ قال: أناقشك. . . ولكن في إيه؟!

ـ قالت: في الحياة، والعمل، والكفاح، والرزق، والحظ، والفرصة، والنجاح.

ـ قال ضاحكاً: ياه. . . كل فقرة منهم تحتاج إلى كتب فلسفة!

ـ قالت: بالعكس. . عندما نفلسفها، نكتشف أننا نصعّبها، ولكن عندما نبسّطها. . فلا أحلى منها، وتبدو الأمور حين تبسيطها منطقية، وربما كانت عادلة.

ـ قال: عادلة. . . كيف؟!

ـ قالت: أنت يا أبي خبرتك وتجربتك أعظم وأكبر. . ولكن العدل في رأيي، هو في صدق الإنسان مع نفسه، ومع الناس. . أن لا نخون أنفسنا، ولا نخون الناس. . وبعد ذلك، كل شيء يصبح عادلاً، ونقدر أن نتقبَّله. . حتى لو كان يفيض بالألم!

ضم ابنته إلى صدره. . ومد يده الأخرى إلى زوجته، وقال لهما:

ـ لقد تأخَّر الليل. . لنعد إلى بيتنا الأجمل!!

* * *

حصاد العام الأول

* تلقَّى «فارس» تقديراته الدراسية مع انتهاء العام الجامعي الأول له. ومع تلك التقديرات تسلَّم خطاباً من إدارة الجامعة.. وقف أمام محتواه محبطاً، يحاول أن يدرأ انزلاق دمعة حارة من مآقيه.. وشعر أن الدنيا تضيق به، والظلال الكثيفة تكتنفه.. حتى كأنه لا يرى شيئاً، ولا يميز بين الأبيض والأسود. إنه يدرج إلى الحياة الجامعية بكل تفاؤل، لكنه كان يكتشف نفسه وقدراته منذ بدء «الترم» الأول.. كانت تقديراته أقل من المتوسط، ووعد نفسه بتحسين مستواه في نتائج «الترم» الثاني.. لم يخبر والده.. أو أن والده لم يسأله منذ دخوله الجامعة عن أحواله، وكيف يسير.. لأن مشاكله المتلاحقة، واجتماعاته، وسفرياته.. حالت بين الوالد وابنه، حتى عندما كان «فارس» في المرحلة الثانوية.. أما أمه.. فإن أسئلتها عفوية، وعاطفية، وغالباً ما تأتيه في شكل دعاء.. بأن يوفقه الله، وأن «يوقف له أولاد الحلال» ليعينوه على الدراسة والاستذكار (!!).

كان يضحك ـ أحياناً ـ من عفوية أمه.. ويعرف أنها متعلمة جيداً، وخريجة جامعة، ومتخصِّصة في الديكور.. ولكنها حينما تقف ـ كأم ـ تلقط كل الأفكار، وتتحول إلى عاطفة جامحة! وهو يحبها كثيراً.. ويحب هذا الصدق النقي في عاطفة الأمومة عندها.

وغامت الدنيا في عينيه، وهو يترك ساحة الجامعة متجهاً إلى عربته. . وفي داخل العربة. . أسند رأسه على المقود، وأخفى وجهه. . حتى لا يرى أحد دموعه. وفي رأسه يضج السؤال المؤلم:

ـ هل هذه هي البداية يا «فارس»؟!

ـ مع العام الأول: تقديرات هابطة، وإنذار من إدارة الجامعة بفصله لمدة ترم، واحد، فإذا لم يحرص على تحسين تقديراته، فسوف يتم فصله نهائياً!

ما الذي سيقوله لأبيه؟!

هل يخفي عنه خطاب الجامعة والإنذار؟!

هل يقول له الحقيقة. . . ولا يعرف رد الفعل من والده، ماذا سيكون؟!

كيف سيتقبل أبوه هذا الخبر. . . يقرعه، ويصرخ في وجهه، ويحمله المسؤولية؟!

أم تراه يتلقى الخبر بلا مبالاة. . وهو غارق في أعماله، وصفقاته؟!

زاحمته كل هذه الأسئلة، ولم يعد يدري ماذا يفعل؟!

قاد عربته. . وانطلق إلى غير هدى. . فكر أن يذهب إلى شاطئ البحر. . لكن الشمس ساطعة، وعمودية تصب قيظها.

لم ينتظر صديقه «ماجد» حين الخروج من الجامعة، ليعرف تقديراته هو الآخر، ونتيجة حصاد عام جامعي. . كان مضطرباً، وشارداً. . ويداري فضح دموعه. . ربما كان «ماجد» يريحه، ويخفِّف عنه. . ولكن أين «ماجد» الآن؟!

اتجه بعربته إلى منزل صديقه. . لعله عاد من الجامعة. . لم يجد «ماجد» في البيت، ويكاد يختنق. . يريد أن يصرخ. . أن يجهش بالبكاء. . هل

يحاسب نفسه، قبل أن يحاسبه والده أو صديقه؟! ماذا كان يفعل طوال العام الدراسي؟!

ـ كنت أذاكر، وكنت ألهو في الوقت نفسه.. ولكني لم أكن لا مبالياً بالدراسة، ربما كان تقديري للعام الدراسي الأول في الجامعة.. فيه بعض الاستهانة، فلم أركز.

لعل انتقالي من مناخ الدراسة الثانوية إلى الجامعة، وعدم خبرتي.. من الأسباب التي جعلتني أخفق!!

أليس جائراً هذا الفصل، وتعسفياً لطالب في بدء دراسته الجامعية.. يتطلع إلى منحه الفرصة؟!

لقد منحوني فرصة.. بهذا الإنذار الذي يقضي بحرماني من «ترم» واحد.

ولعل الجامعة تحاول أن تحد من هذا الاكتظاظ الطلابي.. فلا تتهاون مع الضعيف في تقديراته.

كان ينبغي أن يكون هنالك توجيه من المدرسة، وتعريف من الجامعة.. ليلم الطالب بالمرحلة الجامعية، الجديدة عليه.

وتبعثرت الأصداء في نفسه.. مع هذا الحوار الداخلي.. الحيرة تضطهده.. والألم يعتصره.

في البيت... عرف من أخته «عهد» أن والده لم يبرح غرفته منذ الصباح!!

هل يخبر أخته بمصيبته؟!

حدَّقت في وجهه. . كأنها تفتش ملامحه. سألته:

ـ ما بك. . تبدو كئيباً؟!

ـ لا شيء. . . أرجوك اتركيني وحدي.

ـ على كيفك. . ولكني أريدك أن ترتاح بالكلام.

ـ ليس عندي كلام الآن.

واستلقى على سريره. . يفسح للدموع طريقها من عينيه، لعله يشعر بالراحة قليلاً. وعادته الأسئلة من جديد.

إنه لا يستطيع أن يخفي عن أبيه الحقيقة. . خاصة وأنه سيبقى نصف عام كامل خارج الجامعة. لم يتعود أن يكذب على أهله. . وفي إمكانه أن يخرج كل صباح، وهو يوهمهم بذهابه إلى الجامعة، ويعود في موعده المعتاد. . خاصة أن والده لا يتعقبه، ولا يسأله عن دراسته. ولكن. . . لا بد أن يطلع والده على خطاب الجامعة. لا بأس. . . عليه أن يمتلك شجاعته، ويحتمل غضبة والده وثورته. . وربما تصل الأمور إلى الضرب!! المهم أنه لن يكذب. . واحتار في الطريقة التي يخبر بها والده!!

بعد الغداء. قبل أن ينام في الليل؟!

هل يشرك أمه في المهمة. . لتمهد له، وتمتص رد فعل والده؟!

لو أخبر أمه. . فسوف تصرخ للوهلة الأولى. . ستخبط على صدرها وتولول. . وربما يغمى عليها، ويرتفع الضغط. . نحن في عصر ارتفاع الضغط السريع!

«عهد». . هي المدللة عند أبيه!

ليخبرها.. ويتدارس معها كيف يتم إيصال الخبر إلى الوالدين. طرق باب غرفتها. كانت شاردة الذهن، وجهاز التسجيل يبث أغنية. لا يظن أن «عهد» تصغي إلى الموسيقى، أو تتابع كلمات الأغنية.

ـ سألها: ما الذي يشغلك وتفكرين فيه؟!

ـ فيك أنت.. حالك لم يعجبني اليوم، وعندما سألتك.. صددتني وأنا أختك.

ـ اسمعي إذن.. وفكري معي في مصيبتي!

ـ مصيبة؟!.. أعوذ بالله. ماذا حدث؟!

ـ باختصار.. اقرئي هذه الورقة.

شهقت «عهد»، وكادت أن تجحظ عيناها. سألته:

ـ كيف حدث هذا؟!

ـ لا أدري... فوجئت به مثلك، مع أني كنت أذاكر، وأتابع المحاضرات، وأجيب، وأحاول ما استطعت أن أجعل علاقاتي بالأساتذة جيدة، ولكن... جاءت هذه النتيجة!

ـ لعلك كنت مشاكساً مع الأساتذة.. وأستاذ الجامعة يعتبر نفسه «فوق» كل شيء.. والبعض منهم يحلو له إذلال الطالب!

ـ بالعكس.. أعرف هذه النقطة بالذات قبل أن أدخل الجامعة!

ـ وماذا ستفعل؟!

ـ لا مجال لأية محاولة. هذا قرار لا رجوع فيه.

ـ وأبوك؟!

ـ آه. . . هذه هي المعضلة.

ـ كيف ستخبره. . وكيف ستراه يتلقى الخبر، وهو في حالة لا تسمح له بأية هزة؟!

ـ ماذا به أبي. . هل يشكو من شيء؟!

ـ طبعاً. . . فهل تدري أنت عن أي شيء في البيت؟!. . دائماً طائر، إما في الجامعة، والله أعلم، يا ما في السيارة، أو مع أصحابك.

ـ من فضلك. . من غير تقريع. أنا ناقصك؟!

ـ وماذا تريد؟!

ـ خدمة منك. . . فكري معي كيف في أبي؟!

ـ نخبر. . . أو أنت الذي يجب أن تخبر أبي بنفسك؟!

ـ بل أنت بطريقتك. . وهو يحبك جداً. إنت البنت طبعاً!

ـ يحبنا أنت وأنا. . بل أنت ولي عهده، أعني: الأمل الذي ينظر إليه كمستقبل، ونجاح، ووقوف بجانبه وهو يهرم ويتعب.

ـ هل صحيح إن والدي متعب. . ومم يشكو؟!

ـ مصيبته أكبر. . . لأن ديونه أصبحت تزعجه، وتهدده بكارثة.

ـ وكيف لم أعلم بهذا كله؟!

ـ ليس مجال السؤال الآن. . دعنا نفكر في مصيبتك!

* * *

الصمت.. قبل العاصفة

* لم تتجرأ «عهد».. فتواجه والدها بخبر «فارس».. وكما توقع «فارس».. فقد شهقت أمه، وخبطت على صدرها، وفرت الدموع من عينيها بفزع.

ـ قالت لهما: لا أقدر أن أخبر والدكما.. أخاف عليه، وهو معه السكر، والضغط.

ـ قالا لأمهما: وما العمل... لا بد أن يعرف؟!

ـ قالت: لا أدري.. أتركوني الآن.

ولم تعد «إلهام» تعرف كيف تتصرف.. أصابها حزن شديد، وبكاء.

إنها تتقطر ألماً على زوجها المهدَّد بالسجن بسبب ديونه... وعلى ابنها، وابنتها التي تريد لها أن تتزوج، وتحتمي برجل يؤمن لها المستقبل، ويفتح لها بيتها الخاص، ودنيتها.

إن نظرتها للحياة القادمة.. لم تعد متفائلة قط، مثلما كانت قبل شهور قريبة. وأحست أن جبال بلادها ورمالها.. قد انهالت عليها، ووأدت فرح هذه الأسرة وأحلام «الأم» في أن ترى أبناءها يرفلون في السعادة والنجاح.

أصبح «الهم» في قلبها.. يفوق أضعاف ما تساقط على ابنها، وهو يتلقى

خبر الفصل والإنذار. . ويفوق أضعاف ما يعاني منه زوجها.

ونادت ابنها «فارس» من غرفته. . صارخة عليه، وقد ظنَّ أنها أبلغت والده. . فجاء إلى أمه مهرولاً، وهو ممتقع الوجه.

ـ قالت له: إذهب إلى السوق، واشتري لنا غداء. . لقد دلقت كمية من الملح على الأكل. بصيرتي أصبحت عمياء. . لم أعد أدري ماذا أفعل. . يقطع الخلف وسنينه!!

ـ سألها فارس: ألم يعرف أبي بالخبر؟!

ـ قالت عابسة: لا. . . بأي وجه أخبره؟!. . روح من وجهي الآن.

* * *

تطلع «خالد»إلى الأكل على المائدة. استغرب أن يجد طعاماً من السوق. . وهو يعرف زوجته لا ترتاح لأكل المطاعم، وتحب أن تطهو بيديها. . ونظر إلى زوجته. . يريد إجابة.

قالت. . وهي تحاول أن ترسم ابتسامة باهتة:

ـ مستغرب من إيه؟!. . سرحت، ووضعت الملح مرتين في الأكل. . صار شرش، وغير صالح للأكل.

خفض «خالد» رأسه، وتناول طعامه صامتاً. . لكنه لاحظ اضطراب زوجته وابنه، ولاحظ أن ابنته «عهد» تفتعل الضحك، وتحاول أن تضفي على الجو شيئاً من المرح المصنوع. . التفت إلى زوجته، وحدق في وجهها. . نظراته تجعلها تضطرب دائماً. . فكيف بها الآن، وهي في هذه الحالة؟!

ـ سألته: مالك؟!. . معليش، أعرف أن أكل السوق لا يعجبك،

فاعذرني.. يبدو لي أنني كبرت بالفعل!

ـ قال: بل.. مالكم أنتم أراكم غير طبيعيين.. فماذا حدث؟!

ـ قالت عهد: يا سيدي كل.. إنت راح تشيل هموم الدنيا كلها.. والا إيه؟!

ـ قال: لا... لا أقصد موضوعي، هناك موضوع جديد.. ولا بد أن أعرفه.

ـ قال فارس: بصراحة يا بابا.........

ـ (قاطعته أمه): بصراحة.. كنا نتكلم عن المشكلة اللي مزعجتنا كلنا.. حكاية الديون.

ـ قال: ربنا يسهِّل.

وقام «خالد» من أمام المائدة، وتركهم يتجادلون بهمس.. ولم يلبثوا أن سمعوا نداء «خالد» من غرفته.. يستدعي «فارس».. تبادل ثلاثتهم النظرات بخوف.. وقالت الأم:

ـ أنا قلت... أبوكم لمَّاح، ويفهمها وهي طائرة!!

واعترف «فارس» لوالده بما حدث. أطلعه على خطاب الجامعة.. وهو يبعد وجهه عن متناول يد والده، ويتقي أن يهوي بكفه على صدغه!

وطال صمت والده.. بعد أن طوى الخطاب، وأودعه سطح المنضدة بجانبه.

تمنى «فارس» لحظتها.. لو أن والده ضربه على وجهه.. لو أنه شتمه، أو بصق عليه! والده.. لم ينطق بكلمة، وكان الصمت ثقيلاً ومنذراً..

وخاف «فارس» على أبيه. . لا بد أن يتنفس ويفيض، ويغضب. . واستمر واقفاً في محاذاة والده. . كأنه تحول إلى تمثال. . وطالت وقفته، والأب لا ينبس بنأمة. . وامتلك «فارس، قدراته، وقال لوالده بصوت خفيض:

ـ أنا آسف يا بابا.

رفع الأب رأسه إلى وجه ابنه. . وخيل إلى «فارس» أنه لمح دمعة في عيني أبيه.

ـ قال لابنه: هل أنت راض عن نفسك؟!

ـ يا بابا. . . أنا. . . . .

ـ (قاطعه أبوه): أقصد. . هل ذاكرت بالفعل، وكما ينبغي لتحظى بتقديرات عالية؟!

ـ لا يا بابا. . . لقد كانت التجربة جديدة بالنسبة لي، وفي الوقت نفسه. . لم أعرها الاهتمام المطلوب.

ـ إذن. . . أنت تعترف، وسأفيض لك شيئاً آخر مهماً، وهو: أنك قد درجت إلى مسؤولية الرجولة، والاستقلال بذاتك وشخصيتك، ولا بد أن تكون في مستوى هذه المسؤولية، وأن تعرف كيف تبني حياتك، وتجد لك موقعاً ثابتاً في صفوف متزاحمة. . إذا لم تثبت أقدامك، فلا بد أن تسقط، وتدوسك الصفوف. وأنا لن أبقى لك طول العمر. . وأيضاً لا أريد منك مساعدة ولا عوناً، المهم كيف تساعد نفسك وتنجح، وبالنسبة لي. . أنا كفيل بمواصلة مشواري حتى الموت، متحملاً أخطائي، ومستثمراً جهدي.

إن الشهادة التي في يدك. . هي سلاحك، وإن الصحاب الذين تحسن اختيارهم. . هم الدليل على بعد نظرتك أو رؤيتك، والتعامل مع الناس. .

مفتاح انتشارك، فإذا وعيت ذلك كله، لن أخاف عليك بعد الآن.. أما إذا واصلت لا مبالاتك، ونزقك، وانفعالك.. فأنت وحدك الخاسر، وإن كنت سأعاني من الحزن الحانق بخسارتك.

* * *

وخرج «فارس» من غرفة والده.. يكفكف دموعه.. كانت أمه قلقة مع «عهد».. وتطلعا إليه يسألانه عن تلك الجلسة المغلقة.

ـ قال: ليته ضربني.. ذلك أخف من كلامه.

ـ قالت أمه: ألم يضربك؟!

ـ قال: بل تحدث معي كرجل... إنني لا أخاف من أبي، فهو ليس إرهابياً، ولكني احترمه جداً جداً.

إتكأت «إلهام» على ذراعيها الممدودتين نحو الأرض، وتحاملت حتى وقفت.. وهي تلحظ أن وزنها في ازدياد، وأن قوامها الذي كان ممشوقاً.. يكاد يختفي.

ـ سألتها عهد: ما بك يا أمي.. هل أنت متعبة؟!

ـ قالت: كل الناس متعبون يا ابنتي.. سأذهب إلى أبيك، وأرتاح قليلاً.

قفزت «عهد» تسند أمها.. بينما شرد «فارس»، بذهنه وحضوره بعيداً.

ـ قالت لأمها تضحكها: الجميل عجّز والا إيه؟!.. إنت لسه شباب يا «لهومه»!

ـ شباب إيه يا بنتي؟!.. الحياة تضيق أكثر.

ـ لقد ربيتنا على التفاؤل يا أمي، والمشكلات في كل بيت. . إنت كده ارتاحي، وربنا يفرجها. لا بد من الملح والسكر يا ست ماما!

ودخلت «إلهام» إلى زوجها، وهي تضحك من حوار ابنتها معها. . لكنها كانت خائفة على زوجها ورفيق دربها. . تريد أن تطمئن على نفسيته ـ بعد خبر فارس ـ حتى لا ينعكس ما حدث على حالته الصحية.

ـ سألته: ألا تشرب الشاي؟!

ـ قال: أريد أن أنام قليلاً. . فأنا متعب.

ـ قالت: متعب إيه. . ودلع عجائز إيه؟. . إنت جالس في البيت من فترة، وعليك أن تقوم، وتخرج، وتباشر عملك في مكتبك. . وخليها على الله.

ـ قال: أروح أعمل إيه في المكتب. . يعني الشغل اللي يلاحق بعضه، والا. . . الأوراق الطافحة بأرقام الديون، والعجز؟!

صمتت «إلهام»، ورفعت الغطاء، ودثَّرت به زوجها. . خوفاً عليه من برودة جهاز التكييف. استلقت بجانبه. . وهي تقول:

ـ والله اتعودنا على غفوة بعد الظهر. . والأطباء ينصحوننا ببطلانها.

لم يجبها. كأنه أغفى!

وهي تشعر أنه مستيقظ، ولا يريد الكلام.

مدَّت يدها إلى رأسه. . وصارت تمرر أصابعها على شعره، وقبَّلت رأسه، وكأنها تحمل في صدرها هذه اللحظة كل هموم العمر الذي مضى، والعمر المتبقي. . تريد أن تبكي. . دون أن يراها أحد. . تريد أن تحتضنه. .

كطفل صغير تطوح به الرياح.. حتى يحس بالأمان.

وفوجئت بيده تحضن يدها إلى صدره. قالت له وهي تصطنع الضحكة:

ـ إنت صاحي... وعامل نفسك نائم؟!

ـ قال: انتهت أيام النوم يا «إلهام».. أريد راحة البال، ولا بأس أن لا أنام!

ـ قالت: يا شيخ... خليها على الله، ما ضاقت إلا وفرجت.

ـ قال: الله كبير.. ولكن لا بد أن أتصرف.

ـ قالت: أعرف أن «فارس» كحَّلها!

ـ قال: مشكلة «فارس»، أنا السبب فيها.. أهملته، وما صرت أتابعه ولا أراقبه، وهذه نتيجة طبيعية، ولكني أثق فيه.. لقد أحسنا تربيته؟ أتصور، والولد حي، وضميره متيقظ، ومتأكد أنه سيخوض التجربة بإصرار وتحدٍ.

ـ قالت: خلاص... ومشكلة الديون، قلت لك نبيع البيت، والأراضي، ونسدد ما نقدر على تسديده!

ـ قال: الآن يا إلهام؟!.. بكم سأبيع البيت والأراضي، وحركة البيع والشراء في أسفل السافلين، وديوني بالملايين.

* * *

وحتى لا تزيد أوجاع زوجها بالحوار.. في موضوع مسدود، ليس له طريق مفتوح وواضح.. أخلدت إلى الصمت من جديد.. وغمرها في تلك اللحظة خوف شديد جداً.. تصوَّرت فيه كيف يكون مصير زوجها، وكيف يتصرف، وكيف يصمد، وهل يحتمل؟!!

العاصفة المجنونة

* قرر «خالد» أن يواجه مشكلته بالتحرك. . بدلاً من الركون إلى التخفي عن الناس، والتهرب من الهواتف العديدة التي يسأل أصحابها عنه، وتضطر زوجته إلى الكذب والادعاء بأن زوجها مسافر!

صعقت ذلك الصباح. . وهي ترد على واحد من المتسائلين الأكثر عن زوجها. . . حين أبلغته أن زوجها في خارج البلاد، وتعرف أنه يطالبه بمبلغ صغير لا يزيد على ربع مليون. . فقال لها مندهشاً:

ـ كيف سافر. . وهو ممنوع من السفر؟!

بكت «إلهام» وهي تضع سماعة الهاتف.

وفي مكتب «خالد». . حضر أحد المطالبين بدين، وهدَّده أن يرفع دعوى ضده، ويطالب بسجنه.

كان الجدل قد استعر بينهما. . ولكن الحل مفقود.

وطوال يومه. . لم يكف الهاتف عن الرنين، ولم يخل مكتبه من المطالبين بتسديد ما لهم من ديون عليه.

كان يحاورهم. . ويرد عليهم بحل واحد:

ـ إما أن تنتظروا معي تحرك السوق. . وأنا مثلكم أطالب آخرين بمبالغ لي عندهم، ويعتذرون عن السداد لنفس أسبابي، وانعدم السيولة، وقلة العمل. . وإما أن تتقدموا بشكاويكم إلى السلطات المسؤولة. . حتى أقدر أنا بدوري أن أطالب بسداد ما لي من ديون عند الآخرين!

كاد يفقد أعصابه. كل السبل قد سدت في وجهه. . يكاد يرى شبح السجن أمامه. . وهو يقف عاجزاً. . كأنه المجنون. . . صار يحادث نفسه، ويضرب رأسه بقبضته:

ـ ماذا حدث. . لماذا الكارثة بهذه الصورة السيئة؟!

الكارثة دائماً سيئة لا ترحم. . وأنا غامرت، ووثقت في تلك «الطَّفْرة» التي حدثت في المنطقة كلها، وليس في البلد. . حتى ظننا أنها ستتطور، وتزيدنا رغداً! لكنها تهورت، أو أصبت بالغرور، وجنون المادة. . ركضت في كل اتجاه. دخلت منافسة بيع وشراء الأراضي، وهي الكارثة الأكبر لمن كانوا من أمثالي. . بينما استفاد منها القلة الذين وضعوا فلوساً قليلة، وكسبوا فلوساً كثيرة في خبطة واحدة. . لم يكرروها.

دخلت مجال الأسواق الأخرى: بيع السجاد. بناء العمارات والمقاولات. الأسهم في الشركات. القروض الهائلة من البنوك إلى درجة كشف الرصيد أحياناً. السوق التجاري بأدواره وقد أصبح العمل فيه راكداً. . بل ونبيع فيه بالخسارة حتى لا تتراكم البضائع.

فرحت بتنمية الأرصدة، وبعثرتها في كل اتجاه. . حتى وجدت أمامي عدة أفواه مفتوحة وشرهة. صرت أصرف على استمرارها. . بدلاً من أن تزيد من دخلي وثروتي.

ثروتي؟!!

أين هي هذه الثروة. . المجمد أكثرها، والمهدر بعضها، والساقط في خسائر متلاحقة؟!!

كان داخله يصرخ. . يحاسب نفسه الآن، ويسألها. . يريد أن يضحك. . ولكن سخرية من نفسه. . ويحاورها:

ـ (غرور المال. اشتهاء الربح المضاعف.

أربع خادمات يسهرن على زوجين وولد وبنت. . يعيشون في فيلا من دورين. سائقان. . واحد يقود عربتي الخاصة، ولمشاويري. . والآخر بأمر زوجتي وابنتي.

حارس أمام الباب، وللحديقة. . عدة سيارات. . تبدل كل عام، مع اختلاف الموديلات. . تذاكر الطائرات، وعلى الدرجة الأولى!

ترى. . . كم تذكرة خلال عام واحد فقط؟!

هل أحاسب نفسي؟!

إن من يملك. . لا يحاسب!

كان ذلك كله شيئاً طبيعياً.

ظاهرة. . طغت على الناس، وتسابق إليها حتى متوسطو الحال والمعيشة. وربما حسبنا ذلك الشيء. . ضرورياً لشكل الحياة الجديدة التي أخذنا نتعود عليها، وعلى العيش في إطارها، وبريقها، وركضها. . ببذخ يخلو من التفكير!

الآخرون لديهم. . . فلماذا لا يكون لدينا؟!

شعار ساد في تلك الفترة، ومع التزاحم والغبار الكثيف.. حتى نسي الأب ابنه، ونسيت الزوجة بيتها وأولادها مع الخدم)!!

وتواصل صراخه من داخله.. دون أن تعقبه الأصداء، إلاَّ أصداء الألم، والقلق المفزع.

وقاد سيارته قائلاً إلى بيته.. كأنه يهرب من الحقيقة المريرة التي تصدمه كلما خرج من البيت وواجه الناس.. صار يقود سيارته بنفسه.. بعد أن أنهى عقد السائقين، مثلما أنهى عقود الكثير من العمال والخدم لديه.. وبقيت للبيت خادمة واحدة بعد الأربع خادمات، ولم يعد أمام باب البيت حارس.

ـ لا بد أن نرشِّد الانفاق!!

ابتسم بأسى.. وهو يتذكر هذه العبارة.. ولم يكد يدخل بيته.. حتى رن الهاتف.. قرر أن يواجه من اليوم كل شيء.. لا فائدة من إنكار نفسه، وعليه أن يفجر القنبلة الموقوتة قبل أوانها، ويفقأ هذا الدمل.. وخاطبه من الهاتف على الطرف الآخر صوت غريب لم يألفه من قبل. سأله:

ـ أنت السيد خالد السعيد؟!

ـ نعم... من أنت؟!

ـ عفواً.. جئنا إليك إلى المكتب، وأخبرونا بخروجك قبل دقائق.. فهل تتفضل بالعودة إلى المكتب حالاً؟!

ـ لماذا... ومن أنت؟!

ـ نحن الشرطة.. وضدك شكاوي بديون، إما أن تسددها، أو نودعك السجن!

وسقطت السماعة من يده، وقد جمّده الذهول!

إنه لا يدري. . هل يستمر واقفاً، أم يجلس، أم يركض هارباً. . وإلى أين، أم يذهب إليهم؟!

* * *

صار البيت «كورال» بكاء. . . ينبعث من صوتي «إلهام» و «عهد». . و«فارس» ما زال خارج البيت، لا يعلم بشيء نشجت «إلهام» كثيراً، والكلمات تتقطع في حنجرتها، تردد:

ـ شرطة. . . شرطة. . طيب ليه؟!

نحن عمرنا ما وقفنا قدام عسكري، ولا دخلنا قسم بوليس.

أمسكت «عهد» بأبيها، وأجلسته. . بعد أن أحضرت له كوب ماء، والدموع تترقرق في عينيها.

ـ قالت لأبيها تهدئه: لا بأس يا أبي. . لا بد من هذه اللحظة، وقد كنت تنتظرها. وعليك أن تواجهها؟ عودتنا دائماً، وحتى تتخلص من قلقك، وخوفك، ومعاناتك منذ شهور. لا بد من حسم الأمور. . ولا تخف، فأنت لم تسرق، ولم تختلس. . التجارة هكذا قاسية أحياناً، ولقد خدعك السوق يا أبي.

حاولت أن تخفف عنه، وتهدئ من روعه.

احتضن «خالد» ابنته إلى صدره. . ثم أطال النظر إلى وجهها، وقال لها:

ـ دائماً أنت التي تهدئين من حرائقي الصغيرة، وتحاولين أن تمتصِّي

تعبي، وأنت الصغيرة. والتي أعتز بتفكيرها وتصرفاتها.. ولكن الحريق هذه المرة مدمر، وليلطف بنا الله.

وأخذ زوجته إلى ذراعيه.. وقال !ا:

ـ لا تخافي.. ما قدره الله لنا سيكون. وأعرف أنك صلبة في المواقف الصعبة، والأولاد أمانتك.. وربنا معكم ومعي!

وخرج «خالد» إلى قدره.. تاركاً خلفه هذا البيت الذي كان آمناً مستقراً، هانئاً. الزوجة تخبط كفاً بكف، وتنوح.. والابنة تمسح دموعها.. لئلا تزيد من آلام أمها، وهي تحاول أن تختلق الكلمات المهدئة.. و «فارس»... أخذ يخبط رأسه في الجدار، عندما عاد إلى البيت.. كانت الأسرة تشعر أنها قد كبلت بالسلاسل.. لا تفكير، وفزع لا يوصف.

وتكلمت «الأم» من خلال دموعها.. تقول لولدها:

ـ أبوك أخبرني.. أن ما لدينا في البنك لا يزيد على عشرين ألفاً.

ـ قال فارس: اهدئي يا أمي... لا أحد يموت من الجوع، والله سبحانه وتعالى موجود. من بكره.. سأبحث عن عمل، لا تخافي!

ـ قالت أمه: عمل؟!.. وجامعتك، وأحلامك، وأحلام والدك في الحصول على أعلى الشهادات؟!

ـ قال: يا أمي.. أنسيت أنني مفصول «ترم» بكامله.. يعني نصف عام، يمكنني أن أعمل خلاله، وإن شاء الله سيعود إلينا والدنا.

حدَّقت «إلهام» في وجه ابنها وهو يتحدث عن والده، وصبره، وثقته في والده الذي سيجتاز هذه الأزمة. وقالت لابنها:

ـ أراك تكبر يا «فارس». . وما أريده أن يتلاقى كبر سنك بكبر عقلك. الأزمات يا ولدي تصهر الإنسان، وتعده لمعارك الحياة قبل أوانه. . فلماذا لا تذهب إلى مكتب أبيك من الغد، وترعى مصالحنا.

ـ قال فارس: فكرت في هذا يا أمي. . لكن خبرتي في هذا المجال لا تذكر، ومعرفتي مازالت محدودة، ولكني مصمم على المحاولة.

ـ قالت: سيكون الله بجانبنا. لا تخجل. . استشر الذين كان يثق فيهم أبوك. سترى والدك وستأخذ منه.

وأدخلهم الحزن في صمت طويل. . . حتى قطعته «إلهام»، وهي تقول لابنها وابنتها:

ـ وما المانع؟!. . عندي شهادة جامعية، وهذا وقتها لكي أعمل!

ـ قالت عهد: تعملين في الديكور يا أمي. . وتفتحين مكتباً؟!

ـ قالت: سأجرِّب. . . سأكون أول امرأة تتعامل مع سيدات البيوت لعمل ديكوراتها.

ـ قالت عهد: لا أدري. . . الفكرة. . . . . . .

ـ (قاطعتها أمها): فماذا أعمل. . . مدرسة مثلاً؟!

ـ قال فارس: دعونا الآن من هذه الأفكار. . لنرى ما هي أخبار والدنا!

* أقفل مكتب «خالد» بالشمع الأحمر، وأودع السجن. . حتى يقوم بتسديد عدة ملايين لكل الذين يطالبونه. . ظلام السجن في عيني «خالد» يبدو قاسياً جداً. . لكنه تخيَّله في الشهور الأخيرة، عندما ضاقت الدنيا، وتعذرت الحلول. . وتخيَّل نفسه وهو يقف ـ كأنه العاري ـ في دروب الحياة. . .

يرتجف من الزمهرير، ويتلفت حوله بحثاً عن غطاء يدفئه، وعن أمان يسكن إليه!

في صمت الليل.. كان يقرأ القرآن.. كان يتأمل في مصيبته، ويستعرض شريطاً طويلاً، يحفل بالمواقف الصعبة، وبالوقفات الجميلة.

الآن... لم يجد حوله أحداً من الأصدقاء، وممن كانوا يلتفون حوله، ويلازمونه، وينافقون له.. وأصداء أصوات هؤلاء وأولئك، تتردَّد في صمت لياليه الموحشة اليوم:

ـ مسكين... كان طموحاً أكثر من اللزوم، وجمح مثل حصان حتى سقط!

ـ بل كان متهوراً، ومجنوناً.. يعتد بأفكاره.

ـ يا جماعة.. الله يكون في عونه، من يستطيع أن يسدد عنه هذه الملايين؟!

ـ يا عمي... كان من الناس الذين حاولوا اختصار كل الطرق، ليصل إلى الثراء الفاحش!

يريد أن يبكي الآن.. ليرتاح قليلاً.. حتى الدموع تعصيه.. فلا تبلل عينيه، ليهدأ.

ونقل إلى المحكمة.. وأمام القضاة تكلَّم طويلاً.. قال:

ـ أريد منكم أن تطالبوا الآخرين بديون عليهم أستحقها منهم.. حتى أقدر أن أسدد بعض ديوني للناس.. المشكلة ليست فردية أيها القضاة

الأجلاء. . لقد بدأت كظاهرة، وأعترف أنني ربما بالغت، أو فرحت بسيولة الأموال. . حينما كانت تغري بتدفقها.

تريدونني أن أندم؟!

حسناً. . إنني نادم بالفعل، ولكني اجتهدت. لم أسرق الناس، ومعترف بما لهم. أخطأت بفتح أبواب ومجالات عديدة لتنمية ثروتي. . أغراني السوق، وجذبتني حركة لعبة المال. . ولكني رجل شريف، لم أعرف التدليس، ولا الابتزاز. أخاف كثيراً على أسرتي، وأخاف على إهدار عَرَقي وجهدي طيلة سنوات بعيدة بنيت فيها اسمي!

ركضت وراء الصفقات، وفتح الاعتمادات، والقروض من البنوك. . البنك يحتمل فرداً مثلي. . وأريد من إدارته أن تمنحني الفرصة لأسترد أموالي، وأسدِّد على أقساط.

ـ سألوه: ومن أين؟!. . كل أملاكك لا تفي بنصف المبلغ.

ـ إذن. . . سجِّلوا إعساري، والله يلطف بالجميع

* * *

ودوت في أذنيه ـ عند منتصف الليل ـ أصوات القضاة، والناس. . وصوت نفسه:

ـ نعم. . . من أين ستسدِّد؟!

كأنه يجري إلى طريق مسدود. . يهرب إلى جدار، ويضرب رأسه فيه. . جاءته أسرته تزوره في السجن. . لم يكن يرغب في هذا الموقف. . أمام زوجته، وابنه، وابنته. ليس لديهم إلا تأكيد الحب له. . هذا موقف!

عظيم.. الكثير.. خاف من هذا الموقف، فنحن في عصر الجحود.. حتى من أقرب الناس.. نحن في عصر إلقاء اللوم بسخاء، والتهرب من العون!

لكنه غير يائس.. إيمانه الشديد بالله، ثم بوجود صفات جميلة.. يجعله لم يفقد الثقة، ومازال يتشبث بمواقف بعض الناس.

ـ (الخير في أمتي إلى يوم الدين). صدق رسول الله ﷺ.

وعليه أن يصبر... ولو طال الصبر.. وعليه أن يواجه هذا القدر.. حتى لا ينهزم!

يبتسم في وحدته.. وهو يسترجع صورة زوجته، وولده، وابنته، عندما زاروه. أرادت «إلهام» أن تطمئن على صحته قبل كل شيء:

ـ إنت بخير يا بو فارس؟.. صحتك أهم، فلا أحد لنا ـ بعد الله ـ سواك. الضغط لا ينال منك. المهم أن تستمر كما عهدناك:. صبوراً، شكوراً، مؤمناً بقضاء الله.

ـ قال لزوجته: ونعم بالله.. لا تخافي علي يا «إلهام»، المهم.. أبلغوني أنهم سمحوا بفتح المكتب، ولم يكن ما يدعو لقفله، ولكني أفكر الآن في مرتبات الموظفين، وبقية العمال.. بعد أن نسقنا الكثير منهم.. وأرى أن تقفلوا المكتب.

ـ قال فارس: لا تهتم يا أبي.. نحن بخير، طالما كنت أنت بخير. هناك أعمال يلتزم المكتب بتنفيذها.. أنسيت يا أبي؟!

ـ ومن أخبرك بذلك؟!

ـ لا عليك.. لقد باشرت العمل في المكتب، ووجدت رجلاً طيباً يدير

العمل في غيابك. . هو يساعدني، والبقية يتعاطفون معنا ويبذلون الجهد. ونحاول أن ننهي الالتزامات. . حتى لا تجدّ مطالبات، وبعد ذلك نقفله.

ـ وماذا ستفعلون في قضية خاسرة. . ومن أين لكم الفلوس والسيولة النقدية؟!

ـ لا تستهين بسني، وعدم خبرتي. . ولكننا سنحاول، وقد بدأت أطارد الذين نطالبهم بسداد الديون، ولن أتركهم. إنني أتعلم منك يا أبي.

ـ ليباركك الله. خذ بالك من أمك وأختك، وكن رجلاً، مثلما هي ثقتي فيك. . وإن كنت أشفق على سنك الغض، لكن إرادة الله. . وهو الذي يكلأنا جميعاً!

ولم يبق للكلام مجال. . . تحدثت الدموع، وفاضت، وانتهى موعد الزيارة!

وبدت الحياة في نظر «فارس» ـ للمرة الأولى ـ مثل جبل عال، يتطلع إلى قمته البعيدة. . وهو يقف على السفح ضئيلاً، ضعيفاً. . لقد كان يخفف عن أبيه بلواه، ويشعره أن ولده الوحيد قد أصبح رجلاً يعتمد عليه، ويتحمل المسؤولية، ويدافع عن حياة أسرته. . ووجد صديقه الحميم «ماجد» أمامه، ومعه، وحوله. . يحاول أن يمتص بعض حيرته، وقلة حيلته. وقف بجانبه منذ أول أيام المحنة. . وفوجئ «فارس» بوالد صديقه الحميم يزورهم في البيت، ويحدثه كأب حان:

ـ اسمع يا فارس. . أنت وابني أصدقاء، ورغم ذلك لم أتعرف على والدك طيلة هذه السنوات، ولكني أعرفه رجلاً مكافحاً، وأباً جيداً. . لأنه أحسن تربيتك، ووثقت في صحبتك لابني. . فاعتبرني أباً لك، حتى يفرج

الله كربتكم. لا تتردد، ولا تخجل، وأطلبني أي مبلغ للصرف على هذا البيت.. مهما كلفني ذلك. واطلب مشورتي في حدود ما أعرف، ومن رأيي أن تقفلوا المكتب.. حتى لا يكلفكم أكثر من طاقتكم اليوم.

أطلعه «فارس» على التزامات المكتب، وتعهداته.. ووقف الرجل بجانب صديق ابنه. وافقه على ضرورة استمرار أعمال المكتب، حتى الانتهاء من الإيفاء بالالتزامات.

وفوجئ «فارس» بوالد صديقه يبعث إليه مع «ماجد» مبلغ عشرة آلاف ريال! تهدج صوته، وحارت دمعة حزن في عينيه.. وهو يصد صديقه، ويشكره وأباه على هذا الموقف. قال له:

ـ ما زال لدينا حتى الآن السِّتر، وصدقني أنني لن أجد غير والدك وأنت.. من أطلب منه المساعدة حينما أحتاجها، وهذا موقف لن أنساه في حياتي، وسأخبر عنه أبي.

ـ قال ماجد: أرجوك.. أبي لا يريدك أن تخبر والدك.. هذا تعامل رجولي بيننا، فلا تزد من هموم أبيك. والآن.. دعنا نناقش أمراً مهماً، وهو: كيف ستصرف على المكتب والموظفين، والبيت، وتنجز الأعمال المطلوبة؟!

ـ هناك دخل بسيط من محل السجاد، ومن الأسواق والإيجارات، وقد استأذنت والدي في طرح بعض قطع الأراضي للبيع، ولكن المشكلة أن الأملاك موقوف التصرف بها.. لأن الجهات المسؤولة فيما يبدو ستتولى بيعها، في محاولة للتسديد من عائداتها وأقيامها.

ـ إذن... ماذا ستفعل، فالمشكلة مازالت تراوح مكانها؟!

ـ الديون التي بالملايين. . اعتبرها مجمدة، وقد أودع أبي السجن بسببها، والمهم أن نتخلص الآن من التزامات المكتب، وحقوق الناس الصغيرة.

ـ عفواً يا فارس. . أنت تعلم أن أبي موظف بسيط، وليس عندنا إلا هذه «الفيلا» التي تأوينا، ومرتب والدي. . . .

ـ (قاطعه): أسكت يا ماجد. . أعلم ذلك، وقد فعلتم من أجلنا الكثير، مما لم يفعله أقرب الناس لنا، والأصدقاء الحميمون لأبي!

ـ دعنا نروِّح قليلاً عن أنفسنا، فلا بد أن تضحك والدموع في عينيك. وأسألك: كيف ترى نفسك الآن كرجل أعمال «مزنوق» في حل مصيبة وتجاوزها. . وأنت مثلي، مازلنا في نظر أهلنا صغاراً في السن، أو على الأقل شباباً. . لم نبلغ مرحلة النضوج، والاتزان بعد؟!

ـ بدون مرح يا ماجد. . صدقني أن هذه المصيبة شحنت أعصابي، ولكنها قوَّت من عضلاتي النفسية. أشعر أنني رجل في الأربعين بخبرة كبيرة. . صحيح أن أهلنا قد يكونون دلَّلونا بتربيتهم المرفهة، وبتوفير كل مطالبنا: رحلات، وسيارات، وفلوس، ودلع، وتفاوت ما بين البذخ والصرف المرتاح. . فلم نفكر لحظة في موقف كهذا، ولا في محنة تدق عظام الإنسان وتسحقها.

ـ عجيب. . . إنني أصغي إلى شخص آخر. أتتذكر حواراتنا الماضية؟!

ـ نعم. . . لكني أختزن كثيراً.

ـ وتقصد من كلامك. . أنه لا بد للشباب في سننا أن يتعرض للمواقف الصعبة والمرهقة؟!

ـ لا أقصد.. اعتساف المواقف الصعبة، ولكن... تربية عضلات النفس، والإرادة، والقدرة، والرجولة لدى الشباب.. أقصد أن تكون هنالك تربية وسط.. فلا لين يرخي العظام، فيكون الشاب مثل البنت، ولا قسوة تنفره من البيت، والأسرة، والمحبة.. وتخلق منه إنساناً معقداً، أو حاقداً!

ـ وكأنك. تلمح إلى التجنيد العسكري للشباب؟!

ـ هذا أسلوب من أساليب تربية الشباب، وهناك شتى التعاملات التي تصنع رجلاً قوياً وإنساناً في نفس الوقت..

ـ صرت تتكلم بشكل جديد.. كأنك قرأت مكتبة كاملة في خلال شهر!!

ـ لا بد أن يتعرض الشباب لمرحلة صقل، وتدريب خشن، ليكون مستعداً.. حتى المواجهة ما قد يطرأ على الواقع الجتماعي ككل!

ـ أوه... هذا موضوع طويل.

ـ أنت دائماً تطرح الموضوعات الصعبة، وتهرب إلى بيتك!!

* * *

مطر السأم

* رطوبة هذه المدينة الساحلية. . خنقت النسمة المنعشة التي كانت «إلهام» تحتاج إليها في لحظاتها الثقيلة، الصامتة. . بعد أن انتصف الليل بها، وبأحزانها، وبوحدتها الجديدة التي لم تتعود عليها. . لقد كانت هي و «خالد» رفيقين في مشوار العمر. . منذ زهوة شبابها وصباها. . ومنذ تفتح نضوجه ورجولته.

الآن ـ في هذه اللحظة ـ تشعر أنها تختنق، مثلما النجمة في السماء تختنق داخل السحب، ومثلما النسمة التي حجبتها رطوبة البحر. . تختنق. . لا أحد تكلمه. . إلاَّ الخيال!

وجه «خالد»، وأصداء صوته في البيت. . برغم رحلته القاسية في ظلام السجن والهموم. . ابنها، وابنتها. . كل منهما في غرفته، لا تدري ماذا يفعلان بافتقادهما لأبيهما؟!

كيف يفكران في اليوم القادم. . وكيف يحتملان؟!

حاولت أن تذهب إلى ابنتها في غرفتها لتنام بجانبها، فلم تقدر. . أحسَّت أنها مثل سمكة في بحر هائج. . كانت أنفاسها تتصاعد برتابة مملة. . وأحياناً تعاني من الاختناق. . تريد أن تصرخ في بهيمة الليل. . أن تنادي

«خالد»: زوجها، وحبيبها، وشريك أجمل العمر.

كأن سماء مدينتها تمطر السأم، والوجع، والطل.

كل شيء توقف، وخرس، وأصيب بالشلل.

عندما نفقد من نحبهم.. تتحول الحياة إلى نهر ثلجي متجمد، ويصاب الإنسان بالرعشة الشديدة، وبالبرد القارس، وبالوحدة، وبالخوف من قبر الثلج!

اتكأت بذراعيها على حافة الشرفة، ولم يعد أمامها ما تراه على البعد أو القرب... سوى وجه «خالد»، ووجه زهرتيهما: فارس، وعهد.. وحصيلة ذلك الركض الطويل في العمر، بخيالات المستقبل، والأماني، والأحلام.

كانت «الفلوس» وسيلة... أو أن هذا الواقع المعاصر قد فرض على إنسانه وسيلة وحيدة لتحقيق أحلامه، وطموحه للمستقبل.. وهي «الفلوس».

فماذا صنعت «الفلوس» بزوجها، وبهم داخل هذا البيت الذي كان هانئاً؟!

ـ هل هو العقل.. أم هي الفلوس؟!!

سألت نفسها هذا السؤال المرتعش، مثل ارتعاشتها في قبرها الثلجي.

ـ العقل.. يوظف الفلوس، ينميها أو يهدرها.. يوجهها أو تسقطه؟!!

إجابة أخرى.. وآلاف الأسئلة المدببة كالرماح.

ـ لعله الطموح الذكي يتضاعف حتى يلغي العقل بعد ذلك، أو يُضعف توجيه العقل!

عبارات أطلقتها «إلهام».. دون أن تقصد لوم زوجها أو محاسبته، فقد

كان ذكياً، وطموحاً بعقل كبير، وكان يحب أسرته ويشقى ويكد ويعرق من أجل مستقبل أبنائه، والذي يحب لا يُدمَّر!

ـ هل هي خيانة النجاح؟!!

سؤال مدبب آخر.

ـ وكيف يخون النجاح؟!!

التجارة خائنة، أو هي متقلبة ومباغتة. . لمن لا يحسن تقدير الأمور فيها.

ـ لا. . . الحقيقة شيء آخر، لعله يكمن في ذلك الجنون الذي شمل اهتمامات الناس، وحوافزهم، ودفعهم للركض وراء الإثراء السريع، والغنى، واستغلال موجة (الطفرة)!

لقد كان «خالد» أحد ضحايا ذلك الجنون!

* * *

سماء المدينة مازالت تمطر السأم، والطل، والوجع!

ومازالت «إلهام» تستند بمرفقيها على حافة الشرفة.

أضواء الشوارع أمامها. . تسقط مهدرة في السكون، وعتمة الليل، ونباح الكلاب.

يرتديها وجه «خالد». . وكأنها تناديه، وتخاطبه:

صوتك لا يفارق إصغائي، ورعشتي، ووريدي.

أشعر بك تخاطبني كالمعتاد. استوحشت أن أدخل غرفة نومنا، وأنت غائب عنها.

كيف أدخلها، ومن ينام بجانبي... من أحضنه ويحضنني؟!

حين كنت تسافر «يا خالد» في رحلاتك المستمرة من أجل «البزنس».. أحتضن وسادتي الأخرى، وأخاطبك... لأنني انتظرك، وأعرف متى ستعود، ويحتويني الأمان بذراعيك.

ولكني الآن كيف أدخلها، وأنا أضيع في قبري الثلجي؟!

كيف أدخلها، وانتظرك... وأنا لا أعرف متى ستعود، وكيف، وهل ستعود حقاً؟!!

ـ ستقول لي بطريقتك: لا تقنطي من رحمة الله.

تذكرت هذه اللحظة: أبي وأمي.. كيف ارتبط كل منهما بالآخر طول العمر؟!

حينما مات أبي.. بحثت عن الدموع في عيني أمي، فلم أجدها.. وكنت لا أدري: هل أندهش، أم أتساءل، أم أخاف على أمي؟!

حاولت ـ يومها ـ أن أدفعها للبكاء، فلم أفلح.. وكانت أمي صامتة أمامنا، تصلي، وتدعو.. ولم نسمع بماذا كانت تلهج؟!

ولم تمر سوى شهور قليلة.. حتى لحقت أمي بأبي.

نامت أمي ذات ليلة.. ولم تستيقظ بعد ذلك قط!

ارتباط عجيب بين زوجين!!!

احترت في وصف ذلك الارتباط. . هل هو الحب، أم كان فوق الخفقة والشعور؟!

كان كل منهما يكمل الآخر. . . أو كأن لهما نظرة واحدة، وخطوة واحدة، وخفقة واحدة، وكلمة واحدة!

حتى عندما كان أحدهما يريد أن يتكلم. . نفاجأ، ويفاجآن هما معنا أنهما يتكلمان في لحظة واحدة، بكلمة واحدة؟!

تعلمت من أبي وأمي قدسية الحب.

حقاً. . . الحب ليس خفقة قلب، ورعشة عشق، وحنين، وارتباط فقط في بيت واحد.

لا. . . الحب أكبر من ذلك كله.

له قدسية رائعة. . توحد بين إنسانين، فيصبحا شخصاً واحداً في جسدين!!

لست أدري الآن. . يخيل إلي أن الحب في هذا العصر المادي، أصبح هو: الهروب؟!

وكيف أفسِّر لك يا «خالد» تخيلي، أو رأيي هذا؟!

الكثير يهرب من أشياء تؤرقه، أو تعذبه، أو تورطه. . . إلى الحب!

كان الناس يعانون من الأرق، والعذاب، والقلق. . بسبب الحب، حتى صار الحب اليوم: ممارسة، ومرحلة، وانتقالاً من حالة نفسية إلى أخرى، ومن تجربة إلى تجربة!

كأنني أنكمش إلى الداخل في هذه اللحظة. . أتحسس أضلعي، وقلبي،

وأطمئن عليك.. كنت أعرف أنني أحبك.. بحياتي كلها.. وحين افتقدتك خلف أسوار السجن والهم... عرفت أنني أحبك فوق حياتي.

وكلما انتهى يوم، ونضب واجه من عمرنا... أحدق في عيون الآخرين، لعلني أفتِّش عنك هناك!

لعلني أضيع في نظرات الناس الحائرة، والمتعجلة، والمسافرة إلى البعيد، والمنكفئة على نفسها!

لعلني أفقد ذاكرتي... فأرتاح!

ولكنني أفتقدك بقسوة أفظع.. كلما مر يوم، وأجدك لا تعود. أفتقد الحياة، وأفتقد نظراتي، وصوتي، وسمعي، وكل حواسي.. وأفتقد ذاكرة أحلامي!

كأنك كنت ـ وحدك ـ الذي تمنح الحياة والحركة، والانفعال والفعل، لكل تلك الحواس والتصرفات!

* * *

أمس... انتصب اليأس فوق حياتنا مثل خيمة، بعد أن علمنا أن خروجك من السجن، مرهون بأمر واحد لا غيره، وهو: تسديد ديونك!

ومن أين... وكيف؟!

كأننا أخذنا نضرب رؤوسنا في الجدار، وسالت دماء كل قدراتنا وإمكاناتنا!

كنا نتخبط.. ولا ندري ماذا نصنع، وكيف نتصرف؟!!

لقد باعوا «الفيلا» التي بنيتها بأحلامك، وبعرقك.. ها نحن نستقر الآن

في هذه «الشقة» الصغيرة، المكونة من ثلاث غرف، وصالون، وحمام واحد، ومطبخ. . باعوا ما تبقى لدينا من أراض، بأسعار أقل من معدل ذلك «الترمومتر» الشرائي، الذي كان يغري تجار الأراضي قبل فترة!

ماذا باعوا أيضاً يا «خالد»؟!!

لم يتبق شيء نملكه، إلا وباعوه، وبعناه معهم. . نسدِّد ديونك الكثيرة.

خيل إليّ. . . حتى فرحنا وأمانينا وتفاؤلنا. . قد تم بيعهم مع تلك الممتلكات.

كنا نعتقد أن الفرح، والأحلام، والتفاؤل. . من ممتلكاتنا في لحظة ما!

أصبحنا اليوم: فقراء من الفرح، والأحلام، والتفاؤل. . . لأن ما جمعوه من حصيلة البيع، لم يف إلا بنصف ديونك، وبقي نصف ثقيل. . كصخرة جاثمة على الصدر!

لا يا «خالد». . . لقد بقي شيء مهم لن نبيعه، ولن يصلوا إليه: إنه حبنا لك. . . حبي، وحب ابنك وابنتك.

وبقي حبك أنت لنا. . . وأتمنى أن يكون أيضاً: حبك للحياة، والأمل!

* * *

الأبواب المقفلة

* يعلو صوت الموسيقى في أرجاء هذا الصالون الصغير.. وتعلو معها: ضوضاء أصوات أصدقاء «فارس» في منزل صديقه «ماجد».. لكنه يبدو منسلخاً وبعيداً عن هذه الأصوات.. بل إن الضوضاء التي تتناثر في داخله.. هي أكثر إرهاقاً، واحتكاراً لوعيه، ولكل مشاعره.

يتطلع إلى جدران الصالون الأنيق، المكسوة بورق الحائط.. فلا يحس بجمالها. إنها تبدو في عينيه جدران إسمنتية مرهقة، ومزوّقة بأوراق الحائط الجميلة... وكأن قضباناً حديدية تتوسطها، ورأس والده محشور بينها... يناديه!

ويحدِّق في الجدران أكثر... كأنه يحادثها، ويستمع منها إلى صوت آخر، مختلف عن كل ما يتناهى إلى سمعه من أصوات أصدقائه، ولعبهم، وهزلهم.

الجميع يتحدث، ويرفع صوته، ويلعب، ويمزح.

هو ـ وحده ـ في هذا الضجيج.. مستغرق في لعبة الأبواب المقفلة في حياته.

وجهه الوسيم والغض.. وملامحه الشابة والفتية.. ونظراته المبعثرة والهاربة...

كل ذلك. . كان يشكِّل منه رجلاً قد تجاوز يفاعة سنه، واتشح بملامح شيخوخة مبكرة!

صار يدخن بشراهة، ويسعل. . . حتى يزعج من حوله. . وفي عينيه. . . تتمدد تلك النظرة التي تعلن عن إنسان مهزوم. . وفي حركات أصابع يديه: توتر، ورعشة. . وكثيراً ما سقط فنجان الشاي من بين أصابعه. . لقد استنفد كل أفكاره.

بات يعاني من عجزه أمام مشكلة والده، وبقائه في السجن، والبحث عن مورد مالي يضمن بقاء البيت مفتوحاً، ومرتاحاً.

أقفل مكتب والده. . بعد أن صفَّى حقوق الموظفين، وأنهى الالتزامات المتبقية.

وكان يساعده والد صديقه «ماجد». . دون أن يتبرَّم، أو يسأم من المساعدة.

وجد في هذا الرجل: قيمة والده، فاستند عليه وهو فقير من التجربة. . حتى لمجرد التخفيف من ضائقته النفسية!

ولكن هذا الرجل ـ والد صديقه ـ مسؤول أيضاً عن عائلة، وبيت، وأبناء، وهو محدود الدخل. . . فلم يرد أن يرهقه بأكثر مما فعل معه.

أوجد له عملاً بسيطاً. . لا يدر عليه سوى مبلغ ثلاثة آلاف ريال في الشهر، عندما عمل في واحد من «السوبر ماركت»: موظفاً مسؤولاً عن حساب الزبائن، واستلام قيمة ما يشترونه!

وهو يجري في كل اتجاه. . بحثاً عن عمل آخر، بشهادة الثانوية العامة!

ولكن... ماذا تفعل له الثانوية العامة، وهناك العديد من حملة الشهادات الجامعية، يبحثون عن عمل؟!!

***

أصرَّت أمه أن تبحث عن عمل!!

ـ قال لأمه: ماذا ستعملين بالله عليك؟!

ـ قالت: مدرّسة، أو مراقبة في مدرسة، أو حاضنة أطفال.

ـ سألها مبتسماً: «بيبي سيتر» تعني؟!!

ـ قالت: ومالو؟!... هناك الموظفات اللواتي يحترن في وضع أطفالهن أثناء ساعات العمل.. فلماذا لا أعلن عن ذلك، وأرعى. أطفالهن، حتى يعدن من الوظائف بعد الظهر؟!

ـ سألها: وهل تستطيعين يا أمي؟!

ـ قالت: الحاجة يا ولدي!

وقدمت أوراقها لتعمل مدرِّسة، وتجرب، قبل أن تنفذ فكرة «حاضنة» الأطفال.

وجلست تنتظر!!

كانت تقول لولدها وابنتها في اجتماعهم أمام مائدة الطعام:

ـ ماذا يحدث لو عملت في تخصصي، وأصبحت مهندسة ديكور؟!!

كان «فارس» يرى ابتسامة أخته «عهد»... وكأنها تنحتها من صخرة الأسى والحزن.

وتثور أمها، بكل حيرتها وقلة حيلتها، وتقول:

ـ هل تسخران مني؟!

ـ ـ تقول لها عهد: كيف نسخر منك يا أمي، ولكن. . . هل أنت جادة في فتح مكتب للديكور، ولم يسبقك أحد من نساء البلد؟!

ـ ترد: وما هي جريمتي؟!

ـ يقول فارس: ليست جريمة يا أمي. . ولكن، كيف؟!

ـ تقول: لأكون أول سيدة تفعل ذلك.

ـ يقولان لها: وترخيص المكتب، وإدارته، وجلب الزبائن، ومعاينة الأمكنة التي ستعملين فيها الديكور؟!

ـ تقول: أتعامل مع النساء. . مع سيدات البيوت، وعندي علاقات كثيرة، وأعرف أسراً كثيرة، وإذا عرفت أسرة واحدة فإنها تدل أسرة أخرى على مكتبي، وهكذا. . . أم تريدونني أجلس وأضع يدي على خدي في انتظار قرار التعيين الذي لا أعلم متى سيصدر، أو ماذا سيجيبون عليَّ؟!

ـ قالت عهد: هناك متخرجات من العام السابق، ولم يتم توظيفهن حتى الآن!

ـ قال فارس: ولكنك يا أمي ستدخلين في لعبة رجال الأعمال. . . عفواً: سيدات الأعمال!

ـ قالت أمه: ألم تقرأ لافتات بعناوين شركات بأسماء سيدات: شركة خديجة للأثاث، شركة فاطمة، وسعاد، وسلوى. . فلماذا لا يكون: شركة إلهام للديكور؟!

ـ قال فارس: وبعدين.. توفر الشركة وتبيع أوراق الحائط، والموكيت... إلى آخره!

ـ قالت: ربك يفرجها، وتجري الفلوس في أيدينا مثل النهر، مثل الأول وأكثر!

ـ قال فارس: أمي؟!... كأنك صرت تتكلمين مثل أبي!!

ولاحظ أن أمه شردت بعيداً بعد كلمته هذه.. وندم أنه قالها!

❊ ❊ ❊

أخذت «فارس» هذه الأفكار والصور التي يستعيدها من معايشته اليومية مع أمه، وأخته، ومع حيرتهم.. وشعر بيد صديقه «ماجد» تمسح على كتفه، وصوته يوقظه من شروده وأفكاره:

ـ ماذا بك... هل تستمر في هذا «السرحان» في كل وقت ومكان؟!

ـ ماذا تريدني أن أفعل؟!.. إن ذلك فوق طاقتي وإرادتي.

ـ تحاول أن تخرج من مأساتك قليلاً، حتى تقدر أن تفكر.

ـ حاولت وفشلت.

ـ هل مازالت والدتك تصرّ على مكتب الديكور؟!

ـ تصور؟!.. ولكني أشعر بها قلقة تتخبط. مرة تصر على الديكور، وأخرى على الحضانة.

ـ ولماذا لا تتركها تفعل... ربما تحقق شيئاً؟!

ـ كيف يا «ماجد»؟!... أنت تعلم أن الديكور ليس رسماً فقط، ولا

فكرة. . ولكنه يحتاج إلى تنفيذ، وعمال، وإدارة، ومتابعة. الآن. . . الزبون يريد منك أن تعمل له كل شيء، فلا يكتفي برسم الديكور فقط، وهو ينفذه.

ـ ساعدها أنت بالعمل الرجالي. ابحث عن عمال وتابع عملهم.

ـ تاني؟!. . أستقدم عمالاً وأدخل في دوامة أخرى.

ـ لا تستقدم. . البلد مليئة بالعمال، وصاروا يتسكعون الآن، وأنت تعرف حكاية الذين كانوا يستقدمون مئات العمال على كفالتهم، ويبعثرونهم في البلد. . في مقابل أنهم يتقاضون من كل عامل مبلغاً من المال.

ـ هؤلاء أساءوا إلى البلد. . حتى اختيار نوعية العمال لم يحسنوه.

ـ فكِّر في الأمر جدياً يا «فارس».

ـ شيء صعب. . صدقني، وليس عندي خبرة.

ـ كل إنسان في البداية هو بلا خبرة، ولكن. . . لا بد أن تحاول.

ـ كيف. . . أرجوك؟!

ـ اسمع. . . لماذا لا تتولى بنفسك تنفيذ هذه الفكرة. والدتك ترسم وأنت تنفذ كل أفكارها. هي تشاهد المكان، وتعرف المطلوب عمله، والملائم، وأنت تؤمن العمال، وتطبق الفكرة والرسومات، وتحضر المواد؟!!

ـ أنت مجنون فعلاً!

ـ لا. . . أنا واقعي، فلماذا لا تجرِّب؟!

ـ تقصد أنني أدخل في دوامة «البزنس» من جديد. . امتداداً لأبي؟!

ـ ولماذا لا تدخل؟!

ـ ولكنك تعلم أن ظروف الناس المادية قد اختلفت الآن، وتحددت. كان هناك الكثير ممن يريدون تحسين بيوتهم بالديكور، لأن لديهم نقوداً.. أما الآن، فالجميع قد انكمش!

بل إن البعض من شدة خوفه على ماله خبَّأه، واحتفظ به حتى لا يتعرض للخسارة، وكانت النتيجة: أن البلد فقدت السيولة المالية!

ـ ها أنت صرت تتكلم في النقود، والسيولة، والسوق.

ـ من التجربة القاسية، والصدمة، والمعاناة.

ـ افعل شيئاً، ولا تقف مكتوف اليدين هكذا، وأمك وحدها تصارع الموج، والحوت، والأنواء!

ـ كيف أفكر... وفكري مشلول؟!

ـ لأنك أوهمت نفسك أنك لا تعرف.

ـ والدراسة، والجامعة؟.. يذهب هذا كله لو دخلت في معترك التجارة والجري... أم أنك تراني لم أعد الجدير أو القادر على الاستمرار؟!

ـ عفواً يا «فارس» لم أقل ذلك.. ولكني أفكر معك، واعتبرها فرصة في النصف الأول من السنة، وأنت بعيد عن الجامعة بحكم القرار بفصلك ترماً واحداً، ولذلك.. لا بد. أن تحاول.

ـ وبعد ذلك... لو بدأنا، وسرقني الحماس للعمل؟!

ـ تستطيع أن تنظم وقتك، والحياة كفاح. لا تقفل الأبواب من الآن!

***

ارتفع لحن من جهاز التسجيل، وجذب إليه إصغاء «فارس» فجأة، وهو يتحاور مع صديقه.

ـ سأله ماجد: شدك لحن «قصة حب». . . ها؟!!

ـ هذا اللحن يغسلني من الداخل. . أستغرق فيه كلما سمعته، وتتلون المرئيات في نظري، وتنتعش الأحلام.

ـ وهذه المقطوعة. . . إلى أين تأخذك، وبماذا تذكرك؟!

ـ نحن أصدقاء، ونعرف حكايات بعضنا، لكنها تصب في إحساسي مثل الضوء، مثل همسة الحب!

ـ وماذا أيضاً. . . قل؟!

ـ تقول لي أختي «عهد»: إنني مازلت صغيراً على الحب، وهي أصغر مني. . لكنني كنت أحلم كثيراً، قبل أن تزلزلنا صاعقة أبي. حلمت بفتاة جميلة، ناعمة، وواعية. . وحلمت بحياة أعمل فيها حتى يرشح عرقي، وأتلذذ بعمل أحبه. . وهذه الموسقى بالذات، أتخيل من خلال أنغامها: وجه حبيبتي، ووجه الحياة الأجمل!

ـ إذن. . . لا تحبس نفسك، امنحها شيئاً. . ولو بالحلم!!

* * *

أسئلة الأمومة

* يقود «فارس» سيارته محاذياً لشاطئ البحر، وقد أطفأ الأنوار العالية، فالشاطئ مضاء كأنه نهار، والناس يتناثرون... كأنهم يختبئون في هذا الليل، والبحر شاهد.

يسائل نفسه:

ـ ولكن... مم يختبئ الناس؟!

ربما من زحام النهار، والتدافع على مغريات الحياة، والتسابق إلى المكان الأفضل.

ربما يختبئون من أعمال ارتكبوها في وضح النهار... حتى إذا انتشرت ظلال الليل، وإلى أنفسهم... خجلوا مما فعلوا، فأرادوا أن يختبئوا حتى من أنفسهم!

لا... لعل الناس يهربون من شيء.. أكثر من أنهم يختبئون.

ابتسم «فارس» وهذه الكلمات تطوف في ذهنه.. والناس أمامه وحوله يعبرون، وينطلقون بسياراتهم، وبعضهم يلوذ إلى ثبج البحر.. يهمس له بشيء، أو يشرد مع مياهه وأمواجه إلى أعماقه الغامضة.

ـ قال: لو أن كل واحد صارح نفسه بدون خجل منها، وبكل الخوف

من ضميره. . فلا بد أن يشفى الكثير من الناس من أمراض النفس، أو العاطفة، أو العقل!

مازال «فارس» يقود سيارته ببطء وملل، وقد ترك العنان لأفكاره وحواراته التي شعر بمتعة أسئلتها مع نفسه:

ـ وهل تعتقد أن للعقل أمراضاً، وللعاطفة أمراضاً. . . مثل أمراض النفس؟!

ـ أخطر أمراض العصر. . هي أمراض العقل والعاطفة.

ـ كيف أيتها النفس؟!!

ـ لأن الكثير يعتقد أنه القديس، والطيِّب، والمظلوم. . . وهو يشعر في نفس الوقت بأنه لا بد أن يكون: الأعظم، والأول، والفوقي!!

خبط رأسه بقبضة يده، كعادته عندما يريد أن يفيق من شروده، أو خواطره المُتْعَة!

إنه لا يحتمل في ظروفه النفسية. . أية فلسفة، أو حتى سفسطة!

لقد تسلَّل من بيتهم الجديد ـ الشقة المتواضعة بعد الفيلا الواسعة المترفة ـ وهو يعاني من الاختناق. . ضبطته أمه وهو خارج بحالة التسلل. سألته:

ـ إلى أين في هذا الليل. . . هل ترى أننا في حاجة إلى مزيد من المصائب؟!

ـ ولماذا المصائب. . . أريد أن أشم الهواء، إنني مختنق.

ـ أخاف عليك يا ولدي. . لم يعد عندي بقية من قدرة لتلقي أية صدمة أخرى.

ـ إطمئني... نزهة على شاطئ البحر، فهل تأتين معي؟!

ابتسمت ساخرة، ولوحت له بيدها ليذهب.

وحين انطلق بسيارته في اتجاه البحر.. تساءل في نفسه من جديد:

ـ لماذا تخاف عليه أمه حتى الآن، وقد كبر وأصبح رجلاً... في الجامعة؟!

معها حق... تخاف عليه من «الشلة» وما وراءها!

ألمحت له في مرات عديدة بهذه المخاوف من رفقاء السوء، وهي تقول:

ـ صار زمانكم خطيراً، وفاجعاً!

لكن أطرف موقف، وأصعبه أيضاً.. حين سألته ذات يوم ـ فجأة ـ وبدون مقدمات، حتى اضطرب أمامها وتلجلج:

ـ قل لي يا «فارس»، وأجبني بصراحة وبلا خوف مني: هل لك علاقة غرامية بفتاة؟!

خلخله السؤال، ولم يكن يتوقعه من أمه.

وبعد صمت.. وهو يحدِّق في وجهها ويحاول أن يبتسم، قال لها:

ـ ماذا تتوقعين أن أجيبك يا أمي؟!

ـ أجبني بصدق.. سؤالي له هدف، فلا تخف.

ـ بصراحة... لم أرتبط بفتاة معينة، بمعنى الحب والولع.. إلى آخر ما ترويه لنا حكايات العشاق.

ـ إذن. . . أخبرني عن لون العلاقة؟!

ـ بالتليفون

ـ أعرف، وأراك أحياناً تسرق جهاز التليفون إلى غرفتك، ولكن. . . كيف يتم التعارف؟!

ـ نذهب إلى الأسواق، نتحرش بالبنات، نرمي قطعة ورقة بها رقم التليفون، أو. . . . . نقف أمام باب الجامعة، ونتعرف على السيارات من خلال الحديث مع سائقيها، وأكثرهم من المستقدمين، وتتوالى المعلومات.

ـ إخص عليكم شباب هايف!

ـ ماما. . . لقد صارحتك.

ـ دعني أسألك: هل تقبل أن يفعل شاب مع أختك ما تفعله أنت وغيرك؟!

ـ أوه. . . ليه الإحراج؟!. . ومع ذلك، أصارحك بأنني لن أقبل بالطبع، ولكن ماذا نفعل نحن الشباب. . . شباب يا أمي؟!

ـ تفعلون أشياء محيرة هادفة ومفيدة لكم ولبلدكم!

ـ الفراغ يا أمي. . والترف، ثم لا تنسي خطورة مرحلة هذه السن!

ـ ها أنت تعرف، وتتكلم عن الخطورة والسن. . بمعنى أنك فاهم وناضج.

ـ صحيح. . . ولكني شاب، ولي نزواتي، وعواطف سني. . . ألم تحلمي بشاب وأنت في السادسة عشرة، أو في التاسعة عشرة؟!

ـ بلى... حلمت، وتخيلت، وسبحت بخيالاتي، ولكني لم أتجاوز حدود الالتزام بتربية وخلق، وقيم.

ـ لأنك كنت تلك الفتاة الخجولة، وقبل أن تتلاحق سرعة العصر، وتختلط الأوراق بهذا الشكل في زماننا.

ـ أوراق إيه؟.. لا أعتقد أن هناك فرقاً كبيراً أو شاسعاً بين عمري وعصرك.. كلها سنوات بسيطة.. لقد حملت بك وأنا في العشرينات.. في أولها أيضاً!

ـ أعرف يا أمي.. فأنت مازلت شابة صغيرة!

ـ أعرف أنا أيضاً خبثك و «تلقيحك»، ولكن... أريد أن تخبرني: ما هو رد فعل البنات وتصرفاتهن مع الشباب؟!!

ـ البعض يستجيب، ويرن الهاتف، وتبدأ المحادثات الطويلة.. والبعض يجمدننا ولا يكترثن برقم الهاتف، ولا بمشاغباتنا لهن!

ـ طيب... وماذا تقولون عبر الهاتف، أقصد: ما نوع الأحاديث والحوار؟!

ـ هذا يرجع إلى عقلية البنت والولد.

ـ حدِّد... أريد إجابة شافية.

ـ يعني... تحكي لي عن أهلها، وأخوانها، وأخواتها، ودورها في البيت، وعن صديقاتها، وعن ما تصرفه وتشتريه، وعن الزيارات والحفلات.

ـ وأنت كشاب.. ماذا تحكي لها؟!

ـ شَرْحُه. . . عن أصدقائي، وشقاوتنا، ومقالبنا، وعن ما كنا نفعله في المدرسة، والآن في الجامعة.

ـ إلى هذا الحد بلغت بكم التفاهة؟!

ـ ماما. . . من فضلك، أنا لست تافهاً.

ـ واضح. . . ألا تتحدثون عن المستقبل، والدراسة، والطموح. . عن كتاب مفيد، أو عن قطعة موسيقية جميلة، أو عن لوحة باهرة؟!

ـ بالطبع. . الموسيقى بالذات، عن الشريط الجديد لمحمد عبده، أو عبد الكريم عبد القادر، أو ميادة، أو طلال مداح، ونتحدث أيضاً عن السفر، والرحلات الخارجية، والمشاهدات!

ـ حسناً. . . والعواطف، كيف تتبادلونها؟!

ـ ماذا تقصدين يا أمي؟!

ـ أجبني يا ولد. . . هيا.

ـ يعني. . . . كلمات الحب المعروفة: أحبك. يا عيوني. وحشتيني. إنت وحشني أكثر!

ـ فقط؟!

ـ وهل هناك ما يقال. . غير هذه الكلمات؟!

ـ لقد ابتذلت الكلمات يا ولدي.

ـ ولكن. . . لماذا كل هذه الأسئلة؟!

ـ لا شيء. . . أردت أن أعرف كيف يفكر جيلك، ومستوى اهتماماته ونضجه.

ـ وجيلك أنت يا أمي.. كيف كان؟!

ـ ليته استمر.. فقد كان أبسط ما فيه وأعظم ما فيه معاً: الصدق، والعمق، والحوار الثري!

ـ وكان الجيل الذي قبلكم أيضاً يعتبر نفسه أحسن.. هذه طبيعة الحياة يا أمي.

ـ ولكن المحزن.. أن الحياة تتدحرج إلى الأردأ في السلوك.. بينما هي تتقدم إلى الأحسن في العلوم والتكنولوجيا، والخاسر.. هو الإنسان!

ـ هل أحببت يا أمي؟!

ـ نعم... لا أحد أحببته غير أبيك، عندما تمت خطوبتنا كنا نتحدث بالهاتف، وكان يحمل لي كتاباً، ويحدثني عن فيروز، وأم كلثوم، وعن ترتيب الزهور، وعن أفكاره التي تقلقه وتلح عليه!

ـ يعني... لم يأت بديل لفيروز لنتحدث عنه، فقد قتلت الحرب كل إبداع، بل قتلت حتى فيروز!

ـ صدقت...

ـ وكيف قال لك أبي: أحبك؟!

ـ صدقني.. لم يقل لي هذه الكلمة التي ابتذلها الناس الآن، كان يعبِّر لي عن حبه بنظرة أحس فيها الصدق. بلمسة يده، وأكثر ما كان يقوله: اشتقت إليك البارحة بمجرد أن غاب صوتك عن سمعي.. أصبحت في عمري كل الزمان، ودقات الساعة، وطلوع الفجر، ورقة المساء، وتكاثف

الشجر وحنوّه، وتغريد الطيور، وصرت أسمع بك، وأرى بعينيك.

ـ الله. . . كان أبي شاعراً؟!

كان أبوك ومازال: رجلاً بمعنى الكلمة!

❊ ❊ ❊

مسح «فارس» دمعة انزلقت من عينيه. . وصار يحدِّق في البحر وقتاً طويلاً. . لم يعد يدري كيف يحسه!

❊ ❊ ❊

الحب الأول

* طافت بذهن «فارس» كل تلك الخواطر، وهو يسترجع حواره مع أمه ذات ليلة.. وكأنه يميل إلى تلك الحميمية التي حدثته عنها، وكانت تجمع عواطف الناس، وتمزجها، وتصهرها، وتوحدها بعد ذلك في رباط يستمر، أو في ذكرى جميلة لا تتشوه ولا تتنكر!

وتطلع إلى البحر الممتد أمامه، وقد انعكست على مياهه أضواء الشاطئ، فاختلطت الأضواء بالظلال، بالعتمة، بغموض البحر، بعبور الناس.. كأن «الحلم» في حياته قد تحول الآن إلى أسطورة! كيف يحلم بهذه النفسية، وبماذا يحلم، وبمن يحلم؟!

لقد كان صادقاً، وهو يروي لأمه في لحظة حوار الصداقة معها.. عن نزواته ومراهقته، ولكنه يشعر الآن أنه كبر عشرين عاماً.. إضافة إلى عمره!

ودوّى في سمعه وأصداء ليله، صوت يشاكسه:

ـ والحب، والشباب، والتجربة، والأحلام؟!

استغرق بنظراته في ارتداد الموج أمامه، وتكسّره على رمال الشاطئ.

كأن كل أحلامه.. مثل موجة واحدة كهذه، تأتي مندفعة من وسط

البحر، لترتطم وتتلاشى. . لكنه لم يتحدث عن اليأس. . هذه مقدمة التجارب، وإن كانت جارحة، وعاصفة. . فلا بد أن يحتمل.

مثل مسدس كاتم للصوت. . . كان يرى نفسه في هذه اللحظات.

إنه معبَّأ بالرصاص، والطلقات تتوالى من داخله. . عبر فوهة نفسه، منطلقة إلى فراغات كثيرة، وأهداف غير مرئية!

يريد أن يطلق الرصاص الآن، وهو مثل ذلك المسدس الكاتم للصوت!!

يطلق الرصاص على: الحيرة، والحزن، والعجز الذي يسوره، والاكتئاب الذي يزحف إليه!

يريد أن يعود شاباً. . يتفق وينسجم مع سنه ويفاعته.

يغني، ويصرخ، ويتأرجح، ويتمرجح، ويحب، ويضحك، ويخطئ، ويجن، ويسقط ويقف!

وبين هذه الكلمات. . . توقف تفكيره فجأة. . التصق بكلمة واحدة. . مثل قط أليف يتمسح بصاحبه.

ـ «يحب»؟!!

ـ آه كم اشتاق إلى دفئ أنثى!

من وقت طويل. . لم يفكر في هذا الاشتياق، كأنه سقط في بئر من الصمغ والطحالب!

آخر مرة يذكرها. . . وقد أحس أنه صار رجلاً، قبل أن تتضاعف أزمة والده، وقبل أن يدخل السجن.

كان يشعر برجولته.. وكان أكثر عطشاً لعاطفة مغايرة، تختلف عن حنان أمه وأبيه.

كأن رجولته قد اقتحمته قبل أوانها، وفي وقت مبكِّر.. ربما بسبب انغلاق المجتمع، ومحدودية تحركه، والتحذير من الإعلان عن هذا النضوج، وقوانين العيب الكثيرة!

هذه نظرته لما حوله!!

يتذكر الآن.. تلك الأنثى الطالعة كوردة بيضاء تهمس لبزوغ الفجر.

رآها في بداية مساء، وهي تنزل من سيارتها وبرفقتها فتاة في سنها، ولكنها كانت هي الأجمل، والأحلى، والأكثر جذباً!

ودخلتا إلى السوق، وأتعبتاه بتجوالهما من مكان إلى آخر.. من استريو، إلى مكتبة، إلى محل أزياء، إلى «باتسري» للحلويات والآيسكريم.

كان لا يحب هذا الأسلوب من الشباب الذين يصادقهم، أو يراهم في الأسواق يتسكعون ويعبثون!

رأيه الذي يدافع عنه: أن هذا الأسلوب مبتذل وعدواني.

كيف نسي هذا الرأي، وانساق، ولم يشعر بقدميه تسيّرانه وراء تلك الأنثى المبهرة؟!

كان سحر ينبعث منها، فيشده إليها، ليبقى وراءها في كل مكان تدخله.

وفي محل الحلويات والآيسكريم.. وقف يشتري لنفسه، واقترب منها، وفعل نفس التصرف الذي يستهجنه!

وخرج يعدو من المحل. . بعد أن وضع في يدها ورقة، كتب عليها رقم هاتفه، والساعة التي يستطيع أن يجيب فيها على الهاتف.

طلب منها أن تكلِّمه بعد منتصف الليل. . حينذاك يتسلَّل بالهاتف إلى غرفته، بعد أن يكون والده ووالدته قد دخلا غرفة نومهما.

وصار ينتظر كل ليلة بعد منتصف الليل: قلقاً. . يقضم أظافره، ويحدِّق في الهاتف.

في الليلة السابعة، بعد الانتظار والقلق، وهو يراوح ما بين الإحباط والأمل. . كان يحاسب نفسه حين ينال منه الملل:

ـ لماذا فعلت ذلك. . وماذا ستقول عنك الفتاة؟!

ـ ترى. . . هل أنا شاب عابث وتافه، إلى هذه الدرجة؟!

ـ لماذا استخدمت هذا الأسلوب الفج؟!

ـ إنني استحق إهمالها. . . كأنها تصفعني!

ولم تتصل به، وبلغ به التعب منتهاه. كانت الهزيمة شديدة عليه. . وكان في تلك الليلة، بعد أن ناولها الورقة وهرب من أمامها، قد كمن في سيارته يرقب تحرك سيارتها. . حتى إذا خرجت مع رفيقتها وركبتا السيارة، انطلق في إثرها، وعرف اسم صاحب البيت من اللافتة المثبتة على بوابته. . واستطاع أن يتحصل على رقم الهاتف من الدليل!

هل يطلبها ويسألها: لماذا لم تتصل؟!

ربما تقفل سماعة الهاتف في وجهه.

لعلها احتقرته يومها، وستحتقره أكثر لو هاتفها!

أضنته الأفكار، وواصل انتظاره أكثر من أسبوعين، ولم يحتمل فوق ذلك.

يشعر أن الفتاة دخلت قلبه.. ليست نزوة، ولا شعوراً عابراً، ولا نزقاً.

ولكن... يعرف أن الشباب يفعل ذلك... لماذا لا يكون مثل أولئك الشباب، وهو واحد من هذا الجيل؟!

وطلب الرقم.. مرة، وأربع مرات، وفي كل نداء.. يجيبه صوت مختلف، ولا يدل على أنه صوتها!

وتحين بداية المساء.. وطلب رقمها.. خفق قلبه، وازدادت دقاته... أحس أن هذه العذوبة المنسابة إلى سمعه: صوتها!

ـ قال باضطراب، وسذاجة، وتعجل: أنا الآيسكريم!

ـ قالت: لهذا أنت بارد جداً!

ـ أرجوك... إنني مُتعب جداً، لماذا لم تتصلي؟!

ـ لأنك وقح، ولم يؤدبك أهلك.

ـ لا بأس.. فقط صدقيني أنني متعب جداً، ولم أنم!

ـ تناول منوماً، أو من الأفضل أن تنتحر!

ـ إني جاد ولست عابثاً.. لا تحكمي علي بأنني واحد من الذين يطلبون التسلية!

ـ وهل وقتك ثمين إلى هذه الدرجة؟!

ـ جداً... وأصبح أثمن منذ أن رأيتك.

ـ غزل ركيك، وسمج.

ـ أنـا لا أغـازلـك. . بـل أريـد أن أتـحـدث مـعـك، اعـتـبـريـنـي أتـسـول صداقتك؟

ـ صداقة فقط؟!

ـ حتى تعرفيني أولاً. . . ولن أضايقك!

ـ سأفكر، ولكن لا تتصل بعد الآن. . . أنا التي سأتصل بك!

ـ حسناً. . . سأبقى على نار حتى يأتيني صوتك من جديد.

ـ ولكن. . . حاذر أن تحترق في النار!

* * *

مرة أخرى يضرب رأسه بكفه!

لـقـد مـضـى وقـت طـويـل عـلـى تـلـك الـمـحـادثـة، قـبـل أن يـدخـل والـده السجن. . احتوته الهموم، والأحزان، ونواح أمه، وانكسار أخته. . مضت شهور على ذلك المساء الذي غسل فيه صوتها الرقيق الهادئ. . كل توترات سمعه وضوضائه. . كأنه نسي نفسه، ونسي قلبه وخفقاته. . حتى الهاتف. . . نسي أن يتسلَّل به من الصالون إلى غرفته الخاصة، بعد منتصف الليل. . برغم أن أمه صارت تنام بجانب ابنتها، ووالده بعيد عن البيت.

نفسه يجللها الحزن والاكتئاب. . انشغل بالبيت، وتصفية مكتب أبيه، والوظيفة، والاستعداد لبدء اليوم الثاني، بعد انتهاء قرار الطرد المؤقت.

هـذا الـبـحـر. . وحـوار الـنـفـس. . ومـنـاداة الـحـلـم، كـلـهـا ذكـرتـه بـالـحـب وبشبابه.

ونهضت في داخله الأسئلة، وموجات التردد:

ـ هل يحادثها؟!

أدار محرك السيارة.. واستمر يمشي بها، كأنه يدفعها من الداخل.. وقد غرق في الصمت، واغتالت عينيه الدموع!!

❊ ❊ ❊

طلوع البشارة

* تلاحقت الأحداث في بيت «خالد السعيد». . . وهو ـ رب البيت ـ يعاني من شلل حركته داخل أسوار السجن، والقضبان التي تفصل بينه وبين الحرية، والحب، والتئام شمله بعائلته!

كان يلتقي بأسرته مرة في الأسبوع، بعد أن حدَّد لهم هذا الموعد، ليلتفت كل فرد في الأسرة إلى دوره ومسؤوليته. . لم تعد هناك دموع. . لقد ذرفها الجميع حتى الثمالة. . حتى الجفاف. . لكن الصدور تصطك بالأسى والحزن، ويعتمها الألم وقلة الحيلة. . الجميع ينتظر الفرج من مسيِّر هذا الكون العظيم جلت قدرته. . فلا شيء في أيديهم لتقديمه كحلول أو بدائل. . لإخراج رب الأسرة من سجنه.

وفي واحد من تلك اللقاءات الأسبوعية التي يرى فيها «خالد» أسرته من وراء القضبان، وإن كانت إدارة السجن قد سمحت له بلقائهم في مكتب السجن. . . لكن السجن كله قضبان. . . يومها، سأل «خالد» زوجته:

ـ ماذا فعلت بمشروعاتك؟!

كان يحاول أن يرسم ابتسامة مودة ومرح، ليمتص من نفوسهم ووجوههم تراكم هذا الحزن.

ـ قالت إلهام لزوجها: لم يصلني الرد من الجهة المسؤولة عن تعييني مدرِّسة حتى الآن. أخبروني أن الإجراءات تستغرق وقتاً، برغم أنني حاصلة على شهادة جامعية، وأن هناك الكثيرات من المدرسات المتعاقدات! لعلهم يصدرون قرار تعييني في العام القادم!

ابتسمت الأسرة المتحلقة حول «خالد».. لكن الابتسامة على شفاههم تبدو خائفة من إعلانها لمدة لحظة.. من إعلان مرح مؤقت!

ـ قال خالد: لكنك باشرت في تنفيذ مشروعك!

ـ قالت: صرت «بزنس ووم».. افتتحت مكتباً باسم ابننا «فارس»، وصرت أديره فنياً من الداخل، وابنك يديره من الخارج. اتصلت بالكثير من الأسر لإقناعهم بتحسين بيوتهم ديكورياً. جلبت رسومات حديثة. كتبت لشركات ديكور، ويبدو أن التجربة في طريق النجاح.

ـ ما شاء الله.. همة تُحسدين عليها!

ـ لكن.. لا أعلم ما الذي جرى للناس؟.. أصبحوا يخافون على فلوسهم، أو لعلهم يقتصدون، ويصرصرون.. تحسباً لليوم الأسود.

ـ تقصدين أن ذلك التبذير في الإنفاق.. قد تحكّم فيه التَّرشيد؟!

ـ حتى من بعض صديقاتي اللواتي كنت أعرض عليهن فكرة تغيير ديكورات بيوتهم.. أجد الصد، كن يقلن لي: لا داعي للبذخ، بيوتنا جميلة بديكوراتها التي أقمناها حين بنيناها، وأسَّسْناها. كان الناس يغيرون الديكورات مرة في العام، مثل تغيير السيارة والأثاث، و.... ربما الزوجة!.. فسبحان مغيِّر الأحوال!

ضغط «خالد» على يد زوجته، وقال لها وهو يبتسم:

ازدادت حلاوة سخريتك!

ـ من غلبي يا أبا فارس. . الناس اليوم يعانون بالفعل، لأن السيولة النقدية قد شحت، وأصبح الاقتصاد فرضاً ملزماً لكل أسرة وبيت.

ـ تعني: أن مشروعك قد فشل؟!

ـ قلت لك إن التجربة في طريق النجاح. وجدت بعض الذين يعانون أيضاً من القلق، ومازال الله يكرمهم بالسيولة المحدودة، والقلق يدفعهم للتغيير في حياتهم. . وهذه قاعدة نفسانية!

ووجدت بعض الشباب الذي بدأ الخطوة الأولى في مشوار الزوجية والحياة. . ولا بد أن يجمِّلوا بيوتهم بتكلفة تتفق ومستواهم المالي والاجتماعي!!

ولا تنس أن الناس لم يتنازلوا عن المظاهر، ولن يتنازلوا أبداً، حتى ولو أفلسوا!

ولكني استفدت من التجربة. . فلم أوسع العمل، ولم أبالغ في طلبيات المواد التي ننفذ بها الديكور. . كل شيء في حدود المطلوب، والمعقول، وفي حدود الجيب!

ـ والعمال. . من أين توفرونهم؟!

ـ الآن. . . على قفا من يشيل، مطوَّحين في الشوارع.

التفت «خالد» إلى ابنه «فارس». . يسأله:

ـ وأنت. . ما هي أخبارك؟!

ـ عدت إلى الجامعة. . إنني مرهق بالفعل، أدرس بالنهار، وأدير مكتب

الديكور في المساء، وأُراضي العمال وأجلبهم وأسرحهم، لكني أستفيد من كل دقيقة.

ـ المهم الجامعة... لن تعوض الشهادة بأي شيء، اسمع كلامي.

اقتربت «عهد» من أبيها أكثر.. احتضنته، وفي عينيها دمعة شوق. قالت لوالدها:

ـ أما أنا يا أعز الناس، فإنني أسعد الناس عندما أراك.. أدعو لك في الليل والنهار بأن يفرج كربك، ويقيل عثرتك. لا تفكِّر كثيراً يا أبي.. الله معنا.

ـ يا غالية... ما أخبار الدراسة؟!

ـ لا تخف على البنت يا عزّي أنت.. متفوقة كما عهدتني.

ـ الله معكم جميعاً. ربنا يسخر لك يا ابنتي بابن الحلال الذي يصونك ويقدرك ويحبك.

ـ دعنا من ابن ال........، المهم أنت ونفسيتك.

* * *

لم يشأ أي فرد في الأسرة أن يخبر «خالد» بما تردد في أوساط المجتمع عن قيام شخصية كبيرة جداً برصد مبلغ ضخم.. أوقفه على «فك ضيقة المعسرين» وتسديد ديون المودعين في السجن وراء القضبان.

خافت الأسرة أن يكون الخبر من جملة الإشاعات التي تتردد.. مما يروجه الناس في شكل: تخيل، أو حلم، أو أمنيه.. أو حتى إيحاء للآخرين.

حتى الإيحاءات. . صارت محدودة هذه الأيام.

وسأل «فارس» مدير السجن عن صدق هذه الإشاعة أو المقولة!. . فلم يؤكدها، ولم ينفها، ولكنه قال له:

ـ كلنا سمعنا. . والله وحده يعلم، ويسهّل!

لكن الإشاعة سرت بترديد متواصل، ثم بتأكيد:

ـ من أمضى عاماً وأكثر في السجن، وأثبت إعساره. . سيستفيدون من هذا التبرع.

صارت الأسرة تتابع الأخبار من أفواه الناس. . ما بين مد وجزر، وانفعال وتحفز، وقلق وبارقة أمل. . وتلاحقت الأيام، والشهور. . أربعة أشهر، والقلق يعصف بهذه الأسرة، وبأسر أخرى. . ترقب خروج رجالها من وراء قضبان السجن. . وتضاعف الأمل، وتحول القلق إلى انتظار. . يغلفه قلق مختلف، وربما مثير. . ويتخلله الخوف.

حتى ذلك اليوم. . الذي رن فيه جرس الهاتف في بيت «خالد السعيد» وصوت رجل يطلب محادثة «فارس»:

ـ نعم. . . ـ أنا فارس.

ـ أهلاً. . . أنا مدير السجن!

ـ يا لطيف. . خيراً؟!

ـ لا تقلق. . بشارة لعائلتك. سيكون والدك من المستفيدين.

ـ تقصد. . . أن ديون أبي ستسدد من تلك «المكرمة». . من المبلغ الضخم؟!

ـ نعم يا فارس. أمسك أعصابك، وتعال إلى مكتبي.

* * *

أغمي على «إلهام» من الفرحة.. طفرت الدموع من عيون فارس، وعهد.

ـ قال فارس لأمه: لا يغمى عليك.. زغردي الآن يا أمي.. أبونا عاد إلى بيته.

سمع الجيران الفرحة تخترق جدار العمارة، وتنطلق إلى الشارع.. يكاد «فارس» أن يجن. ذلك هو الأمل غير المنتظر، بعد التأرجح على حفافي اليأس!

غص البيت بالناس.. بالأهل.. بالجيران.. بالأصدقاء.. احتضن «فارس» والده في غرفة مدير السجن، والدموع تغطي وجهه.

ـ قال: صعب أن يعيش الإنسان بلا أب.. صعب أن تعيش أسرة بلا رب!

* * *

رأسها في الجدار

* تملّك الخوف «إلهام» على زوجها بعد خروجه من السجن. . كان يقلقها ويخيفها. . هذا الصمت الذي يدخل فيه ساعة وأكثر، وربما يوماً بكامله. . دون أن ينبس بكلمة. . لعلها ردة فعل السجن، والتجربة القاسية التي عاشها، وعانى منها. . لعلها فترة محاسبة النفس على كل ما كان، وأودى به إلى وراء أسوار السجن.

ولم تحاول «إلهام» أن تناقش زوجها، ولا أن تسأله عن صمته. . لا بد أن تحتمله، وتهدهده. . وتحاول بذلك أن تغسله من الداخل. . لقد كانت التجربة/ الصدمة: قاسية عليه جداً، ويحتاج إلى وقت للتخلص من آثارها وترسباتها. . لكن الحياة العادية التي تعوّدتها هذه الأسرة. . لم يستطع أي فرد فيها أن يسترجع لحظة واحدة من لحظاتها. . تغيرت حياة الأسرة. . لا، بل نفسية كل فرد هي التي تغيرت.

الرأس/ الأب: «خالد»، المطلق سراحه من سجن الإعسار. . يشعر أنه قد دخل إلى سجن أكثر قتامة. . . كأنه لم يعد ذلك الإنسان القادر على تحريك وجه البحيرة، ولا على ملاحقة الهواء، واصطياد نسمة رقيقة. . يجمد بها تنفسه.

إنه مثل سفينة بلا صارية. . بيت تآكلت جدرانه. . لم يصارح زوجته،

ولا ابنه وابنته. . لا أحد يحس أنه يحتمل مصارحته هذه!

سيقولون عنه: إنه مكتئب، محبط. . يتقطر تأنيباً، بسبب ما ارتكبه فأدخله السجن، ولذلك. . سيمر بهذه الحالة النفسية، ولا بد أن يشفى منها، لأنه قوي. . يعرف أنه قوي. . . لكن المرحلة القادمة من العمر: أقوى.

ـ لا. . . بل هي مرحلة أقسى، وأكثر تفريغاً للمعاني، وللقدرات.

حاور نفسه. . بواسطة ذلك الصمت الذي يدخله، فلا يخرج منه إلا على نداء زوجته، أو ابنته. . فيتنبَّه، ويسمع صوتاً يقول له:

ـ ما بك؟. . الحمد لله على كل حال.

زوجته تحاول أن تخفف عنه. . أن تنشله من غياهب الصمت والشرود.

ـ يقول لها: الحمد لله دائماً. . لكن الصمت ليس جريمة، بل هو نعمة وفضيلة في هذا الوقت!

ـ وهل سيطول صمتك؟!

ـ ما الفارق؟!

ـ الفارق كبير بين الصمت، وبين الكلام الذي يدفعك للحركة. . لتخرج إلى الناس، وتباشر حياتك وعملك.

ـ حياتي. . . عملي؟!

ـ هل تريد أن تبقى في البيت على طول؟!

ـ لهجتك تبدلت يا إلهام. . . كأنني أصبحت عالة عليك!

ـ هذا البيت سفينة نقودها معاً. . لكني أردت أن أخرجك من هذه القوقعة التي حبست نفسك داخلها.

ـ من حقي أن أتأمل قليلاً. . أن أفكر، وقبل ذلك: أن أشفى!

ـ وهل أنت مريض؟!

ـ مشاعري، وحوافزي. . تحتاجان إلى طاقة جديدة، تختلف كثيراً عن طاقتهما الأولى.

ـ لا أفهمك. . . ولكن لا يطول صمتك، حتى لا تنسى الكلام!

ـ ألم أقل لك أنك تبدلت كثيراً!

ـ لا تلمني. . أريدك أن تستعيد نفسك، وحوافزك، وقدراتك. أكبر خسارة للإنسان: أن يفقد نفسه، أو حتى يخرسها!

ـ ماذا أفعل؟!

ـ اسمع. . . عندي لك خبر عائلي سعيد.

ـ السعادة: أن نعرف كيف نحيا.

ـ لنتجاوز الفلسفة الآن. . إنه خبر يخص ابنتك عهد.

ـ أعرف. . ستقولين: إن شاباً سيتقدم لخطبتها.

ـ ومن أخبرك؟!

ـ وجهك، وطريقة إعلانك للخبر. من فضلك لا تحدثيني. في هذا الموضوع، واتركي «عهد» تكمل دراستها الجامعية.

ـ وإذا وافقت «عهد»؟!

ـ إنها صاحبة الشأن. . فإذا رغبت، أكون مستعداً للتفاصيل.

ـ أمرك غريب! . . . كأنك تسلم كل شيء، ولا تريد أن تحمل معي أية مسؤولية؟!

ـ لأنني أعرفك. . ستلحين على ما تريدينه حتى نستسلم، ولأنني لست مهيئاً الآن لجدالك، فأنا متعب، ومازلت ألهث، وأنت لا تحسنين التوقيت.

ـ لا بأس. . سأتجاوز رأيك فيّ. لكن صديقتي «ليلى» نقلت إلي رغبة أهل العريس في زيارتنا لرؤية عهد!

ـ عجيب. . . هل هذا الأسلوب مازال متبعاً؟!

ـ العجيب أنت. . لا بد أن يزورنا أهل العريس، ليعرفوا كيف نعيش، وكيف نتعامل؟!

ـ هل سيسكنون معنا عدة أيام، لتتم لهم هذه المعرفة؟!

ـ إذا جاء أهل العريس، سيتحدثون مع البنت، ويتعرفون على حماة المستقبل، ولا بد أنهم أيضاً يكتشفون طريقة حياتنا.

تعرف؟! . . بعضهن يدخلن حتى الحمامات والمطبخ، قال إيه. . . علشان يعرفوا مستوى نظافة أهل البيت، وترتيبهم، وذوقهم.

ـ هذه استهانة بقيمة الإنسان. ومن يريد أن يعرف السلوك، فهناك طرق أخرى.

ـ لا بد من هذه الطريقة. . حتى لا يحدث الغش!

ـ غش؟ . . . يبدو أننا تقدمنا في القشور والمظاهر، وحدث الانحطاط في الجوهر!

ـ المهم. . . بعد أن يشاهدوا البيت، وينقلون أوصاف العروس للعريس، ويوافق. . . سيأتي العريس مع أهله لخطبتها!

ـ الله أكبر عليكم!. . . والبنت، أليس من حقها أن ترى الرجل الذي سيشاركها رحلة العمر. . . (فتقلِّبه) هي الأخرى، وتفتشه، وتعرف مستوى نظافة أهله؟!

ـ من حقها طبعاً. . لا يحدث شيء إلا بموافقتها، ولكن. . عيب أن تطلب البنت مثل ذلك. إنها مرحلة ثانية. . يأتي فيها دور الرجال!

ـ يا سلام. . . ترى أي عصر هذا الذي نعيش فيه؟!

ـ طبعاً. . هو عصر التطور، والحضارة، والجامعات، والفضاء، والابتكارات، و. . . . الحداثة، والصَّرْعات!

ـ معلوماتك ممتازة. . فكيف تتعاملين عكس العصر؟!

ـ بالعكس. . . هذه المراحل توفر لنا التفكير، والتأنّي، والسؤال، والحصول على الأجوبة التي نريدها!

ـ وتبقى البنت، مثل السلعة. . . للعرض!؟

ـ أنت لم تفهمني. . ماذا يُنقص من البنت إذا رآها أهل العريس؟!

ـ تصرَّفي كما يحلو لك.

ـ لا تغضب. . . المهم أن توافق «عهد» على المبدأ!

* * *

لكن «عهد» لم توافق!!

تعلَّلت أن نفسية والدها وظروفه.. لا تسمحان الآن بمثل هذه الخطوة.. تعللت ـ أيضاً ـ بأن دراستها في الجامعة.. تتطلب منها تركيزاً، وجهداً، ومثابرة.

لم تقتنع أمها. لم تيأس... أخذت تلح عليها وتحاورها، وتطاردها، لتقبل الخطوة الأولى. لعل الشاب يعجبها.. لعله يسعدها.. لعله فارس أحلامها!

ابتسمت «عهد» لكلمات أمها.. استغرق التفكير وقتاً طويلاً من يومها وليلتها.. ومازالت تصر على الرفض.. ومازالت أمها تلاحقها لتقنعها.. أعلن عقل «عهد» الأحكام العرفية على مشاعرها.. صممت أن تواصل دراستها الجامعية.. أعلنت عاطفة «إلهام» الأحكام العرفية على رفض ابنتها.. وضيَّقت الخناق عليها.. وقفت تبكي أمام ابنتها، وهي تقول لها:

ـ فكري في مستقبلك. أبوك مريض ونفسيته متعبة. أخوك سيتخرج ويستقل ببيت وزوجة، وأنا... كبرت، وتكفيني المعاناة مع والدك!

ـ قالت عهد: مستقبلي في شهادتي وتحصيلي العلمي. المستقبل لا يضمنه زوج، أو شخص. كل إنسان لا بد أن يعتمد على قدراته ومؤهلاته العلمية.

طال الجدال بينهما.. استغرق أياماً وليالي.. حتى خضعت «عهد» في النهاية لبكاء أمها المتزايد، وإن كانت تشفق كثيراً على صمت أبيها!

حددوا الليلة التي سيستقبلون فيها أهل العريس. لكن «عهد» أصرت أن ترى الشاب، مثلما يريد أهله ويريد هو أن يروها.

ـ قالوا لها: هذا غير ممكن، ولكن في الخطوة الثانية بعد زيارة أهله!

ـ قالت: تقصدون.. بعد أن «يقلّبوني»؟!

أعلنت حلاً وسطاً: لا بد أن يأتي العريس إلى أبيها يراه، وهي تقبل بحكم والدها!!

* * *

المملك.. في السماء

* تشهد غرفة «عهد» بريق تلك الدمعة التي طفرت من عينيها.. كبرت الدمعة.. حتى أصبحت بحجم الغرفة.. تناثرت الدمعة.. جزء منها على مرآتها، وجزء على أدوات زينتها، وجزء على النافذة، وجزء حبيس تحت الهدب.. يجول قلقاً، ويجسِّد خوف هذا الشباب المتفتح، الماثل كياناً يُسمى: فتاة في مهب الريح!

أصبح الزواج عاصفة، وهبوب ريح؟!

ـ سألت نفسها: لماذا الخوف؟!

إنها تسمع حكايات عديدة في الجامعة عن مفاهيم الشباب، وطريقة تعاملهم مع الزوجة... خاصة إذا كانت جامعية، أو دارسة، أو من أسرة موسرة!

نصف طالبات الجامعة، من زميلاتها، أو ممن هن في المراحل النهائية، أو المتوسطة... عُدن إلى بيوت أهلهن: مطلقات

واحدة: عاشت عاماً واحداً، وأنجبت طفلاً، وقد رحلت مع زوجها العريس الذي يدرس في الخارج.. فأهانها في «الغربة» وأعادها بطفل مشرد وورقة طلاق!

خامسة: لم تعش في بيت الزوج أكثر من ثلاثة شهور.. وعادت بورقة طلاق!

عاصفة مجنونة تهب.. فلا يفيد التعليم، ولا تفيد التربية!

عاشرة: فسخت خطبتها بعد شهور.. وقد تبيَّنت سلوكه، وأسلوب تعامله معها.. فقالت:

ـ لقد فزت.. ونفذت بجلدي!

في بدء دخول «عهد» إلى الجامعة.. تناهت إلى سمعها الحكايات، ورأت ذلك الفزع في عيون البنات.. حتى المدرسات يرددن تلك الحكايات!

لا أحد يريد أن يفجر السَّبب الحقيقي. ربما سيولة الفلوس في يد الشباب، والحياة المرفهة... من الأسباب. ربما خوف الشاب/ الرجل من «إشاعة» أن البنت صارت متعلمة وبالتالي ستهيمن عليه في البيت.. فأراد أن يبادر بمعاملتها كرجل صارم، وأحياناً «غثيث» ليحجّمها. ربما تطور ذهنية البنت ووعيها.. يجعلانها لا تقبل الإهانة والتسلط!

ولكن... ليست هذه المشكلة الأساسية الغامضة.. هذه أسباب، فأين تكمن المشكلة؟!

وسائل الإعلام لا تناقش هذا الخطر الداهم.. فهي منشغلة!!

* * *

لملمت «عهد» شتات نفسها، وطرحت أسئلتها على أستاذة لها مقربة:

ـ من الذي يطلق الرصاصة الأولى.. الشاب أم الفتاة؟!

ـ قالت المدرسة: ماذا تقصدين؟!

ـ قالت: أين الخلل.. في فكر الشباب، أم في فكر الفتاة.. أم في البيئة الاجتماعية والتربية؟!

ـ هذا موضوع يطول... يحتاج إلى دراسة ميدانية.

ـ لماذا لا تدرسها الجامعة، كمشكلة حيوية تهدد بناء الأسرة الجديدة... لماذا لا تناقشها الصحافة وتغطيها؟!

الحوار محدود. الحوار مقطوع. الحوار أبكم!!

لا أحد يريد أن يتحمل مسؤولية شيء.

الشباب يشكو. الفتيات يشكين. الأب، والأم.. في فزع يتصاعد!!

وتستمر هذه «الروابط المقدسة» وحفلات الزواج، ثم تنقطع فجأة بحزن أليم!

ويستمر الإنفاق الغدق، والتبذير، والبذخ.... وتبقى «السعادة» المنشودة: نقطة ضائعة في بحر من الرمال المتحركة!

في داخل غرفتها.. لا تكاد «عهد» تستقر في موقع.

تحس أنها مثل طلقة طائشة.. مثل ومضة برق.. مثل صوت الصاعقة الذي يدوّي في الصحراء.

ـ ترى... ماذا حدث لأخلاق الصحراء؟!

لا أحد يعرف الإجابة.. لا أحد يبحث عنها.. الجميع منشغل بشاهقات المباني، أو الكتل الأسمنتية، وأناقة الديكور والأثاث، والمظهر الخارجي، وفخامة المكاتب، والسيارات بموديلاتها الحديثة، والسفر!

انعكست رداءة الإنتاج على الإنجاز، وتمدَّد ذلك الانعكاس. . حتى بلغ التفكير، والشعور، والسلوك، والروابط، والعلاقات.

«الطَّفْرة» التي حدثت. . أخرجت الناس من بيوتهم إلى: الصالونات، والمكاتب، والبنوك، وأخرجتهم من غرف نومهم إلى جوف الطائرات، ومن حميمية مشاعرهم. . إلى حُمَّى شيكاتهم وجيوبهم!

تيار. . . استسلم لاندفاعته الكثير، حتى السلوك والمشاعر والروابط والثقافة. . هم أيضاً استسلموا لذلك التيار، وغرقوا فيه!

كانت أشياء كثيرة محددة. . فأصبحت اليوم: غير محدودة!

* * *

بدَّد الصداع ما تبقى من أفكارها وتفكيرها. . بعد هذه الإجابة الطويلة التي ردَّت بها على السؤال!

حتى دموعها التي كانت تنساب لحظة عاصفة نفسها. . انحسرت، وجفت. . تبقّت لديها الحسرة، والأسئلة، والخطوة التي لا بد أن تتخذها.

ـ أين هي الآن. . من هي الآن؟!

إنها لا تعرف، لا تسمع، لا ترى!

وسمعت طرقة أمها على باب غرفتها. . تستعجلها لترتدي ملابسها وتتزين، استعداداً لاستقبال: غدها!

حين انتهت من ارتداء ملابسها. . اتجهت صوب غرفة والدها. . رأته متكوماً فوق السرير. . يبحلق في سقف الغرفة المظلمة إلا من ضوء خافت ترسله «أباجورة» صغيرة بجانب رأسه.

رمت نفسها على صدره... تبكي!

احتضنها، يربت على ظهرها وكتفها.. يشحذ جأشها.

رفعت رموش عينيها المبللة بالدمع. قالت لأبيها:

ـ أريدك بجانبي.

ـ قال لها: الله معنا جميعاً، لا تخافي.. إذا كان الله قد قدَّر لك شيئاً، فلا بد أن يتم.. رضيت أم أبيت، فلتكوني مؤمنة ومتماسكة.

جرس باب الشقة يقرع.. فزعت. ارتجفت. ازدادت التصاقاً بأبيها.. في هذه الدوامة، والخوف، والمجهول.. رأت وجه والدها الجريح.. يبدو أن والدتها قد أمسكت بزمام الأمور كلها.. لم تجد في ملامح وجه أبيها.. ذلك الرجل الذي عرفته: قوياً، صاهلاً، حازماً.. أشياء كثيرة تقشَّرت، وتساقطت، وتبدلت.

يا إلهي... حتى نفوس الناس؟!

بل نفوس الناس أولاً.. الخلل قد بدأ من هنا!

ـ وما الذي خلخلها؟!

الكثير كان (يرتكب) الحياة.. لا يحياها، ولا يعيشها!

دخلت أمها.. فوجئت بهذا المشهد:

رأس عهد يتوسد صدر أبيها، وهو يحتضنها، ومازال يربت عليها.

ـ قالت مندهشة: ما هذا.. هل سآخذك إلى ساحة الإعدام؟!

التفتا إليها معاً ـ الأب والبنت ـ ولم يجيباها بكلمة.. قامت «عهد» متثاقلة.. تجر قدميها ببطء، وهي تتلفت نحو أبيها، حتى غادرت الغرفة.

ـ قالت إلهام لزوجها: ماذا قلت للبنت؟!

لم يجبها. . أطفأ ضوء «الأباجورة»، وغطى وجهه. . لم يرد أن تراه زوجته يبكي مرتين. . مرة بسبب الخوف من هذا الزواج، ومرة: حزناً على فراق ابنته التي ستترك هذا البيت لأول مرة إلى بيت زوجها. . ويبقى مكانها الفارغ: مليئاً بالحنين والشوق. . ليت الناس كلهم يعرفون قيمة الدموع. . . إذن ما أهدروها!

وليس في مقدرة «خالد» في وضعه الآن. . إلا أن يستريح بدموعه. .

* * *

وحين فرغت «إلهام» من توديع ضيوفها. . ركضت مع صوت إقفال الباب إلى زوجها: متهللة، مستبشرة.

ـ قالت لزوجها: صرت تغضب مني كثيراً هذه الأيام، لكني أريد مصلحة ابنتي، صدقني. . كل فتاة تريد الزواج. هذا دلع بنات. . لا أكثر!

ـ الله يسوي الطيب.

ـ لماذا أصبحت بهذه السلبية؟!

ـ هل ركوني إلى الله سلبية. . يا امرأة؟!

ـ لم أقصد. . المهم، إسألني عن أهل العريس.

ـ سألتك. . ماذا عنهم؟!

ـ أمه تبدو طيبة، وقد تهلل وجهها مع النظرة الأولى «لعهد»، وهي سيدة راسية، وتوزن كلامها، أما أخته. . فقد أحبت «عهد»، التصقت بها، وتصاحبا من الدقائق الأولى.

ـ الله يستر... وما هو رأي عهد؟!

ـ مصممة أن ترى أنت العريس، وتتحدث معه.

ـ حقها... ولا بد أن تراه هي ويراها... هكذا الشرع.

ـ خلاص.. نفذوا الشرع يا سيدي، المهم... لا تفوتوا هذه العائلة، قبل.....

ـ قبل إيه؟!

ـ لا يروحوا وما يرجعوا... مثل الأول!

ـ المثل يقول: «المملك في السما»، وما يكتبه الله سيكون.

* * *

مرحلة العمر الأخرى

* وجهه: أملس التعبير والملامح.. ابتسامته: ذات تركيبات عدة.. ولم تجد صفاء فيها.. كلماته: كأنه يضعها في كفتي ميزان.. ويحرص أن لا تميل كفة إلى أعلى أو أسفل.

بمعنى: أنه يخلو من تلك الحركات العفوية، والتعبيرات الخالية من الخلفيات.

ولم تستطع «عهد» أن تتبيَّن من قسماته ما تبحث عنه من معان ودلالات.. كانت تسترق النظر إلى وجه «عاطف»... إنه لا يبدو أمامها: حيوياً، أو عفوياً... كأنه قد رسم نفسه بإتقان، ليظهر أمامها مهاباً، وهادئاً، ومسالماً.. ما أمكنه ذلك.. لعلها فشلت في استخراج محتوى صدَفته.. ربما لأن صدَفته قاسية غير هشة، أو لعل فتْحتها مليئة بالرمل، أو ما نسميه: «العُقَد»!

لا بد أن يتكلم، فتسمعه... كيف ينطق، كيف يفكر، كيف يحاور؟!

إنه يتشكل أمامها من مجموعة ألوان متزاحمة.. مثل اللوحة التجريدية، مليئة بالخطوط، ولكن شرحها هو الصعب!

سألت والدها، بعد أن رأى «عاطف» أمامه، وتكلم معه:

ـ ها. . . ما هو رأيك يا أبي؟!

ـ أريد أن أعرف رأيك أنت أولاً!

ـ قالت أمها: خلِّصونا. . . هل الولد سيارة أو فيلا؟!

ـ قالت عهد: كما وصفته لك يا أبي.

ـ قال خالد: برغم كل ما قلته عن ألوانه كلوحة تجريدية حسب وصفك، لكن ألوانه واضحة، الزحام الذي في داخله، فتحة «الصَّدَفة» المليئة بالرمل. . كلها أشياء سيؤثر فيها دخولك إلى حياته، وقدرتك على تنظيف الفتحة من الرمل.

ـ قالت: لكني أخاف. . مازلت خائفة من بعض غموضه، ومن رماله!

ـ قالت أمها: وبعدين؟!. . . لو جاءك كل شبان البلد، فلا بد أن يكون في كل واحد منهم عيب، وأنت أيضاً فيك عيب، وأنا، وأبوك، وكل إنسان. فليس هنالك إنسان كامل.

ـ قالت عهد: ولكن. . . هناك إنسان معقول، ومريح.

ـ وماذا به «عاطف» ها. . .؟ شاب مستحي، وأراه خجولاً أيضاً.

ـ شرطي الوحيد. . أن أكمل دراستي، وأحصل على شهادة الجامعة.

ـ وهو موافق على شرطك. . يبدو أن الولد قد انجذب إليك!

❊ ❊ ❊

ولم تطل فترة الخطوبة. . كان «عاطف» متعجلاً جداً لإضفاء الحياة على بيته. . فهو موظف في إحدى المؤسسات، ويسكن وحده في هذه المدينة

المزدحمة. أما أمه فتسكن وحدها في بيتها، وأخوته يعيشون حياتهم. . لكل منهم بيته وأسرته. . و«عاطف» هو أصغر الأبناء والبنات، ويطلقون عليه: «حبيب أمه»!!

فكَّرت «عهد» في الحلم، مع بدء حياتها الزوجية. . إن «عاطف» في تعامله معها يبدو طيباً وودوداً. . وينجذب إليها كثيراً، ولكنه شديد الغموض والتلون!

عيبه الذي اكتشفته في البدء: أنه عصبي جداً، ومتقلب المزاج، ويفتح أذنيه لكل كلام يقال له!

ـ قالت لها أمها: هذه طبيعة الإنسان الذي ترينه صامتاً في الجلسة. . فلا تدعيه يغضب أو يثور. . أما فتح أذنيه، فلك أن تراجعيه بهدوء.

ـ قال عاطف لزوجته: أريد طفلاً سريعاً!

ـ قالت: مهلاً. . لست معمل تفريخ، دعنا نستمتع بحياتنا الأولى. . دعني أعبر المرحلة الصعبة في الجامعة!

ـ قال: لا. . . أنت تؤجلين الإنجاب لتتأكدي من تشبثي بك.

ـ قالت: وهل تعتقد أنك نحيف إلى هذه الدرجة؟!

ـ قال: كل أصدقائي يقولون لي. . إن الزوجات يفعلن ذلك، حتى يثقن في تمسك أزواجهن بهن!

ـ قالت: هذا يعني أن الشباب اليوم لا يؤتمنون. . لأن مزاجهم وتقلبه عامل مهم في استمرار الحياة الزوجية والإنجاب.

ـ قال: فهل أصبر عدة سنوات لتتخرجي من الجامعة، ولتتأكدي مني؟!

ـ قالت: بل عليك أن تثبت لي أنك لن تبيعني بخصام، أو بكلمة تسمعها!

ـ قال: لكن أمي تلح علي في سرعة الإنجاب، لترى حفيدها مني.

ـ قالت: لديها أحفاد كثر. وأنا أحب الأطفال، وأحب أن يكون لي طفل أو طفلة منك، لأنك أصبحت زوجي ورفيق عمري، ولكن... عليك أن تزرع الأمان.

عبرت هذه العاصفة الأولى.. لكن «عهد» أحست أن زوجها أخذ يتغيَّب إلى منتصف الليل.

ـ كانت تسأله: لماذا تتركني وحيدة في شقة مملة بدونك؟!

ـ كان يرد عليها: إنني أذهب إلى أمي.. هل أقطعها؟!

ـ كانت تحاوره: بالعكس.. أمك صارت أمي، ولكنها لا ترضى أن تبقيني وحدي إلى ما بعد منتصف الليل، لتسهر معها، والا.. ما كنت تزوجت، وكنت بقيت بجانبها.

ـ قال: أنت تجلسين للمذاكرة، وأنا أسأم.

ـ قالت: إجلس إنت وأقرأ. شاهد التليفزيون، والمذاكرة لا تستمر طوال الليل.

ـ قال: أمل من القراءة، والتليفزيون سخيف ولا يجذبني.

ـ قالت: هذا تكوينك، فما ذنبي، وماذا تريد... أن أذهب معك يوماً إلى أمك؟!

ـ قال: وماذا فيها؟!

ـ قالت: فيها. . . أنني لن أذاكر، وأن أمك بمجرد دخولي عليها تعبس لأنها تحس أنني سرقتك منها، ثم تأمرني بكنس بيتها، وغسيل صحونها، وأنا لست خادمة!

* * *

عبرت هذه العاصفة الثانية، التي بدأت تكبر!

بعد شهور. . عاد «عاطف» إلى طلب الإلحاح في الإنجاب.

ـ قالت له: لقد اتفقنا. . لا بد أن تحترم اتفاقنا وموافقتك!

ـ قال: لكن أمي تلح علي. . . بل إنها. . .

ـ قالت: إنها ماذا؟!. . . تكلم.

ـ قال: تتهمك بالعقم. . أو بالإصرار على تناول حبوب منع الحمل.

ـ قالت: لا. . لست عقيماً، ولكن تنظيم الحياة ضروري، وربما كان هذا التنظيم غريباً على جيل أمك وأمي. . أما الآن، فهو ضروري لظروف الحياة، وأنت وافقت أن أكمل دراستي، ومرتبك الآن ـ يا دوب ـ يصرف على اثنين في بيت واحد، غير ما تقتطعه منه لتعطيه لأمك، ولا أرفض هذا لأنها أمك.

ـ قال: بالمناسبة. . . إن أخي يمر بظروف مادية صعبة، ورجاني أن أدبر له أربعين ألف ريال، وأعرف أنك تقتصدين في البنك من فلوس الجامعة، ومما يعطيه لك والدك. . فقط أعطني هذا المبلغ سلفة، وسأعيده إليك.

ـ قالت: إنني لا أبخل عليك، ولكن هذا المبلغ ليس في حوزتي كله، وأنت تعرف ظروف أبي.. فأرجو أن تقدّر ذلك.

ـ قال: هكذا إذن؟!... ولا أدري ماذا تريدين بشهادة الجامعة.. هل تعلقينها في المطبخ؟.. حتى الطبخ أنت لا تجيدينه!

لقد بدأت خطوط اللوحة التجريدية تتضح، وأخذت الألوان تتغمق.

هذا رجل تسيطر عليه أذنه، وأشياء أخرى.

إنها لا تكره أمه.. لقد أحبتها بالفعل يوم رأتها لأول مرة، وحين احتضنتها وقالت لها: ستكونين مثل ابنتي هذه.. يهمني أن يكون ابني سعيداً.

لكنها بادرت إلى أسلوب الدويّ في أذن ابنها المهيأة دائماً. وكان احتضانها لها يومها تطميناً، ودرءاً للغيرة.

الآن.. يطلب منها أن تترك الجامعة. قال لها وهو يأخذها ذات يوم من باب الجامعة:

ـ اسمعي... إن هذا العمل مرهق لي.. في الصباح أنقلك إلى الجامعة وأذهب لعملي، وفي الظهر أخرج من عملي وأقطع هذا المشوار، ولا أطيق هذه المشقة.. بالإضافة إلى أنني لا أجد غذاء ساخناً وطازجاً.

ـ قالت: لكنك كنت تعرف ذلك، ورضيت بشرطي، ودعني أذكرك ـ لو نسيت ـ فقد قلت: سأكون سعيداً أن أرى زوجتي وهي تتخرج وتحمل شهادة الجامعة.. فما الذي تغيَّر الآن، أم أنك كنت تكسب الوقت وتراوغ؟!

* * *

وثارت العاصفة الهوجاء، الأكبر.

بعد مرور عام في هذه النزاعات، والتنغيص. . فوجئت «عهد» بحماتها تطلبها على الهاتف.

توقعت الكارثة من لهجتها وطريقة حوارها. . وهي تقول لها:

ـ إسمعي يا صغيرة. . إذا كنت تعتقدين أنك استحوذت على ابني، فأنت مخطئة. هذا ابني الأصغر. . آخر العنقود، أجد فيه رائحة والده يرحمه الله، وكان مطيعاً لي لا يرد لي طلباً.

ـ قالت عهد: وماذا فعلت لك ولابنك؟. . إنني أطالبه فقط بحقوقي عليه كزوجة؟!

ـ قالت: زوجة؟. . حقوق؟. . كلام متعلمات آخر زمن. كلمة أخيرة. . لا بد أن يكون لابني طفل، وهذا إنذار أخير، ولا بد أن أرى ابني كل يوم، فأنا أمه ولا أطيق بعاده عني.

ـ قالت عهد: إنه يتغيَّب عن البيت ويدَّعي أنه يذهب إليك. . فاسأليه أين هو، أما الطفل. . فقد اتفقنا على موعده.

ـ قالت: موعد؟. . حتى «الحَبَل» له موعد عندكن يا بنات اليوم؟!

أقفلت سماعة الهاتف في وجه «عهد».

ضربت «عهد» رأسها في الجدار. . لم يكن في قدرتها سوى البكاء. . وعندما فتح «عاطف» باب الشقة. . أطل عليها بوجهه المكتئب العبوس. . حدست أنه ينوي على شيء. . فلا بد أن يكون بين محادثة أمه وشكله هذا

توافق.. حاولت أن تتحاشى الحوار معه.. لكنه بادأها الكلام:

ـ كلمة أخيرة يا «عهد».. إما أن توقفي تناول حبوب منع الحمل، وتتركي الجامعة، أو...

ـ قالت: أو أعود إلى بيت أبي؟!

ـ قال: إفهميها!!

* * *

نظرة أخرى. . للغد

* طال المقام بـ «عهد» في بيت أبيها، بعد أن تركت عش الزوجية بذلك الإيحاء الذي فعله معها زوجها، وبعد أن خيَّرها: إما أن تمتنع عن تناول حبوب منع الحمل، وتمتنع عن الدراسة في الجامعة، أو. . . . . تعود إلى بيت أهلها!

مضى شهر على هذا الخلاف الذي يبدو ـ في بدايته ـ مثل شرخ صدَّع بيت الزوجية في سنته الأولى!

ومضى شهر آخر بعده. . وكان الشرخ يتسع أكثر، فلا «عاطف» ـ زوج عهد ـ اتصل بزوجته، ولا بأبيها، ولا وسيط من عائلته. . ولا «عهد» أيضاً حاولت أن تتصل بزوجها.

ـ قالت لأبيها: لن أتصل به. . كلماته الأخيرة لي كانت تشبه طردي من بيته، ثم. . . . زاد الطين بلة، فلم يتصل، ولم يحاول أن يعتذر عن طرده لي. . كأنه أراد تلك الخطوة!

ـ قالت لها أمها: لكنك أنت التي خرجت من بيته!

ـ قالت عهد: صحيح. . بعد أن طردني، وخيَّرني بلهجة التحدي، والإنسان الذي يبيع!

ومضى شهر ثالث. . والصمت يخيم على الموقف الغامض بين «عهد» وزوجها. . وحين كانت «عهد» في غرفتها. . تسترجع ذلك الشريط القصير والمحزن من حكايتها الغريبة التي تروى عن: شاب غريب تقدم لخطبتها، واقترنت به، وعاشت معه تحت سقف الزوجية عاماً كاملاً. . . قرع جرس الباب في تلك اللحظة قرعاً متلاحقاً.

ـ من الذي يقرع الجرس؟!

ـ أنا نائب عمدة المحلة. معي مذكرة باستدعاء ابنتكم «عهد خالد السعيد» للمثول أمام القاضي!

ـ قالت أمها: عملها النذل!

واضطرب البيت كله. . لكن «إلهام» كانت أكثر حدة وانفعالاً وركضاً في أرجاء المنزل. . متوترة، حانقة، تردد:

ـ وصلت بنا الحال للمحاكم؟!

ـ ابنتي تنزل محكمة. . ليه؟!

نظر «خالد» إلى حالة زوجته التي أصيبت بشبه هستيريا. .

تطلع إلى وجه ابنته «عهد»، وقد غسلته الدموع المنسابة من عينين حزينتين. . احتضن زوجته وابنته، وهو يتقطر أسى وألماً، ويداري أمامهما فجيعته، ويحتمل قسوة الموقف بصبر وجلد. . حتى يخفف عنهما. . يقول ابنته مواسياً. . قائلاً لها:

ـ ليعوضك الله خيراً منه. . هذا قدرك ونصيبك. احمدي ربنا أنك لم

تحملي منه بذرة في أحشائك. . فمثل هذا لا يستحق أن يكون له امتداد أصيل!

* * *

أمام القاضي. . كان «خالد» يقف وبجواره ابنته، وفي الجانب الآخر يقف «عاطف» عبوساً، مطأطئ الرأس.

ـ سأله القاضي: ماذا تريد من دعواك؟!

ـ قال: أريد أن أطلقها، لأنها لم ترضخ لشروطي، ولكن بشرط: أن لا تطالبني بخيط واحد من أثاث منزلنا، ولا بقرش واحد!

ـ قال القاضي: ليس هذا هو الإسلام ولا تشريعه، فقل كلاماً عاقلاً. . فأنت الكاره!

ارتعش «عاطف» أمام القاضي، وأعلن طلاقه، ورجفته تزداد وتتضح في تلعثم صوته، واهتزاز يديه، وكآبة وجهه!

لم تطفر دمعة واحدة من عيني «عهد». . لكن الوجوم والحزن يكسيان وجهها الغض الصغير.

ـ قال له والدها: ليجازيك الله لقاء ما فعلته بمستقبل فتاة كانت تحلم بحياة الاستقرار والسعادة معك.

والتفت إلى القاضي، بعد إجراء مراسم الطلاق، قائلاً:

ـ سيدي القاضي. . إن ابنتي متنازلة عن كل ما في البيت. . لا نريد منه خيطاً واحداً، لأننا لا نريد أية ذكرى مؤلمة في الغد!

ولم تنم «عهد» ليلتها تلك. . تمنَّت أن تنساب دموعها لترتاح. . فعصتها

الدموع.. تمنت أن تفقد ذاكرتها عن العام الكامل.. لكن ذلك يحتاج إلى بلسم، ووقت قد يطول، وقد يقصر!

أخذتها أمها إلى صدرها، وقالت لها:

ـ سأنام بجانبك هذه الليلة.. فهل تقبليني؟!

ـ قالت عهد: لا داعي يا أمي.. إنني بخير، لعل أبي يحتاجك،. وهو المتعب الموجوع.

وفي اليوم التالي.. امتلأ البيت بالنساء من أهلهم، وجيرانهم، وأصدقائهم.. يواسين ويحاولن التخفيف من المصاب!

كان الحديث فياضاً بالشجون... لأنه يختص بظاهرة الطلاق التي تعصف بالمجتمع.

وسائل الإعلام تتحدث عن: غلاء المهور، وتتحاشى أن تناقش غلو أشياء أخرى، مثل: الرعونة واللامبالاة والغرور.. مما أخذ يتفشى في وريد المجتمع، وسلوكيات شبابه

ما هي أسباب تصعيد ظاهرة الطلاق من الشباب؟!

هل هي مادية، أم نفسية، أم اجتماعية ـ سلوكية؟!

لا أحد يصل إلى نتيجة؟!

وتعاقب النسوة في رواية حكايات مختلفة، على مسمع من «عهد» الجريحة وأمها.. عن فتيات صغيرات في عمر الزهور، زوجوهن وطلقن بعد سنة.. بعد شهور.. بل بعد شهر!

ـ قالت واحدة منهن: نصف بنات الجامعة مطلقات الآن!

ـ قـالـت أخـرى: وي!. . . نـص إيـه؟. . قـولـي ثـلاثـة أربـاع الـبـنـات مطلقات!

ـ قالت ثالثة: إللي يشوف البذخ في حفلات الزفاف، يتحسَّر على المبالغ الطائلة التي تهدر، ويكون مصيرها الطلاق!

ـ قالت الأولى: إنت همك الفلوس. قولي: اللي يشوف بنت مثل القمر في ليلة زفافها. . يحصّنها ويخاف عليها من المصير البشع الذي قد يرميها فيه شاب متهور، أو لا مبالي. . المهم إنه. : استمتع لفترة. . كأن بنات الناس لعبة!

اختلطت الأصوات، واحتد النقاش!

فرغت فناجين الشاي والقهوة، وترمدت نار «الشيشة»، وامتلأت طفايات السجائر بالأعقاب والرماد!

انفض الجمع. . وبقيت الأصداء في بيت «خالد السعيد» تلاحق «عهد» وأمها، وتهز جسم «عهد». . في اللحظة التي تمسح فيها دمعة الانكسار في عينيها!

❊ ❊ ❊

وقبل أن ينتصف الليل. . طرق والدها باب غرفتها. . رأته أمامها شامخاً كعادته، مهاباً. . يحاول أن يرسم ابتسامة مصطنعة على شفتيه. . اندفعت نحوه، قافزة من فوق سريرها. . احتضنته، وغمرت رأسها في صدره، وبكت بحرقة. . بنشيج عال، ويده تربت على ظهرها، وتمسح شعرها الأسود الغزير. . وقد تحوَّلَت بين ذراعيه إلى طفلة بريئة، لكنها تنزف شبابها، وتجربتها كدماء الجريح!

ـ قال لها: جئتك.. لأنني أعرف حاجتك إلى البكاء، لا بد أن تبكي لترتاحي، وبعد ذلك حاولي أن تطوي الصفحة السابقة.. اقذفيها إلى الماضي، وتوجّهي بشبابك، وبآمالك، وبطموحاتك إلى الغد.. فلم يزل أمامك العمر، والشباب، والفرص، والعلم.، والله معك!

تلك الليلة نامت باستغراق.. أحست أن كلمات والدها تنقذها من الغرق.. تجفف دموعها.

ـ قال لها بعد ذلك: لم تكوني الأولى، ولا الأخيرة.. في مجتمعنا بوادر جنون، الجميع غافل عنه.. إنها مأساة مجتمع في رأي.. وغيرك كثيرات، ولا أحد يجيب عن هذه الأسئلة المطروحة. كأن الآباء، والأمهات، والعلماء، والمفكرين.. قد انشغلوا جميعاً.

تركت كل هذه الأسئلة، ونامت ليلتها تلك.. فقد كانت مرهقة، محطَّمة، فاحتضنت إرهاقها، وانكسارها، واستسلمت للنوم!

* * *

رجولة فارس

* كان لا بد لـ «خالد السعيد» أن يعبر شهوراً طويلة وقاسية. . حتى يستطع بعدها أن يسترد أنفاسه اللاهثة، وهو يخرج من غربة السجن القاسية، والديون التي كانت ترزح فوق كاهله. . وهو يخرج ـ أيضاً ـ من معاناة ابنته الوحيدة، بعد تجربتها التي تمثِّلها أكثر قسوة من تجربة سجنه!

كان يخاف أن يزيغ صبره، وأن يتخلخل صموده في هذه المحن. . وكان يفكِّر ـ في تلك الآلام ـ كيف يبدأ من جديد، وينطلق إلى فتح باب آخر يشكل من خلاله حياته الجديدة، ومصدر رزقه هو وأسرته. . لقد ردَّد المجتمع قصة سجنه وديونه فترة من الزمن. . وكان الحكايات تبلغه حتى عندما كان داخل أسوار السجن. . الناس يتكلمون عن الحكايات التي يسمح بها اللغط والثرثرة بالتداول، وبعد أن يسقط الجريح، أو المخطئ، أو المظلوم، أو الذي خانته الظروف والملابسات والمواقف!

لكن الناس لا يقدرون أن يتكلموا عن أولئك الذين يخافونهم، أو الذين مازالوا يستمتعون بالضوء، وبالنفاق الاجتماعي!

لقد عانى «خالد السعيد» أثناء احتجازه في السجن، وبعد إطلاق سراحه، ومحاولته أن يدخل إلى المجتمع من جديد. . وكانت النظرات متفاوتة وملونة، وباهتة أحياناً، وحادة أحياناً أخرى. . لكنه وجد الصدور الرحبة،

والنفوس المتسامحة الطيبة.. وجد عند البعض الصفح والترحاب، والدعوة إلى الحياة.. حاول أن يواصل العمل في مكتب «الديكور» الذي أنشأته زوجته أثناء سجنه، وساعدها فيه ابنهما «فارس».. لكنه اكتشف أن السوق يميل إلى الركود، بعد انحسار «الطَّفرة».. كان لا بد له أن يفكر في مشروع آخر، ولكن... من أين له رأس المال؟!

فكَّر في إنشاء «سوبر ماركت».. يبدأه صغيراً في حدود إمكاناته المادية، المتبقية.. نحت في الصخر، وغاص في الطين، وصمد.. كان يبتسم وهو يتذكر عندما كان رجل أعمال كبيراً، وهم يحدثونه عن ضرورة دراسة الجدوى الاقتصادية، وجرب أن يتصل بشركات خارجية عن طريق الغرفة التجارية.

لا بأس أن يبدأ صغيراً من جديد.. وفعل ذلك.. وفي كل خطوة لا ينسى تجربته التي أوصلته إلى السجن. صار حذراً، يتلفت، ويدرس، ويستشير، ويفكر.. كأنه بعد هذه البداية الأخرى.. يكاد يطمئن على أوضاع بيته، لكن القلق يساوره.

زوجته إلهام.. أخذت تسترد عافيتها إلى حد ما، وقد عصفت بها الأحداث الماضية، وزلزلتها، وانعكس ذلك كله على مقاومتها البدنية، وبداية خوفها من دخول العقد الرابع في عمرها!

ابنته عهد.. استطاعت أن تجتاز محنة التجربة الأولى في حياتها، وتتوجه إلى تحصيلها العلمي، وإصرارها على التخرج من الجامعة أولاً.. وقد شارفت على تحقيق هذه الإرادة الجيدة.

أبوها.. يقول لها في حواراتهما المستمرة:

ـ لا أريدك أن تتوقفي يا عهد. . بل عليك أن تواصلي الدراسة بعد البكالوريا وتحصلي على الدكتوراه، والتخصص، والوقوف الصلب في مواجهة تحديات الحياة!

أعرف أنك مازلت طرية، ولكني أثق في قدراتك وطموحاتك من أجل العلم. أعرف ـ أيضاً ـ ضرورة أهمية أن تكوني زوجة وامرأة متكاملة. . لك بيت وزوج وأطفال، لأن هذه طبيعة الحياة والتكوين البشري، ولكن. . عليك أن تحسني الاختيار، وتدققي النظرة!

كان الخطأ الأول منا ـ أبوك وأمك ـ فلا يكون الخطأ بعد ذلك منك. . من عواطفك، وعليك أن تكوني متيقظة وناضجة!

وتصغي «عهد» إلى أبيها بفرح. . بابتسامة عريضة، وتضع رأسها على كتفه، تقول له، ويسمعها كأنها تغني:

ـ فرحتي الأكبر يا أبي أنك بدأت تستعيد ثقتك بنفسك، فإذا كنت أنت بخير، فنحن بخير. . أما أنا، فلا تخف عليَّ، لقد أحسنت تربيتي، وأحسنت زرع بذرة الحب النقي في مشاعرنا جميعاً. . إنني متفائلة الآن. . والحياة لن تخذل الذين يعملون!

* * *

أغرورقت عينا «خالد» بالدمع، وهو يصغي إلى «بيان» ابنته، وطريقة حوارها معه. وبجانبها كان يجلس «فارس». . صامتاً، يحدِّق في وجه أبيه. . كأنه يسأله:

ـ وأنا؟. . متى يأتي دوري لتناقشني؟!

وجاء دور «فارس». . حين التفت إليه والده، وسأله:

ـ وأنت... هل ستبقى في الجامعة طوال عمرك؟!

تمتم «فارس» في سره مع هذه البداية التي جابهه بها والده.. كأنه يقول:

ـ لماذا تهاجمني يا أبي؟!

ـ سأله أبوه: لم تجبني يا فارس؟

ـ قال: بالعكس يا أبي... إن تقديراتي الآن لا تنقص عن الجيد،، وجيد جداً!

ـ جميل... ولكني أريدها تصعد إلى «ممتاز»!

ـ أعدك.. المهم أنت يا أبي، عليك أن تطمئن وتثق بي كما وثقت في «عهد»، والا.... البنات أحسن؟!

ـ لا أدري.. النتائج الدراسية في نهاية العام صارت تؤكد تفوق البنات، لكني أثق فيك، وأعرف حرصك على اختصار الوقت، واحترام الغد.. وكما قلت لك في السابق: إنني لن أحتاجك لما تبقّى من عمري، ولكني أريد أن أطمئن على مستقبلك أنت.. أريدك أن تكون ناجحاً ومتفوقاً، ومنتجاً تخدم بلدك، وتصبح شخصاً مفيداً ومواطناً فعَّالاً!

ـ إنني أعدك يا أبي.. فلا تشدِّد عليَّ أكثر من ذلك!

ـ حسناً... وما هي أخبار القلب؟!

ارتجف «فارس» في تلك الثانية، ونظرات والده تحاصره.. فلا يقدر الخلاص منها.

ـ ماذا تقصد يا أبي؟!

ـ أقصد ما أنت تعلمه . . التلفونات بعد منتصف الليل، والتسلل بسلك التلفون إلى غرفتك، والمغامرات!!

إنني لا ألومك يا بني . . أعرف أن الشباب يفعلون ذلك، وأنت لست شاذاً عنهم، ولكني أنبهك إلى الالتزام بالسلوك النظيف، والارتفاع باسمك وسمعتك عن تلويثها، ولا بد أن تعرف أن بنات الناس لسن لعبة، ولا هن مجالاً للعبث . . حتى لو وجدت واحدة تندفع إلى العبث . . وهل ترضى لأختك ـ مثلاً ـ أن تكون مجالاً لعبث شاب مثلك؟!

ـ ولكني أريد أن أختار واحدة، لتكون شريكة حياتي في المستقبل.

ـ حسناً . . الاختيار لا يتم عن هذا الطريق، حتى لا يلازمك الشك طوال حياتك، وتظلم بعد ذلك من لا تستاهل ظلمك!

فهل تريد أن تتزوج الآن يا «فارس»؟!

ـ لا يا أبي . . لا بد أن أتخرج، وطموحاتي لا تقل عن طموحات أختي . . إن لم تتفوق عليها. فأنت محق، وأعدك من الآن.

ـ ولكني سمعت حكاية لم ترحني كثيراً، وأفضّل أن أسمعها منك بحقائقها بدلاً من أن تأتيني بأشكال أخرى.

ـ أية حكاية يا أبي؟!

ـ حكاية امرأة السيارة والفيلا!!

* * *

الفرار من الجحيم

* أحس «فارس» أن رأسه يتطوح، ويكاد يسقط من فوق كتفيه.. نظرات والده تخترقه كسهام مسددة إلى مصداقيته، وضميره.. تمنى في تلك اللحظة أن تنشق الأرض وتبتلعه.. الحيرة والدهشة يعصفان به.. في شكل أسئلة مدببة:

ـ من أخبر أبي بالحكاية؟!

ـ كيف عرف تفاصيلها.. ومن رآهما، وهو الذي كان حريصاً جداً على كتمانها؟! تصبب العرق من وجهه وجسمه.. وشعر ببرودة تثلج أطرافه. غامت عيناه.. وارتج عليه.

وفي هذه العاصفة التي هبت بكلمة من والده.. جاءه صوته عميقاً:

ـ اسمع يا «فارس».. إنني لا أريد أن أحرجك، ولا أن أعاقبك أيضاً، فقد كبرت ونضجت.. فقط أريدك أن تكون صادقاً معي، وتحكي لي كل شيء بالتفصيل، وتثق في نصيحتي.

ـ العفو يا أبي... إنها المرة الأولى، والأخيرة.

ـ ليكن.. أخبرني بكل شيء.

ـ لا بأس يا أبي.. ولكنها حكاية غريبة، صدقني.. لقد اقشعر لها

بدني. لم أصدق ـ أنا الذي كنت بطلها ـ إن ما حدث يمكن أن يتسلل إلى مجتمع يتصف بالتماسك والنقاء والقيم. . ولكنني أعتبر ذلك من الأجسام الغريبة فعلاً.

ـ أعرف يا ولدي. . لكن لا تنس أن المجتمع قد تعرَّض لاقتحامات ودخول أجناس متعددة، وتأثرات ومغريات، واحتياجات. . ولا تنس أنها مرحلة انتقالية، لا بد أن تحدث فيها هزات تهدد البنية الاجتماعية المترابطة، والبنية الأسرية. . ورغم ذلك، فإن ما تعرضت له بالتجربة، لم يكن مثالاً شائعاً. . بل كان خلخلة لموقف شاذ لا يعبر عن وحدة المجتمع، وأخلاقياته. . والآن. . . ما هي الحكاية؟!

ـ ولكن يا أبي. . . . أرحني، وأخبرني كيف علمت. . . أرجوك؟!

ـ حسناً. . هناك فئة من الناس تفتش عن حكايات الآخرين وأسرارهم وحياتهم الخاصة، وهناك الجانب الآخر في حكايتك، وهو جانب معروف لتعدد ممارساته التي تمت معك أنت. . وأيضاً تمَّت مع غيرك، فهل فهمت؟!

ـ ول!!!. . . إلى هذه الدرجة؟!

ـ وأكثر. . . المهم، ما هي الحكاية؟!

* * *

ـ كنت أشعر بالملل، وأخذت أتجول في واحد من الأسواق الحديثة المتناثرة. لم يكن معي في ذلك المساء أي واحد من أصدقائي. . كنت أشعر بالوحدة أيضاً، وبالفراغ. . وأردت أن أروّح عن نفسي، فدخلت ذلك السوق الذي يرتاده الشباب مع مطلع كل مساء. . أتسكَّع مثلهم تحت أضواء الليل والفترينات، وفي زحام البشر.

لم يكن في نيتي أن أشتري شيئاً.. مجرد فرجة وتسلية، وطيش شباب، وملل. أين أذهب، وماذا أفعل.. غير هذا الذي طرأ على بالي، وكنت متعوداً عليه مع أصدقائي بين فترة وأخرى.. حينما نملّ من المذاكرة، والقراءة، ومن كل الذي تعوّدنا عليه!

فجأة... وأنا أخرج من محل لبيع أشرطة الكاسيت، بعد أن ابتعت شريطاً جديداً... لمحتها!!

لم تكن فتاة غضة، ولا صغيرة، ولا مراهقة!

لا... كانت امرأة متكاملة، ممشوقة القوام، مياسة.. تضع اللثام على أنفها وفمها. خلت أن عينيها نجمتان توصوصان، وتحاصران نظراتي وانتباهتي إليها! توقفت.. شبه متجمد، كالمذهول.. كنت فاغر الفاه.. وكانت تملك عينين جذابتين، ساحرتين بحق!

وخطرت من أمامي.. تتأوه، فتابعتها.. دخلت إلى متجر للأقمشة، وانتظرت خروجها أمام باب المتجر!

وفي كل مرة... كانت ترمقني بنظرة، مثل رصاصة اخترقت صدري.

صدقني يا أبي.. إنها منطقة جاذبية كاملة، بكل ذبذباتها القوية.. واستمرت تدخل متجراً، وتخرج منه إلى آخر.. أكثر. من نصف ساعة.. وفي. كل مرة أتلقى رصاصة من جديدة من عينيها، كأنها تدعوني للحاق بها.. فأنجذب وراءها!

أخيراً.. اتجهت صوب بوابة الخروج، وأنا أتبعها.. امتطت سيارة تنتظرها بسائقها. وخلت أنها أومأت لي.. ركضت إلى سيارتي بجنون، .

وسحر منها. . أتمنى أن لا أضيّع سيارتها. . وعرفت بعد ذلك أنها كانت ترقبني. . عبرت سيارتها من جانب سيارتي. . تمشي الهوينى!

تبعتها بسيارتي: شارع رئيسي عريض، إلى شارع فرعي متوسط، إلى شارع صغير شبه مظلم. . توقفت سيارتها هناك، وبالتالي. أوقفت سيارتي حتى لا أصطدم بسيارتها فوجئت بها تترجل من سيارتها، وتتجه إليَّ!

دخلت بسرعة إلى المقعد بجانبي، وقالت:

ـ بسرعة. . انطلق وراء سيارتي.

ـ قلت، وقد بدأت أرتجف: إلى أين؟!

ـ قالت: ألا تريدنا أن نتكلم، وترى وجهي، ونسهر معاً؟!

ـ قلت مندهشاً: نسهر معاً. . أين؟!

ـ قالت: في بيتي!

لاحظت أن لهجتها تختلف تماماً عن لهجتنا. . فهي ليست من منطقتنا، ولا من بلدنا! يدها. . ناصعة البياض، ودقيقة، ورقيقة!

ـ سألتها: من أين أنت؟!

ـ أجابت: وهل يهمك. . مادمت أعجبتك، وأنت أعجبتني!

ـ قلت لها: ولكن. . أنا لا أعرفك، ولا أدري إلى أين ستأخذينني؟!

ـ قالت: لا عليك. . اطمئن، لقد شعرت بجاذبية إليك، مثلما شعرت أنت أيضاً بجاذبية نحوي. شكلك وسيم، وفيك رجولة مبكرة.

ـ قلت: صحيح. . لقد شعرت بجاذبية نحوك، ولكن. . . .

ـ قاطعتني: وبعدين؟... لا أحب الرجل الذي يخاف .ويتراجع.

واستغرق هذا الحوار طريقنا إلى بيتها.. تقدمتني إلى داخل البيت بخطوات مطمئنة... وفي داخل الصالون الأنيق، الوثير فرشه.. وقفت في مواجهتي، ورفعت لثامها! وندت مني شهقة.. دون أن أقدر على حبسها!

سبحان الخلاق العظيم.. كيف يدنس هذا الجمال؟!

كانت أنثى ذات جمال مثير، وأخاذ!

وفي الوهلة الأولى.. خفضت رأسي، وعيني..

أخذتني من يدي، وأجلستني في صدر الصالون، واستأذنت لحظات.. كنت أعاني من الرجفة والخوف.. أسائل نفسي برهبة:

ـ كيف فعلت ذلك؟!

ـ كيف أدخل بيتاً لا أعرف من تكون صاحبته.. وماذا ينتظرني فيه؟!

ـ كيف فعلت هي ذلك.. تدخل شاباً غريباً، ولا تخاف؟!

عادت بعد دقائق، وقد أبدلت ملابسها بغلالة مثيرة.

جلست بجانبي.. اقتربت أكثر، وسألتني مبتسمة:

ـ هل تشرب.. أم أعلمك؟!

ـ قلت لها: أشرب ماء.. إن حلقي يجف!

قهقهت بدلال.. وقامت تتراقص مثل أفعى، وأحضرت لي الماء.

لطمتني المفاجأة القاصمة.. التي كادت تشلني!

لقد غادرت الصالون، وما لبثت أن عادت ومعها رجل في العقد الرابع من العمر. كان يبدو عليه التهالك. . ربما لأنه مفرط في تناول أشياء لا أعرفها.

ـ قالت لي: أقدم لك. . . زوجي!!

ألجمتني المفاجأة. . حتى عجزت عن الرد.

ـ استطردت: لا تخف. . إنه حبّوب، سيسهر معنا، ويستمتع بالفرجة!!

ـ سألتها هامساً: هل هو من نفس جنسيتك وبلدك؟!

ـ قالت: هذا لا يعنيك، إنه مسكين. . يعاني من العجز الجنسي!

ـ همست لها أيضاً: ولماذا تبقين معه. . من حقك أن. . . .

ـ قاطعتني: ألم أقل لك أن الأمر لا يعنيك؟. . عندي ظروف، مضطرة لها، أو أنني مضطرة له، وطالما رضي ببقائي معه هكذا. . فليشرب كأسه وحده.

ـ سألتها: وماذا تريدين مني؟!

ـ قالت: تبسطني. . أبسطك، و. . . . ينبسط هو أيضاً!

ـ صرخت مفجوعاً: ماذا؟!

ـ قالت: اخفض صوتك. . لا تزعجه.

طلبت منها أن ترشدني إلى طريق الحمام. . فلم أعد أتمالك نفسي، وفكرت في مخرج جانبي، بحثت عنه واهتديت إليه. . وأخذت أركض نحو سيارتي، ألهث، ألهث. . حتى تأكدت أنني فررت من هذا الجحيم!

شيء فظيع.. بقيت عدة أيام في كابوسه، أحاول أن لا أصدقه، وأتساءل:

ـ ما الذي حدث.. ما الأسباب: الفلوس، أم السلوك، أم الحاجة، أم سقوط أشياء جوهرية كثيرة؟!

* * *

عنوان الزمن

* أصرَّت «إلهام» أن تبحث لابنها «فارس» عن فتاة من أسرة طيبة. . حتى يهدأ بعد الزواج ويستقر، ولا يعرض نفسه لمخاطر مثل تلك التي رواها لأبيه في حكايته الغريبة!

وطال الجدل بين الأب والأم. . لم يكن من رأي «خالد» أن يزوج ابنه في هذه السن. . على الأقل يتركه حتى يتخرج من الجامعة، ويعتمد على نفسه، ويقدر على فتح بيت، ومسؤولية أسرة وأطفال!

أما «إلهام». . فقد كانت متشدِّدة في إلحاحها بضرورة تزويج «الولد». قالت لزوجها وهي فزعة:

ـ يعني ننتظر حتى نرى «الولد» في السجن؟!

ـ لقد كانت تجربة مريرة بالنسبة لابننا، وصدِّقيني أنه استفاد منها.

ـ أصدقك. . كيف؟. . هذه المرة ذهب مع امرأة جميلة أغوته وأغرته. . المرة الأخرى سيذهب مع مروجي المخدرات. ألا تعرف ماذا يجري في البلد؟!

ـ أسألك الآن وأجيبيني بصراحة: ألم تحسني تربية ابنك؟!

ـ أعتقد ذلك.. ولدي لا يمكن أن يدمِّر نفسه.

ـ لقد تحدثت معه طويلاً، وبعد أن روى لي حكايته بصدق.. حتى أخطار الانزلاق وراء الشِّلل، خوفاً من سقوطه في فخ المخدرات قد حذرته منها.. وجدته يعي كل ذلك بقناعة وحرص.. فلا تخافي.

ـ حدثني «فارس» مرة عن زميل له في المدرسة، كان يبدو عليه الشرود والإعياء، حتى جاء يوم أخذه فيه رجال الأمن بتهمة تعاطي المخدرات.. ألا يشكل مثل هؤلاء خطراً على أبناء الناس في المدارس والجامعات؟!

ـ بلى... وبعض هؤلاء أيضاً من أبناء الناس الذين غُرِّر بهم، لكن أهلهم لم يحسنوا مراقبتهم وتربيتهم.. فالأب مشغول، والأم منشغلة.. وهذه نتائج فترة مضت، كان الكثير من الناس يجرون فيها وراء الفلوس، والجاه، والمراكز، والنزوات أيضاً.. مما أدَّى إلى إهمالهم لبيوتهم وأسرهم..

ـ لذلك... لا بد أن نزوج «فارس»!

ابتسم «خالد»، وربت على كتف زوجته المفزوعة، وقال:

ـ اهدئي.. واتركيني أعالج الأمور بحكمة.

ـ وهل أنا مجنونة؟.. إنني مثلك متعلمة، وجامعية، وقارئة جيدة!

ـ لأول مرة منذ تزوجنا يا «إلهام» وطوال هذا العمر.. أسمعك تفاخرين بمثل هذا الكلام.

ـ أعمل إيه.. لقد غظتني!

ـ أنت قدت معي سفينة هذه الأسرة في بحار كانت أمواجها عاصفة، وكنت أراك صامدة وعظيمة.. ولا أشك في رجاحة تفكيرك أبداً، لكنك في

هذا الوقت يسيطر الانفعال عليك، وتدفعك العاطفة. . خوفاً على ابنك وعلى مستقبله، بينما يحتاج الموقف إلى تروي وهدوء أعصاب!

لقد كبرت البنت، وكبر الولد. . ولا نريد أن نعاقب الولد على خطأ ارتكبه، بل نناقشه ونحاوره ونقنعه، ونراقبه.

ـ قالت غاضبة: نعم؟!. . وهل إذا زوجناه، يعني ذلك أننا نعاقبه؟!

ـ لم أقصد أن الزواج عقاب، ولكن «فارس» سيشعر بذلك، فيكره الزواج، ولقد فعل بعض الآباء ذلك. . فكانت النتيجة سلباً في معالجة مشكلة كهذه!

ـ يا ربي. . إنني لم أبرأ بعد من الجرح العميق الذي سببه لنا ذلك «المدعوق» عاطف ال. . . . . . ! بعد أن كسر نفس ابنتنا، ولا أحتمل مطرقة أخرى بعد تلك المطرقة!

ـ ذلك كله مكتوب لنا ولأسرتنا، ولا بد أن يكون إيمانك بالله قوياً.

* * *

لكن أصداء هذا البيت قد خيَّم عليها حزن ككل. . يحاول كل فرد في الأسرة أن يداريه لئلا يؤثر على مشاعر بقية الأسرة. . كل فرد يعاني من صراخ في داخله، ومن ألم يعصف بأحلامه، ومن طموحات تطرد وراء أبعاد نظرته. . يحدث أن ينام «فارس»، وتنام «عهد». . ويبقى الأب والأم في غرفتهما، يلفهما في البدء صمت الهموم. . كل منهما يعرف ما يعتمل في نفسية الآخر. . ثم يعلو صوتاهما تدريجياً. . ويكتشف «خالد» أن زوجته يمضّها القلق المضاعف، فهي لم تعد قادرة على التفكير، ولا على الصبر، ولا على إعادة كثير من الأمور إلى نصابها!

ـ تقول لزوجها: ماذا حدث.. كل شيء تغيَّر. تصرفات الناس، سلوكياتهم.. حتى أسلوب عواطفهم وحبهم؟!

هل يبدو ما نحسه على شكل إنذار باقتحام الشيخوخة.. فلم نعد نطيق شيئاً، ولا نتقبل أي تصرف من الجيل الآتي؟!

صرت لا أدري.. لا أدري!

أما «خالد السعيد» ـ زوجها ـ فإن أكثر ما يقلقه، كان ينصبّ على مستقبل عائلته. كانت لهم أملاك.. بيوت وأراض، وأموال في البنك.. وبعد أن فقدوا ذلك كله، وعصفت بهم المشكلات والأحزان، وبعد السجن والإعسار.. صار «خالد» يعرف أنه لا بد له من بداية أخرى، ولكن... كيف؟!

عندما بدأ الحياة في مطلع شبابه.. كان قادراً وطموحاً، ومتفائلاً، ومحارباً، ومتسابقاً.. يمتلك كل مقومات وصفات الانطلاق.. أما الآن.. فإنه يشعر بالتعب المرهق، وينتابه ذلك الخوف الغامض على عائلته. كان يلمح في بعض الأوقات لابنه وابنته، فيقول لهما:

ـ أريد منكما أن تتسلحا بالعلم. الشهادة في يد كل منكما سلاحه، ومفاتيحه التي تشرع له أبواب المستقبل والفرص والتقدم.. كلما عظمت شهادة أحدكما، ارتقى وارتفع، ووجد المجال الأوسع.

كل منهما.. يطمئن هذا الأب الذي هدته المحن والمواقف التي ضعضعت الكثير من قدراته.

ـ قالت عهد: لا تخف يا أبي.. سنكون فخراً لك!

ـ قال: ليس في الحياة وقت لي لأفخر فيه يا ابنتي. . بل أريدكما أنت وأخاك أن تفاخرا بعلمكما.

* * *

وهذا المساء ـ في منتصف الليل ـ فرت دمعة دافئة، جارحة من بين جفني «خالد السعيد». . وهو يشرئب بنظراته إلى بعيد، داعياً، ومناجياً، ومتسائلاً:

ـ ترى. . . ما الذي سيحمله الغد لهذا الجيل الذي يتبلور الآن من خلال همومنا ومتاعبنا، وكفاحنا، وتحديات عمرنا؟!

الدلائل تشير إلى توقعات كثيرة. . عصر المركبات الفضائية، والأقمار الصناعية، والترانزستور، والأزرار الأتوماتيك، والأمراض الخبيثة، وسهول القتل وإهراق الدماء بلا ثمن، وازدياد الجامعات!

الآن. . . ما هو الفرق بين الموت والحياة؟!

الآن. . . ما هو ثمن الدمعة، وثمن الابتسامة؟!

الآن. . . إن «خالد السعيد» لم يعد يقدر. على التفكير!

إنه عمر خلط الأوراق في كل شيء. . بشكل وقح.

جيل قادم من التصعيد لكل شيء!؟.

ولقد عاش «خالد السعيد» زمنه هذا الذي يصفه، فيقول:

ـ إنه زمن يليق بنا. . بكل ما مارسناه، وبكل أخطائنا، وبكل محاولاتنا ومشاوير التغير والتبديل، وبكل عشقنا ومادياتنا، وبكل كراهيتنا وعواطفنا!

زمن يليق بنا.. لأننا الذين صنعناه بنفسياتنا، وبنزعاتنا، وبظروف العيش والحياة.

هكذا عاش «خالد السعيد».. زمنه الذي يليق به وبجيله.. بابتساماته، وبدموعه. وترك اسم ابنه، واسم ابنته.. ذلك الرمز الكبير لمعنى الزمن!

إن الرمز إلى: فروسية المواقف، في اسم ابنه «فارس»!

والرمز إلى: الالتزام بالعهد، والوفاء، في اسم ابنته «عهد»

أو هكذا تمنى «خالد السعيد» أن يعنْون حياته الحافلة بالتجارب المريرة، والشهية معاً!

وأغمض «خالد السعيد» عينيه، وأراح رأسه على حافة السرير.

في تلك اللحظة.. أحس أنه يدخل في إغماءة طويلة.... طويلة!!

انتهت

* * *

فقــط

قراءة نفسية في أعماق امرأة متميزة

الإهــداء

آه. . . «فقط»!

كيف أخرجْتَ هذه الكلمة من بحرك؟

إنها جزء من قصتنا. . . جزء «فقط»!

إنها عمرنا الذي عشناه. . . للحظات «فقط»!

هي أنت. . وحياتي

وهي أنا. . وقلبك!

بعض كلماتنا. . بعض أمنياتنا. . بعض جنوننا. . وكل حبنا!

والسر الوحيد المعلن هو: أنت فقط.

. . . أنت فقط. . أنت فقط. . ثم الجميع!!

مقدمة

(. . . وكتابه الأخير اسمه «فقط. . » وهو نموذج لأسلوبه الذي هو حياته فالكتاب: لوحات. . أسطوانات. . حوار بينه وبين التي يحبها، والتي يكويها وتشويه. . أو يتوهمان ذلك.

وعبد الله الجفري صحفي لامع، ولكنه اختار «الظلال» مقراً ومستقراً، أسلوباً وهدفاً لحياته الأدبية. . فهو لا يفتح عينه في النور ثم إنه لا ينام في الظلام وإنما هو يتحسس يتلمس يتصنت. . وإذا كانت الصحافة شمساً فهو إحدى البقع الشمسية. . فقد اختار خيمة من حرير شفاف فوق الرمال بالقرب من نخلة في واحة صناعية. . ومن حين إلى حين يطل القمر وينزل المطر دمعاً، أو الدمع مطراً من عيني حبيبته!!

وإذا كانت الحياة «جدة» فإن الحب «مكة». .

والأستاذ عبد الله الجفري حريص على أن يظل آخر الرومانسيين في بلاده، إحياء لتقاليد أدبية اجتماعية نفسية كانت مزدهرة من عشرة قرون. فهو حامل اللواء المتقدم بالعشاق إلى النار. . ليس وحده ـ طبعاً ـ وإنما رجله على رجلها يرجلها على رقبته ـ آمين!

ومن الإنصاف للأستاذ عبد الله الجفري أن نعترف بأنه عاشق بريء فنان.

أنيس منصور (أخبار اليوم)

فقط... كفُّها!

كان يزرع رأسه فوق نقطة من نبض الشرايين في ذراعه.

ذراعه ليست وحدها.. بل امتزجت بنبض شريانها: خفقات قلبه المتلاحقة، ومهرجان فرحه!

ذراعه تحاول أن تمتد بكفه الدافئة إلى حيث تجلس هي في أقصى «الكنبة» التي ضمتهما معاً الآن. يتأملها مثل وردة تفتحت، وشارع عبقها في أرجاء الغرفة الواسعة.. في أرجاء صدره، ونفسه، وعمره الذي يولد الآن من جديد!

كانت ذراعه تريد أن تصل بكفه إلى حدودها القريبة البعيدة.

إذن.. هما معاً، وحدهما إلا من تسارع خفقاته، ومن تردده بين أن يصدق واقعاً يجسده هذا الموقف، أو أنه يحيا حلماً جميلاً.. طالما تخيله في يقظته، وتمناه!

يمعن في التحديق نحو وجهها ليتثبت أن الحلم الذي لازمه سنوات طويلة قد تحقق هذه اللحظة.

إنه اللقاء الأول في تجديد العمر.. بعد تلك الأعوام المملة التي عانى فيها من فَقْدها، وأوغل الفقد في حصاره لأفراحه.

أكثر من سبعة أعوام.. أهدرت في مجاهيل صمتها، وفي تجربتها، وفي هروبها بعيداً عنه!

الآن هما معاً وجهاً لوجه!

يغمض عينيه، ومازال رأسه غرسة ذكرى تنبت من بين شريان ذراعه.

يتذكر اللحظة الرغيدة ـ البوابة... حينما حملت المفاجأة صوتها إليه، متسائلاً:

ـ أما زلت حياً؟!

الله... الله يا زمن الصمت والنسيان!

اضطرب في تموج سؤالها. تخلخل في عمق صوتها الذي اقتحم تفاهة وقته. فأشعل كل الزمان.. الزمان الذي مضى، والزمان الذي يعيشه!

انفطر قلبه.. ولم يدر كيف يجيب، وماذا يقول لها؟!

اندلعت شرارة الشوق التي كانت كامنة سنوات طويلة تحت رماد أيامه، فإذا هي نار تحرقه ولا تقتله.. مثل النار التي تحرق بخور «العود» فيتصاعد من خلالهما العبق.

كاد يصرخ: أنت؟!

امتلأت الدنيا هذه اللحظة بالزغاريد.. أضاءت مهرجانات الفرح صدره. كأنه فارق هذا الموقع الذي اقتحمه فيه سؤالها. عاوده صوتها من جديد.. يجرحه ويضمه:

ـ إيه! «اخباراتك»؟!

الله... الله يا زمن الوصل والتذكر والوفاء!!!

* * *

عاد يحدق إلى وجهها من جديد.. عبر تلك المسافة القريبة ـ البعيدة، وهي في أقصى «الكنبة»، وهو في أقصاها الآخر. سألته بابتسامتها ذات الشكل الصباحي:

ـ «إيش فيك. أنا فُرْجه»!؟!

ـ لا تتكلمي من فضلك.. دعيني أروي تربتي القاحلة العطشى من عينيك المشتاقتين!

يغمض عينيه ثانية، ومازالت المسافة بين كفه وكفها بعيدة رغم اقترابهما.

يتذكر الأيام الهدر.. تلك التي باعدت بينهما.

لا.. بل هو يسترجع السنين في كل العمر الأجمل، منذ اليوم الذي التقيا فيه أول مرة.

رأسه الآن «أجندة» أيام.. يفتح الصفحة الأولى:

ـ أيتها الرائعة.. كان وجهك حليبياً. كانت نظرتك الأولى إلى وجهي كيوم الميلاد. كانت ضحكتك عشباً أخضر كحقل من الاشتهاء للزرع وللحصاد!

ـ هل مازلت تتذكر؟ ظننت أنك نسيت!

أطاردك كنت، في منعطفات الأيام. أفتش عن أخبارك..، أتزود بتلك الأخبار: غذاء لجوع نفسي إليك.

ـ ألديك أقوال أخرى؟!

ـ نعم.. أحبك اليوم أعمق من الأمس. وسأحبك غداً بجنون أكثر من اليوم!

ـ لا أصدقك!

ـ شكوكك ريح عاصفة تضرب خيامي، وتذروني في العراء.

ـ أجمل ما احتفظت به عندك مني لحظة أن طلبت منك الفراق بلا عودة؟!

ـ رأيت دمعة بيضاء حائرة في حدقتي عينيك... تحاولين تجميدها حتى لا تنزلق!

ـ ولكني لا أذكر أني كنت أحبك؟!

ـ ولكنك كنت تعرفين أنك حلمي، وأنضر ما تراه عيناي، وأبقى ما يخفق به قلبي!

* * *

امتلأت الغرفة بالصمت.

عيناه أصبحتا كل هامته.. كل قلبه. يتأمل بهما وجهها ويبحر في عينيها. والمسافة بين كفه وكفها القريبة.. ما زالت مسافة بعيدة!

هو يمد ذراعه بكفه ليلمس كفها، عله يهدأ قليلاً، أو حتى لعله يحترق.

وهي ترفع ذراعها إلى أعلى، كأنها تحفر ظهر «الكنبة» بمرفقها.. لئلا يسقط كفها في دفء كفه فتغمض عينيها. كأنها تصارع من داخلها أن لا تغمض عينيها، وتبقى العينان شاخصتين نحوه.. كأنها تفتشه، تبعثره، تبحث في أعماقه عن مشاعره نحوها.

ـ لماذا لا تصدقين أنك في عمري قد تجاوزت أيضاً مرحلة الحب.. فأصبحت أحياك؟!

ـ فعلاً لا أصدق!

ـ أو.. لعلك تخافين أن تصدقيني؟!

ـ أخاف أن أحبك، وحبي جنون!

ـ أيتها المجنونة.

ـ أنت أكثر جنوناً.

ـ وهذا هو خوفك الحقيقي؟!

ـ أعجب بك جداً.. ذلك يكفيك الآن!

ـ المد والجزر.. كأنك هذا البحر الجاذب بزرقته وبأبعاده وبمسافاته اللامرئية!

ـ أريدك أن تكون بجانبي.. لا تتركني، ولا تطلب مني أن أبحر بك إلى آخر العالم!

يحدق في عينيها البابليتين.. يرفع نظرته لوهلة إلى شعرها. يبتسم، يهمس لها:

ـ بدَّلت تسريحة شعرك القديمة. كانت أجمل!

ـ لم أُبدِّلها. أحيانا أرفع شعري. رفعته الآن لأراك!

ضحكا معاً: صبت له فنجان شاي. سألها:

ـ وقصصت شعرك أيضاً؟!

ـ بعض الأشياء قصصتها أيضاً.

ـ لماذا هذا الرمز؟!

ـ لأن بعض الأشياء إذا طالت.. تعيق!

ـ وأنا.. كنت من الذين حاولت أن تَقُصِّيهم، لتُقْصِيهم عن حياتك؟! ـ تشرب شاي؟!

ـ مازلت مذهولاً!

ـ أرْيَح.. حتى لا تعاني من التعب!

ـ تقصدين هذا المعنى بالفعل لي؟!

ـ لا.. أريد أن «أُسرِّبك» من تفكيري.

ـ فعلتِ أكثر من هذا في الزمن الماضي.. حكمت بالنفي على مشاعري، وبالانكسار لفرحي بك!

ـ أصمت، لا ترهقني. هناك زمن طويل، وقد حدثت فيه أشياء لا تعلمها.

ـ كنت أتابعك، وأعرف عنك الكثير.

ـ حتى يوم أن أصررت على الضياع والجنون والانطلاق؟!

ـ ذلك شعور القلق الذي يشد إليه الإنسان لفترة محدودة، ثم يتلاشى.. وقد عانيت مثلك منه. أخذني الضياع وبعثرني جنون الرغائب، واصطدمت، وذبت، واحترقت، واشتعلت... لكنك أنت وحدك التي تتحكمين في إضاءة مشاعري، وفي تأطيرها بقيمة غالية!

ـ تحبني فعلاً؟!

ـ في غيابك.. كنت أفعل الحلم بك في اليقظة. كنت أناديك بشتى الأصوات التي جعلت اسمك نبرتها ونداءها. كنت أشعرك أنني باق على

مفارق الطرق ارتقب طلوعك من كل مفرق، وأنني ثابت شامخ فوق رأس جبل. . لعلك يوماً تمطرين، وأنني أقلب تربة نفسي وأعزقها وأبذرك كل فجر. . لعلك يوماً تنبتين فتثمرين!

ـ هل عانيت ذلك كله في زمن الفراق؟!

ـ وعندما واجهت وجهك في اللحظة الأولى من الزمن الجديد. . رأيت سنين عمري التي سقطت بها الأيام إلى حدود الفراغ، وفي منحدر الشعور بالشيخوخة وقحط العاطفة. . وقد انبعث منها فجأة جنون الشباب، وفرح الخفق، كان وجهك يصوغ شبابي من جديد. عيناك أراهما الآن تمنحاني جوهرة العمر. ابتسامتك تضيء جوانحي بألق لا ينشره غيرك!

ـ ولكني. . .

ـ من فضلك. . لا تتكلمي، نحن في بداية عمر جديد. دعيني فقط أتأمل عينيك، وأضيء!

ـ إنك مذهل، مقتحم. . . وأنا أخافك الآن!

❊ ❊ ❊

قطف رأسه من فوق ذراعه، واستوى جالساً.

ذراعه بقيت ممدودة على ظهر «الكنبة» تواصل محاولة إيصال كفه إلى كفها. بسطت هي ذراعها. . لكن المسافة بين كفيهما تراوح في نفس المكان.

عبرت من أمامه قطة جميلة. مد إليها ذراعه الأخرى يناديها. قفزت القطة إلى حجره. انشغلت كفه الأخرى بالتربيت على القطة. . بينما بقيت

كفه المنزرعة على ظهر «الكنبة» تعاني من حوار المسافة المرهق.

ـ تحب القطط؟!

ـ أحب أكثر: القطط الأليفة!

ـ والمتمردة، والشرسة.. هل تضربها؟!

ـ لا أحب العنف. أحاول أن أروّضها.

ـ ولو طال الوقت؟!

ـ الوقت في حياتنا.. هو الذي نريده!

ـ ولكني لست قطة!

ـ من قال ذلك حتى تغضبي الآن؟!

ـ أنت رمزت إلى ذلك!

ـ ليكن.. أنت قطة جميلة، ولست شرسة، قد تكونين متمردة، أو مترددة تخافين!

ـ أنا لا أعرف الخوف!

ـ ولكنك تخافين من الحب، أو من جنون حبك!

ـ بماذا تشعر الآن؟!

ـ كأنني مثل رائد الفضاء، ما بين الأرض والسماء. لحظة انعدام الوزن.. كأنني أبلغ حدود القمر، وأدحض اكتشاف الرواد عن طبيعة أرض القمر الحجرية، الترابية، وأعلن اكتشاف أرض قمري.. المضيئة، المشعة بالغد، الشاسعة التي تضم إليها قلبي، وعمري، وتفاؤلي بالمستقبل!

ـ ألا تخاف أن تضم هذه الأرض رفاتك؟!

ـ ليكن.. لأنها ستكون أرضي الحقيقية، والأرض أم!

* * *

سقطت تلك المسافة القريبة ـ البعيدة على ظهر «الكنبة».

لمس كفُّها كفه. تشابكت أصابعهما.

انعكس ضوء القمر على وجهيهما.. وشمل مساحات الدنيا كلها!

* * *

فقط . . . إحساسها!

أحبكَ . . أحبك!

أنتَ انتظرت هذه الكلمة مني طويلاً . .

قلتها لك في الزمن الماضي، وأنكرتها في الزمن الحاضر . . قلت لك وأنت تحاول إعادتي إلى الزمن القديم:

ـ إنني لم أعد أذكر . . هل قلتها لك في الماضي، أم أنك تدعي؟ قلبي أضاع ذاكرته!

اليوم . . أقولها لك: أحبك . . . فتصور!؟

أكتب لك هذه الكلمة في لحظة خروج من الزمن. أسأل نفسي، وأسألك معي:

ـ تُرى . . هل أنا سعيدة عندما أقولها لك الآن، أم أنني حزينة؟!

هل أنا صاحية . . أم منتعشة . . أم مشتاقة إليك؟!

لا أدري . . صدقني!

أنت تعرف رأيي في هذه الكلمة . . لم تعد هي الاعتراف بالحب . . لم تعد هي كلمة الحب!

لقد أهدرها الناس.. أهانوها.. اغتصبوا معناها الأعمق، جعلوها ممارسة.. لا أكثر من ممارسة، أو نزوة، أو وقت!

أريد أن أبتكر كلمة جديدة أقولها لك، ويقولها عاشق صادق لمن يحبه.

أريد أن أطلب منك الآن شيئاً مهماً.. فهل توافق؟!

أرجوك أن لا تمت الآن.. طال الزمن الذي أحبك فيه، أرجوك لا تموت! أطلب إليك أن تموت بعد أن أكرهك!

ماذا قلت؟!

- كراهيتي لك.. هي موتي الحقيقي؟!

لا أعرف.. مازلت لا أصدقك. وقت طويل سيمضي وأنا لا أصدقك. ليست تهمة لشخصك بالذات.. كل الناس أصبحوا يفعلون ذلك، ويشعرون بذلك!

لا تغضب مني!

- تسألني: متى سأصدقك؟!

حين تأتي اللحظة التي أصدقك فيها.. تصبح هي صوت التفوق على خوفي.

خوفي الآن في صدري.. هو صوت مشاعري نحوك، ونحو أشياء عديدة.

- تسألني: لِمَ الخوف؟!

لأننا نجهض عواطفنا بالأخذ.. لأني أخاف زمان التسلية فقط. لأنك لم تعطني دليلاً تؤكد به أن اندفاعك نحوي هو الحب، وليس هو الوقت، أو الأخذ، أو التسلية!

ـ تقول لي: الحب لا يتأكد بالأدلة الملموسة.. إنه شعور محسوس، فماذا يقول قلبك؟!

حسناً.. الآن ـ على الأقل ـ لا أحب أن أفقدك.. أريد أن أسمعك دائماً..

أن أراك أحياناً، لا أريدك أن تبتعد عني.. لا أريدك أن تخاصمني أو تقاطعني من جديد. عليك أن تبقى بجانبي ومعي، وملبياً لندائي كلما رغبت أن أراك، أو أحادثك!

لو أنك متّ الآن.. سأحزن!

أرجوك.. قل إنك لن تموت الآن.. فأنا هذه اللحظة أحبك!

تصور... إنني أحبك؟!

* * *

أمس.. شعرت بإرهاق جسماني: حتى عملي لم أرغب أن أذهب إليه.

كنت ملتزمة منذ وقت طويل بمواعيد العمل. كنت أدرس أيضاً برغم أنني تجاوزت مرحلة الدراسة. أريد أن أعرف كل شيء، وأن أتقن اللغات الحية جميعها!

لا تضحك عندما أقول لك: فكرت أن أدرس «الكمبيوتر».. أليس هو علم العصر الحديث؟!

ـ تقول لي ضاحكاً: وماذا ستفعلين بعلم الكمبيوتر؟!

لن أعمل بالطبع في مؤسسة علمية، أو جهاز ضخم.. ظروفي لا تسمح لي بذلك.

إذن.. على الأقل، أحاول أن أنظّم بالكمبيوتر: أفراحي وأحزاني..

ابتساماتي ودموعي. أن أبرمج حياتي التي تغلب على كل جوانبها الفوضى!

ـ تقول لي ساخراً: ترف.... ها.. ها؟!

تعرف عني فوضويتي.. حتى إنني أنسى دائماً أين وضعت أشيائي الخاصة والمهمة.

العلم ليس ترفاً.. إسحب كلمتك هذه من فضلك، أو لا تسحبها، على كيفك.. أنت حر، وتتحمل نتائج تجنيك على العلم وعلينا!

يخيل إليّ.. أنَّ الناس الآن يحبون بواسطة «الكمبيوتر»! ولم لا؟؟

ألم يجربوا هذه الوسيلة العلمية الحضارية في اختيار حتى الحب!

أحياناً تعصف بي موجة من الكآبة.. أفظع من السأم الذي صوره «مورافيا» وأشعر برغبة شديدة في البكاء دون ما سبب!

بعض الوقت ـ حين أكون وحدي ـ أتذكرك بالتصاق ألحظه في نفسي، وأحس بالفعل أني أحبك، وأني أناديك.. ولكني لا أجدك.. ظروفك تقيدك.. برغم أني أعرف لحظتها توجه تفكيرك إلي!

وفي وقت آخر أضحك.. حين أشعر أني لا أحتاجك، وأنك تستطيع أن تغيب ولا أسأل عنك!

هل أنا معقدة؟!

ـ تقول لي: لستِ كذلك، ولكنك ترفضين حياة تعودت عليها.. قيَّدتك ببعض التزاماتها، وتناديك من أعماقك روحك الأصلية، وزمنك القديم.. بكل ما كان فيك من انطلاق، ومن أحلام، ومن تمرد، ومن شفافية. تحتاجين إلى من يضيء في أعماقك ذلك كله.، وأنت في منتصف الثلاثين.

أسألُك بعد ذلك: هل يؤثر المرض العابر على مشاعر الإنسان؟!

دعني أروي لك هذه الحكاية:

ذهبت إلى الطبيب لمجرد التغيير، فأنا أعرف أن مرضي سيزول بمسكنات، ولكني أردت أن أحكي.. أن أغيّر. فحصني. ابتسم، ثم قال لي بتهذيب أغاظني.. لأن أكثر الأطباء أصبح يعامل المريض بملل وبجفاف:

ـ أنت يا سيدتي مثل الضوء.. لا تَشْكين من ضعف!

ـ ومن ماذا أشكو إذن؟!

ـ لعلك مرهقة. وعليك أن تطرحي سؤالك على نفسك. ربما أنت تشكين من التعود على رتم حياة لا يختلف.

ـ ربما.. محتمل.. جائز، لا أدري!

ـ سافري.. مثلاً.

ـ سأسافر. سافرت قبل ذلك وعدت، وسأسافر وأعود.. الخ!

ـ أو لعلك تشكين من تغير في داخلك. النضج أيضاً تغيير. ربما تشعرين بحنين إلى ذكريات، وماض!؟

ـ وهل يمرضنا الحنين؟!

ـ محتمل. ربما ـ بطريقتك ـ وحسب احتياجك لوقفة كانت فيه، أو لذكرى، أو لشخص عزيز، أو لشكل الحياة نفسها!

ـ آه.. هل أنت طبيب نفساني حضرتك؟!

ـ لا.. أنا إنسان مثلك، يعتادني هذا الشعور أحياناً، ولكنه يتكثف عندك هذه الأيام، فابحثي عن الجديد أو الطارئ، أو المقتحم لحياتك!

ـ صحيح. . لماذا يتكثف الآن؟!

إني أسألك أنت، ولم أسأل الطبيب، لأنني مللت أيضاً من الطبيب.

على فكرة. . لا يخطر ببالك أنك أنت المسؤول عن ذلك كله في حياتي، أو تظن أنك المقتحم لحياتي، أو الجديد فيها. . ربما تكون الطارئ!

هل توافقني؟!

ـ لماذا لا تجيب؟ إنني أكره صمتك!

تعرف؟! دمك ثقيل جداً الآن، بل إن دمك ثقيل دائماً!

تعرف ما هو رأيي فيك أحياناً؟!

أنت شخص ممل. . مع السلامة، لا تحادثني!

***

مضى يوم ممل آخر، وتفتت مساء ممحل بدون أصداء، ولا نقطة مطر في النفس.

حاولت أن اقرأ. . أن «أرغي» بالهاتف مع صديقاتي. كلهن مملات هذه اللحظة.

لماذا حجبت نفسك عني طوال يوم وليلة. . كأنك تهرب مني.؟!

ـ لأنني شخص ممل!

ـ من رماك بهذا الوصف التعيس؟!

ـ أنت!

ـ لا تمزح من فضلك. أنا أحترمك على الأقل، وإن أصررت أن لا أقول: أحبك!

ـ تقصدين أنك تقولين كلاماً وتنسينه، أو لا تتذكرين أنك قلته؟!

ـ لا أدري.. المهم أن تعرف أنني مهذبة جداً، ولا أرضى أن يصفك أحد أنك ممل!

ـ ولكني رضيت بذلك منك أنت وحدك.. لو أن أنثى غيرك قالتها لما حادثتها قط!

ـ لأنك تحبني.. أعرف أنك تحبني، لكنك غضبت وخاصمتني.. فهل تعاقب من تحبهم؟!

ـ لا أطيق أن أعاقبك.. فقط التقط أنفاسي.. فقط أحاول أن أجد إحساسك الحقيقي.

البارحة كنت وحدي. كما قلت لك: عندما حاولت القراءة لم أجد ذهني، وعندما حاولت أن أسمع موسيقى لم أجد حواسي، حتى إنني فكرت أن أضع شريطاً لـ «مايكل جاكسون» لأنني أكرهه! وحاولت أن أنام، فلم أجد استرخائي ولا حتى بلادتي!

حاولت أن أفكر فيك.. لكنك لحظتها لم تأت في مزاجي!

تعبت.. لعلني أتفجر بأحلام «غامضة»، أو.... من الجائز أنني أحببتك!

أحسست بالاشتياق لك. «وحشتني» فجأة! عندما «توحشني» لا بد أن أراك أمامي لحظتها، ولكني لم أستطع أن أحقق ذلك. فكرت في استحضار الجن ليحضروك لي، كما كنا نسمع من جداتنا في الحكايات القديمة. ضحكت. نحن أصبحنا أبرع من الجن، ولكني الآن عاجزة!

ماذا تقول؟؟

ـ تقول: وعندما تشتاق أنت إليَّ.. ماذا تفعل؟!

أيضا لا أدري.. لعلها حينذاك تكون مشكلتك وحدك، مثلما كانت مشكلتي وحدي!

أرجوك.. لا تغضب مني.

أخبرني.. ماذا أفعل بك ومعك؟!

أنت تغضب مني كثيراً.. من كلماتي لك.. من تناقضاتي معك. أنا أستفزك أحياناً. أحب أن أراك غاضباً.. مثلما أشتاق أن أتطلع إلى وجهك، كلما تأملت أنت وجهي، وأبحرت في عيني. نظراتك حينذاك عميقة، وفياضة بالحب!

ما بك... ألم تقل إنك عرفتني جيداً؟!

نصف الحب: المعرفة، ونصفه الآخر: الإحساس!

ماذا تقول؟!

أنت لا تريد المعرفة الآن.. تريد فقط إحساسي هذه اللحظة!

حسناً.. الآن إحساسي يعلن عن حبي لك.. أحبك جداً، فتصور!

ـ وفي الغد؟!

ـ لا أدري.. ربما جعلتك تركض معي نحو النصف الأول للحب: المعرفة، أو الحيرة، أو الملل!!

* * *

فقط... جنونها!

وقفْتُ أمام المرآة أحدق إلى وجهي.. بل إلى عيني!

جلست... لأن تحديقي قد طال!

تذكرت أسطورة «نيرجس» وقد كان رجلاً.. أما أنا فمثل كل أنثى تسترجع أصداء الإعجاب بجمالها!

ضحكت لهذه الخاطرة!

تصور أنني أتذكر في هذه اللحظة صفة جمالية في شكلي.

أعرف أنني جميلة، وهذا غرور منحه الآخرون لي.. ولكنني في الفترة الأخيرة لم أعد أتطلع كثيراً إلى مراقب.. بل أكتفي بالنظر إلى وجهك، لأنني أرى حسني ينعكس من خلال نظراتك، وتعبيرات وجهك نحوي.

تذكرتك فجأة، وأنا أمام المرآة.. طبعاً، أنا لم أعد أنساك، على الأقل في هذه الأيام، لأنني أشعر بأنك تطاردني.. تحاصرني بنداءاتك، أو بندائك المحبب إليّ: حين تقول لي: يا أنا!!!

نسيتك في الزمن الهش، أو في الوقت الفراغ.. ذلك الذي تمدد في سنوات العمر، فنفى زمننا القديم حين كنا معاً، وأعاق قدوم هذا الزمن الجديد الذي أعادنا، أو وحّدنا.. كأنك تأخرت كثيراً.

لكني في ذلك النسيان كنت أتذكرك قليلاً. . أتذكرك مثل خاطرة جميلة تعبر، مثل طيف يعيدني للحظات إلى الشفافية، ويبعدني عن حروب النفس وركضها بحثاً عن حلم رائع طالما تمنيته استمراراً في عمري!

أرجوك. . لا تستغرق في كلماتي هذه، فأنا الآن أتقطّر حزناً. . ولست أدري لماذا تتجسد أمامي ـ أنت ـ وتملأ نفسي كلما اعتادني الحزن؟!

لا يصبك الغرور، فتعتقد هذه اللحظة أنني أعترف بحبي لك!

أنا مجنونة. . ها؟! لكن أنا متأكدة أنك أكثر جنوناً!

لا أدري الآن. . فقط أريدك معي، تحدق إلى عيني. . تزرعهما حباً، وحياة، وتدعهما تتدفقان. . ليكون هذا التدفق من عيني أكبر من معنى النظرة، ويكبر بمعنى التكامل الإنساني معك.

تسألني أنت:

ـ وماذا يعني هذا التدفق. . أليس هو الاعتراف بالحب؟!

جائز. . لكني ـ صدقني ـ أكره التعليل، والأدلة والشواهد. . أكره المنطق أحياناً، أريد أن أكون عفوية، طبيعية. أكره أيضاً كلمات عديدة، مثل: الاعتراف. التبرير. بعض الأجوبة عن الأسئلة التي تهدف من ورائها: التحديد، أو الإثبات!

ـ أنت قلت لي مرة: الحب لا ينبغي أن نؤكده بإثباتات مادية، أو حوارية. . الحب إحساس يشيع في عمق الإنسان، وقد يكون بلا تفسير!

ـ يا حبي لِكْ!

ـ هل هذه الكلمة اعتراف. . أم خفقة قلب مستريح؟!

سألتني، فأجبتك بإصرار: لا تحاصرني من فضلك، ولا تلزمني بكلمة تريدها مثل الوثيقة، بل يكفيك ما سمعت مني عفوياً، وهذا الذي سمعته أو فاجأك مني..، هو بلا شك شيء من التدفق الأعمق!

أنت أيضاً مجنون!

إصرارك عليّ جنون. مطاردتك لي جنون. أحيانا أحس أنك سترغمني على أن أقول لك: أحبك، وهذا جنون أيضاً.

دفئك جنون.. حنانك معي جنون. غضبك عليّ أو من أجلي ـ سيان ـ هو جنون! لحظة... لم أنته بعد من إحصاء جنونك!

حافل أنت بالجنون، ومحتفل به.. حتى قطيعتك لي التي امتدت طويلاً، كانت من ألوان جنونك العكسي. لو أنك لم توافقني على القطيعة تلك.. لو أنك واصلت اقتحامك لي، ما كان الزمن يضيع منا، ولم نكن سنضيع فيه!

ماذا تحكي عن بدء زمن الهشاشة والتفريغ.. ذلك الذي طوح بكل واحد منا بعيداً عن رفيقه؟!

تكلم.. إنني أصغي إليك. الله يخليك إحكي.. أرجوك إحكي!

* * *

احتواني صوتك عميقاً في ذلك المساء.. كنت تحكي بحزن. عمقك يفيض عندما تحزن.. إنني أتوافق معك في هذه الطبيعة، أو الصفة. قلت لي:

ـ فوجئت تلك الليلة بصوتك يحمل قراراً قاطعاً، وأنت تطلبين أن

ننفصل ونفترق. وكانت المفاجأة الأخرى أنني شاهدت في عينيك دمعة حائرة ومسجونة، لا تريدينها أن تنزلق أمامي.

ـ قلت لك: وأنا شاهدت مثل تلك الدمعة في عينيك قبل أن تأخذ وجهك معك وترحل من أمامي. تلك الليلة لم أنم برغم قناعتي أن القرار ضروري، ومريح لنا معاً.

ـ أنت أنثى جميلة وتملكين الحياة.. في حين أنني رجل صلب، وتملكني الحياة بظروفها، وبقوالبها، وبكل ما فيها من أطر وأحزمة!

ـ وماذا فعلت بعدي، أو بدوني؟!

ـ كنت معك أمارس جنوني، وأطلع به ومنه إنساناً متفائلاً، وعاملاً، ومشاكساً.. ولكني بعدك. أو بدونك: اكتشفت أن جنوني يمارسني... فيطلعني ويرتطم بي، ويطوح بي وأتناثر وانتشر أحياناً.

ـ عرفت نساء إذن؟!

ـ العالم مليء بالنساء، وما تقولين عنه أو تسألين.. ليس هو المعرفة بمعناها الدقيق، ولكنه التبعثر، الجري. المذاق. الاصطدام، ثم الارتطام بعد ذلك.

ـ أظن أن هذه قضية الرجل دائماً؟!

ـ لا تعامليني بالجنون حتى في الظنون.. ولكني مضيت بعدك، مثلما أنت مضيت بدوني!

ـ كيف؟.. إحك لي. لا تتوقف!

ـ اللعنة!

ـ تلعنني، أم تلعن نفسك؟ أقترح عليك أن تلعن نفسك، لأني أنا لا أستأهل هذا!

ـ كنت كمن وضع حذاءه بين أسنانه وركض.. تحت الشمس، في جنح الظلام.. كانت الطرقات متكاثفة، وعديدة، ومتفرعة إليه السائر كبطولة، وبعضها الآخر يتخذ فعل المغامرة!

ـ أوه.. رجعنا لفلسفتك!

رغم ذلك.. أضبط نفسي أحياناً وأنا أصغي إلى كلماتك بكل جوارحي. أحبك حينما تحكي. قلت أحياناً، أما الأحيان الأكثر.. فمازال رأيي فيك أن دمك ثقيل!

لا تغضب مني.. لكني أشتاق إلى إغضابك!

تصور... وقت طويل مضى وأنا أجلس أمام هذه المرآة. سرقتني من نفسي، أو لعلني نسيت نفسي وأنا أحاورك. أنت متسلط. قل لي: ماذا تريد مني بالضبط.. ها؟!

حين رأيت وجهي ينعكس على صفحة المرآة.. دخلتني كلماتك، سددت إلى أعماقي كرمح!

أنت تحدثني كثيراً عن عيني.. نظرت إلى عيني بعيني!

هل أنا «هبلة»؟!

من فضلك.. لا ترد. أنا أشتم نفسي وحدي، وأنت لا تقدر، لا أسمح لك!

دعني أصحح العبارة.. فأنا لم أكن أنظر إلى عيني بعيني. لا.. بل رأيت عيني بعينيك أنت، بكلماتك عنها. يا حلو هاالعينين!

ـ «عيناك غابتا نخيل ساعة السحر

أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر»

رددت في أذني هذا الشعر يوماً. يا حبي لشعر السياب.. هل تذكر؟!

ضحكت. قهقهت، وأنا استرجع عبارتك لي:

ـ وجهك مترف بالجمال، أما عيناك فإنهما تموجان بالحزن!

لماذا؟ كل الناس يقولون لي ذلك. صديقاتي أيضاً.. يمكن من الغيظ!

لا أريدك أن ترى عيني الآن.. إنهما مخضلتان بالدموع!

ـ لماذا أبكي؟!

سألتني، وقلت لك: إنني أحتار بحثاً عن سبب بكائي هذه الأيام.

ـ ألا تخفين عني معاناة خاصة؟!

ـ فعلاً.. الإنسان لا يبكي بدون سبب، ولو من الملل، أو الكآبة، أو وحدة النفس. وقد يبكي في عجزه عن تغيير حياة يرفضها، فلا يقدر أن يستبدلها بحياة أخرى يرتاح فيها، أو يتجانس فيها مع نفسه، أو مع من يحب!

ـ أنت تحبين إذن.. اعترفي؟!

ـ لا أدري.. ربما هو الندم ضد حب كان، حينما أتذكره أبكي لشعوري بالضعف أمامه!

ـ وأنت ترفضين الضعف.. تريدين أن تبقي قوية دائماً!

ـ بالعكس.. ربما أضيق أحياناً بقوتي هذه التي تصفها.. أشتاق أن

أكون ضعيفة أمام رجل قوته معي في شدة حبه لي. أنفر من الرجل المتسلط القاسي، مثلما أنفر أيضاً من الرجل اللامبالي الذي لا يحاسبني ليشعرني بحبه لي، أو بغيرته علي، فكأنه يهملني، وبالتالي.. أهمله أنا!

ـ وذلك الرجل الذي تبكيك ذكراه.. كان يشعرك بضعفك، وربما مازال حتى الآن يشعرك بهذا الضعف برغم بعده عنك!

ـ أسكت أرجوك.

ـ فكيف إذن تعتقدين أنك تحبينني «أحياناً» على رأيك؟!

ـ أنا أحبك.. صدقني. إذا ابتعدت عني الآن: أحتاس!

ـ ودموعك التي تطاردك هذه الأيام، وشعورك بالحنين.. بماذا أفسرهما؟!

ـ لعلي لا أحن إلى شخص بذاته.. بل إلى ماض متكامل.. إلى ذكريات..إلى حياة عشتها، وكنت أجد نفسي في داخلها، وفي أحداثها، وفي طبيعة ذلك الزمن، تعرف؟ أنت تذكرني بنفسي!

أبكي.. لأني أشعر أن أشياء كثيرة ومتميزة قد فقدتها. كنت أحب الشعر، أتغنى به، أطرب، وينخلع قلبي من بيت شعر رائع، مع كلمة عميقة المعنى. كنت أتذوق الموسيقى، وأختار، وأفلسف، وأسخر.. حتى عندما كنت أبكي، يخيل إلي أنني أبكي بنَفْس.

الآن.. أنا أبكي بدون نفس. أبكي لأنني ـ فقط ـ متضايقة، وغالباً بدون سبب مباشر.. وقد لا يبكيني التعامل مع الناس الذين أعيش بينهم ومعهم، أبكي لأنني أنادي على نفسي الحقيقية، على داخلي ومحتواه الأعمق، والمترسب، والساكن!

لا أريد أن تغرق نفسي في مثل هذا الصمت، أو في مثل هذا التعود الممل على حياة أحس أنني فيها أؤدي وظيفة، والتزم بواجب، وأخاف من أشياء كثيرة.. كنت في السابق أتصرف بها، وأفعلها، دون أن أسمح لأحد أن يحاسبني عليها، لأنني كنت منطلقة.. أحيا شبابي كله.

ـ لكني.. أنا أحاسبك الآن، أغار عليك. أخاف عليك. أحميك، أسمو بك، وأنت ترتفعين بي أيضاً.

ـ لا أدري.. حتى أنت، أعتقد أنك في بعض الأحيان تريد أن تصادر أفكاري وحريتي. أعرف أن الرجل أناني في حبه للأنثى التي يعشقها، وأنا أرفض القيد. أريد أن أحبك بمزاجي، وفي الوقت الذي أريده، مثلما أريد أن ألغيك ولا أفكر فيك بمزاجي أيضاً، وفي الوقت الذي أحدده.

ـ هل تعتقدين أنَّ هذا المزاج حبٌّ؟!

ـ أظنه قمة الحب.. فعندما أرغبك، وأريدك، وأشعر بحبك ينغل في شراييني.. أكون لحظتها في حوزتك كلي، مِلْكا لك وحدك، ولن تستطيع أية فكرة، ولا أي شعور أن يسلباني منك.. بل أنا التي أريد أن أسلبك كلك من إطاراتك، ومن العالم، ومن الطقس، ومن كل المناخات، لتكون لي وحدي ووحدك.

ـ أنت مجنونة... يا أنا!

ـ وأريدك الآن أكثر جنوناً.. يا عمري!

وفي الغد.. نفس السؤال، ونفس الجواب؟!

ـ في الغد سأنسى.. أرجوك لا تذكرني بشيء!!

فقط. . . وجودها!

مضت لحظات بطيئة. . كانت تحمل في أصدائها وقع خطوات الزمن القادم!

هو. . يحدق إلى عينيها المشعتين كهالة ضوء، كأنه يقرأ أعماقها وخلجاتها في هذه اللحظات التي شملهما فيها الصمت. .

وهي. . شاردة الذهن، لا تتطلع إلى وجهه. . لكنها تحب وجوده بجانبها. هو. . يسترجع في هذ التحديق ما قالته له قبل الصمت:

ـ لا تنظر إليَّ هكذا. . نظراتك العميقة إلى عيني تخلخلني. . فأضطرب.

ـ لماذا. . هل أنا ساحر، أم ترينني كما راسبوتين؟!

لم تجبه حينذاك. انطلقت نظراتها إلى البعيد. . كأنها تحاول أن تقرأ المستقبل. وتمددت بينهما لحظات الصمت البطيئة. حاول أن يبدد الصمت، سألها:

ـ هل يزعجك وجودي الآن؟!

لم ينجح في إنهاء سيطرة الصمت عليها، أعاد المحاولة بلا يأس. قال لها وهو يشرح اللحظات البطيئة تلك بصوت هادئ:

ـ وجودك بجانبي.. هو عمري الحقيقي.

ـ التفتت نحوه تتأمله. ابتسمت.. لكنها لا تريد أن تبوح بشيء.. لا تريد أن تحكي.

غمر كفها في كفه.. لعلها تتلمسَّ في دفء كفه خفقات قلبه.

لم يطل صمتها هذه المرة. تكلمت بصوت كأنه أصداء وجوده. قالت:

ـ وجودك بجانبي.. هو أيضاً زمني الحقيقي، لكني......

وهربَتْ من جديد إلى اللحظات البطيئة. أعارها وجهه ليمتزج بوجهها. ألح.. يتساءل:

ـ لكنك ماذا؟!.. لا أحب وأد العفوية. قولي فكرتك.. لا تتردَّدي.

ـ أحكي لك، ولا تزعل؟!

ـ وهل تعتقدين أنك ستقولين شيئاً يغضبني؟!

ـ لا أحب أن أغضبك، ولكنك أنت سريع الانفعال، وما أفكر فيه هو رأيي فيك أحياناً.

ـ طالما هو رأيك.. فأنا أعرفك شُجاعة.

ـ أنت تحرضني عليك، ولكن بخبث.. لأنك تريد أن تعرف رأيي!

ـ ليكن.. وحتى لا يكذب أحدنا على الآخر.

ـ إذن.. فأنا أشعر أحياناً أنك تلاحقني، وتفرض عليّ هذا الوجود.

ـ ذلك لأنني أحبك، ولا أطيق الابتعاد عنك، أما أنت بهذا الشعور فكأنك تحسسيني أن رغبتك في وجودي ليست دائماً، وإنما أحياناً، وأنا لست مزاجاً يا عمري!

ـ أنا لا أحب أن يفرض أحد أي شيء علي، حتى الحب. أكره أن تقول لي: لازم، ومفروض، وينبغي، ولا بد. تصبح شخصاً مملاً لو قلت ذلك.

ـ لكني لا أعتقد أنني أفرض وجودي عليك. أشعر بذلك منك أحياناً عندما تكونين حزينة، أو شاردة. أيضاً.. أنت لا تفرضين وجودك، كلانا يريد الآخر. كل واحد منا أمام الآخر يعثر على زمنه.. يجسد الوجود الحقيقي للعمر. فلماذا غضبت؟!

ـ لم أغضب. إفهمني.. إنه مجرد شعور تلقيته منك في كلمة، أو لفتة، حسبتهما قراراً تفرضه. ليس هناك في قاموس حياتي أي شيء يسمى: لازم، بل هناك ما يسمى: طبيعي!

ـ هذا كلام له خبيء!

ـ لا تحاصرني باللغة الفصحى. أحس كأنك معلم. أتوقع أن أصاب بالعدوى منك!

ـ (ضاحكاً): في كلامك؟!

ـ لا أدري.. وصفتك يوماً بأنك مقتحم، أرجوك يا «بايخ» لا تؤثر علي. خليني طبيعية، والكلام الذي تصفه بأن له خبيئاً.. هو صوت نفسي.. هو حواري مع نفسي ومعك، ومعكما معاً. صرت أمزجك بنفسي، أو أحسك نفسي.

***

لفهما الصمت ثانية..

هي.. تعبث بالقلادة المدلاة على صدرها... وتتطلع إلى وجهه بين لحظة وأخرى، وتبتسم.

هو.. يسترخي داخل «الكنبة» الوثيرة، يعبث بأزرار ثوبه، وقد بدأ وكأنه يستعيد وقفة من الزمن القديم الذي جمعهما معاً.. فلا يصدق أن من الممكن تشابه الأيام:

كانت «هي» في مشارف العشرينات من عمرها، وقد جُنَّ بها، وتمنى أن يقترنا.

لكن الأمنيّة في ذلك الزمن القديم.. بدت من المستحيلات..

كان «هو» في مطلع الثلاثينات من عمره، والحياة في كفاحه مشوار صعب ومعقد.

ولكن حبه لها قد فاض، وانشغالها «هي» بنهدة العمر والحياة قد سرقها منه.. لتنطلق بشبابها بعيداً عنه.

وفي الوقفة تلك، وهو يفيض.. قال لها:

ـ تذكري دوماً أنني أحببتك وعجزت أن أجعلك تحبينني بمثل ما أفيض. وقد نلتقي يوماً، وهذا إحساسي الذي لا يخون، ولكن.. أين، وكيف؟ لا أدري!

وفي الوقفة تلك، وهي لاهية عنه.. لا تسمح له أن يتعمق فيها ولا تتعمق فيه.. قالت له:

ـ الآن.. لا أحبك بمثل حبك لي. عندما أشعر أنني لا أستطيع أن أحب غيرك، فإنك ستجدني، وسأجدك.. أصر أن أجدك حينذاك!

فرك عينيه.. كأنه يحاول أن يلغي تلك الوقفة القديمة. شعر بالخوف يضخم الوقفة في حاضره الآن. وحاول أن يستفتي نفسه:

ـ هل تراها الآن قد وجدتني، وأنني وجدتها، وها هو الإحساس لا يخون بالفعل.. أم تراها حائرة في الاستفتاء الصعب؟

❊ ❊ ❊

ـ هيه.. وين سرحْت يا تهمتي؟!

تنبه إلى صوتها. جذبه هذا النداء الغريب المبتكر: يا تهمتي!

ـ سألها: ماذا قلت تصفينني؟!

ـ أيوه.. أنت تهمتي.

ـ حسناً.. هل تعترفين بها، أم تنكرينها!!

ـ أنا أحبك.. صدقني.

ـ أنت أنا منذ الزمن القديم، فأخبريني ما الذي يسرقك مني ويجعلك تطردين خلفه؟!

ـ تريد أن تعرف كل شيء عني، وهذا مستحيل. لي أسراري الخاصة.. لي همستي، ودمعتي التي أجففها أمام الناس.

ـ وهل أنا مثل كل الناس؟!

ـ هناك أشياء لا أرغب أن تعرفها. ها... حاسب، لا يشط تفكيرك بعيداً، فليس في حياتي ما أخجل منه.. كل ما نفعله بتفكيرنا قد أردناه.. فقط أنا أتحاشاك أحياناً!

ـ ولماذا تتحاشينني؟!

ـ لأنك كما تصر أن تقول: أنت ضميري. لأنك نفسي. الإنسان أيضاً يهرب من نفسه في بعض. الوقت حتى لا يتعب، أو لا يتذكر، أو حتى لا يبكي.

ـ أنت حزينة هذا المساء.

ـ وأنت دائم الحزن. في عينيك بحر من الحزن، أنت ترفض أن تحكي لي!

ـ لقد فتحت لك قلبي.. فهل أغلق الأشياء الأخرى، وليس عندي أهم من قلبي وعقلي... وأنت استحوذت على الأهمين، أو الأغليين، وسكنتهما، وانحفر وجهك في عمقهما إلى لحظة موتي.

ـ ولكني أشعر بالدهشة.

ـ ولماذا الدهشة... ألا تكفّين عن ظنونك وحيرتك؟!

ـ لأنك تدعي أنني فرحك وسعادتك، ورغم ذلك تبدو أمامي حزيناً، كأنك تشعرني بفشلي في إسعادك.

ـ ليس بهذا المعنى.. وجودك هو النافذة التي تمنحني الشمس والهواء والقدرة على التنفس.

ـ صارحني إذن.

ـ حزني يتكثف كلما رأيتك.. لأنني أفكر أن زماننا هذا مؤقت، يحكمه عقربا الساعة.. في اللحظة التي نلتقي فيها، وفي اللحظة التي نفترق.

ـ وماذا تريد أكثر من هذا؟

ـ أريد امتلاك الوجود بك، وفيك.

ـ بل تريد امتلاكي والاستحواذ علي.

ـ أريد أن نتوج هذه العاطفة التي تتعمق يوماً بعد يوم بغرسة تكبر فتصبح دوحة. وفيئاً.. فلا نكون كالمهاجرين.

ـ أنت من كوكب آخر.

ـ وأنت؟!

ـ هوّ فيه شيء في الجو؟!

ـ شيء أكبر من مجرد وقت.. إنه الزمن، والعمر، والخوف، والأماني، والأحلام، والواقع، والوجدان، وصكوك الحياة.. كل المتناقضات المرهقة لك ولي، كلّما خلا كل واحد منا مع نفسه واسترجع اللحظة المضيئة والرواء والامتلاء بكل الحس.

ـ تعرف؟.. أرغب أحياناً أن تكرهني.

ـ هذا هو المستحيل.. كنت كرهتك في الوقت الفراغ ما بين الزمن القديم الذي تلاقينا فيه، والزمن الحاضر الذي توحدنا فيه، إذا أردت.. فاكرهيني أنت!

ـ تعتقد أن هذا هو الأسهل؟!

ـ فلماذا تطلبين مني الأصعب؟!

ـ أوه.. لا أدري.. شيء أثّر على دماغي، فجعلني أحس بالعقل إلى درجة الحزن.

حينما أفكر كثيراً ـ فيك وفي حياتي والرموز العظيمة فيها ـ أقول لنفسي: إن العقل تعاسة ومأساة.

أقول لك شيئاً آخر عني اليوم؟!

شعرت أني تميزت بالعقل. عقلت لدرجة الجنون. وأخذت أردد: آه.. تخيل أن «كلي» آه!

أنا متعبة جداً. لكن.. صدقني أنني أحبك.. آهْ يا حبك!

ـ كأنك نادمة، أو معاتبة لقلبك؟!

ـ لا أدري.. أرجوك إكرهني. أريدك أن تكرهني.

ـ ولكنك تحبينني.. فهل تطيقين كراهيتي لك؟!

ـ لا تسألني.. الحب عذاب. بعض اللحظات أفكر فيها بضرورة خروجك من حياتي.

ـ ولكنَّ وجودك.. فقط وجودك هو: زمني الحقيقي.

ـ ولكنك كما قلت أنت عشت زمناً مزيفاً في فراقنا، فكيف احتملت؟ إذن.. عد إلى ذلك الزمن، واتركني وحدي.

ـ إذا تركتك.. لن تكوني وحدك. لقد احتملت زيف العمر، وليس في استطاعتي الآن أن أضرب في الغربة من جديد، خاصة بعد أن أصبح وجودي في حياتك هو زمن عمرك الحقيقي، وبعد أن صار وجودك في حياتي هو خبزي، وارتوائي وشمسي، وفيئي، وأنفاسي!

ـ آه.. أنا تعبانة جداً.

ـ إذا صممت فسأرحل. من حقك أن تمارسي نفيي عنك من جديد،

ولكن... ليس في استطاعتك أن تفرضي نفيك من أعماقي. قرري إذن.. هل ترغبين أن أخرج من حياتك بالفعل؟!

* * *

ساد الصمت مرة أخيرة...

امتلأت عيناه بعينيها، وفاضت جوانحه حزناً.

أمسكت يده. قبلتها.. وفاضت دمعة دافئة من عينيها. أصبح الصمت بوحاً!

* * *

فقط. . . نفسها!

كبرت الدمعة في عينيها. . . حتى تحولت إلى صوت.

وقد أوغل الليل في مشواره. . حتى يمتزج بالفجر، ويذوب فيه.

واضطربت أحاسيسها في صدرها. . حتى ضجت الأضلع بذلك النشيج الذي همهم به صوتها، وقطّر دموعها.

وانزلقت الدمعة التي كبرت. . من عينيها الواسعتين كبحر، المتوهجتين تلك اللحظة بحزن غامر.

ولمعت الدموع فوق خديها في ظلال الليل. . كمدار يستحوذ على فرحة بها، وبقربه منها. . فيطوي الخفقة في موجة قلق.

احتوى وجهها بين كفيه. . وهو فعل مضطرب ما بين الخوف عليها، والحيرة منها.

تأمَّل عينيها الحزينتين، المخضلتين بالدمع. مرر أصبعه بلمسة يمسح بها آثار الدمع.

خذله الاستنباط لذلك الشعور المفاجئ منها نحوه. . وهي تعاني من عصف الحزن والغضب بها. تموهت قراءته لنفسيته تلك اللحظة!. . جعل سؤاله همسة:

ـ ماذا حدث.. حتى تتذكر عيناك دمعة، ظننتها فارقت حدقتيك منذ التقينا؟!

أسدلت جفنيها هروباً من عينيه، حتى لا يرى دموعها.. حتى لا تلتقي عيناها بعينيه.

دائماً تقول له كلما أمعن النظر إلى عينيها:

ـ أرجوك.. لا تتطلع إلي. عيناك تجعلاني أضطرب.

خفضت رأسها.. كأنها تود أن تزرع هذا الرأس الجميل في صدره وترتاح.

أعاد سؤاله قلقاً:

ـ يا عمري.. تكلمي. هل أغضبتك؟!

هذه اللحظة.. يقرأ في عينيها كراهية له.

ـ أنت غريبة. متقلبة المزاج أحياناً. قبل قليل كنا نضحك. كنت تمتلئين بي، وكنت أفيض بك. فجأة.. أرى هذه الدموع. هذا الحزن. هذا الرفض المتوتر لوجودي معك.. فهل ترغبين أن أخرج، وأترك لك المكان لتحادثي نفسك؟!

فزعت من اقتراحه. تشبثت بيده. قالت:

ـ لا... أرجوك لا تخرج. إبق معي.

ـ وإذن.. كيف أفسر هذا السلوك المتناقض منك نحوي.. ترفضينني، ثم تطالبينني أن أبقى.. تنفينني وتريدينني؟!

لم تجبه. . . كانت تركض على امتداد الغرفة، مجنونة، متوترة، حزينة. وجهها مازال يعكس لمعة دموعها.

ـ خيّل إليه أنها أغلقت قلبها دونه هذه اللحظة، وقذفت بحبه في العراء.

ـ كيف يكره فجأة من يعشق؟!

حمل نفسه من الغرفة إلى الصالة، وأخذ يرتدي ملابسه. هرعت إليه تشده نحوها. كانت تلح عليه أن يبقى. . أن لا يتركها فريسة لهواجسها.

ـ صدرك المشكلة، ألْهم، السؤال!

خاطبته بهذه العبارة. . ثم ارتدت إلى صمتها، ودمعتها.

ـ صدري أنا؟!. . إنه أسوارك التي تحميك من الرعود والشهب والصواعق. . ما به صدري، ماذا فعل بك؟

سألها حائراً. . . فهو يخاف عليها من أن تجرحها نسمة. . يخاف عليها من نفسها وتقلبها. . يخاف عليها أيضاً من تعمقها في قلبه. . من نفسه يخاف عليها.

ـ أجابته: صدرك حيرتي، وشكوكي!

ـ عدنا للشكوك والظنون من جديد. . حاولت أن أؤكد حبي لك في كل لحظة.

ـ أصارحك. . أنا أخاف منك، أشك فيك. . وتقتلني فكرة الابتعاد عنك. يمحلني مجرد التصور لغيابك عن دنيتي.

ـ وإذن؟. . ما هو داء صدري فيك؟!

ـ أنت تريد أن توقع بي.

جرحت قهقهته سكون الليل. ظن أنها تمزح.

ـ قالت له: لا تضحك.. وأنا لا أمزح.

خدشته لهجتها الجادة والحادة. قال:

ـ طالما أنَّ شكوكك بلغت فيك إلى هذه الدرجة، فاتركيني أمضي.. أخرج من حياتك.

ـ هل تطيق هذا الخروج؟!..

ـ أنت تعرفين عمقك في وجداني.. فأنت قد اختلطت بدمي ونبضي، لكني أختفي من حياتك لترتاحي من الظنون والشكوك. يهمني أن تهدأ خواطرك.

ـ وِدَّك إني أرجع لحياتي الاعتيادية؟!

ـ لأنني فيما يبدو قد قلبت حياتك، وخلخلت نظامك الذي تعودت عليه طيلة السنوات الماضية التي غربتنا عن بعضنا البعض.

ـ لكني أريدك، فرحت بك.. لأنك ستعيدني إلى حياتي الماضية، وتذكرني بحيويتي، وانطلاقتي، وحتى بجنوني.. قلت لك أحبك مجنوناً، وأكون سعيدة بجنوني معك.

ـ وهذا التقلب ضدي.. لحظة أجدك تحبينني جداً، ولحظة أحس أنك تنتزعين نفسك من قلبك، أو أنك تشدين وجودي من أعماقك، وتحتارين.. كيف يمكنك أن تتخلصي مني؟!

ـ بس! أنا أحبك.. واجد أحبك.

ـ وأنا سأضيع في فقدك. . صدقيني. أرجوك لا تجعليني أفكر في كلمة قرأتها يوماً ما عن ارتباط الرجل بالمرأة.

ـ أرجوك. . قل لي هذه الكلمة.

ـ الكلمة تقول: إذا شعرت المرأة بحب قوي لها من الرجل. . عذّبته!

ـ لا تعقّدني من فضلك. . أنا أعذبك، وكيف أكون عذابك وأنا أحبك؟!

ـ لا أدري. . أحياناً أعتقد أنك تحبين نفسك فوق كل من تحبينهم!

اختلج صوتها. . احتدت نبرة الصوت. بهتت ابتسامتها. قالت له:

ـ صح. . أحب نفسي كثيراً.

ـ هذه أنانية. . أنت تحبينني لنفسك، أو لإرضاء نفسك.

ـ أهم ما لدى الإنسان نفسه. أنت أيضاً تحبني من أجل نفسك، لتسعد، لتستمتع بشعور ملأ كيانك.

ـ كأنك إنسانة أخرى الآن. دعيني أسألك: لو وقع لي حادث. . ألا تخافين علي. . . ألا تقلقين من أجلي. . . ألا تحاولين مساعدتي؟!

ـ لا أدري!!

ـ لو مت. . كيف تكون حياتك؟!

ـ عادية. . يمكن أحزن عليك لحظة الخبر.

ـ لماذا تشعرينني أحياناً بقسوتك، وأنت تمنحينني في وقت آخر كل حنانك؟!

ـ أسألك أنا.. إذا اندلع حريق في المكان الذي أنت فيه، وبجانبك ابنك وابنتك، والحريق أقرب لك.. ألا تسارع بالهرب؟!

ـ بل أفكر أن أنقذ ابني أو ابنتي.

ـ لكن الإنسان يقول دائماً: نفسي أولاً، أنا ثم الطوفان!

ـ صحيح أن الإنسان أناني.. لكنه عاطفي ومرتبط بهذه العاطفة. أمام من يحب يفضل أن يضحي، ويتعذب هو.. دون أن يعاني حبيبه. أمام أولاده.. يراهم قبل نفسه، بدليل أن الإنسان يفني عمره من أجل أن يكبر أولاده، ويصبحوا أحسن منه. عندما يمرض أحد أولاده يتعذب.. يتمنى الألم فيه.

ـ وبعدين... أولاده يرموه للإهمال، أو للشيخوخة.

ـ هذه نتيجة أخرى.. لا يمكن أن تعمّم صدق العاطفة وعفويتها.

ـ خرجنا عن الموضوع.

ـ نتكلم عن الحب الشامل. لكن.. يبدو لي أنك تودين لو كان حبك لي مؤقتاً.

ـ أرجوك لا تتهمني. أنا لا أتسلى.. أنا أحبك فعلاً.

ـ وفية الأنانية العالية هذه.. كيف أفسرها؟

ـ أنت تردد في سمعي دائماً قولك لي: أنت أنا، يعني هذا أنني نفسك، وأنك تحب نفسك.

ـ صحيح.. وقد قصدت أنك هدمت كل الحواجز، وألغيت كل التناقضات حتى تعمق هذا الشعور عندي بك.. بأنك أنا، أو أنك نفسي.

ـ إسمع يا أهبل.. أنا ما حبيت واحد مثلك.

ـ تقصدي إيه.. مثلي في الهبل؟!

ـ أقصد رجلاً ما، لم أحبه بهذا الجنون.. أنا مجنونة بك.

ـ تُرضينني.. أم أنها لحظة هدوء تغمر نفسك فتشعرين بحبي الآن؟!

ـ أعترف أنني أحياناً متناقضة، ولكن.. لا بد أن أصارحك بكل ما أشعر به.. حتى قلقي، وحزني، وإحباطي، وكآبتي.

ـ وأنا لا أرفض ذلك.. بالعكس، أريدك أن تفتحي قلبك. لو أردت أن أنبض بدلاً من قلبك في صدرك ليرتاح قلبك قليلاً.. لفعلت. يهمني أن تكوني سعيدة. تنسجم لحظات عمرك مع مد الحياة وجزرها.. لأنك نفسي.

* * *

أراحت رأسها على صدره... حين كان الليل يغذّ في الرحيل، يطوي معه ساعات مضت دون أن تعود بزمنها، ولا بملامحها. قد تتجدد في الغد الأحلى حين يتفاءل المرتقب، وقد يتحول الزمن إلى مساحة من الرمل تمتص حتى الذكريات!

«سكت الكلام» بينهما... ولكن الخفقات بين ضلوعهما يعلو وجيبها.. كأنها تركض بهما مع رحيل الليل في لحظة استقبال الفجر، وميلاد يوم جديد.. يخاف هو منه، لأنه يتوجس من تقلّب نفسهما.. من رفضها ودعوتها.. من حبها له وتعبها فيه.

وتمهل هي النهار.. لا تُعيره اعتباراً، كأنها في ثمالة كل ليلة تقبض على خفقاتها، وأحاسيسها، وحبها له، وتعتقلها جميعاً في خزانة صماء لا يخترقها

الصوت ولا الضوء.. حتى إذا عزف موكب الليل نشيده من جديد.. أضاءت وجهها بالحب، وغسلت صوتها بالشوق والنداء.، فيأتيه قلبها عبر صوتها:

ـ أحبك أيها المجنون. لا أحب غيرك.

لحظة بزوغ الفجر تولد.. وقد لبس هذا الوشاح القادم من بعيد نوراً.

وقفا أمام البوابة الداخلية.. يستقبلان الفجر، ويدثرهما وشاحه الفضي.

وسَّدت رأسها فوق كتفه، وهمست:

ـ أنا أحبك.. لا تتركني.

ضمها إليه.. كأنه يريدها أن تخترق بكيانها كيانه، وتبلغ نقطة القلب، ويتأكد عندها حبه!

❊ ❊ ❊

فقط . . . عيناها

هذا المساء يلمع بالطل . .

المطر يغسل طرقات المدينة وأرصفتها وجدران بيوتها . . وبين الجوانح شجن، كأن غيومها تلفع الأضلع .

شعرتُ بالوحدة . . وأيضاً : رغبتُ أن أكون وحدي، أدخل إلى غرفة نومي منذ ساعات الليل الأولى، ولا أعرف ما الذي . سأفعله .

كل ما فعلته أنني سارعت وأطفأت جهاز التلفاز . وتركت الضوء الوحيد في غرفتي هو هذا الذي يشع من «الأباجورة» التي وضعت بالقرب من رأسي . أما الضوء الذي أحسه من أعماقي فقد افتقدته هذه الليلة .

صدقني . . لا أعرف سبب هذه الرغبة في العزلة . كنت أحس بالضيق . . حتى منك أنت .

لم أرغب فيك هذه الليلة، ولكني تمنيت أن تكلمني وأحادثك . . أي كلام أقوله لك وأسمعه منك . أحبك أن تتكلم وتحكي، فكلامك يريحني كثيراً) .

وأخذت كل هذه الأحاسيس معي إلى غرفتي الخاصة كأنها أسراري . أنت اليوم أهم أسراري التي تسعدني، وأحياناً تسبب لي الاضطراب .

وأقفلت باب غرفتي علي من الداخل. تهيأت أن أقرأ. أمسكت بمجلة، ثم ما لبثت في يدي أكثر من دقيقة حتى قذفت بها. فتحت صفحات ديوان شعر. تعرفني أحب الشعر، وهذا الديوان هدية أعرته لي وأنت تردد ضاحكاً: هذا الديوان للإعارة والقراءة وليس للأخذ.. أنا حرامي كتب، فلا تكوني مثلي!

سقط الكتاب على صدري، وشرد فكري، كأنني أناديك.. كأن خواطري تطاردك هذه الليلة لتعتقلك وتحملك إلي. اشتقت إليك.. ولكني أريد أن أبقى هذه الليلة وحدي.

سألْتني هذا اليوم: ما بك... أحس أنك متضايقة.. من هو «ابن الكلب» الذي يجرؤ على مضايقتك، أو يهون عليه ذلك؟!

أحياناً أنت تستخدم الشتائم حتى ضد نفسك!

وابتسم.. فلم تكن أنت الذي ضايقني.. بالعكس.. وجودك معي يريحني ويخلصني من هواجسي وتناقضاتي.

شدني القلق إليك من جديد. نحيت الكتاب جانباً، ونحيتك أنت أيضاً. مشيت إلى النافذة. أزحت ستارتها.. فرأيت الشارع المزدحم بالسيارات وبالأضواء. كان المطر قد توقف.. ولكن الطرقات والأرصفة والسيارات تلمع بعد المطر.

أريد مطراً يغسل نفسيتي، ولكن... يبدو أن أعماقي تشبه مدينة «جدة»: لا يأتيها المطر إلا نادراً وغريباً!

أرجوك... لا تعاقبني على كلامي هذا، فأنا أحبك، وأنت مطر نفسي أو نفسي تعشب حينما تمطر أنت على حياتي. ولكني الآن متضايقة.. أفكار

كثيرة في رأسي، أنا بالفعل «محتاسة». عندي هموم صغيرة، وهموم أخرى أخافها.

تعرف؟ عندما أراك، وعندما تكتب لي.. فإنني أمتلك نفسي، وأنت تعيدني إلى جوهري، وإلى الشخصية الأصلية لي. معك أجد نفسي.. وفي كلماتك أرتاح، كأنك تفتح أمامي عدة نوافذ، وتنسج لي الأحلام الزاهية. صرت أنت وحدك «دنيتي» المجردة من الزيف، والتمثيل، واعتساف الفرح أو الراحة.

عندما تحتوي يدك يدي لا تمتلك أنت كل الدنيا، كما تقول لي دائماً، بل أنا أيضاً أشعر معك أنك تأخذني من يدي، وتنطبق بي من بوابة واسعة، وتعيدني إلى عالمي الحقيقي، وتتجول بين أرجاء الرؤية للحياة.

آه... يا أنا، أحبك حيل!

ولكن... كيف يمكنني أن أواصل الاحتفاظ بك، أو تواصل أنت الاحتفاظ بي؟!

سيان... المهم أن يحتفظ كل واحد منا بالآخر.. في قلبه، وفي حياته.

هل تذكر الأيام القريبة؟!

ـ كنت تقول لي: أنا أخاف عليك من الناس.. أخاف عليك حتى من الذين اعتقدت أنك أحببتهم يوماً ما، وأخاف عليك من الذين أحبوك. أحياناً.. الحب في قمة أنانيته يدفع المحب لأن يحطم كل ما أمامه، حتى لو كان حبيبه.

ـ أجبتك يومها: بل أنت تخاف مني أن أتركك مرة أخرى، وتخاف من نفسك تبعاً لذلك أن تكرهني!

ـ قلت لي: يوم أكرهك يكون شعوري قد مات. ولكن... كيف تميتين مشاعري وأنت التي أحييتها من جديد؟ لا أستطيع أن أكرهك ولا حتى بعد موتي.

فعلاً... أريدك أن تحبني في كل يوم جديد أضعاف اليوم الذي مضى. احتملني بكل تناقضاتي وشكوكي أو ظنوني!

أنت كنت «تظن فيني».. آلمتني وعذبتني بشكوك في حبي لك. أنت تعلم أن المرأة إذا أحبت رجلاً فمن الصعب أن تستبدله برجل آخر. هذه طبيعتها التي قيل عنها إنها من نار ونور..

ولكنك حبيبي... ولو لم تكن بهذه المساحة في نفسي وقلبي لما منحتك خصوصياتي كلها.

صحيح... أنا التي أخذت أشك فيك، بعد أن هدأت ظنونك أنت. صرت أخاف أن تفجعني يوماً بالفقد، أو بخيانتي، أو اكتشف أنك طفل، وأنني لعبتك الجميلة اليوم، ولعبتك التي تحطمها غداً.

أريدك أن تبقى كبيراً في نظري وفكرتي، وأن تبقى طفلاً فقط معي ونحن نمزج الابتسامة على شفتينا ونقطرها بين ضلوعنا.

❊ ❊ ❊

أعدت الستارة إلى موضعها لتغطي النافذة وتحجب الشارع والأضواء.

ـ ترى.. أين أنت الآن... لماذا لم تتصل بي؟!

سأم. قلق. أكاد أختنق!

رن الهاتف فجأة. ركضت نحو أريد أن احتضنه. أنت.. هذا أنت أخيراً!

هذا المساء جاءني صوتكْ شَجِناً.. يلبس الشوق، وتحتكَ نبراته كالرعد. سألتك:

ـ إيش فيك.. هارب مني؟!

هذا المساء أجبتني:

ـ إنني أفتقدك.. كأنك أخرجتني قسراً من دنياك، وحكمت علي بالنفي.

ـ قلت لك: أخبرتك أنني متعبة.. أريد أن أخلو إلى نفسي معك. أفكر فيك بحياد.. أقرأ رسائلك إليّ للمرة المائة. أريد أن اكتشف شيئاً أفتش عنه.

ـ لكني أشتاق إليك.. امنحيني دقيقة واحدة، واحدة فقط.. أنظر فيها إلى عينيك وأرحل، لن أبقى.. أعدك.

ـ أمرك عجيب الليلة.. إيش فيك؟!

ـ فقط عيناك.. لا أريد سواهما. نظرة واحدة إليهما تروي عطشي إليك. لست طماعاً.

ـ يا أهبل.. تراك جنّيت!

ـ فليكن.. «مملوكك.. لكني سلطان العشاق»!

ـ أنت درويش متجول؟!.

ـ عيونك جعلتني هذا الدرويش الشاعر، الممزق بعيداً عنهما.

ـ سألتك ضاحكة: كيف أصبح شكلك الآن؟!

تخيلت الدهشة على وجهك من سؤالي، وخيّل إلي أن إجابتك ضاعت في هذا السؤال المفاجئ والمشاكس. قلت لي:

ـ تغيرين الموضوع؟!

ـ قلت: أبداً.. صدقني إنني أسألك عن شكلك. يتهيأ لي أنني ما رأيتك من زمن طويل. خيّل إلي أن وجهك قد زحفت إليه التجاعيد، وشعر رأسك قد ابيضّ كله.

ـ أجبتني ضاحكاً: كل هذا في ساعات، أو في ليلة ويوم؟!

ـ قلت لك: وليه لأ.. ألا تحبني، وشوقك إلي يتضاعف؟!

ـ وهل نسيت وجهي بهذه السرعة؟!

ـ وكيف أنساه؟ ولكني أعرف أن وجهك يتموج بالحالة النفسية.. حينما تكون فرحاً يضيء ويشرق، وحينما تكون حزيناً يشع الانكسار في أرجائه.

ـ عندما أراك، أجد: «عيناك على قلبي مشرعتان».. يشع وجهي بالبهاء النافذ من عينيك إلى عيني. عيناك ابتسامتي.. فيهما نداءات تدفعني لأن أنضو الحزن وأنطلق كما طفل!

أرتجي أن أراك.. لكني أخلدت للصمت برهة، وخلتك تقف متوتراً ترتقب إجابتي.

ـ سألتني بعد ذلك الصمت: ها... هل أطير إليك؟!

ـ قلت: شرط أن تأتي الآن.. الآن فعلاً، ولمدة دقيقة واحدة!

ـ أجبتني: إذن... افتحي الباب، لا تغلقيه. بيدك أنت افتحي لي الباب!

ـ تعرف أني لم أعد أقدر أن أغلق أبواب نفسي وقلبي في وجهك.. فكيف باب البيت؟!

أنت دخلت وسكنت وتربعت.. صرت غذائي، ودمعي، ومائي، وهوائي!

ـ إذن... دعيني أراك دقيقة واحدة!

ـ ولكن... عيناي لا تتفتحان عليك هذا المساء.. دعني وحدي.

ـ وهل تدعيني بدون عينيك؟! سأكون عندك بعد دقائق.

ـ أنت ملقوف... مجنون يا ولدي!

فتحت لك بوابة البيت، وبحركة لا إرادية حاولت أن أسدل جفني، ربما خجلاً، وربما مناكفة لك لأصدك عن رؤية عيني.

ـ سألتك ضاحكة مندهشة: ماذا أصابك الليلة.. هل جننت بالفعل؟!

ـ صافحتني ونظراتك زائغة، أو مضطربة. لم تجب عن سؤالي، وإنما اتجهت فوراً إلى الركن المفضل لديك.. حيث تجلس في كل مرة هناك أمامي، تتأمل عيني ووجهي.

ـ قلت لك مبتسمة: الدقيقة انتهت من فضلك.. عليك أن ترحل.

ـ أجبت: الدقيقة تبدأ حين تتوجه عيناك إلى عيني.. لحظتها يكون من الصعب أن نحدد موعد انتهاء «دقيقة» مميزة تختلف عن حجم الزمان كله.

ـ لم يفعل مثلك قيس!

ـ لأن عينيك أجمل من عيني ليلى!

ـ يا منافق... يا حبيبي!

ـ وتحرمينني منك أحياناً.. فأشعر أنك تعاقبينني، بل تعاقبين نفسك.

ـ صدقني أنني أتمناك. الليلة أحسست أنك وحشتني، وحشتني جداً.

ـ انتهت الدقيقة التي منحتها لي.. لا بد أن أمشي.

* * *

كأنك أردت في هذه اللحظة أن تنتزع نفسك من قلبي. خفت أن يطول غيابك.

ـ أتمنى أن أراك في كل لحظة. لأ.. ربما تمل مني بعد ذلك. أراك دائماً.. يا ليت!

تنازعني الخوف والحب لك. ليتك تبقى معي، وليتك تذهب.

هذه الليلة كنت أعاني من اضطراب أفكاري، لكن مشاعري نحوك لم تضطرب.. وحين ودعتك، وقفت خلف بوابة البيت كأنني أريد أن أبكي.. ليتني أستطيع أن أبكي الآن لأرتاح!

* * *

فقط... غيرتها!

تذكَّر وهو يمسح شوارع المدينة بإطارات عربته أنه مدعو هذه الليلة على العشاء.

إنه متردد.. لا يرغب أن يلبي هذه الدعوة. لقد سئم الليالي المتلاحقة التي يجد فيها نفسه كل ليلة يقود عربته ويتجه إلى بيت من بيوت أصدقائه، ولكن... كيف يقتل الملل؟!

كان يحرص على الحضور قبل الآن.. لا تفوته دعوة، فهو يعتقد أنه يغير مناخ نفسه، ويلتقي بأصدقائه، ويتفرّج على شرائح بشرية متضادة، ومتلونة.. غريبة، وقريبة.. ذات مضمون، وهشة!

هذه الليلة، والليالي التي سبقتها.. كان يشعر بالعزوف عن مثل هذه الدعوات.

كان يقول لنفسه: الناس يجتمعون للسلخ، وليأكل بعضهم بعضاً. الكلام المباح في هذا العصر.. هو الذي ينال من تصرفات الناس وسلوكهم وخصوصياتهم..

كان يتوق أن يراها هي وحدها... إنها كل الناس، وأضواء الدنيا، وصفاء نفسه.

في أول المساء لم يجدها.. كأنها اعتزلته من جديد.

شعر بالضياع، المدينة الكبيرة التي يطوف شوارعها، تبدو مثل حوت كبير يلتهمه، ويغيبه في جوف داكن.. حتى نفسه في داخل هذا الجوف لم يعد يحسن رؤيتها، لكنه يراها «هي» دون نفسه، ودون المدينة الكبيرة، ودون العالم. أين يذهب إذن.. وهو لا يريد غيرها؟!

ضاق صدره أكثر. أخذته الشوارع الطويلة والعريضة إلى مسافات غير محددة، ولا مرئية. وحاصره الإرهاق النفسي.

لفْ مقود عربته، واتجه إلى بيت صديقه الذي دعاه.. فالوقت طويل ممل.

اتخذ ركناً في المجلس المحتشد بالضيوف. تطلع إلى الوجوه أمامه ومن حوله.. إنه لا ينفر منها، فالكثير هنا من أصدقائه.. لكنه هذه الليلة بالذات كلما أغمض عينيه وفتحهما.. رآها هي.

مال نحوه صديقه الذي بقربه يسأله:

ـ ما بك.. أراك شارد الذهن. متوعكاً، وإلا... «اللي آخذ عقلك مين»؟! تنبه، ابتسم، لم يشعر برغبة في الإجابة... استغرق في الصمت، وسؤال صديقه يلكزه كصدى.

كان يود لو يبوح. لو يقول له: أحبها هي فقط. لو يسكت كل هذا اللغط في المجلس، ويقول للحضور بصوت عال: إنني أحبها. أريدها.. وحدها فقط!

ـ مجنون أنت!

عامل نفسه بهذه العبارة من أعماقه. ابتسم مرة أخرى لصديقه الذي مازال يتطلع إليه مندهشاً:

ـ يبدو أنك متعب. استأذن لترتاح في بيتك.

تسللت عبارة صديقه إلى صدره، لا إلى أذنه، أحس أنه يختنق بالفعل، تسلل من مقعده، وناداها من غرفة مجاورة لصالون الضيوف.

ـ هذه المرة أجابت. سألته: أين أنت؟

ـ قال: طلبتك عدة مرات.. أين كنت أنت؟!

ـ قالت: ذهبت أزور عمتي.

ـ قال: تحبين عمتك أكثر مني؟!

ـ قالت: أين أنت.... من عندك؟!

ـ قال: أنا عند صديقي، وليس عندي أحد.

ارتفعت هذه اللحظة ضحكة عالية.. أطلقها واحد من الضيوف السهارى. طلبت منه أن يصمت. كانت تصغي إلى الضحكة المجلجلة.

تبدلت نبرة صوتها. سألته ثانية:

ـ من معك في المجلس... تكلم؟!

ـ معي أصدقاء من كل لون فرّقنا!

ـ لا تمزح من فضلك.. قل لي من معك في الجلسة؟

ـ عجيب!.. هل أذكر لك أسماء كل الرجال؟!

ـ أيوه.. وحتى أسماء الحريم أيضاً!

ـ حريم؟!.. ليس معنا حريم، كلنا رجال.. جلسة رجال لا يمكن أن يكون فيها حريم.

ـ أنت تكذب.. سمعت صوتاً نسائياً يضحك!

قهقه في الهاتف، كيف تخيلت ذلك؟

ـ قال لها: الذي كان يضحك رجل.. ربما كان صوته رفيعاً بعض الشيء.

ـ قالت: لأ.. أنت تكذب. تركتني وذهبت لتجلس مع النساء..

ـ قال: أقسم لك.. لا يوجد بيننا نساء. بعدين.. تعرفي أنك كل النساء عندي.. لم تعد هناك امرأة تستهويني سواك، ولا يملأ عيني إلا وجهك وعيناك. صدقيني.

ـ قالت: لا تحلف. صوتك مليان كذب. صارحني وسأسامحك.

ـ قال: يا عيوني أنت.. صدقيني. إنها دعوة عشاء للرجال فقط.

ـ قالت: خلاص. اسمع.. إنت ودك تتركني، لا ترغب في استمرار رابطتنا. خلاص، فليكن.. أقفل الخط، مع السلامة.

ـ قال: لن أقفل الخط. وأنت مجنونة وربي. هذه مجرد شكوك. أنا ودي أتركك ليه وأنا أحبك.. لا أقدر أن تبتعدي عني.

ـ قالت: وأنا لا أحب أن يخدعني أحد، أو يضحك علي.

ـ قال: أنا لا أخدع حبيبتي. وعلى العموم.. إذا كانت رغبتك إني أقفل الخط، فليكن.. لأن التفاهم معك الآن صعب. مع السلامة.

ـ قالت: لأ.. أرجوك لا تكذب علي. مين الحريم اللي معاكم؟!

ـ قال: من فضلك.. أنا الآن في طريقي إليك.

ـ قالت: لأ... أرجوك، نفسي أنام.. لكن أخبرني: مين الحريم اللي عندك؟!

ـ قال: يبدو أنك متعبة بالفعل. اقترح عليك أن تنامي لتتخلصي من هواجسك وظنونك.. غير معقول هذا الذي تفعلينه بي. أرجوك.. كفي عن شكوكك، فأنا لا أحب غيرك. بل لم أعد أرغب أن أحب غيرك.. أنت خفقتي، وفكرة عمري.

❊ ❊ ❊

تسلل من مجلس السهرة. كاد يطير بعربته إليها.

لم يجدها خلف الباب. فتح له الخادم، ركض يطوي سلالم الدور الأول. رأته يقف أمامها في وسط الغرفة. أصابها الذهول حتى عاقها عن الحركة والوقوف.

كان ينظر إليها مغتاظاً، ومشتاقاً.

كانت تحدق إليه غير مصدقة. مدت إليه يدها، واحتوت يده، ثم جذبته إلى جانبها.. قالت:

ـ جنونك هذا لا تحسبه يؤكد لي حبك!

لم يجبها... أخذ يحملق في وجهها. يتأمل عينيها العميقتين كسرّ.. السوداوين كليل يشع فيه قمر منتصف الشهر.. المتحديتين لأشواقه، ولصبره، ولتدفقه هذه اللحظة.

ـ سألته: تعشيت؟!

ـ أجابها: قرأت لك مرة شطراً من بيت شعر يقول: «يدمرني وقتك الذهبي... فتنتشرين سلاماً وبرداً على وجع الروح... أرجوك يا نخلة الروح فكي قيود حصاري»!

ـ قالت: أنا أحاصرك؟ إذن.. تخلص من حصاري لك هذا الذي تزعمه، وليذهب كل منا إلى حال سبيله!

ـ قال: كأنك ترغبين في ذلك، وتريدينه مني أنا.

احتوت يده بيديها. نظرت إلى عينيه. قالت:

ـ الآن.. لا أقدر، لكنك أنت لو فعلت ذلك، فلا بد أن تحدَّني عليه.

ـ قال ضاحكاً: هذه مراوغة يا حبيبتي. أنا لن أتركك حتى لو طلبت أنت ذلك... ها، ما رأيك؟!

نصبت قامتها الفارعة، وتموّج جسمها الممتد كنخلة شهية مثمرة.

مدت إليه يدها تجذبه هذه المرة ليقف. مشى وراءها إلى طاولة العشاء. جلس أمامها يتطلع إلى عينيها. أخذت طبقه وملأته له. كان يلوك اللقمة ويلتهم وجهها.

وضعت أمامها طبقها وفيه القليل من الطعام، وكأنها لا تريد أن تأكل. رفعت ذراعيها ووسدت ذقنها على كفيها، وهي تُخالسه النظر، وهو لا يأكل وإنما يحاول أن يشبع من عينيها ووجهها.

تلون وجهها بالخفر. ابتسمت بشعور السعادة. قالت له:

ـ لا تتطلع إلي بنظرتك هذه. قلت لك إنها نظرة غير عادية، تجعلني أضطرب، أرجوك تعشىّ.. ألست جائعاً؟!

ـ قال: أنت غذائي الحقيقي.

ـ قالت: لكنك «تحوسني»... لا تجعلني أعرف كيف آكل!

ـ قال: نظرتك كأنها تصدني عن التعمق في عينيك، وفي نفس الوقت تطلب مني أن أستغرق في العينين. في عينيك: الحب والهروب.. الفرح والحزن.

لم تبهت ابتسامتها. غابت قليلاً خلف شفق من الحزن، ثم تربعت فوق شفتيها، وانهلّت من عينيها. وشاع الخفر في أرجاء وجهها.

تركا طاولة الطعام. أحاط خصرها بيده: أراحت رأسها على كتفه، همست:

ـ «قل لي... ويش اللي حدّك تحبني»؟!

ـ أشياء كثيرة... أهمها أنك دورة تاريخي. وجدت فيك شبهي. وجدت عندك ارتوائي وتكاملي. أفكارنا تتشابه أو تتقارب.. حتى حين نختلف، يكون اختلافنا وقوداً أشد لاقترابنا.

ـ لكنك ما تحبني.. اعتبرتني معركة لتنتصر فيها!

ـ انتصر على من.. عليك أنت، أم على الذين أحبوك؟ إذا كان التصور الآخر، فلا بأس.. لكنك تحبينني، والانتصار عليك هبل، لأنني أريد أن نصبح معاً إنساناً واحداً. أنت فقط تغيرين، والغيرة عند المرأة تعني الحب.

ـ ودك تطمئن أني أحبك، وبعدين تتصور أني أركض وراءك.. هذا «هبل» منك. أنا لا أركض وراء أحد، لكن الناس يركضون ورائي.

ـ حتى هذا الذي تقولينه «هبل» آخر.. لأن الراكضين قد يطمعون في

شيء واحد فيك، لكني أنا أركض وراءك كلك. . أطمع حتى في تناقضاتك، وجنونك. لا تظني أني غضبت من غيرتك. . بالعكس، فأنا سعيد، لأن هذا يعني حبك الشديد لي.

ـ أنا ما أحبك. . خلاص لا تصير مغرور. لا توجع رأسي بمبرراتك وملاحقتك لمعرفة شعوري. هذه لقافه منك!

ـ بل أنت تحبينني.

ـ أنت ما تتعب. بليتني. صحيح أنك تُهْمَتي، لكن. . لازم نبعد عن بعض.

والسبب؟!

ـ ما أدري. . أنت «لخبطت» كل حياتي. . حتى لما ودي أقرأ ما أطيق. . ألاقي نفسي أما أفكر فيك، إما أعيد قراءة رسائلك، إما أكلمك. صديقاتي «يتساءلون». . .

ـ (قاطعها ضاحكاً): على رأي «عَبْحليم». . يتساءلون، يتهامسون، يطقون، يطسون.

ـ كنت أقول لك: «أظن» إني أحبك. . لكن الآن «ابتلشت» خلاص.

ـ نادمة أنت يا عمري؟!

لم تجبه. . . شردت بنظراتها بعيداً. أعطاها حرية التفكير أو التأمل، وبقي شاخصاً نحوها. . والدقائق بينهما موال زمن. زحفت يدها ببطء حتى بلغت يده، واحتوتها في صمت. ودقت الساعة منتصف الليل!

* * *

فقط. . . حريتها!

جلست الليلة مع نفسي. . . اشتقت إلى نفسي كثيراً!

منذ أن عدت إليك. . شعرت أنني فقدت نفسي، بل أنت الذي سرقت نفسي مني. . استعمرتها. . سيطرت على كل لحظة في يومي وليلي!

أريد أن أخلص منك، فقد أرهقتني. . أرهقني حبي لك، وجنونك بي.

ـ تساءلت: هل أنا أحبك حقاً. . . هل هذا حب، أم «هبل»؟!

كثيراً ما طرحت هذا السؤال على نفسي، وتعبت.

ـ قلت لك: أنك غيّرت حياتي. . عصفت بنظامي اليومي المعتاد. . «برتم» يومي وهدوء ليلي، أو حتى ببلادة هذا الليل. .

كنت حرة قبل أن تقتحم حياتي مرة أخرى.

هذا لا يعني أنني كنت ميتة قبل عودتك إلى أيامي. بالعكس. . كنت استمتع بالسهرات مع صديقاتي، وأدعوهن إلى بيتي لنسهر حتى ساعات الصباح الأولى. . ثم أهدأ في غرفتي، أقرأ وأسمع موسيقى، وأمارس حريتي الذاتية كما يحلو لي!

كنت أحب السفر. دائماً أسافر، وتعبر من أمامي وجوه عديدة. . ملونة، وأبيض وأسود!

كنت أنطلق تحت السحب والأمطار، وعلى امتداد الأرض، وفي البرد.. لا أخاف من شيء.. لا أحسب حساباً لأحد، إلا ما أريده، أو أفكر فيه.. ما أرغبه وما أرفضه.

أنت الآن «تِهمني». ليس بمعنى أنني أهتم بك.. لا تفرح! ولكن بمعنى أن تُحمِّلني همومك القادمة!

ـ تقول لي: سيأخذك الصيف إلى بعيد.. ترحلين وتتركينني وحدي أعاني من فراقك.

ـ أقول لك: ولماذا الصيف؟ قد أسافر غداً. لا تقيدني من فضلك، فأنا إذا احتجت أن أسافر.. فلا بد أن أفعل ذلك. أنا حرة وأنت حر.

ـ تقول لي: وأنا؟.. ألا تشتاقين إليّ في رحلتك؟!

ـ أقول لك: لا أدري... أريد أن أجرب. لقد سافرت كثيراً وأنت بعيد عني.. خارج إطار أيامي، وانقطع بيننا حتى التزام الحب.. وركضت بعيداً، ورأيت، وجربت، وسئمت، وضحكت... لم تكن في محيط قلبي بهذه الصورة اليوم، ولم تكن تخطر على بالي.

تذكرت الآن... فقد خطرت على بالي مرات معدودة، ولكني لم أعد أتذكر الآن: لماذا جئت في خاطري حينذاك؟!

ربما لأنني عرفت فيك ـ في الزمن القديم ـ ميزة، أو لعلني ضحكت من موقف لك معي!

المهم أنني تذكرتك، وطردتك من خواطري بسرعة.. فالوقت الذي كنت أسفحه كان من أملاك حريتي، وقد فعلت ما أردت، وأحياناً كنت أفعل شيئاً لمجرد التجربة، أو التعرف عليه فقط.

وهكذا. . . كنت أسخر من هاجس الحب، وكنت أردد مع نفسي، وأمام صديقاتي:

ـ لا يوجد حب. . الناس يتسلون فقط. . العواطف أصبحت مثل الإسفنجة، تمتص الكثير، وبضغطة واحدة تفرغ الإسفنجة ما امتصته، وتجف! يبدو أنني كنت مخطئة. . فلا قلبي إسفنجة، ولا أفكاري كانت ثابتة وواضحة كل تلك الفترة من الزمن الذي أسميته أنت: هشاً!

قلبي اليوم يرفض أن يجف من ماء حبك.

حاولت ـ في البدء ـ أن أجعلك امتصاص قلبي ـ الإسفنجة. . أمتصك وأفرغك، وأجف سعيدة. . مثل أي وقت تتمدد فيه حريتي، وأغذيها، ثم أغمض عيني وأنام بكل ارتياح. . لأنني فعلت ما أريده.

الآن. . . «أظن» أنني لا أستطيع.

الآن. . . تسدد حبك إلى خاصرة حريتي الشخصية أو الذاتية. . استعبدني التفكير فيك!

أكيد. . أنت سعيد جداً بهذه النتيجة، لأنك أناني. . ولأنك تقول لي دائماً:

ـ الحب أناني. . لا يرضى أبداً بأية خاطرة أخرى تشاركه!

ـ ولكن. . . صدقني أنني أيضاً سعيدة بحبك، إلا أن التفكير يرهقني كلما التقينا. . كلما تضطرنا الظروف أن لا نلتقي، وأيضاً. . كلما انتصب عنادي لنفسي ولعواطفي برغبة تدفعني أن لا أراك!

جلست هذه الليلة أفكر. . . وما أطول تفكيري هذه الأيام!

هل قلت أفكر؟!

تعرف؟.. حتى هذه «النعمة» في الشعور بالحرية، فقدتها معك.. حينما تربعت في داخلي، فأنا لم أعد أطيق أن أفكر أيضاً، ولا أجد الوقت للاستمتاع بهذه الحرية الفريدة.. حتى لو كنت وحدي في مناجاة مع نفسي!

تفكيري قد انحصر فيك. وأحاول أن أتمرد.. أن أعود إلى طبيعتي وإرادتي، و«أقرر» إلغاءك من تفكيري، وإلقاءك خارج نفسي، وأبادر بالاتصال الهاتفي مع صديقاتي، وأشغل الهاتف وقتاً طويلاً، وأفكر في مشاريعي وعملي، وانشغل بمسؤوليات البيت.

يمضي وقت لا أحس بانتهائه، وأفرح أنك بعدت عني، وأنني لم أفكر فيك. وحين أسترخي من تعب العمل، أو التشاغل.. يأتيني صوتك من أعماقي.

لا أقص عليك هذه المواقف العابرة لتمتلئ غروراً.. ها... يمكنني في لحظة أن أنفيك من شعوري وخواطري!

هل تضحك؟!

كلما وجدت نفسي وحدي ـ في الليل أو أي وقت ـ أقفل باب غرفتي، وأخرجك من صندوق أضعه في دولابي.. كأنك أهم أسراري اليوم. ألست تهمتي؟!

أفتح الصندوق الذي بات يضيق بمحتواه، وأخرج رسائلك وأعيد قراءتها للمرة التي لم أعد أذكر عددها!

لماذا تبتسم الآن.. كأنني أعزف بحبك؟!

عليك أن تخاف مني.. من مزاجيتي، وفجأة إخراجك من حياتي!

أنت مغرور يا حبيبي... أقولها لك ثانية، وأعرف أنني غرورك!

ـ تقول لي مراراً: لو أصابني الغرور، فأنت السبب، لأنني حبيبك!

ـ أنت لست حبيبي... أنا فقط حبيبتك!

الله يلعن جواباتك!

أرجوك ـ علشان خاطري ـ إبعث لي برسالة جديدة.. فأنا أموت في رسائلك!

لكنّ رسائلك تعذبني.. في نفس الوقت الذي تحييني فيه، وترغدني.

أني أترجمها... بكل ما أعرفه عنك، وبخوفي منك أن تتركني فجأة!

إني أفسر كلماتها حسب مزاجي.. كلمة، كلمة.. وأزعل، وأضحك، وأرضى، وأتدفق كما تقول.

أسرتني هذه الرسائل.. أصبحت أنت عالمي الحر والسري.. أنت حريتي وأنت مشكلتي.

أطلب منك أن تحل لي مشكلتي.. لكن أرجوك لا تبعد، لا تختفِ من حياتي.. أنت راحتي وتعبي.. أنت حريتي وعبوديتي!

عندك ومعك.. أمتلك حريتي الشخصية، وأرضى بعبودية ذاتي وعواطفي لك.

أحس أن ما نحياه معاً، أو ما أحياه معك هو برغبتي، ومن أعماقي وإحساسي.. بمعنى: أنك حريتي، أو الرمز الذي يعبر عن حريتي!

عندما عدت إليك... تنازلت عن نظام حياتي المعتاد، هذا النظام

يشعرني أنه هو الذي صادر حريتي الذاتية.. بل أهملت الكثير مما يبدو واجباً نحو الآخرين الذين يرتبطون بي وأعيش معهم.

أنا أحبك... أحب جواباتك. أشعر أنني أسعد امرأة عندما تكتب لي، وأصير حزينة ومكتئبة «لما تبطّل تكتب لي»!

أبتسم الآن لهذه الخاطرة التي توسطت تفكيري فيك:

أنت تحتج و«تَزْمُر»، وتزعل.. لأني لا أكتب لك كثيراً، بينما أنت تواظب على الكتابة إلي.

ـ تقول لي: إذا كنت مصرّة أن لا تكتبي لي، فاكتبي لنفسك في كراستك.. كأنك بذلك تبوحين.. تفرغين شحنة النفس وترتاحين من همومك، ومن هواجسك، ومن أحزانك الليلية.

ـ أقول لك: لا بد أن تفتح عيادة نفسية، فأنت طبيب نفساني!

أعترف لك أنني جربت هذه الطريقة مرة واحدة وأراحتني.. شعرت حين نفذتها أنني أمارس حريتي الشخصية: أرفض، أغضب. أشتم من أريد. أصرخ. أغني. أحب. أتألم. أتعاطف مع مشاعري، وحتى مع رغباتي. أصبحت عندي «كراسة» هي السر، لا بد أن أضعها في البنك المركزي، كالثروة التي يخاف عليها المرء من اللصوص.. حتى أنت لم أطلعك عليها لأنك لص، ولعل هذا البوح إلى نفسي.. هو الشيء الوحيد الباقي الذي نجا من سيطرتك على حريتي.

البارحة.. كتبت لك رسالة مستفيضة ـ يا هي حلوة! ـ شعرت أنني انسكب مع سطورها. لما استيقظت في الصباح وقرأتها.. سارعت إلى تمزيقها!

أعرف أنك ستغضب الآن، على الأقل ستحزن، أنا أيضاً حزنت وندمت بعد تمزيقها!

أحس أني أرتبط بك.. هذا الحب يخلخلني!

نفسي «أبطّل» من هذا الحب. الحب «عادة سيئة» في عصرنا هذا. أرفض أن يكون إدماناً!

تعرف أنني تعودت على استغراب الناس مني، ومن بعض مشاعري؟!

الدنيا تضايقني أحياناً... رغم مساحة الزف في حياتي.

وعندما عدت إليك، أو أنت الذي عدت ـ لا فرق ـ ناديتك: يا مُنْجدي!

أنت بالفعل منجدي... الوحيد المنقذ الذي يستطيع أن يردني إلى حياتي القديمة.. إلى انطلاقتي ومرحي، وتفاؤلي، وأشيائي الخاصة الحميمة إلى نفسي. لأنك أنت حياتي الحلوة، الأصلية التي أحبها، وأصر أن تعود!

أستأنس جداً، وارتاح، واسترخي.. وأنت تقول لي:

ـ أحياناً أتعب من مدك وجزرك.. من «حالاتك» غير العادية، ففي وقت تكونين متدفقة، لا ترين غيري أمامك وفي صدرك، وفي وقت آخر: متكبرة وجارحة... في وقت أنت دافئة وطبيعية وتتكلمين من صدق نفسك، وفي وقت أنت ملونة وباردة، وودك لحظتها أن تصدري أوامرك فقط!

ـ أضحك وأنت تقول لي مغتاظاً: أنني بذلك أتمرد عليك.. أحاول أن أفك قيودي، وأحطم أسرك لي، وأستعيد حريتي منك، وأنجح لعدة دقائق حين أقدر أن لا أفكر فيك!

أرجوك.. لا تزعل مني، «لا بالعامي ولا بالنحوي»!

ـ تقول لي: أرفض أن تصفي الحب بأنه «عادة سيئة».. السوء هو الحقد والكراهية والجحود ونكران صدق النفس، والفراق.. والأجمل أن يكون الإنسان عفوياً وطبيعياً!

يا كثر فلسفاتك أغتاظ منك ـ أحياناً ـ لأنك تحبني بهذا الاندفاع، وأخاف أن تترمد هذه الجمرة.

أعرف أنني لست نزوتك ولا رغبتك المؤقتة. إن جنون الروعة هو في إصرارنا معاً على الأمل.. على الأنبل والأعمق، لكنك تريد أن تصادر حريتي!

ـ تقول لي: أحلم أن نسافر إلى مكان بعيد.. إلى غابة نجري فيها، ونرى السماء بعين واحدة، وارتفاع الأشجار بنظرة واحدة.. أضغط على يدك بحنان، وأقبّلها كظمآن يرتوي، وتأخذين يدي وتحيلينها إلى وسادة لرأسك المتعب!

ودّي نتخانق، وأصالحك.. تبدو طفلاً مشاكساً وعنيداً، فأعلمك حنان الأمومة.

أنت متسلط، ومقتحم. تذْكُر يوم غضبت مني لأني تركتك في الصالون وحدك. وجلست أحكي مع صديقتي بالهاتف؟ يومها ثرت.. انفعلت.. صممت أن تأخذ نفسك وتخرج بها أيها الاستفزازي!

فقط... أعد لي حريتي!

ولكن..... كيف؟!

فقط . . . قضيتها!

ضحكت طويلاً، وأنت تسألني هذا الصباح بنبرة جادة:

ـ ما هي قضيتك؟!

فاجأني سؤالك بالفعل، وهمست لنفسي في اقتحام السؤال:

ـ صحيح. . ما هي قضيتي؟!

لم أفكر من قبل في مضمون هذا السؤال مباشرةً، ولكن. . لا بد أن تكون لكل إنسانة وإنسان قضية، يدافعان عنها دائماً.

كأنك تريد أن تفتش رأسي. أن تشق صدري. أن تطوِّح بأفكاري الهادئة بعد أن عانت سنوات طويلة من الدوار، ومن الأسئلة الأكثر قلقاً.

لا شك أن لي قضية، وإلا. . . ما كنت إنسانة، وكياناً، وفعلاً، ووجداناً، وأفكاراً، وهدفاً.

أحياناً. . . نحن نهرب من هذا السؤال برغبتنا، لئلا نسقط في مزيد من التعب.

لماذا أردت أن تتعبني بهذه القسوة؟!

هل تسألني عن قضيتي كامرأة؟

كل امرأة تحيا قضية في عمرها، مهما كانت بسيطة، تدافع عنها، وتنادي بها، وتحارب من أجلها.

دعنا من الصراع التقليدي بين المرأة والرجل.. ولو أن الرجل في طبيعته يحاول أن يسيطر على المرأة، والمرأة في تكوينها وعاطفتها لا تستطيع أن تلغي مساندة الرجل لها، ولا تقدر أن تنسف عاطفتها المصبوبة في قوة الرجل.

لكنَّ التكوين الإنساني ينطلق إلى ما هو أشمل، وهناك قضايا عديدة في رابطة هذين الكائنين ـ الرجل والمرأة ـ لعل من أهمها: بناء الأسرة، وتقديم الأطفال للمستقبل كأعضاء فعالين ومؤثرين، والمشاركة في توفير نكهة للحياة.

دور المرأة كبير في اتساع الوعي، وبلورة النضج والتعليم، والثقافة والأمومة..

هل تريدني أن أحاضر أمامك؟!

تراك «مصَّختها» عاد... لماذا تحاول أن ترميني في الضجر من جديد بافتعال حوار لم تتعب المجتمعات من أن تلوكه باستمرار؟!

لقد ضجرت من السأم، ومن سؤالك السخيف هذا!

إذن... فقضيتي ـ كامرأة عربية ـ هي السأم.. كأنني أحمل نعشي وأتثاءب!

كأنني ركبت سيارة فارهة جداً، وانطلقت بي إلى طريق مسدود، في نهايته حاجز!

فهل أنادي على الراحة التي تخلصني من الأشياء الصغيرة؟!!

أم أنادي على الأفكار التي تغذي تلك الأشياء الصغيرة.. فتجعلها قضية؟!

لا أريدك أن تسألني عن راحتي!!

ـ تسألني: ولماذا؟!

ـ أجيبك: ببساطة.. لأنها راحتي أنا، ولأنك رجل لا يمكن أن تصل إلى تلك الأشياء الصغيرة والحميمة في أعماق المرأة.

أرجوك... لا تعتقد أن الزواج، أو الرابطة بين الرجل والمرأة قيد، أو تبعية. كثير من الأزواج يصرون على ذلك!

أنادي على حريتي. أقصد أنني «قررت» أن أبقى حرة.

ـ «تعرف ليه أنا بطّلت أعزف موسيقى»؟!

الموسيقى هوايتي المحببة، ولكني ضجرت... استحوذت عليّ الأشياء الصغيرة، والالتزامات الأسرية والمنزلية.. ما عدت استمتع بهوايتي هذه، لأنني ـ ببساطة أيضاً ـ تزوجت ذات يوم!

لا تضحك ـ كرجل ـ فأنا بالفعل لم أعد أمتلك حريتي الشخصية، بينما أنت الرجل. وكل رجل يمتلك هذه الحرية، بل ويعبث بها أحياناً!

لا تتفلسف وتقول لي: الموسيقى خيال. الشعر خيال. الرسم خيال. لا... كل هذه الفنون حياة، لأنها الهواية المحببة للإنسان.. تسعد روحه فتصبح هي الحياة!

حياتي تبدلت في فقدان حريتي الشخصية.. ولا أدري، كيف أتمكن من إصلاح حياتي؟!

لقد لذت بك، وطلبت منك أن تعينني على ذلك.. لكن لا تطلب مني ما يشعرني أنه صيغة أمر!

أيضاً لا تطلب مني أن أعزف لك على البيانو الآن.. دعني أرتاح. أتركني لراحتي!

حينما تطلب مني شيئاً.. فكأنك تقول لي: لا تفعليه «حتى لما يكون عندي نفس... أبطّل لما تطلب مني»!

أنا لا أعاندك. صدقني، ولا أخالفك.. فقط، أريد أن تعترف بحقوقي، برغبتي، باستعدادي النفسي.

لذلك.. أرجوك دعني في سلام، وفي ألم أيضاً.. مع الموسيقى، مع الشعر، مع القراءة، مع الرسم، وحتى مع «الهلس».. لا بد أن أكون حرة.

قضيتي ـ إذن ـ هي حريتي الشخصية!

لماذا تريد أن تسافر إلى نفسي بهذا السؤال، ثم بهذا الاستحواذ الدائم منك؟!

* * *

أحس أن الحياة تضيع من بين أصابعي كما قبضة رمل، وأنني أمارس الحياة بالتقسيط.

حتى التقسيط دخل إلى عواطف الناس، ونخلها.

بماذا تريدنا أن نحتفل؟!

أنا أسألك في زمن تخلى الناس فيه عن مراجعة الذات، فأصبح الكثير من الناس: مجرد حالات نفسية.

لا تقل إني متشائمة. بالعكس.. إنني أحب الضحك والمرح. لا أطيق الكآبة، ولكني عندما أخلو إلى نفسي، ومع حريتي الشخصية.. أرغب في البكاء. قلت لك ذلك مراراً.

دعني أروي لك حكاية:

ذهبت عند صديقة لي، دعتنا بمناسبة زفاف أختها. كنت مع مجموعة من صديقاتي نضحك، وننتقد حركات البعض، مثل كل الناس. الكثير يضحك على البعض. الاحتفالات الجماعية مظاهر، والاحتفالات النفسية هي الأعمق، ولكنها تبدو هستيرية أحياناً عندما تفيض عواطفنا فوق حفافي النفس!

صرت مثلك أتفلسف... لاحظت؟!

نحن في مجتمع استهلاكي... يستهلك حتى الحب!

وكلما أغمضت عيني، أضاءت شاشة كبيرة، يمر فوقها شريط طويل اسمه: حياتي، واكتشف في النهاية: أن كل الذي اختزنته فيها.. هي أعوام شبابي الأول ـ الأحلى ـ حينما كان الفرح فيها بلا موعد ولا بطاقة.

وفيها أيضاً أعوام أخرى قصيرة.. كان فيها «أبي» هو ملجئي وبوصلتي وتعويذتي.. منحني حُبًّا لا يقدر مخلوق أن يطبع منه نسخة أخرى.

كنت في حياته هذه السنديانة الريانة.. لو لمح الحزن في عيني فزع.. لو رآني متوترة اغتم. كانت أبوته لي وطناً أخضر!

الآن... أشعر أن وجودي مزيف بعد رحيله، لعمق ما ملأني حباً، وحشد فراقه في نفسي حزناً!

أطالع النجمة... فأجدها لا تستقر في حدقتي!

أطالع القمر.. فأشعر أن الغيوم التي تطارده أحياناً، ويدخل فيها أحياناً أخرى.. قد شاعت في نفسي!

لا تظن أنني أمارس الخوف مع نفسي.. ربما أمارس بنفسي الخوف من الوحدة، والفراغ، والوحشة، والخذل من الناس، والتسابق مع الزمن.. فأحاول أن أجلي صورة المستقبل المجهول لأبنائي على الأقل.

فهل هذه قضية أيضاً.. أم ماذا تسميها؟!

* * *

أنا ما زلت طفلة.. وأعظم قضايا الإنسان هي طفولته!

لا أعترف بالفشل.. رغم أن بدء حياتي ـ كامرأة ـ كان الاختيار فيها مزاجاً، أو رغبة عنيدة في الدخول إلى عالم النساء، والأمومة.

فهل هذه قضية أخرى؟!

ربما كانت الأمومة قضية مهمة.

ربما كانت المحافظة على بيت وأسرة: قضية!

صرت أخاف على أطفالي من ظواهر خطيرة، أهمها: الطلاق، والمزاج، وأفلام الرعب، والمجتمع الاستهلاكي.. الذي يستهلك حتى الحب!

ربما كانت «أحلامنا» التي تعاكسها المواقف المضادة، والتجربة: قضية، ضائعة!

ربما كانت القضية في سؤالي الدائم إلى نفسي، كلما خلوت معها:

ـ ماذا أريد بالضبط؟!

ربما كانت تناقضاتنا قضية.. حينما تراوح هذه التناقضات ما بين الرفض والانصياع، وما بين الأخذ والعطاء، وما بين الحق والغمط!

أقول لك شيئاً آخر يذهلك؟!

أشعر أحياناً أنني لا أمتلك اسمي. اسمي ليس لي. ولكنه للروابط.. للزواج.. للنظام الاجتماعي.. للتقاليد.. للمظاهر.. للأمومة.. للبيت الذي أصبح فيه سيدة.. كأنه تُهمة.. يا أنت يا تهمتي!

اسمي لي.. أخفيه متى أريد، وأعلنه متى شئت.. وهذه ـ في رأيي ـ قضية!

لا أقصد أنني مشهورة.. بل أحياناً أجوع إلى شهرة اسمي بما أفعله، وليس بما أطلب من الناس أن يفعلوه لي، أو يطلبون مني أن أفعله.

أريد أن أشعر بنشوة الفعل الذي أريد إعلانه... فهل فهمت؟

* * *

الآن.. هدأت قليلاً، بعد أن جعلني سؤالك أشيط.

خيل إليّ أنني أشم رائحة الحريق تتعالى من قلبي الذي أحبك بدون فلسفة. يا حُبَّكْ للفلسفة!!!!

فتحت رأسي بسؤالك، أترك رأسي لو سمحت... ألا يكفيك قلبي؟! الآن... ينجب قلبي آلاف الخفقات، شوقاً إليك.. ولا أسأم!

يأتيني صوتك إنشاداً في أصداء الليل:

ـ آه... لو تعرفين كم أحبك؟!

يريحني كلامك... يهدهدني.. ينغل في شراييني!

أستطيع الآن أن أسترجع رائحتك.. حنانك.. همستك.. جنونك الأسطوري.

أستطيع أيضاً أن أتنسم عطرك المميّز.

فهل تراني أتخلص منك؟!

هل أصبحت أنت الآخر: قضية في حياتي؟!

أنت الذي دعوتني أن أشاركك الصعود إلى الأفل.. أدخلتني صاروخاً، وانطلقت بي نحو الحلم.. وفي طريقنا الذي تصعد عبره، هناك مراحل عديدة: انعدام الوزن. الضوء. الشمس. الظلمة. السحب. الفضاء المخيف واللانهائي. الخنادق الترابية على سطح الكواكب.

أين تريدنا أن نسكن معاً؟!

لا بد أن نسكن فوق الأرض.. وأن تكون لنا قضية.... ها؟!

أرجوك... أنا الآن «هلكانة».. وِدِّي أصرخ في سمعك:

ـ آه يا نفسي.... آه يا أنت!!

* * *

فقط . . . قسوتها

شعرت هذه الليلة بتعب يحصد نفسيتي. . بتوتر يكسر أعماقي.

فكرت أن لا أحادثك هذا المساء. ليس هو الشعور بالملل منك. ولكني رغبت أن أخلو إلى نفسي، وأعتزل في غرفتي. لكنني تذكرت أنني مدعوة على العشاء هذه الليلة عند ابنة عمي بمناسبة قدومي إلى مدينتهم.

ـ سألت نفسي: كيف أذهب بهذه النفسية؟ لا بد أن يتساءل الجميع هناك. لست في حاجة إلى مزيد من الأسئلة. . تكفيني هذه الأسئلة التي يضج بها رأسي!

وحين كنت أفكر في عزلتي المريحة. . تعالى رنين الهاتف، وفاجأني صوتك.

ـ قلت لك: لماذا اتصلت بي؟ لقد قلت لك إنني سأتصل بك.

سألتني بطريقتك التي تلح بها أحياناً، للتعبير عن قلقك علي:

ـ صوتك متعب. . ماذا بك. . ما الذي يتعبك. . أخبريني؟!

لا أريد أن أخبرك الآن. لعل طبيعة فيك. . أصفها بـ «شهوة السؤال» تدفعك دائماً. . فتريد أن تعرف كل شيء، وفي الحال!

هذا صعب جداً. . على الأقل في نفس اللحظة، لأنني حينذاك أضيق بثيابي التي ألبسها.

إذا كنت ستتحدث عن عيوبي. . فهذه إحدى عيوبك!

أكره أن يسألني أحد: «إيش فيك»؟

وأنت تسألني ـ كعادتك ـ ولا تتوقف.

أنا ـ كعادتي ـ أيضاً. . لم أحتمل أسئلتك، حتى ولو كانت للاطمئنان علي.

فهل ترى هذه «النقطة» من عيوبي، أو من ملامح قسوتي عليك؟!

ثرت عليك في أسئلتك. . ولكني ـ قبل ذلك ـ حاولت أن أثنيك عن شهوة السؤال فيك.

ازداد إلحاحك. . وتصاعد توتري!

كنت ـ بالفعل ـ متعبة. . في صدري حشد من الكآبة والوحشة. . أعاني، ولكن لا أقدر أن أحدد أسباب معاناتي بالضبط، ولكنها مجموعة ترسبات أو تراكمات، لعلها صغيرة في حجمها الفردي.

صدقني. . لم يكن هناك سبب، ربما تذكرت موقفاً، أو كلمة، أو ذكرى. . ربما اكتشفت تبدل أشياء في حياتي كنت أتمنى لو استمرت ولو لم أفقدها من حياتي.

تركتك وحدك ـ بدوني ـ في هذه المدينة التي تتمدد اتساعاً، والتي أحببناها معاً.

قلت لك قبل أن أسافر:

ـ سأغيب عنك بضعة أيام.. لا بد أن أسافر وأرى أختي، فقد اشتقت إليها

كثيراً، وهي أيضاً تلح علي في السفر إليها لأنني من وقت طويل لم أرها.. بل إنني منذ أن عاد كل منا إلى الآخر أصبحت لا أحادثها بالهاتف إلا قليلاً.

انشغلت بك.. وهي قد اشتاقت إلي، فكان لا بد أن أسافر إذن.

سأكون صادقة معك.. لا تغضب مني!

ـ عندما فكرت في السفر.. لم أفكر فيك، برغم أنك أشعرتني بأن سفري القصير هذا سيكون أكبر همومك طوال غيابي.. الله يعين الصادق!!.

يومان، أو أكثر ـ قلت لنفسي ـ لن أشعر فيها بالاشتياق لك.. بل ـ أحياناً ـ ونحن معاً في هذه المدينة.. يخيل إلي أنني أكاد أسأم منك.

ـ قلت لي قبل أيام: قد أسافر إلى الخارج لمدة أسبوع في رحلة عمل.

يومها.. لم أجبك. أعدت الخبر، وسألتني:

ـ ألاّ يهمك هذا الخبر!.. أليس لديك شعور ما تستقبلين به هذا الخبر؟!

ـ قلت لك وأنا أضحك: سلامتك... سافر!

يومها ـ أيضاً ـ أحسست أنك حزنت بعد إجابتي هذه!

لعلك كنت تتوقع أن أحزن.. أن «أرجوك» لا تسافر.. أن أقول لك على الأقل: سأشتاق إليك.. توحشني بطول غيابك!

لم أقل لك ذلك.. نسيت، أو... ما نسيت، فقط.: ما أردت أن أقول!

فهل تعتبر هذا الأسلوب: قسوة؟!

ـ سألتك: «هالحين.. ليه كشرت.. أنا قلت كلمة غلط»؟!

ضحكت حينذاك بسخرية، وأجبتني:

ـ لا.. العفو. كلامك كله عدل!

لم تهن علي.. أحسست أني قسوت، سألتك:

ـ إنت زعلت من إجابتي؟!

ـ قلت لي: حتى أكون معك صادقاً، فأنا ما زعلت.. يمكن حزنت، لأني توقعت منك اللهفة، والتعبير عن الشوق في غيابي، وحنان المحب.. على الأقل مجاملة، لكني بصراحة اصطدمت بقسوة جارحة منك لعواطفي!

على فكرة.. «إنت ليه ما سافرت»؟!

نسيت أسألك بعد أيام.. كنت أتمنى أن تسافر، كما قلت لك مرة.. لأكتشف في نفسي إن كنت سأشتاق إليك، أم أنك هذا الشخص العادي في حياتي!

أو لعلني أريد سفرك، لأرتاح من هذا الانشغال بك!

«ها... لا تقول قسوة بعد؟!»

لكن... أفكر بعض الوقت في مقياس الأشواق عند الناس.. في ذلك الذي يسمونه «فراغاً» في حياة إنسان يبعد عنه الذين يحبهم أو يحبونه.. أو في ذلك الذي يطلقون عليه: «الفراغ العاطفي»!

هل صحيح أن هناك فراغاً عاطفياً؟!

أنا أنظر إلى الناس كلهم يتعاملون بالعاطفة.. حتى في الماديات، وإلا أنا غلطانة؟!!

* * *

أنبسط جداً كلما تأكدت أنك تحبني «حيل».. يعني ما عندك فراغ عاطفي!

أنبسط ـ أيضاً ـ أنني في حياتك: حقيقة، وامتلاءً عاطفياً، وشعوراً تقول لي عنه: إنك لو فقدته فسوف تشعر بالوحشة، وبالضيق، وبالأسى!

هل أنا أنانية.. أم الحب هو الأناني؟!

لكني في بعض الوقت أشتاق إليك، بل لعلني أشعر بالارتياح، وهدوء هذه النفس، ربما لأنني انتصرت على اندفاع تفكيري فيك.. وهذه قدرة، أحبها أن تكون معي من مميزاتي.. وأرجوك لا تفسرها بأنها: قسوة!

يمكن.. في لحظات أخرى: أشتاق إليك، حتى وأنت معي في نفس المدينة.. لو غاب وجهك أو صوتك عني لساعات، وأقلق عليك، وأصبح متلهفة لرؤيتك.أعرف ماذا تود أن تسأل عنه الآن.. لقد سألتني مرة:

ـ أتصور بعض ردودك على كلامي معك، وكأنها كدمات.. قصدت أن تحدثيها في قلبي عنوة.. كأنك أردت بالفعل أن تؤلميني، بينما أنا أتوق منك إلى «هدهدة» لهذا الطفل في أعماقي!

هل تعتبر ذلك قسوة أيضاً؟!

إني أسألك.. يا حبيبي يا بايخ!

إني أشعر نحوك بحب.. يخيل إلى أنني لم أمنح مثله لإنسان غيرك.

وحين أفكر فيك.. أسترجع كلماتك الرقيقة، وأصداء صوتك.. فإن خفقاتي تستغرق في اسمك.. مثلما تقول لي أنت عني دائماً:

ـ برغم قسوتك «الأحيانية» وشعوري لحظتها أنك تحاولين إبعادي عنك.. لكني لا أتصور، ولا للحظة، أنه من الممكن لي أن أستغني عنك، ولا أطيق بعادك عني من جديد!

أنت تجيد الكلام، ولكنك عصبي لا تحتملني أبداً.. وأنا، ليس من عيوبي القسوة، كما تقول، بل صرت أحتد كثيراً، ويحلو لي أن أعاندك أكثر!

إذن.. ما الذي رماني في التعب النفسي هذه الليلة؟!

لا تفرّح نفسك ـ أيها الرجل المغرور بي ـ طبعاً لست أنت السبب، ولا بعدك عني، ولا اشتياقي لك.

كنت أحادثك بالهاتف من سفري... وكنت أنت تسألني عن أحوالي.

لاحظت عليَّ أنني كنت متوترة قليلاً. سددت إلي سؤالك المعتاد، والأكثر ألحاحاً:

ـ ما الذي يضايقك؟!

ـ قلت لك في البدء: لا أدري.. كنت سعيدة عندما كان المطر يغسل المدينة كلها يوم أمس. اليوم عادت الشمس إلى الانتشار!

ضحكت أنت.... كأنك تستفزني. سألتني:

وهل هذا سبب وجيه.. أم أنك لا تودين أن تحكي لي؟!

لاحظت أن صوتك قد تبدل.. حين ازداد توتري. لم أفكر لحظتها إن

كنت قد غضبت أو ستغضب. لم يهمني كثيراً أن أتأكد.. لأنني لا أريد من أحد أن يحاصرني بمثل أسئلتك، فكأنك تستجوبني!

لا أحب من أحد أيضاً -حتى أنت ـ أن يملي علي أفكاره، ولا أن يوجهني ويفرض آراءه.

أنت فعلت ذلك.. حتى كنت أحادثك وأعاني من توتري، ومن قلقي النفسي.

لماذا تحاول أن تتدخل في شؤوني الخاصة، وأن تقول لي: لو فعلت كذا، ولو لم تفعلي ذلك؟!

أكره الشخص الذي يشعرني أنه يلومني، أو يقول لي: أخطأت.

ـ قلت لي: أنا لا أفرض عليك رأيي. بالعكس.. أردت أن أشاركك التفكير، وأن أتعاون معك في تفسير بعض الأشياء، والاقتناع بتقبلها. مجرد مشاركة، وأنت تعتبرين ذلك كله تدخلاً!

أحياناً.. ودي أحكي! لك كل شيء، أشكو لك، وأطلب رأيك.. لكني أريد أن أفعل ذلك بمزاجي.. أن لا تدفعني أنت إلى ذلك.. أن لا تشعرني أنك تريد أن تعرف كل شيء!

أحياناً ـ أيضاً ـ أناديك في أعماقي حين أكون متضايقة، وأتمنى لو أريح رأسي على كتفك وصدرك، وأغفو.. فأشعر بالأمان.

أعرف أن الحب أمان.. ولكني أخاف على نفسي وعليك من هذا الحب.

لكني في توتري.. أجبتك:

ـ هذه ليست مشاركة. . أنتم الرجال تعتبرون المرأة دائماً في حاجة إلى حمايتكم، بينما أنتم تلوذون إليها.

غاب صوتك قليلاً. . وكنت في توتري ذلك أريد أن أجرحك. وجاءني صوتك حزيناً:

ـ على العموم. . أنا آسف لتدخلي، أردت فقط أن أخفف عنك!

ـ أجبتك: لا تخفف عني أرجوك، فأنا متعبة جداً، وأموري الذاتية لا تخصك. . أستطيع أن أحلها وحدي، ولا أحتاج لمن يحلها بدلاً عني. . أنت لن تتخذ بالنيابة عني قراراً يصلح لحياتي. لقد مللت منك. . مللت من عملي أو مسؤوليتي في العمل، فهذا العمل يستحوذ على المهم من وقتي، ويشعرني أنني أهمل طفلي الوحيد، وأهمل رغباتي الخاصة. طفلي أيضاً يضايقني أحياناً. بين دقيقة وأخرى يدخل ليقول مشكلة تخصه، وعلي أن ألتفت له وأحل هذه المعضلة بالنسبة له. نشاطاتي الاجتماعية غير منظمة، وأحياناً أكرهها، ومرة أنجذب إليها، أشياء كثيرة تطاردني، وتحاول أن تسرق حتى الوقت، وتدوس فترة راحتي.

ـ قلت لي: فهمت الآن ثورتك. . كأنني أنا أفعل كل هذا الاضطراب في حياتك. . كأنك تفصحين الآن عن ضيقك مني.

ـ قلت لك: إفهم ما تريد. . أنت لا تتفاهم. مع السلامة!

* * *

أقفلت الهاتف في وجهك، ولكني شعرت أنني نفثت غضبي وكربي فيك. . صببت عليك نقمتي وضيقي وسأمي وقيودي التي أراها تعيقني عن ممارسات الحياة التي أحلم وأريدها.

وكأنني هدأت بعد ذلك. راجعت نفسي. لعلني تجنيّت عليك، ولا بد أن اعتذر لك، لأنني بالفعل أحبك، وأنت الوحيد الذي يحتملني، ويحتمل حتى قسوتي عليه.

استرجعت كلماتك عندما كنت تقول لي.

ـ أجدك أحياناً قاسية معي، كأنك تقصدين هذه القسوة.. لماذا؟

هل أنا قاسية يا حبيبي، وهل هذه القسوة من عيوبي؟!

ربما أنني لا أجيد التعامل معك برقة الغزل، وترديد كلمات الحب المعتادة.. لأنني لا أحب الاعتياد حتى في الحب. حبنا يختلف عن كل ما تعوّد عليه المحبون.. لا بد أن أشدك. أن أثيرك. أن أغضبك. أن تستفزني. أن أعاندك.. أن تتقبلني بعيوبي، وأتقبلك بعيوبك.

لقد أتعبتني.. أنت مجنون، وعاطفي وحساس، وهذه الصفات في الرجل تتعب المرأة.. وما تسميها عيوباً عندي لا بد أنها تتعبك.. وأجمل الحب هو المصكوك بالتعب!

تعال إليَّ الآن.. «أوحشتني» جداً، إلى درجة التعب بك!!

* * *

فقط . . . حبها!

من مكاني المفضل هذا. كنت أرقب كل شيء!

أرقب وجهي، والتعابير التي ارتسمت على قسماته وأرقب أيضاً وجهك، وهو بعيد عني هذه اللحظة.

ليس معي أحد في كل الغرفة، ولا أنت. . لكنّ وجهك يطل علي مختلطاً بوجهي عبر صفحة المرآة. شيء يفوق التخيل!

في هذا المكان صرت أجلس وقتاً طويلاً. أفكر فيك عندما تغيب. أحاكيك بيني وبين نفسي. . أفتح صندوق أسراري، وقد أصبحت أنت وحدك أخطر أسراري!

هنا. . صرت أجلس وحدي ومعك. أعيد قراءة رسائلك إلي. . أحادثك بالهاتف عندما أحاول أن أكتشف وجهي في عينيك، فأنظر إلى المرآة. أتذكر أنك قلت لي مراراً:

ـ نحن توأمان في الحب، وفي بعض الطباع. أشياء كثيرة انطبعت فيك مني، وأشياء أكثر حفرت في صدري بوشمك!

أحب كلامك عندما تتدفق حباً لي. . أحس أنك صادق معي، ويكون

إصغائي لصوتك لحظتها متعة.. يخيل لي فيها أن عشق الحياة ينغل في شراييني من دفقك.

أنت قلت لي أيضاً:

ـ كل منا أصبح يحسن قراءة نفسية الآخر. ظننت أنني وحدي استطعت قراءة أعماقك ومشاعرك، وحتى «غرابتك» الأحيانية.. لكنني اكتشفت أنك أنت الأخرى صرت تجيدين قراءة أعماقي.. أسمعك تكملين عبارة أقولها مبتورة فتعرفين بقيتها. وهذه ميزة لا تتوافر في كثير من «الاثنينات» ـ إن جاز هذا التعبير! ـ أي عند كل اثنين التحما وتمازجا روحاً وهوى وفكرة.. كأننا توأمان! كم أشعر بالاشتياق لك الآن.

اليوم بطوله... سرقني النوم منك ساعات طويلة.

أكيد أنك قلقت علي، وربما.. غضبت بينك وبين نفسك. أعرفك شديد الحساسية، ولا تصد ظنونك عندما تقتحمك أنت تقول لي:

ـ هذه ليست ظنوناً.. بل الحب لك، والخوف عليك، والشوق الذي لا يترمد!

لعلني كنت متعبة، فسرقني النوم منك!

ـ تعود وتقول لي: ولعلك كنت مرتاحة جداً، ومستأنسة في الليل والسهر.. فكان لا بد أن تعوضي ذلك السهر!

تأكد.. أنه لا شيء يستطيع أن يسرقني منك، على الأقل: الآن.. في هذه الأيام التي أحبك فيها. ربما لما «أبطّل» أحبك ستسرقني أشياء كثيرة.

صحوت من نومي، وخفت أن لا. أسمع صوتك.. أحسست بهذا

الاشتياق المضاعف لك، كأنني لم ألقك من وقت طويل.

أرجوك.. لا تكره النوم لأنه سرقني منك، فأنا أعز النوم جداً، وقد تعودت على السهر.

أحببنا الليل معاً.. فإذا هو عالمنا، وقمرنا، وضحكاتنا، واقتناعنا برموز جميلة لا يعترف بها النهار.

* * *

وحانت التفاتة مني نحو المرآة. ضحكت حين رأيت وجهي وشكلي، وحركتي... فقد كنت ألعب بشعري في شرودي إليك وحديثي معك، وكان وجهك يطالعني عبر المرآة ويلتصق بوجهي.

كنت أرقب وجهك في المرآة، ووجهي معك.. وكأنني مطوية تحت جنحيك!

كانت زجاجة عطر في متناول يدي الأخرى.. قرّبتها وأزلت من فوق غطائها مسحة غبار.

ضحكت ثانية.. عطرك المفضل أهديتني زجاجة منه، وأغظتك كثيراً في كل مرة تسألني: لماذا لا تضعين منه.. ألم تعجبك رائحته؟!

ـ أجيبك باستفزاز لك: مزاجي كده. أحب رائحته فيك فقط!

سقطت زجاجة العطر على الأرض، لم تكن زجاجتك.. فقد احتفظت بها مقفلة وبعيدة عن سطح «التسريحة»!

لحظة من فضلك... التليفون يرن.

عمري أنت.. لا تروعني بابتعادك عني، أريدك معي دائماً، حتى

بالتخيل، فأنا اليوم أحبك جداً. . أستطيع أن أجسدك في كل ركن من البيت في اللحظات التي أشعر فيها بشوق لك.

أكيد أنك ستسألني الآن: «مين اللي طالبك بالتليفون»؟!

على فكرة. . هذا الطبع فيك ما أحبه، ليه تسألني. . هل تشك في حبي لك؟!

يمكن أنا التي أشك في حبك لي. . خاصة ومن حولك «الظباء» أيها «الخراش»!

أو على الأقل. . أنك تعبث أحياناً من خلفي!

أنت تنفي هذه الشكوك في كل مرة أواجهك بها. . فهل أصدقك لأرتاح؟!

أما المرأة. فعندما تحب رجلاً، فإنها لن تلتفت إلى غيره أبداً.

هذه قاعدة. . ذكراها من فضلك باستمرار، حتى لا تظلمني.

أنت تنسى اتفاقاتنا. . ولكني أذكرك، فهل تحب ذلك مني؟!

عندما وثقت فيك، وحكيت لك عن تجربة سخيفة أكرهها في حياتي. . كنت صريحة وصادقة معك. لم أكذب عليك، ولم يكن هناك من داعٍ لأقصها إلا حبي لك وارتياحي معك.

لا أنكر أنك تفهَّمت ظروفي يومها، وتلقّاني صدرك بكل حنان الحب لنتعاون معاً على غسل هذه النقطة من صدري، ولتنسيني تماماً وقتاً مؤقتاً لم أعد الآن أحبه ولا أكرهه، لأنني أسقطته من حياتي.

ويومها. . أحببتك أكثر، لأنني وجدت فيك الإنسان الذي يفهمني، وإن

كنت أحياناً، وبعد ذلك، أشعر أنك لا تريد أن تفهمني في مواقف أخرى.. لكنك بإصرارك عليّ، أجد أنك الوحيد الذي سيفهمني دائماً.

آه... تذكرت. أنت تسألني عن رجل آخر بإلحاح، وبغضب. ألمح في وجهك الغيرة، وعليك توتر ملحوظ كلما نطقت اسمه، أو أخبرتك أنني حادثته.. ولعلمك مازلت تظن إلى الآن أنني أحبه!

كيف أحبك وأحبه في وقت واحد؟!

ما الذي يحدني. أن أقرّبك مني وأبوح لك بحبي.. إذا كنت أحب ذلك الآخر؟!

ـ قلت لك عنه: إنه إنسان مميز.. أحبني منذ وقت، ولم يكتم ذلك الحب في فترة كانت قبل أن أعرفك من جديد.. ثم عاد وطوى قلبه، ولم يعد يتحدث عني في قلبه، وإن كان لم يقاطعني.

ـ سألتني قبل ليلتين: ولكنك تتحدثين عنه بحب.. فبماذا تفسرين هذا الشعور؟!

ـ أجبتك: لأنه يمتلك صفات تجعلني أعجب بخصاله وبمواهبه، وهو إعجاب عقل.. أما أنت، فقد لا أكون معجبة ببعض الخصال فيك، أو ببعض مواهبك.. لكني أحبك، وقد امتلكت مشاعري.. أو أنك امتلكت ما تمنى هو أن أخصه به!

لا تنس أنني كنت سأتزوجه قبلك.

وبهذه المناسبة.. دعني أسألك:

ـ وهل تعتقد أن الزواج يقتل الحب؟!

اعرفي أن هذا ـ السؤال بات سمجاً ومكرراً لكثرة ما طرحه الناس. حتى إن البعض! كان يطرحه ويجيب عنه بأسلوب التنظير، كأنه سياسة، بينما يبقى الحب فوق ذلك، وأعمق بكثير من لعبة الديكة!

لو أن رجلاً تولّه بامرأة حتى الجنون، وتزوجها.. ألا يبرد ذلك الوله ويتحول إلى نظام أسري معتاد، وبرنامج يومي ممل، وسأم يضيّق الخُلُق؟!

جاوب عن هذا السؤال.. أيها الرجل العاشق!

لا أسمعك تجيب.. ثم أتذكر إلحاحك معي حين تردد في سمعي دائماً:

ـ أريد منك طفلاً واحداً فقط: شقياً مثلي... أو طفلة واحدة فقط: جميلة ومغرورة مثلك!

أحياناً.. أنجذب إلى أمنيتك هذه، وأشرد معها بحلم جميل، لأنني مثلك أتوق إلى إنجاب طفل منك.. على الأقل لأرى كيف سيكون شكله، وما هي طبائعه التي سيكتسبها منك ومني. لا بد طفل مميز!

❊ ❊ ❊

ترى.. هل تنسى اتفاقنا في غيرتك، وولهك بي؟!

أتعجب من استمرار ظنونك.. وقد طلبت منك يومها الاقتناع بهذا الاتفاق. قلت لك صادقة، ورأسي مستريح على كتفك:

ـ «أرجوك.. لا تعد إلى الشك بي، وأنا سأثق فيك.. خليك مؤمن بحبي لك، وخليني أتأكد من أنك تحبني، وخلاص.. خلصنا من هذا العذاب»!

سمعت صوتك بعدها يهمس لي:

« صدقيني.. أنا فرحان لأنك حبيبتي، وفرحان أكثر...

ودخل في صمت، ولم عباراتك، ثم قلت لي:

ـ هل تستطيعين أن تكملي عباراتي؟!

ـ قلت لك: أعرف الباقي.. لكني لن أكمل لأغيظك!

ـ أكملت أنت: «فرحان أكثر لأنك تحبينني»

❊ ❊ ❊

صحيح.. لقد أهدرنا سنوات في عذاب البعاد والفرقة، وقد ظننت أنني لا أفكر فيك، أو أنك لا تعني لي شيئاً.. بل كنت لا أكثر من تجربة صغيرة، عبرتها في بدء حياتي عندما كنت أجتاز عتبة المراهقة إلى النضج، وإلى اكتمال هالة شبابي!

في تلك المرحلة من العمر.. كنت أريد -من علاقتي بك ـ أن أتعرف على لون من الشباب، وعلى أفكارك وتصرفاتك بعد أن سمعت عنك.

ولا أدري.. لعلني ـ حقيقة ـ لم أمتلئ بك يومها، أو هي الرغبة في التجربة والتعرف.. قد فصلت بين استيعابي لك، وبين قناعاتي بك.

وفي تلك المرحلة ـ أيضاً ـ يبدو الإنسان خاضعاً للصقل، للاكتشاف.

ولم يكن يعجبني أي إنسان. نشأت أحب القراءة والمعرفة. تبلورت شخصيتي في ذلك القالب المترف، ولكني كنت أبحث... أفتش عن حقائق كثيرة.. عن رؤية أبعد وأشمل.

لقد لاحظت تغييراً فيك.

ولذلك.. تلاحظ أنني أصف هذه العودة لك بقولي:

ـ «لما عرفنا بعض... الآن»!

وكأنني أعرفك، وكأنك تعرفني لأول مرة.. أي إننا أصبحنا نقدر على امتلاك المعرفة، وصياغة التجربة. وعندما عرفتك الآن أهديتك قلبي، ويصعب أن أمنح هذا القلب لأي رجل.. أهديتك نبض أيامي، ولا أسمح أن يقتحم أيامي إلا الإنسان الذي يملأها حباً وحياة وقيمة.

وددت لو أهديتك كل دقيقة من عمري، وكل لحظة من حياتي.

وددت لو تبقى معي، وأبقى معك إلى أن تغيب الحياة.

ـ لماذا أحبك؟!

ـ أنت تحبيني: لأنك أنت أنا!

أنا أجيبك بأكثر من معناك هذا:

ـ أنت أكثر من ذلك... فعندما لا أفهم نفسي أحياناً، فأنت تشرح لي كل خفقة في قلبي، وتترجم لي حتى أنفاسي... ودائماً تكون صادقاً وحقيقياً.

ـ هل عرفت الآن.. كم أحبك؟!

ـ أحبك.. وأنت لي، شئت أم أبيت!!

❊ ❊ ❊

فقط . . . تعوّدها!

الآن. . سأقول شيئاً، ولكن. . أرجوك لا تغضب مني!

أذكر أنك ألمحت يوماً إلى هذا الشيء ونحن نتحاكى، ولكنك لم تركز عليه حوارك.

هل تذكر حوارنا، بعد أن «احتفلنا» بمرور شهر على عودة كل منا إلى الآخر، أو ـ كما أقول لك ـ على معرفتي لك؟!

كنت تبدي مخاوفك، وأنت تغلفها في عبارات ساخرة. . فقد تحدثت عن مزاجيتي، وعن محاولة خلاصي من هذه القيود التي تريد أن تضعني داخلها بأمر الحب.

يومها. . . قلت لي بحزن راعني فيك:

ـ إني أخاف عليّ. . في داخلك!

ـ سألتك بدهشة: تخاف من التي تحبها، وقد أحبتك؟!

ـ أجبتني: أخاف من شيء قد يصعّد مزاجيتك. . شيء قد يتكون في تواتر الأيام وتعاقبها بهذا الرتم المعتاد!

كنت تتكلم عن التعوّد!

وفي تلك اللحظة التي أفصحت فيها عن مخاوفك ـ تصور! ـ لم أكن أحس بما قلته عن التعوّد.. بالعكس، كنت أفتقدك وأشتاقك، وأريد أن أراك فوراً.

أكثر من ذلك ـ أعترف لك ـ أيها المجنون: كنت أشعر بحب متدفق لك يفوق كل الأيام التي مضت.. بل ويفوق اللحظات التي رأيتك فيها بعد البعاد الطويل!

تذكرت الآن تلك اللحظة التي رأيتك فيها لأول مرة بعد الفراق.. كنت أحرص أن أراك لأكتشف ما الذي تغير فيك ـ فقط ـ هل كبرت.. هل ابيض شعرك.. هل مازلت خجولاً وشيطاناً في نفس الوقت.. هل تحكي بشكل جيد، أو أنك تضطرب؟!!

أسئلة كثيرة.. وفضول أكثر، مني عنك.

وحينما طالعني وجهك حاولت أن أحدق إليه وقتاً أطول.. فوجدتك أنت الذي تحدق إلى وجهي أكثر وتجعلني اضطرب.

حاولت أن أعرف أخبارك، وماذا فعلت في كل ذلك الوقت الذي أسميته هشاً ونحن في تلك القطيعة.. فإذا أنت تفتح مغاليق نفسي، وتدفعني أن أحكي لك، وأقص عليك، وأبوح، وأبثك كل شجوني!

لكن اسمع ـ ها ـ لا تظن أنك ببراعتك استطعت أن تجعلني أحكي.. أنا التي. أردت ذلك.. شعرت أنك تريحني، أو أن كلامي معك ولك يغسلني من غبار كل الزمن الذي مضى وركضت فيه، وتغربت، وتقافزت، وانطلقت، وعانيت.

فكيف يخطر على بالك الآن أنني بدأت أسأم منك، أو تعودت عليك؟!

عندما أشعر بذلك حقيقة.. صدقني لن أتردد أن أصارحك، فأقول لك: أنا خلاص زهقت منك!

استرجع عبارتك الضاحكة، ونحن نسعد بلحظة عفوية معاً.. فقد قلت:

ـ لقد عدنا، والعود أنت وأنا.. الآن أصبح «العَوْد» ليس كما جاء في المثل، وإنما نبتكر صيغة أخرى، العود يتكون من حرف اسمك الأول، وحرف اسمي الأول!

على فكرة.. أنت بجد مجنون، وهذا رأي فيك!

ولكنه جنون أحبه.. حتى وأنت تعلق على كلامي لك، فتقول:

ـ أرجوك.. إذا زهقت مني، إبعثي لي «برقية» عاجلة.. لأنني حينذاك سأموت بخبر الرسائل التي يؤخرها البريد!

ـ أجبتك وأنا أقهقه: حيل الله أقوى.. حتى «البرقية» ستكون بطيئة إذا ما قيست بسرعة زهقي، لو أنني زهقت منك.. لكن، لماذا تتوقع حدوث ذلك مني؟!

ـ قلت لي: أنا لا أتوقع.. أعرف عمق حبك إذا أحببت، لكني أخاف ـ كما قلت لك ـ من مزاجيتك، وأخاف أكثر من تضخم شعور التعود في أعماقك!

إسمع يا راحتي!!

حين أكون وحدي.. أفكر فيك.. أقول لنفسي باحتجاج غير غاضب ولكنه مندهش:

ـ أنت أصبحت تستعبد حرية مشاعري، وتأسر وقتي.. وأنا لـم أتعود على هذه القيود، حتى لو كانت من حرير، أو من خفق ونبض!

فكيف تفكر بهذه الطريقة.. ولماذا.. وما الذي بدر مني؟!

سألتك.. وأنت تفاجئني بإحساسك الجديد هذا:

ـ قل لي.. هل من الممكن أن يقتل التعوُّد حباً كبيراً؟!

ـ أجبتني بحزن أيضاً: ربما.. فأنت صاحبة مزاج، وقد صارحتني بذلك!

ـ المزاج قد يطغى في لحظة.. في تصرف عابر.. في حالة نفسية، لكنه لن يقوى على تبديل المشاعر بهذه السهولة.. خاصة عندما ترسخ هذه المشاعر وتكبر، وتصبح حياة أحياها معك.

مازلت تجادلني.. كأنك تصر على إثبات شيء لم يولد في نفسي.

ـ قلت لي: لكنك قد تسقطين في الملل، وذلك يؤدي بك إلى الإحساس بتعودك علي.. بما يعني: الملل، واستمرار الحياة على وتيرة واحدة!

ضحكت بعد الدهشة.. أو لا بد لي أن أضحك، لأنك كثير الظنون!

دهشتي كانت لأنك تثق في نفسك.. وهذا الخوف لا ينسجم مع ثقة الإنسان بنفسه، فكيف إذا كانت الثقة حباً حقيقياً؟!

واحترت... كيف أرد عليك، أو أدحض أوهامك؟!

هناك كلمة واحدة.. حبيبة إلي، أنت ترددها كلما سقط الصمت بين

صوتينا، ونحن نتحاور لتواصل الكلام بها، أو لتجعلها مدخلاً آخر لحديث يطول!

يأتيني صوتك قائلاً:

ـ أقول؟!..

ـ ودائماً أجيبك بعفوية: نعم!

ـ فترد هامساً: أحبك!

فهل يولد «التعود» بهذه الفواصل التي تفعلها معي مثل لمسة الكهرباء، فترعشني؟!

لا أدري... كيف استقر في ذهنك هذا الخاطر؟!

هل كنت تريدني أن أصفعك ـ مثلاً ـ لتفيق؟!

أم تريدني أردد في سمعك باستمرار كلمات الحب.. لتتأكد أنني مجنونة بك، أو منشغلة بالتفكير فيك؟!

ـ هل أنت مراهق يا حبيبي؟!

ـ وهل أنت كمبيوتر يا حبيبتي؟!

تسألني... وأنت تعلم أنني لست غابة شتائية.. فكثيراً ما وصفتني بالنخلة!

هل مطلوب مني ـ في كل وقت ولحظة ـ أن أنسج لك كلمات حب صوتك، لأثبت لك أن حبي لم يسقط في برودة التعود؟!

ومن أين جاءك هذا الإحساس؟!

سألتك بعد صمت.. فماذا بك تجيب بصوت يفيض شجناً:

ـ أقول لك: عندما التقينا من جديد، كنت ألحظ اللهفة منك علي، كنت أنت التي تسألين عني وتتابعينني.. أحس أن صوتك كان يفيض فرحاً، وشوقاً، ودفئاً، وحيوية.. حتى عملي، لم أكن أجد الوقت الذي أؤديه فيه، لأن صوتك لا يغيب عن سمعي، وسؤالك عني متواصل.. كنت لا تحادثين أحداً غيري، والآن.. تنتظرين صوتاً آخر غير صوتي، أو على الأقل تمنحينه نفس الوقت، ونفس الاهتمام!

ـ «ها... وهالحين، إيش صار»؟!

ـ يخيل إليّ أنك قد مللت مني، أو أن سماحك لنفسك بأن تقبلي علي، كان مجرد...

قاطعتك وكأنني شعرت بالتوتر. لا.. بل متوترة من حين بدأت كلامك عن التعود.. وقلت لك:

ـ «كان إيه؟.. تقصد أنه مجرد تسلية»؟!

ـ لا... لقد تجاورنا مؤقتية التسلية، ولكن.. قد يكون مجرد فورة عاطفية، ما لبثت أن هدأت، وقد يكون انتهاء لرغبة اكتشافك لمعرفة ما الذي تغير في، فقط!

ـ «ها.. ها، أقول يا حبيبي، يا أهبل»..

ـ نعم.. يا حياة الأهبل!

ـ أسألك: «أنت آخذ موقف مني اليوم.. وليه»؟!

ـ موقفي منك دائماً. وإلى الأبد.. هو أنني أحبك.

ـ «كلامك يلخبطني.. أكيد أنك جايب هذا الكلام من تصرف عملته معك البارحة، أو قبل أمس، أكيد قلت لك كلام سخيف ما عدت أذكره الآن، لكني أرجوك.. لا تستغل ضعفي معك، لا تمثل علي. أخبرني.. أنا قلت شيء البارحة؟ أحياناً أنا أقول كلام وما أقصده، ويكون بسبب اشتياقي لك، أو ندائي عليك.. لما ما ألاقيك معي، وأنا ودي بك»!

أنت لا تحبني، وإلاَّ... ما سمحت لظنونك وهواجسك أنها تتهمني بهذه الفظاعة!

أنا أريد منك الحب فقط... أن تحبني وحدي!

لا يهم أن تعتبرها أنانية.. أنت قلت: إن الحب أناني.

لا تأخذ كلامي حينما أكون متضايقة على أنه «تصريحات» أو «وثائق عاطفية» من فضلك.

* * *

جلست أفكر في مخاوفك التي صارحتني بها.. كان الوقت حوالي الثالثة بعد منتصف الليل. أزحت ستارة النافذة.. رأيت الشجرة المواجهة دائماً لنافذتي، كانت أغصانها تتمايل، والنسمة تداعبها خفيفة.. وكأنني أرى هذه الشجرة لأول مرة وهي في حديقة بيتي!

أعجبت بالشجرة لحظتها.. لأن الدنيا كلها كانت تعجبني حينذاك!

لقد هدأت من التوتر، وفكرت في مخاوفك.. لماذا تخاف؟!

ـ أجبت نفسي: لأنك تحبني بالفعل.. ولكن، كيف أقنعك بحبي لك؟!

ـ سألت نفسي أيضاً: هل صحيح ما لاحظته أنت، أم تراك شديد الحساسية إلى درجة أنك تظن بي كل هذه الظنون؟!

ـ أوه. . . لماذا أفكر؟!

بل خطر لي أن أدعك «تُروِّج» في داخلك هذه الظنون لتفكر بي أكثر. . لتُحبّني فوق طاقتك!

ولكن. . . خطر لي ـ في نتيجة عكسية ـ لو أنك صدقت أنني حسب تعبيرك قد سقطت في التعود على حبك وعليك، وبالتالي. . مللت منك، ألا تيأس، أو تنسحب من حياتي كرد فعل؟!

صارحتك من قبل. وقلت لك: عندما أسأم منك ستكتشف ذلك من تصرفاتي، وليس من استرخائي. . فأنا لم أكن أشكو من الملل، بل من التعب!

ربما تعبت منك. . حبك وركضي معك سببا لي تعباً، ولذلك. . أحاول أن أهرب منك، ومن نفسي التي احتوتك، واحتفظت بك في أعماقها. . أحاول أن أتناساك فأنشغل بأشياء سخيفة، أو بمسؤولياتي العديدة، ، أو بصديقاتي، أو حتى بالنوم. . حتى أرتاح منك قليلاً!

كنت أقول لك: الحب غير موجود. ما يحدث بين الناس هو علاقة، أو رغبة، أو إعجاب. . ما يلبث ذلك كله أن ينتهي بالأخذ، أو بالامتلاء، أو بالملل. صحيح. . قلت لك!

لكني معك. . صرت أشعر كلما التقينا أننا نمنح أصدق ما نحسه، وأن تطلعي إليك فيه بحث عن الحب الأنبل الذي يبقيك معي، ويبقيني معك إلى انتهاء الحياة!

لا أنسى أنك قلت لي:

ـ أنتِ الوحيدة التي زرعت غرسة الحب في تربة نفسي.

أنا مللت منك... لكنه الملل من الظنون.

أنا تعودت عليك.. إلى درجة أنني لا أطيق أن يبعد كل منا عن الآخر.

عندما أسأم منك، فتأكد أنني ـ لحظتها ـ سأعلن نسياني لك، وأنصب خيام راحتي بعيداً عن رياحك وأعاصيرك، وحتى بعيداً عن أمطارك!! خلاص... «تراك مصَّختها»، ولكن... أنا أحبك!

* * *

فقط. . . ليلنا!

رأيتك البارحة شريداً. . تبدو كأنك في مطلع الخريف!

تبدو حزيناً، غائماً، حيث كل الأشياء في داخلك تميل إلى الصمت، أو إلى الرحيل!

تبدو بدون حلم. . حيث تحديقك الذي يمطر وجهي ـ كما عودتني ـ بالتأمل، وبالقراءة لأعماقي. . قد اضطرب، وتبعثر في كل هذا اللامدى الممتد. . فشعرت أن وجهي قد ضاع مني، لأنك جعلتني أجد وجهي دائماً في عينيك. . أكتشف وطن وجهي في نظرتك التي تتأمله كلما التقينا.

كأنك لا تريد أن تنظر إلى وجهي هذه الليلة.

ـ لماذا تشيح بوجهك عن وجهي؟!

سألتك. . فلم تجب.

ـ هل ارتكبت ضدك فعلاً أغضبك؟!

أعدت السؤال. . فلم تلتفت!

حدقت إلى وجهك. لا. . بل إلى جانب وجهك، أما بقية ملامحك. . فقد أخذتها مني بعيداً، بعيداً!

ـ إلامَ تحدق.. فيم تفكر؟!

طرحت عليك السؤال، لم يجبني صوتك.. أعطيتني ملامحك، فرأيتها غاضبة، متوترة.. كأنك لا ترغب أن تتطلع إلى وجهي!

ـ «لا الله يا الدنيا»!

همست بهذه العبارة قريباً من سمعك. كأنك لم تسمع.

لم تكن أنت.

رأيت نفسي بجانبك.. دون سنوات نضجي، دون طفولة حبي لك، دون ذلك المرح الذي ينثر فرحنا بين أضلعنا مثل غيث الربيع.. كلما جمعنا الشوق معاً!

رأيتك تدفعني إلى الاضطرار لأن أفعل شيئاً يختلف تماماً عن كل الذي تعودته أنت من تصرفات شخصيتي معك!

لم أتعود أستعطفك عندما تغضب، ولا أستعطف أي إنسان!

لم أعوّدك على رقة تحلم أنت أن تفيض مني إليك.. حتى إنك تصفني أحياناً بالقسوة. وأسأل نفسي ـ بعد وصفك هذا ـ مرددة في حيرة:

ـ هل صحيح أنني أشح حناني معك؟!

هل أنا إنسانة تبدو غير طبيعية أحياناً.. إلى درجة التعامل معك بتصرفات غريبة؟!

ربما يحدث ذلك أحياناً، لكني ألوم نفسي، وأشعر بضيق شديد، كلما عرفت أنني أغضبتك، أو آلمتك.. وهذا يحدث مني معك أنت وحدك فقط!

قد أبدو غير مبالية مع الكثير، وحتى مع صديقاتي أحياناً.. ولكني حين أفتعل هذه اللامبالاة معك، أعود إليك متقربة.. أحاول أن أرضيك!

هذه الليلة تختلف!

لم أحتمل غضبتك، ثم سقوطك في التوتر الملحوظ.. ولا حتى كثافة الحزن التي غمرت وجهك!

أشعر أن هذه الليلة بالذات، هي «ليلنا» كله.. منذ أن رأيتك، وعرفتك.. وحتى أثناء هروبي منك، وبعد أن جمعتنا العودة إلى التوحد، واللقاء.

هذه الليلة تختلف عن كل الليالي التي امتزجنا فيها، وتعارفنا أكثر، وتكاملت فيها مشاعرنا العميقة!

أشعر في هذه الليلة بأني أحبك بكل ذرة في وجداني وكياني.. مثلما أحببت أرضي، وانتمائي، وعمري!

ضحكت منك، وأنت تقول لي في الليلة الماضية:

ـ أصدقيني.. من تحبين، أنا.. أم رجل آخر صارحتني مرة بأن صوته الهادئ العميق يجذبك، ويشدك حزنه الذي يجسد نبله، وتعجبك معرفته!

ـ قلت لك: لا أنكر ما قلت.. لكني أحبك أنت وحدك!

عدت إلى مشاكستي، وسألتني.

ـ أصدقيني مرة أخيرة.. ألم تحاولي ولو للحظة أن تقارني بين شخصيته وشخصيتي؟!

تنبهت إلى سؤالك.. ربما حدث ذلك، لا أدري!

لكني بعد أن تيقنت من حبي لك.. بعد أن ارتبطنا، وتوحدنا، وصرت لا أطيق بعدك عني.. لم أعد مطلقاً إلى تلك المحاولة.

أنت تختلف عنه!!

أعترف لك.. كلاكما لا يشبه أحداً، ولا أحد يشبه الآخر!

هل تراك غضبت من كلمتي هذه؟

لعلك ـ لحظتها ـ في مساء الأمس، قد أردت تجاوز اعترافي، فابتسمت، ثم قلت لي بإصرار:

ـ أجيبي عن سؤالي: من تحبين؟!

ابتسمت.. تجولت ابتسامتي في حدقتيك، وأجبتك:

ـ تريد أن تعرف؟ أنا أحب أنا. أي أحب شخصي ونفسي!

أكيد أنك احتسبت إجابتي هذه في نفسك بأنها هروب من سؤالك، برغم أنك وصفتني مرة بأنني أنانية!

لا عليك.. لكن شرودك وغضبك هذه الليلة يشدني إليك أكثر.. يجعلني مختلفة عن طبيعتي «العاطفية» التي تعودت عليها مني!

اقتربت منك، جذبتك إلي.. أحاول أن أطري أعصابك.. أن أجعلك تنفث غضبك وترتاح!

كنت تبدو متجهماً، صلباً، عنيداً، متوتراً.. لا تريد أن ترضى.

وسَّدْت رأسي فوق كتفك، وهمست في أذنك:

ـ يا عيوني لا تغضب.. هل يرضيك أن أؤكد لك أنك لم تعد في عمري «أي رجل»؟!

وجدتك متشدداً.. ولكني لمحت دمعة تحتار في عينيك، وتصدها بقسوة.

ـ قلت لك: تكلم.. إذا أردت أن تشتمني فافعل ولن أحتج. اضربني إن أردت!

أخذت كفك وقبلتها، وضربت بها خدي!

لم أكن أنا.. هذه الليلة!

اندهشت أن أفعل معك هذا كله.. فعندي استعلاء لو عاملت به أحداً، فلا بد أن يغتاظ، أو تصعب عليه نفسه، ولكني أعرف لمن أوجه هذا الاستعلاء.. فهناك من يستحقه ليعرف حجمه.

أنا لست مغرورة.. ولكني أجيد قراءة نفوس الآخرين!

ـ قلت لك مراراً: أنت وحدك الذي تمكنت أن تقرأ نفسيتي، وأن تراني من الداخل، أن تعري أعماقي!

ـ أجبتني يومها: لو كان ما تقولينه صحيحاً.. فتأكدي أنني اكتشفت في أعماقك إنسانة رائعة، باهرة، جذابة، متميزة.. لكنك تحتاجين ـ فقط ـ لمن يفهمك.

أنت فهمتني جيداً، وعرفت أشياء كثيرة عني ومني لم أسمح لأحد أن يطلع عليها!

والسبب؟!

إنني ارتحت إليك في البدء. ووجدت فيك ما يتوحد بأشياء كثيرة في،

وأحببتك بهدوء.. حتى إذا عدت إليّ مجدداً، فوجئت أنك تفتح ذاكرتي، وتوقظ مشاعري، وتُشعل حرائقي، وتضيء شموعي في آن واحد!

أحببتك، وترددت أن أعترف لك بحبي!

لأنني وثقت من حبك لي.. تأكد عندي أنك تحبني، وخفت!

أخافني حبك.. وصرت أردد بين نفسي، وفي إصغائك لي:

ـ يا خوفي من هذا الحب.. ماذا بعده؟!

ـ سألتني: ولماذا تخافين؟!

ـ أجبتك: لو كرهتني بعد هذا الحب الجامح.. كيف ستكون كراهيتك. ما هي طريقتك لنسياني. في أي شعور لديك سأستقر، أو أهوى وأتلاشى؟!...

انثالت كل هذه الأفكار والصور، وأنت بجانبي شارد، تشيح وجهك عني.

كنت أحدق إلى البحر الممتد أمامنا، وقد أوغل الليل بعد منتصفه، وبقيت هذه الأمواج البيضاء الهينة التي تدفعها الريح مع ماء البحر من المنتصف حتى ترتطم بالشبج فتفقد بياضها!

لا أدري.. لماذا تصورت مشاعر الإنسان مثل هذه الموجة البيضاء التي تندفع مسرعة من البعيد، ثم تتلاشى تحت أقدام الشاطئ: باردة، وتغيب! ذلك هو الذي أخافني من اندفاع حبك معي وإليّ.

أريدك موجة عنيفة، بيضاء ناصعة.. تستمر ولا تتوقف اندفاعتها، ولا تنطلق إلى شاطئ ترتطم وتتكسر عنده.

اختلفنا كثيراً، وتصالحنا بسرعة. . لأن الحب يتقد ولا يخبو!

ترى. . . كيف نتصالح حينما نختلف بعد ذلك في اعتيادية الحب، أو برودته؟!

هل تصالحني بنفس هذه السرعة التي يبادر كل منا فيها إلى الآخر، ويحتضنه، و يصالحه؟!

أم. . هل ينتظر كل واحد منا الآخر ـ فيما بعد ـ ليبدأ هو بمصالحة رفيقه؟!

أم تراك لا تهتم. . . فيكون غيابي عنك انفكاكاً من قيد أسر حياتك وقلبك؟!

أسئلة باتت تخيفني في هذه الليالي، خاصة بعد شعوري بأنك حينما وثقت من حبي لك. . بدأت تأخذ زمام المبادرة بالخصام والغضب. . لأصالحك؟!

لا تفكر أنني لمت نفسي لما احتضنتك، وامتصصت غضبتك. . بالعكس، كنت سعيدة لأنك تغار علي بهذا الحماس والغضب. سعيدة لأنني أريد أن أصالحك!

أنا أيضاً صرت أغار عليك. . عندما أسمع من تتحدث عنك أكرهها، لا أطيق أن أتقبل ذلك المعنى في الأغنية المشهورة لأم كلثوم: «ولما أشوف حد يحبك. . يحلا لي أجيب سيرتك وياه»!

أنا أريدك وحدي. . . هل فهمت؟!

أريد منك أيضاً أن تذيب من داخلي الشعور بأنني سأفقدك يوماً ما.

ولكن. . . كيف نُعرّف الحب. . ما هو، وكيف نحافظ عليه؟!

ذكرتني بعبارة قالها «ريلكه» كقصيدة شعر:

ـ «لا الآلام معروفة. . ولا الحب!

ولا ما يبعدنا عن الموت. . معروف»!

لكني معك. . أريد أن أردد شطراً من قصيدة أخرى لشاعر غربي، سنغنيها معاً، ونردد:

ـ «أتمنى أن أعلّم العالم. .

كيف يغني بنغمة رائعة»!

الذين يحبون. . هم الذين يبدعون الأنغام الجميلة المتناسقة، وأنت في حياتي هذه الأنغام، وأنا أيضاً في حياتك أروع نغم.

أنت قلت لي ذلك.

ـ الآن أسألك: كيف تملأ هذا الليل نغمة رائعة؟!

ها أنا أضم إلى صدري تناقضاتك: فرحك وحزنك، طفولتك وخريفك، جنونك وتأملاتك، صفاءك وقلقك. . فهذا هو الحب.

أبقى أنا ـ حبيبة ـ في عينيك. . طوال العمر!

* * *

أنت تبكي الآن. طفرت. من عينيك دمعة الخلاص من الغضب والألم.

ـ يا حبيبي. . . لماذا نتعذب معاً بحبنا، والحب خلاص وفرح، وقيمة؟! طوقت كتفي بذراعك، وعاد تحديقك الحبيب إلى وجهي.

سرى صوتك في ليلنا الساجي يعلن ميلاداً آخر. . إرواء لتخيلنا العطشان، قلت لي:

ـ أنا أحبك!

ـ همست لك بسؤالي الدائم: بتحبني ليه؟!

ـ قلت لي: لأنك. . قدري الأجمل!

* * *

فقط... الموت!

الليل.............

هذا هو موعدنا الحقيقي مع الحياة، ومع الإحساس بالوجود.

هو ـ أيضاً ـ تربة أجمل أحلامنا.. نغرس في ساعاته: اللحظات الشذية العبقة في عمرينا ـ أنت وأنا ـ ونتوهج، وننسكب، ونبوح ونصدق، ونتحول إلى طفلين ـ يسبقان ظلهما ـ كما تقول الأغنية الكلثومية!

حبيبي.. يا تهمتي الجميلة، عمري.. أنت:

هل كنا نواصل حلماً بالألوان، فنركض لأننا نخاف أن تأتي نهايته مروعة؟! أفكر في الأيام التي مضت قريباً.. كنا فيها لا نطيق البعاد، إذا غبت عني اشتقت إليك، وإذا لم ترني فإنك تتحول إلى متوتر، وعصبي.. لا تطيق من تعمل معهم، ولا تلذ لك الحياة!

لذلك... لا نكاد نفترق، وإذا التقينا ألاحظ عليك التوجس من شيء غير محدد.. كأنك تخاف أن يسرقني منك أحد، أو أحب أحداً غيرك!

تردد أصداء صوتك من الأعماق.. أعماقي وأعماق الحياة.. أسمعك تناديني:

ـ حبيبتي، سيدتي، يا أنا:

لماذا يخاف الناس، ويتوجسون.. فيعتقدون أن زمان الحب قصير؟!

عندما وجدتك ثانية ـ بعد قطيعتك لي ـ عانيت من تناقض فكرتي عن الحياة وإقبالنا عليها.

عندما عُدتِ إليَّ.. أحببت الحياة من جديد. كرهت أن أموت فجأة، أو بمرض، وقد كنت أنا في غربتك بعيداً عني وفي شعوري بضياعك مني: أغازل الموت، أتمناه... فالحياة كانت بدونك تصفر فيها الريح، باهتة، لا طعم لها ولا لون!

وعندما تبلورت أحلامنا إلى واقع، ولمست في أعماقي حبي الأكبر لك. لم أكره الحياة ولكني صرت أخاف الفقد لك من جديد، ولذلك تمنيت الموت أيضاً.. حتى لا أشهد لحظة تودعينني فيها، أو تفرين مني، أو... حتى لا يقف الملل حائلاً بين نبضي ونبضك وتسأمين مني، أو أن كل حلمي قد تجمّع دفعة واحدة في رغبة أثيرة عندي، وهي: أن أموت فوراً... بعد أن وجدتك وقرت عيناي، وبعد أن ملأني حبك فرحاً وحياة.. وأن يكون موتي ـ المطلوب مني! ـ استراحة رأسي على صدرك، وإغماضة عيني على وجهك، واحتواء برودة موتي في دفء كفيك.. ثم أشهق كأنني أغني!...

الليل أتى يا حبيبي... وقد تحقق حلمك أنت!

في موعدنا مع توهج القلب، واشتعال النفس حباً.. يأتيني صوتك الآن!

ـ هل تراك قد «مت» بالفعل... وكيف؟!

أكاد لا أصدق... فهنا عطرك. هنا بقايا تبغك. هنا ـ في ركن هذه الكنبة المستطيلة التي أحدق إليها الآن ـ أراك في جلستك المعتادة.. في

حركتك الدائمة التي لا تهدأ، ولكني أرى مقعد «الكنبة» غائراً، كأنه حفرة عميقة. .

لن يسمح لأحد غيرك أن يجلس فيه!

عندما تأكد حبك لي. . رحلت!

عندما تأكد عندك حبي لك. . رحلت!

فلماذا نفقد ما نريد. . . في لحظة اكتشافنا لحاجتنا إليه؟!

لا أصدق موتك ـ المفاجئ ـ هذا. . مثلما كنت لا أصدق أن حبك لي هو بهذا العمق والتدفق والصدق!

هل تذكر استفزازي الدائم لك. . حين كنت تسألني مازحاً، أو مشككاً، فتقول لي:

ـ لو اختطفني الموت منك فجأة. . ماذا ستفعلين، هل تبكين علي، هل تحزنين فوق الحزن نفسه، وكيف ستطيقين الحياة بعدي؟!

كنت أصغي إلى سؤالك الذي أصفه مثلك بالجنون، وأقهقه إمعاناً في استفزازك، ثم أجيبك بنبرة غير مبالية:

ـ ولماذا أبكي عليك؟ قد يعزيني الحزن لمدة دقائق، لدقيقة. . ولكني بعد ذلك سأعيش حياتي المعتادة: أخرج وألبي الدعوات، وأتزين، وأسافر. . أمارس حياتي.

كنت أحس بحزن يفيض من عينيك دون أن تعلق. . ثم ما ألبث أن أشدك إلي، وأحتويك وأسكن إليك مطمئنة وادعة كعصفور التجأ إلى عشه من الريح والمطر!

تذكرت عبارتك لي ـ في الليل الذي تضيئه لقاءاتنا ـ حين قلت:

ـ لا تنس العبارة المشهورة: «أكون.. أو لا أكون».. إنني هكذا دوماً بكل مقوماتي، وبكل عواطفي أيضاً معك، ولو عرفت الآن أنك تحبين رجلاً غيري.. فقد أموت حزناً، لأنني لا أتصوّر أن أخسرك ثانية.. بعد ذلك العذاب الطويل في بعادك عني

❊ ❊ ❊

دعني أسألك في الموت:

ـ ترى... هل كان ما بيننا مجرد حلم شاعري، رومانسي.. ثم أيقظني منه سطوع الشمس؟!

ليته كذلك... بشرط أن يستمر بلا موت، أو بلا سأم!

يأسرني هذا الليل ويأخذني إلى ضفاف ممتدة نحو اللامدى.. فأراك هذه اللحظة كياناً مجسداً.. تبعث الحياة في أيامي وعمري، حتى نبدو معاً: نغماً متواصلاً حبيباً!

ترتعش أصابع يدي.. يشتعل كفي، وأنا أحس بدفء يديك اللتين دامتا طويلاً غطاء لكفي، ووشاحاً يدثر كتفي.

أزيح ستارة غرفتي، لأرى الليل وشاحاً أكبر من السواد يجلل زمني.

أحدق إلى البعيد، واسترجع النظر وهو حسير.

وهذا القمر الصحراوي الذي كان هامة لنخلة، طالما وقفنا تحتها أوقاتاً كثيرة.. إذا هو الآن قمر ثلجي، شديد البياض، شديد البرودة في رحيلك! لماذا رحلت وحدك؟!

لماذا عدت إليك . . لأفتقدك؟!

أتطلع إلى النجوم المنثورة في أرجاء السماء الرحبة . . إنها تجمّع لي الآن حكاية عمر تجزّأ، وحكاية حب كان يركض بنا نحو المجهول . . وكنا سعداء بأن تبقى الحياة مجهولاً عندما لا نلتقي، ويصير المجهول واقعاً جميلاً، وضوءاً، وجنوناً، ومعرفة . . عندما يضمنا زمننا القصير هذا الذي نسميه: الليل!

أستمد من النجوم رجع حكايتنا . . منذ أول نبرة تلقاها سمعي من صوتك، وكان ذلك قبل عشرة أعوام . . منذ أول نظرة غرست في صدرك خفقة الحب الأصيل الذي عجزت أن تئده أو تتحرر منه طوال الزمن الهش الذي انفصلت فيه عنك!

فهل مازلت تذكر أول نظرة؟!

كانت بدءاً لحلم جاوز التزامات الواقع كثيراً، وأحياناً معاً.

كان الوقت ليلاً . . عندما احتوتنا الصحراء الساكنة ـ المتكلمة بوجيب القلوب.

لحظتها . . . كنت أصر أن أحدق إلى وجهك الطالع في عيني لأول مرة.

أنت الذي وصفت لي «الليل الأول» ذلك . . فقلت:

ـ كان القمر الساطع الذي ملأ رحابة الصحراء، وامتزج ضوؤه بسكونها ـ الهيبة، قد انعكس على ملامح وجهك الأكثر سطوعاً . . خلت أن النسمة الصحراوية زغاريد بين جوانحي، وقبل هذا الدخول إلى صمت الصحراء . . كانت أضواء شوارع المدينة التي تخطيناها بسرعة تزغرد أيضاً في لحظة اتحادنا بالنسمة، وبضوء القمر، وبجلال الصحراء.

تناثرت أسئلة عديدة منك إلي.. وكبحت أجوبة عديدة أردت أن أؤجِّلها لما بعد رؤيتي لأعماقك.

صوتك يأتيني الآن حبيباً.. يردد كلماتك الآيبة من سنوات بعيدة ضوئية... سنوات «الليل الأول» وأنت تقول:

ـ عندما طالعني وجهك البشارة لأول مرة. أضاءت جوانحي. صفقت ضلوعي. عثرت في تلك اللحظة على المرأة التي طالما تمنيت أن أناديها: «حبيبتي».. وطالما فتشت عنها بكل سنوات عمري التي تغذ بي إلى النضج، وامتلاك الرؤية»!

مازال صوتك يأتيني.. فأتفتح كزهرة، وأنت تقول لي:

ـ «في عينيك أمرع الفرح.. وفي صدري تمدد الحزن، فلم أكن حينذاك أستطيع أن استحوذ على عمرك لي وحدي»!

* * *

أول مرة رأيتُكَ فيها.. كنتُ «سندريللا» التي تبحث عن عصر جديد.. عن مملكة تقف في بهائها.. وهي تملك كل شيء.. حتى الأحلام!

لم تكن حياتي أحلاماً.. بل واقعاً أصبغه بالحلم.

الأحلام ـ يا حبيبي ـ يطلعها الحب، ولم تكن أنت يومها في ذلك «الليل الأول» حلمي.. لم أجد فيك حينذاك «الحلم» الذي يطلعه الحب، ولكنك أنت القادم إلي.. قد حفلت نظرتك نحوي بألوان قزحية من الأحلام.. بينما كنت أرى فيك تجربة مبدئية.. مجرد تجربة، ما ألبث أن أقذف بها إلى الذكرى لكني بعد ذلك «الليل الأول» انتظرت ليلاً آخر فعالاً.. يضيء جوانحي، وتشعله الأحلام. حتى امتدت بي مشاوير الحياة ـ طولاً

وعرضاً ـ ومنحت منها ما أردت، وما لم أرد.. مما صغته بعد ذلك ليتلاءم مع رضائي عن الحياة، واقتناص لحظات الفرح، والأحلام!

وركضت بالحياة.. وركض بي العمر!

وهدأت... استقررت في حاجر الليل، أبحث عن حلم قديم لم أتبين ملامحه في نهدة العمر، وما حسبته هو «الحلم» الذي يملأ أيامي بالمعاني.

أفرغت ذلك الاستقرار البليد في: الرسم. في القراءة. في الموسيقى. في تذوق الشعر. في السخرية من التناقضات.. وحتى من نفسي أحياناً عندما أكون وحدي!

كان ذلك كله موتاً بليداً.. بينما كنت أفتش عن الموت الذي يبعث الحياة.. الموت في فكرة. الموت في حب غامر. الموت فيك حتى آخر خفقة!

اضطربت، تخلخلت... اكتشفت أنني أريدك وحدك بعد كل ذلك الركض!

وأنك لا بد أن تريدني ـ وحدي ـ بكل غربتك الطويلة!

أريد أن أموت، ولكن.. أموت فيك!

أردتك أن تموت، ولكن.. تموت فيّ أنا وحدي لتشعر بجمال الحياة!

وهذا هو الموت الذي يصوغ حياة الأحلام والأماني والمعاني.

وحين أتيت.. انبعث في حياتي هذا «الليل الآخر».. الذي يضيء ويشعل أحلامي. لا.. بل أحلامنا ـ أنت وأنا ـ!

لقد عثرت عليك، وأنت في الرمق الأخير!

وجدتك تموت أنت الآخر بالاعتياد، وتموت بالعبث وبالضياع، وتموت باليأس دون العثور عليّ!

وفي هذا «الليل الآخر».. سألتني لأول مرة:

ـ لماذا تأخرت كثيراً؟!

أجبتك: لأنك أنت أيضاً بعدت عني كثيراً.. ولم تحاول أن تناديني مباشرة!

ـ قلت لي: لقد كان ابتعاد اليأس.. ولم تحاولي أن تناديني مباشرة!

ـ سألتك: والآن؟!

ـ أجبتني: أما الآن.. فدعينا نبني ـ بالليل ـ جداراً يصد الفراق. دعينا نغرس بذرة الحب الأقوى في حقل لا ينبت منه إلا وجهك ووجهي. دعينا لا نفترق!

أسرني الصمت.. كأنني أفكر في الغد.. كأنني لم أتأكد بعد من حبك لي.. كأنني لا أضمن المجهول الذي نتطلع أن يتجسد واقعاً جميلاً. وضوءاً، وجنوناً، ومعرفة لحياتنا معاً!

فكيف نفترق يا عمري؟!

هل تذكر عندما قلت لك:

ـ لا أرجوك أن لا تموت الآن... إذا كنت ستموت أجِّل موتك إلى الوقت الذي أكرهك فيه»!

فمن قال لك إنني كرهتك؟!

ـ قلت لي: أعدك بأن لا أموت.. وأنت تعدينني أن لا تكرهيني!

لكنك ـ يا للأسى ـ لم تف بوعدك!!